

مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد التاسع والعشرون

شوال ١٤٣٤ هـ

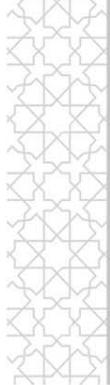


عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

رقم الإيداع: ٣٥٦٣ / ١٤٢٩ / ١٩ بتاريخ ١٤٢٩ / ٠٦ / ١٩
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ - ١٦٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المشرف العام

معالٰي الأستاذ الدكتور / سليمان بن عبد الله أبو الخيل

مدير الجامعة

نائب المشرف العام

الأستاذ الدكتور / فهد بن عبد العزيز العسكر

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور / أحمد بن عبد الله السالم

وكيل الجامعة لشؤون الطالبات

مدير التحرير

الدكتور / رعد بن عبد الله التركي

وكيل عمادة البحث العلمي لشؤون الثقافية

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. أحمد محمد علي

الأستاذ في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر

أ.د. خالد بن محمد الجدوع

الأستاذ في قسم الأدب بكلية اللغة العربية

أ.د. سيف بن عبدالرحمن العريفي

الأستاذ في قسم النحو والصرف بكلية اللغة العربية

أ.د. شكري عز الدين المبخوت

عميد كلية الآداب في جامعة منوبة بتونس

أ.د. عبدالعزيز بن إبراهيم العصيلي

عميد معهد تعلم اللغة العربية

أ.د. محمد عبد الرحمن خطابي

الأستاذ في جامعة ابن زهر في أغادير بال المغرب

د. هشام عبدالعزيز محمد الشرقاوي

أمين تحرير مجلات الجامعة - عمادة البحث العلمي

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة.
تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .
- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتمدة في مجده.
- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخرج .
- أن يتسم بالسلامة اللغوية .
- ألا يكون قد سبق نشره .
- ألا يكون مستلماً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه،
أو لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية(مختصرة) وإقراراً
يتضمن امتلاكه الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم
نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .
- أن يكون البحث في حدود (٥٠) صفحة مقاس (A ٤) .
- أن يكون حجم المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش حجم (١٤)
وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرداً) .
- يقدم الباحث نسخة مطبوعة من البحث، ونسخة حاسوبية مع ملخص
باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة .

ثالثاً: التوثيق :

- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .



- ٢- تثبيت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .
 - ٣- توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .
 - ٤- ترقق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .
- رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العلم متوفى .
- خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .
- سادساً : تُحَكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.
- سابعاً : تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .
- ثامناً : لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر.
- تاسعاً : يُعطى الباحث خمس نسخ من المجلة، وعشرين مستلة من بحثه.
- عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم العربية

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٩٠٢٦١ - ناسوخ (فاكس)

www.imamu.edu.sa

E.mail: journal@imamu.edu.sa

المحتويات

١٣	أسلوب الحقيقة بين النظرية والتطبيق د. أحمد فريد أبو سالم
٨٥	الجوهري قارئاً لسيبوه د. بدر بن محمد بن عباد الجابري
١٤٧	الدلالة الترتكيبية في سورة الفتح د. حمدي صلاح الهدед
٢٠٣	الضوابط اللغوية للصياغة القانونية سليمان بن عبدالعزيز العيوني
٢٤٧	كاتب السلطان ”قراءة في أصول الصنعة“ د. سعد بن عبدالرحمن العريفي

أسلوب الحقيقة بين النظرية والتطبيق

د. أحمد فريد أبو سالم

كلية المجتمع - قسم الآداب والتربية

جامعة الملك سعود



أسلوب الحقيقة بين النظرية والتطبيق

د. أحمد فريد أبو سالم

كلية المجتمع – قسم الآداب وال التربية – جامعة الملك سعود

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث قضية ذات صيتها في التراث البلاعجي عند القدماء، وتطورها هاؤ لستة كثيرة من المعاصرين دون تحقيق أو تدقيق، وجاء تداولاً لها على أنها قضية مسلمة بها قبل الجدل أو الدليل، ظلّكم الا قضية هي: "أن المجاز بدأ بلغ من الحقيقة"، وذلكم ما يعنينا التقليل من شأن الحقيقة، واتّه قاص دورها، وذلك بالسبة إلى دور المجاز وقيمه. ومن ثم جاء البحث، ليعالج هذه القضية في ضوء قول العلماء عنها، حيث يعرّضها وبينها في حياد وهو موضوعه. هذا، وقد اقتضت طبيعة معالجة هذا الموضوع أن يأتي في: مقدمة، وباحثين، وخاتمة. المقدمة: تحدث عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره. وأما المبحث الأول: فجاء بعنوان: "الجانب النظري". وعالج النقاط الآتية: الأولى: الكشف عن أهمية أسلوب الحقيقة، وبيان قيمته البلاغية. الثانية: الحقيقة والمجاز في الكلام. الثالثة: موقف العلماء من ورود الحقيقة والمجاز في الكلام. الرابعة: أيهما أصل، الحقيقة أم المجاز؟ الخامسة: الحقيقة عند البلاغيين. لساسة: الموازنة بين القيمة الجمالية لأسلوب الحقيقة والمجاز. وأما المبحث الثاني: فأتي بعنوان: "الجانب التطبيقي". وتطرق شموله متنوعة من: القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، والشعر العربى.

Abstract

Reality Approach between Theory and Practice

This study investigates a renowned issue among ancient scholars in the heritage of rhetoric, which many modern scholars have adopted without investigation or scrutiny, and have taken it for granted. This issue is "rhetoric is always more eloquent than reality"; hence underestimating reality and belittling its role compared to the role of rhetoric speech and value. This study, therefore, aims to deal with this issue in light of what scholars say, and it was, hopefully, conducted neutrally and objectively. The nature of approaching this topic has made it necessary to divide it into: introduction, two chapters, and conclusion. The introduction discusses the importance of the topic and the reasons for choosing it; the first chapter is entitled: "The Theoretical Part" and it deals with the following points; the first is the investigation of the significance of the reality approach, and its rhetorical value; the second is rhetoric and reality in discourse; the third is the viewpoint of scholars regarding reality and rhetoric in discourse; the fourth is which is the original, reality or rhetoric?; the fifth discusses reality from the point of view of rhetoricians; and the sixth is a comparison between the artistic values of reality and rhetoric approaches. The second chapter is entitled "The Practical Part" and it explores various examples of the Holy Qur'an, Hadith, and Arabic poetry.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأحياء، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد فإن هذا البحث يتناول قضية ذات صيتها في التراث البلاغي عند القدماء، وتلقيتها ألسنة كثير من المعاصرين دون تحقيق أو تدقيق، وجاء تداولها على أنها قضية مسلم بها لا تقبل الجدال أو النقاش، تلكم القضية هي: "أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"، وذلك مما يعني التقليل من شأن الحقيقة، وانتقاد دورها، وذلك بالنسبة إلى دور المجاز وقيمه.

ومن ثم جاء البحث بعنوان "أسلوب الحقيقة بين النظرية والتطبيق" ليعالج هذه القضية في ضوء أقوال العلماء عنها، حيث يعرضها ويناقشها في حياد موضوعية، هذا، وقد اقتضت طبيعة معالجة هذا الموضوع أن يأتي في: مقدمة وبحثين وخاتمة، أما المقدمة: فهي أسباب اختيار البحث، وخطة السير فيه بالتفصيل.

وأما المبحث الأول: فهو بعنوان: "الجانب النظري"، ويتناول النقاط الآتية:

الأولى: الكشف عن أهمية أسلوب الحقيقة، وبيان قيمته البلاغية.

الثانية: الحقيقة والمجاز في الكلام، وبداية الحاجة إليهما.

الثالثة: موقف العلماء من ورود الحقيقة والمجاز في الكلام.

الرابعة: أيهما الأصل، الحقيقة أم المجاز؟ مع ذكر بعض الأسباب التي قد يعدل من أجلها عن الحقيقة إلى المجاز.

الخامسة: الحقيقة عند البلاغيين، وتعرض لهم لها من ناحية تعريفها في اللغة، واحتراقها، ونوع التاء فيها، ثم تعريفها في اصطلاحهم، مع ذكر أقسامها.

السادسة: الموازنة بين القيمة الجمالية لأسلوب الحقيقة والمجاز، وفيها تأصيل لمقوله: "أن المجاز أبلغ من الحقيقة"، والمقصود من الأبلغية، والرد على تلك المقوله بأن العبرة ليست مرتبطة بنوع الأسلوب، بقدر ارتباطها بالمقام والسياق، فكل منها يعد

أبلغ من غيره إذا اقتطاع المقام، ونادى عليه السياق، ومن ثم نقول: إن الحقيقة في موقعها أبلغ وأجمل من المجاز في غير موقعه.

وأما **المبحث الثاني**: فجاء بعنوان: "الجانب التطبيقي"، وتناول شواهد متنوعة جاء التصوير فيها بأسلوب الحقيقة، وهي كما يلي:

أولاً: شواهد من القرآن الكريم.

ثانياً: شواهد من الحديث النبوى الشريف.

ثالثاً: شواهد من الشعر العربى.

وأما الخاتمة، فكانت تسجيلاً لأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وبعد، فهذه محاولة لمعالجة قضية بلاغية، وبيان الحق فيها، فإن كنت قد وفقت في

تناولها فذلك فضل من الله ونعمته، وإن كانت الأخرى فحسبى أننى بذلك جهدي.

والله تعالى نسأل أن يربينا الحق ويرزقنا اتباعه، وأن يلهمنا التوفيق والسداد إله ولـي ذلك القادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

المبحث الأول

وهو بعنوان: "الجانب النظري"، ويتناول النقاط الآتية:

الأولى: الكشف عن أهمية أسلوب الحقيقة، وبيان قيمته البلاغية.

الثانية: الحقيقة والمجاز في الكلام، وبداية الحاجة إليهما.

الثالثة: موقف العلماء من ورود الحقيقة والمجاز في الكلام.

الرابعة: أيهما الأصل، الحقيقة أم المجاز؟ مع ذكر بعض الأسباب التي قد يعدل من

أجلها عن الحقيقة إلى المجاز.

الخامسة: الحقيقة عند البلاغيين.

السادسة: الموازنة بين القيمة الجمالية لأسلوبي الحقيقة والمجاز.

بادئ ذي بدء أقول: إن المقصود من حديثنا هنا حول مصطلح الحقيقة، إنما هو خاص

"بالحقيقة اللغوية" دون غيرها، وقد أطلق المسمى هنا ولم أقيده باللغوية، اتباعاً لمنهج

الأكثرية من البلاغيين، إذ إنهم عندما يذكرون مصطلح "الحقيقة والمجاز" دون تقييد لا

ينصرف الذهن إلا "للغويين"، وهذا بخلاف ما يقابلهم وهما "الحقيقة والمجاز العقليين".

فقد اصطلحوا على وجوب تقييدهما بهذا القيد عند الحديث عنهما، ولذا فقد قال

الخطيب: "وقد يقيدان. أي: الحقيقة والمجاز باللغويين".^١ و"قد" إذا دخلت على الفعل

المضارع، تفيد. في الغالب. التقليل، إذا الأكثر هو عدم تقييدهما بذلك.

وسوف أتناول في هذا المبحث عدة نقاط:

الأولى: الكشف عن أهمية أسلوب الحقيقة، وبيان قيمته البلاغية:

إن أسلوب الحقيقة هو أحد الأساليب البلاغية التي يؤدى بها المعنى، ويعبر به

المتكلم عن أحاسيسه ومشاعره، وله دور كبير في تشكيل الصورة الفنية وهو وقوفه

المجاز يعدان باب أصيل من أبواب علم البيان التي ينبغي علي دارس البلاغة العربية أن

١. إلا يوضح مع البغية، ٢٤٧، تحق. يق/ع بد الملة عالاً لصعيدي، ط: مكتبة الآداب - القاهرة، ط: الرابعة، وانظر شرح التلخيص، ٤٢٣، ط: دار البيان العربي، بيروت، ط: الرابعة، ١٤٩٢هـ، ١٩٧٢م.



يُتَعْرِفُ عَلَى مَحْتَوَاهُمَا، وَيَبْحَثُ عَنْ أَسْرَارِ جَمَالِهِمَا الْفَنِيِّ، بَلْ إِنْ هُنَّا كَمِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ جَعْلِهِمَا عِلْمَ الْبَيَانَ كُلَّهُ، وَذَلِكَ لِفَضْلِهِمَا الْكَبِيرُ، وَمَكَانَتِهِمَا الْعَظِيمَةُ بَيْنَ أَسْلَابِ الْبَيَانِ الْأُخْرَى، يَقُولُ ابْنُ الْأَثيرِ: مُبِينًا ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْمُتَلِّ السَّائِرِ: "الْفَصْلُ السَّابِعُ فِي الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، وَهُذَا الْفَصْلُ مِنْ مَهْمَاتِ عِلْمِ الْبَيَانِ، لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ الْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ"١.

وَمَعَ أَهْمَى هَذَا الْبَابِ بِقَسْمِيهِ مَعًا أَعْنِي: الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْغَرَضِ، وَتَشْكِيلِ الصُّورِ الْفَنِيَّةِ، إِلَّا أَنَّا وَجَدْنَا الْبَلَاغِيْنَ قَدْ صَبَوْا جَهْدَهُمْ عَلَى أَحَدِ الْقَسْمَيْنِ.

وَهُوَ الْمَجَازُ، دُونَ الْآخَرِ، وَهُوَ الْحَقِيقَةُ. فَأَطَالُوا الْوَقْوفَ أَمَامَ الْمَجَازِ، فَعَرَفُوهُ ثُمَّ نَكَرُوا أَقْسَامَهُ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَتَحْدَثُوا عَنْ بِلَاغَةِ أَسْلَابِهِ، وَابْرَازِ قِيمَتِهِ الْفَنِيَّةِ، وَتَنَاوَلُوا كُلَّ ذَلِكَ بِإِفَاضَةِ الْبَلَاغَةِ، وَعِنْدَمَا جَاءَ حَدِيثُهُمْ عَنِ الْقَسْمِ الْآخَرِ، وَهُوَ الْحَقِيقَةُ.. رَأَيْنَاهُمْ لَمْ يَتَوقفُوا أَمَامَهُ كَمَا تَوَقَّفُوا أَمَامَ الْمَجَازِ، بَلْ جَاءَ حَدِيثُهُمْ عَنِهِ مَخْتَصِّرًا، فَلَمْ يَتَنَاوَلُوهُ إِلَّا مِنْ ثَاحِيَّةِ تَعْرِيفِهِ فِي الْلِّغَةِ وَالْأَصْطَلَاحِ، وَبِبَيَانِ أَصْلِ اشْتِقَاقِهِ وَدَلَالَةِ التَّاءِ فِيهِ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنْوَاعَهِ وَالْمُوازِنَةِ بَيْنَ بِلَاغَتِهِ وَبِلَاغَةِ الْمَجَازِ.

إِنْ عَدَمَ إِطَالَةِ الْبَلَاغِيْنَ بِالْوَقْوفِ أَمَامَ أَسْلُوبِ الْحَقِيقَةِ، لِبَيَانِ مَكَانَتِهِ، وَذَكَرَ شَوَاهِدَ لِهِ مِنْ: الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَوِ الْحَدِيثِ النَّبِيِّ، أَوِ الْأَسْلَابِ الْأَدْبَارِيَّةِ الرَّفِيعَةِ. أَدَى ذَلِكَ إِلَى فَهْمِ بَعْضِ الدَّارِسِيْنَ بِعَدَمِ أَهْمَىَتِهِ، وَأَنَّهُ لِيُسَّ لِهِ أَثْرٌ يُذَكَّرُ فِي التَّعْبِيرِ الْفَنِيِّ، بَلْ لِمَ يَقْفِي الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِ، حَتَّى رَأَيْنَا بَعْضَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَدِّثِيْنَ يَهْمِلُونَهُ وَيَغْفِلُونَ الْحَدِيثَ عَنِهِ جَمِلَةً وَتَفْصِيلًا، فَلَمْ يَشِيرُوا إِلَيْهِ لَا مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ، اللَّهُمَّ إِلَإِشَارَةٌ عَابِرَةٌ وَمِنْ هُؤُلَاءِ صَاحِبِ الْكِتَابِ "زَهْرَ الرَّبِيعِ"، حِيثُ إِنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِي كِتَابِهِ مَصْطَلَحُ الْحَقِيقَةِ.

كَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَجَازِ، وَإِنَّمَا قَالَ: "بَابُ الْمَجَازِ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ يَنْقُسِمُ إِلَى: عَقْلِيٍّ، وَشَرِعيٍّ، وَعَرْفِيٍّ، وَلُغْوِيٍّ"؛ أَمَا إِشَارَتِهِ الْعَابِرَةُ عَنِهِ فَقَدْ جَلَّتْ عِنْهَا

١. المثل ا لسائري لابن الأثير/٧٤٢، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع ونشر: المكتبة العصرية . بيروت، ط:١٩٩٥م.

نقل عبارة البلاغيين الذين قالوا فيها: "اتفق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح".^١

ولعل الذي أوصل أمر أسلوب الحقيقة عند الشيخ رحمه الله. عند غيره إلى هذا الحد، هو أن البلاغيين أنفسهم قد صرحا بأن تعرّضهم لهذا الأسلوب، وتناولهم له لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما جاء اضطراراً لحديثهم عن القسم الآخر وهو: المجاز، يقول سعد الدين التفتازاني: مبيناً ذلك "الحقيقة والمجاز هو المقصود الثاني من مقاصد علم البيان والمقصود الأصلي إنما هو بحث المجاز، لكن قد جرت العادة بالبحث عن الحقيقة أيضاً، لما كان بينهما من شباه تقابل العدم والملكة، حيث اشتمل أسلوب الحقيقة على استعمال اللفظ فيما وضع له، والمجاز على استعماله في غير ما وضع له، ولهذا قدم تعريف الحقيقة، ولأن المجاز وإن لم يتوقف على أن يكون له حقيقة، كما هو المنصب الصحيح. لكن الدال على غير ما وضع له، فرع الدال على ما وضع له في الجملة فالعرض للأصل مناسب". ويقول بهاء الدين السبكي أيضاً: "ثم إن الحقيقة لاما كان المقصود إثبات غيرها، وإنما ذكرت استطراداً لما تقدم. اقتصر على تعريف الغالب منها".^٢

إذاً فذكر البلاغيين لأسلوب الحقيقة، كما صرخ التفتازاني وغيره. جاء عرضاً وتبعاً واستطراداً لدراستهم لأسلوب المجاز، ولم يكن مقصوداً لذاته، ولو لا الحديث عن المجاز ما جاء ذكر للحقيقة أبداً.

إذا نظرنا إلى الأساليب البلاغية الأخرى، وبحثنا عن الدافع وراء ذكرها. كما هو الشأن مع أسلوب الحقيقة. لوجدنا أن منها ما كان الدافع وراء ذكره هو الدافع نفسه

١. ز هرالربع في المعاني والبيان والبديع لشيخ /أحمد الحملاوي ص ١٢٢، ط ١٥٤، هـ ٩٥٦. وهو كمن أن يقال: إن الشيخ رحمه الله أكتفى بالمجاز عن الحقيقة لأنه سار على رأي من يقول: إن تعرّف المجاز يشير إلى تعرّف الحقيقة، وذلك لا شتمال تعريفه على العين وهو قوله: "غير ما وضع له". واشتمال تعريف الحقيقة على الملكة وهو قوله: "ما وضعت له". وتصور العين يلزم منه تصوّر الملكة. ينظر: عروس الأفراح ٤/٢ (ضمن شروح التلخيص).

٢. المطول لسعد الدين التفتازاني ص ٣٤٨، ط: مطبعة أحمد كامل، ط: ١٣٣٠ هـ.

٣. عروس الأفراح ٤/٣ (ضمن شروح التلخيص).

الذى من أجله كان أسلوب الحقيقة، ومع ذلك لم يفعلوا معه كما فعلوا معها وكأنهم
كما يُقال. إن صح التعبير. يكيلون بمكيالين.

انظر على سبيل المثال إلى كلامهم عن "أسلوب التشبيه". فسوف تجد أن
دراستهم له لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما جاءت تبعاً لدراساتهم وعرضهم لأسلوب
الاستعارة، لأنها عندهم مبنية عليه. يقول الخطيب: مصراً بذلك وهو يتحدث عن
حصره لأبواب علم البيان "ثم اللفظ المراد به لازم ما وضع له، إن قامت قرينة على عدم
إرادة ما وضع له: فمجاز، وإن فهو: كناية، ثم المجاز منه: الاستعارة، وهي ما تُبني على:
التشبيه، فيتعين التعرض له".^١

فظاهر هذا الكلام أن دراسة البلاغيين لأسلوب التشبيه لم يكن لذاته، وإنما جاء
اضطراراً لدراسة شيء آخر، وإن فهو: أسلوب الاستعارة.

إذاً فوضع التشبيه عند البلاغيين يكاد يكون. إذا لم يكن هو نفسه. كوضع
الحقيقة عندهم، كل منها وسيلة للحديث عن شيء آخر، إلا أن معالجتهم للتشبيه
وتناولهم له قد جاءت على العكس تماماً من تناولهم للحقيقة، وهذا مما لا يشكّ فيه
أحد.

فقد أكثروا الكلام فيه، وأشبعوه بحثاً. ولم يتركوا شاردة ولا واردة عنه إلا
وتعرضوا لها، كما رفعوا شأنه، وعظموا أمره، حتى قال قائلهم عنه: "والتشبيه جارٍ
كثيرٍ في الكلام، أعني: كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم، لم يبعد"، وقال
أيضاً: "والتشبيه كثير، وهو باب كأنه لا آخر له".^٢ وقال ثان: "وقد جاء عن القدماء وأهل
الجاهلية من كل جيل ما يُستدل به على شرفه وفضله، وموقعه من البلاغة بكل
لسان".^٣ وقال ثالث: "هو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر

١. الإيضاح مع البغية . ٦/٣ .

٢. الكا مل لله برد ٩٩٦/١٠٥٧. تحق يقد / مح مد أح مد لالي ط: مؤ سسة الرسال - بيروت
ط: الثالثة ١٤٤٧ هـ ١٩٩٧ مـ .

٣. الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٤٩. تحق يق / محمد أبوالفضل إبراهيم، وعلي البجاوي. ط: عيسى
الحلبي. ط: ١٩٧٦ مـ .

البيانى”^١. وقال رابع: ”فيه من النكت واللطائف البيانية ما لا يحصى ، وله مراتب مختلفة في الوضوح والخفاء”^٢. وقال خامس: ”والتشبيه من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها”^٣. إلى آخر هذه الأقوال التي قيلت في حقه.

هذا هو أسلوب التشبيه. عند البلاغيين.. والإفصاح عن شيء من منزلته ومكانته لديهم، والذي كان السبب والدافع وراء ذكره بين أساليب علم البيان عندهم. كما أشرت آنفاً. أنه ذكر ليكون مقدمة ووسيلة لتناول أسلوب الاستعارة، ومع ذلك فقد أشادوا به أيمما إشادة.

وبإنعام النظر فيما ذكره البلاغيون عن أسلوبِي: التشبيه والحقيقة. نجد أنهم أوقعوا أنفسهم في تناقض واضح. هذا التناقض هو: أنهم عندما جاء حديثهم مباشرة عن أسلوب الحقيقة رأيناً مختصراً. وإن أردت الدقة في التعبير أقول: إنه جاء مبتوراً فمرروا عليه مرور الكرام ، ولم يطيلوا الوقوف أمامه.

وفي المقابل عندما جاء حديثهم عنه ضمنياً متمثلاً ذلك في كلامهم عن أسلوب التشبيه وجدناه حديثاً مطولاً. يتناول كل ما يتعلق به، مبرزاً قيمته وأثره في التعبير. وتتجدر الإشارة هنا إلى أن التشبيه يقوم أساساً على الحقيقة. كما هو الرأي الراجح في ذلك ، يقول. إمام البلاغة وراثتها. عبد القاهر الجرجاني: إن ” كل متعاط لتشبيهٍ صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه. فإذا قلت: ”زيد كالأسد. وهذا الخبر كالشمس في الشهرة. وله رأي كالسيف في المضاء“، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه. ولو كان الأمر على خلاف ذلك. لوجب أن لا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز. وهذا محال: لأن التشبيه معنى من المعانى، وله حروف وأسماء تدل عليه، فإذا

١- مفتاح العلوم لمهلا لسكاكى ص ٣٣١. تحق يق / زعيم زرزور ط: دار الكتب العلمية . بـ بيروت. ط: الأول . ٤٠٣ هـ ١٩٨٣.

٢- حلشنية السيد الشريفي على المطول ص ٦٠.

٣- الإذقان في علوم القرآن للسيوطى ١٤١٣/٣، تحق يق: محمد أبوالفضل برليهيم. ط: مكتبة دار التراث . القاهرة.

صُرِّح بذكر ما هو موضوع للدالة عليه، كان الكلام "حقيقة" كالحكم في سائر المعاني.
فأعرفه^١.

واقتفي أثره في ذلك كثير من العلماء من أمثال: الزمخشري، والرازي، والسكاكى، والخطيب، وشرح التلخيص، وغيرهم، يؤكد ذلك ابن النقيب في مقدمة تفسيره، قائلاً: "ذهب المحققون من متأخري علماء هذه الصناعة وحذاقها إلى أن التشبيه ليس من المجاز، لأنه معنى من المعانى، وله حروف وألفاظ تدل عليه وضعًا".^٢ كما راجح هذا الرأى السيوطي أيضًا بقوله: "زعم قوم أن التشبيه مجاز، وال الصحيح أنه حقيقة... لأنه معنى من المعانى، وله ألفاظ تدل عليه وضعًا، فليس فيه نقل للفظ عن موضوعه"^٣.

أرأيت هذا الإجحاف والضيم الذي لحق بأسلوب الحقيقة المباشر عند البلاغيين في التناول والمعالجة؟! فلم يأخذ حقه من الدراسة والعناية، ولم يحظ باهتمامهم كما حظي قسيمه المجاز، وهذا الأمر كان أحد الدوافع لتناول هذا الموضوع.

الثانية: الحقيقة والمجاز في الكلام، وبداية الحاجة إليهما:

إن الكلام . عموماً . لا يعدو أن يكون أحد أمرين لا ثالث لهما، فهو إما أن يكون: حقيقة ، وإما أن يكون: مجازاً، والحقيقة والمجاز قد وجدتا في الكلام كوسائل من وسائل التعبير قبل أن يكونا مباحثين من المباحث البلاغية، وذلك بسبب: أن العرب الأوائل قد عرفوا الألفاظ دالة على معانٍ لها بوضعها إزاء معانٍ لها وضعًا.

١- أسرار البلاغة ص .٢٤٠، تحقيق / محمود محمد شاكر، نشر دار المدنى . جدة، ط: المدنى . القاهرة . ط: الأولى ١٤٩١هـ .

٢- ينظر: مقدمة تفسير ابن النقيب، تحقيق د/ زكريا سعيد، وهو الكتاب المنسوب على سبيل الخطأ لابن القيم الجوزية، تحت اسم "الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان" ص .٨٢ ، ط: دار الكتب العلمية . بيروت، ط: الأولى ١٤٠٢هـ . هذا، وهناك رأي للبعض في هذه المسألة وهو أن: التشبيه مجاز، يقول عنه ابن رشيق: في العمدة ٤/٤٢ "أما كون التشبيه داخلًا تحت المجاز، فلان المتشابهين في أكثر الأشياء إنما يتشاربهان بالمقارنة على المسماحة والاصطلاح لا الحقيقة".

٣- الإنقان ٣/١٢٥، وانظر أيضًا: التصوير البياني د/ محمد أبو موسى ص .١٧٨، ط: مكتبة وهبة، ط: الثانية ١٤٠٠هـ .

بحيث إذا أطلق اللفظ لم يفهم منه سوى ما وضع له، ولا يفهم منه إطلاقاً شيء أكثر من ذلك، فكلمة (نهر) مثلاً تشير إلى شريط ماء متذبذب، وكلمة (زهرة) وضعت بإزاء النبتة المخصوصة، وكلمة (بتر) وضعت بإزاء هذه الحفرة العميقية التي يستخرج من قاعها الماء، وكلمة (أسد) وضعت بإزاء هذا الحيوان المفترس، وكلمة (وردة) جعلت لهذه النبتة المعينة، وكلمة (قمر) وضعت بإزاء هذا الكوكب المعروف... وهكذا.

وقد استعمل العربي هذه المفردات في تراكيب على نحو خاص مراعياً فيها المعنى التي وضعت لها، وحددت بها عنده، فأسند التدفق للنهر، والامتداء للبئر، والافتراض للأسد، والازدهار أو الذبول للوردة، والغروب للشمس، وكان هذا هو استخدام العرب الأوائل لمفردات لغتهم، وهذا ما عرف بعد باسم "الحقيقة".

ولكن العربي لم يتوقف في استخدامه لمفردات لغته عند هذا الحد، بل وجده نفسه بتقدم الزمن في حاجة إلى التعبير بصيغ جديدة مغايرة لما عرف عنده، نظراً لشعوره بأحساس ومشاعر وأفكار، أدرك بسببها أن لغته بآلفاظها ودلالتها الحقيقية تضيق عن التعبير عنها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أخذت المفردات تكتسب معاني جانبية جديدة إلى جلب معانيها الأصلية التي وضعت لها، فأصبحت كلمة (زهرة) تحمل ظلال معاني أخرى، بجلب معناها الأصلي من النظارة والرقابة، وأصبحت كلمة (نهر) تدل على معانٍ جديدة من: الامتداد والحركة المتذبذبة والسيولة، وهذا كلّه بالإضافة إلى معناها الأصلي الذي وضعت يازاته، كما أصبحت كلمة (أسد) تحمل معانٍ: القوة والباس والشجاعة والجرأة، وأوحت كلمة (بحر) بمعنى: الكرم والعلم والاضطراب والتوتر والغموض، ولذلك كلمة (جبل) على معاني: الشهم والارتفاع والمتانة.

بالإضافة إلى ذلك فقد بدأت تظهر طريقة جديدة في الإسناد، فلم يعدي تقييد لـ *ليسـ* كل لفظ إلى ما وضع له في الأصل فقط، ولكن أصبح يسند للفظ إلى ما لم يوضع له في الأصل، فلفظ (غرب) الذي وضع ليسـنـد إلى كلمات خاصة به ملائمة له كالشمس والقمر



والنجوم، فيقال مثلاً: غربت الشمس، أصبح يسند إلى كلمات لم توضع له ولا تلائمه إلا على غير جهة الحقيقة، فيقال: (غرب الأمل) ليؤمِّن هذا الإسناد إلى اليأس والهزيمة، ومثل ذلك: أشرق الأمل، وابتسم القمر، وضحك الشمس، لتوحي هذه الأسانيد، بالبهجة والتفاؤل، وهكذا ارتاد العربي أفقاً تعبيرياً جديداً يفيض بالثراء والخصوصية والجمال، وفي هذا اللون من التعبير استخدم العربي قوة خياله، وإمكانيات لغته فلمكتبه ذلك من تصوير أفكاره وأحساسه ومشاعره المبهمة التي كانت تراوده، وهذا النوع من التعبير هو الذي أطلق عليه فيما بعد اسم "المجاز" ١.

الثالثة: موقف العلماء من ورود الحقيقة والمجاز في الكلام:

إن اشتمال اللغة العربية عامة، والقرآن الكريم والحديث الشريف خاصة على الحقيقة أمر يكاد يجمع عليه العلماء، أما وقوع المجاز في اللغة والقرآن الكريم وكذلك في الحديث النبوى فقد كان مثار جدل كبير بين علماء الأمة على مر العصور، وقد شغلت هذه القضية فكر كثير من العلماء، وانقسموا إزاعها إلى ثلات فرق:

. **الفريق الأول:** يقول بجواز وقوع المجاز في اللغة عامة والقرآن الكريم والحديث بصفة خاصة، بل وغالب بعض هذا الفريق في ذلك فذهب إلى أن اللغة كلها مجاز، وعلى رأس هذا الفريق ابن جني.

. **الفريق الثاني:** أنكر ذلك تمام الإنكار، وجهر بأن اللغة كلها حقيقة وليس فيها شيء من المجازات، وعلى رأس هذا الفريق الإمام ابن تيمية.

. **الفريق الثالث:** توسط في هذا الأمر وقال: إن اللغة كلها ليست مجازاً، كما أنها أيضاً ليست كلها حقيقة، وإنما مشتملة على الحقيقة والمجاز، ومن ذهب إلى ذلك: الأدمي والقاضي الجرجاني وابن الأثير والإمام العلوي وغيرهم. وأرى أن هذا الرأي هو الصواب، وهو الذي نعتقد ونقرّ به، نظراً لاعتداله وتأييده الحجج والبراهين، وليس فيه كما قيل، إفراط ولا تفريط.

١. ينظر: التصوير البيانى - د. حفيظ شرف ص ٥٣، ط: مكتبة الشباب، القاهرة، ط: الثانية، ط: ١٩٧٢.

وعن آراء العلماء في تلك القضية، والرأي الذي يتفق مع المتنطق السليم، وتأيده الأدلة والحجج، يحدثنا الإمام العلوي موضحاً تلك الآراء فيقول: "اعلم أن في التس من رعم: أن اللغة حقيقة كلها، وأنكر المجاز، وزعم أنه غير وارد في القرآن ولا في الكلام. ومنهم من زعم: أن اللغة كلها مجاز، وأن الحقيقة غير محققة فيها".

ثم يرد هذين الرأيين بقوله: "وهذا المذهبان لا يخلوان عن فساد، فإنكار الحقيقة في اللغة إفراط، وإنكار المجاز تفريط. فإن المجازات لا يمكن دفعها وإنكارها في اللغة فإنك تقول: رأيت الأسد، وغرضك الرجل الشجاع، والله تعالى يقول: ﴿وَسَلِّمْ أَلْفَرِيَةً﴾ [يوسف/٨٢]. ﴿وَأَخْفُضْ لَهُمَا جَنَاحَ الْدُّلُّ مِنَ الرَّحْمَة﴾ [الإسراء/٢٤] إلى غير ذلك. كما لا يمكن أيضاً إنكار الحقائق كإطلاق الأرض والسماء على موضوعيهما. وأيضاً فإنه إذا تقرر المجاز وجوب القضاء بوقوع الحقائق، لأنه من المحال أن يكون هناك مجاز من غير حقيقة".

ثم نراه يختار الرأي الوسط في هذه القضية فيقول: "إذا بطل هذا القول فالمخثار هو الرأي الثالث، وهو: أن اللغة والقرآن مشتملان على الحقائق والمجازات جميعاً فما كان من الألفاظ مفيداً لما وضع له في الأصل فهو المراد "بالحقيقة". وما أفاد غير ما وضع له في أصل وضعه فهو "المجاز"!^١

وبينبغي أن أسجل هنا أن هذه القضية قد وقف معها / عبد العظيم المطعني جزاه الله خيراً. وقفات جادة ومتأنية، وأشبعها بحثاً. وناقشهما قشة هادئة في كتابه الرائع "المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين الإجازة والمنع". وأحسب أن تلك المعالجة الدقيقة لم تُعرف لباحث قبله.

وهذه خلاصة لما ذكره حول هذا الموضوع، لقد تناوله وعالج في جميع البيئات العلمية، والمدارس الفكرية، على اختلاف المذاهب والمشارب وهي بيئـة: اللغويـين

^١ .الطراز للإمام العلوي ص ٢٣، ٢٤. تحقيق/ مح مدعا بدأ لسلام شلهين. ط: دار الكتب العلمية . بيروت. ط: الأولى: ١٤٩٥هـ/ ١٩٧٥م.



والنحاة، والأدباء والنقاد، والبلاغيين والإعجازيين، والمفسرين والمحدثين، والأصوليين والفقهاء، تعرّض لكل ذلك ” وهو يدفع بقوّة مذهب الإمام ابن تيمية ومشاعريه قبیماً وحدیثاً في: نفي المجاز في اللغة بوجه عام، وفي القرآن الكريم والحديث النبوی بوجه خاص، وأشار إلى أن هؤلاء جميعاً جل تمثيلاتهم على المجاز. بل أكثرها ماءً وروقاً وأصدقها شاهداً. كانت من نصوص القرآن الكريم، ولم يروا في ذلك حرجاً^١.

ثم نراه بعد هذه الدراسة المستفيضة يقول: ” وبعد هذا التدقيق والتمييـص نقول في كثير من الثقة والاطمئنان: إن إنكار المجاز في اللغة لم يقل به إلا عالم واحد من علماء الأمة قبل عصر الإمام ابن تيمية وابن القيم، وهو: أبو إسحاق الإسفرايني، وإن إنكار المجاز في القرآن الكريم لم يقل به، ويدرك له أسباباً إلا أربعة من علماء الأمة وهم: داود الظاهري، وابنه، وابن تيمية، وابن القيم. وأن جملة من قال بإنكار المجاز مطلقاً هم خمسة من علماء الأمة، وهم: أبو إسحاق الإسفرايني، وداود الظاهري، وابنه وابن تيمية وابن القيم^٢؟“.

ثم قال: ”وكم تكون نسبة خمسة إلى علماء الأمة الذين لا يحصون عدداً، ومنهم الرواد وأئمة المذاهب في العلوم العربية والإسلامية منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن الثامن الذي عاش فيه الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. كم تكون هذه النسبة يا تُرى؟“^٣ وفي موطن آخر يقول: ” إن ظاهرة إنكار المجاز في اللغة وفي القرآن العظيم لم يصح فيها دليل قط، لأن النقل ولا من العقل، ولا من الواقع والمشاهدة والحس رغم شهرتها وكثرة اللهج بها“^٤.

ثم بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة. كما يقول. مع هذا الموضوع. وبعد العرض والتحليل والتوضيح، نراه يسجل رأيه في تلك القضية قائلاً: ” إن ظاهرة إنكار المجاز في

١. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع/ عبد العظيم المطعني/ ٤٢١، ط: مكتبة وهبة . القاهرـة. ط: الأولى. ط: ٤٠٦. هـ ١٩٨٥ـم.

٢. المرجع السابق ٤٢/١٢٤.

٣. المرجع السابق الموضع نفسه.

٤. المرجع السابق ٢/٦٤٦.

اللغة وفي القرآن العظيم، إنما هي مجرد شبهة كتبت لها الشهرة، ولكن لم يكتب لها النجاح.”^١

الرابعة: أيهما الأصل، الحقيقة أم المجاز؟

إذا كان الكلام. كما أشرت من قبل. لا يعدو أن يكون إما: حقيقة، وإما: مجازا، فأيهما يكون أصلًا للآخر؟.

لقد عرف العلماء اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. وقد وضع أصحاب اللغة الألفاظ للدلالة على الذوات والمعاني، فكل لفظ معنى، وكل ذاتٍ لفظ موضوع له، وإذا أطلق اللفظ انصرف إلى ما استقر من مدلوله في الأذهان، فكلمات مثل: العين والرأس واليد، والأكل والشرب والنوم، وغير ذلك، قد وضعتها واعظ اللغة لتدل على معناها المحدد، فإذا أطلقت الألفاظ انصرف الذهن إلى هذا المعنى المحدد لها معرضاً عن أي شيء آخر، وذلك لأن معناها الحقيقي الذي وضعت يزاذه هو الأقرب إليها والأمس بها رحما، وفي هذا دليل على أن الحقيقة هي الأصل في الاستعمال.

أما المجاز فهو فرع عنها، فإذا أطلقنا مثلاً لفظ (الشمس) انصرف الذهن مباشرة إلى ذلك الكوكب المضيء، وأما إذا كان المراد من إطلاقه: هو الوجه الحسن بمحاطة أن هناك وصفاً مشتركة بينهما فإن ذلك يأتي في مرحلة تالية لإدراك معناه الأصلي أولاً، وكذلك إذا أطلقنا لفظ (البحر) فإن الذهن ينصرف أولاً إلى ذلك المكان المتسع الممتد بالماء المالح، وأما إذا كان المراد من إطلاقه: هو الرجل الجود، فإن ذلك يأتي بعد إدراك معناه الحقيقي، وهذا^٢.

إذاً فالحقيقة هي الأصل في الاستعمال أما المجاز فهو فرع عنها، لأنه خلاف الأصل

١. السابق /٢٤٧.

٢. ينظر: علم البيان / بدوي طباعة ص ١٦٦ ط: دار الثقافة - بيروت .. وانظر: القرآن والصورة البيانية / د ع بد القادر حسين ص ١٣٢ ط: دار المنار، القاهرة ط: الأولى ٩١٤٢ هـ.

ولما كانت الحقيقة هي الأصل^١ في الكلام، والمجاز فرع عنها، فإنه لا يعدل عن هذا الأصل إلا إذا كان هناك داع له، وفائدة من ورائه، وإلا جاء التعبير ساذجًا غافلًا. يقول ابن الأثير: "واعلم أنه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة، وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه، فانظر، فإن كان لا مزية لمعناه في حمله على المجاز، فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة، لأنها هي الأصل، والمجاز هو الفرع ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة".

مثال ذلك قول البحترى:^٢

مهيب كحد السيف لو ضربت به ذراً جأ ظلت وأعلامها وهد

ويروي أيضًا: "لو ضربت به طلى أجأ" جمع طلية، وهي: العنق.

فهذا البيت لا يجوز حمله على المجاز، لأن الحقيقة أولى به، ألا ترى أن الذراً جمع ذرورة - وهو أعلى الشيء، يقال: "ذرورة الجبل: أعلاه،" والطلّى" جمع طلية وهي: العنق والعنق أعلى الجسد، ولا فرق بينهما في صفة العلو هنا، فلا يُعدل إلًا إلى المجاز، إذ لا مزية له على الحقيقة.

وهكذا كل ما يجيء من الكلام الجاري هذا المجري، فإنه إن لم يكن في المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لا يُعدل إليه"^٣

١. هناك من البلاغيين من يرى: إن الحقيقة ليست هي الأصل للمجاز، وإنما كالأصل له لأنها لو كانت أصل للمجاز لكان لكل مجاز حقيقة، وليس كذلك إذ التحقيق: أن المجاز لا يتوافق غالباً على الحقيقة إلا ترى أن لـ"فظ" "الرحمن" استعمل مجازاً في المعمم على العموم والإطلاق، ولم يستعمل في المعنى الأطى الحقيقى، أعني: رقيق القلب، فـ"فظ" "الرحمن" مجاز لمزيد فرع عن حقيقة، ومن ثم قيل: إذ ها كالأصل للمجاز، لأنها أصل له في الغالب. يذكر شرح اسعد العتيق لـ"التخصيص" (٢٧)، ضمن شروح التخصيص).

٢. ديوان نبهان/١٩٥، ط: بيروت للطباعة والنشر، ط: بيروت، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠. والبيت في الديوان هكذا: "مهيباً كمثل السيف..." وهو من قصيدة التي يصف فيها النثب حين لقيه، ومطلعها: سلام عليكم لا وفاء ولا عهد أمالكم من هجر أحبابكم بدُّ."

وقوله: أجأ: أحد جنبي طيء / أجأ وسلي، والوهدة: الأرض المنخفضة، والوهوة في الأرض.

٣. المثل اسأله/٧٩، واد طر: إل قرآن وا لصورة البيانية ص ١٣٧. وأشاره نا! إلى أن هناك من يرى أن استشهاداً بين الأدلة يبيت البحترى المنكورة على القاعدة التي ذكرها. وهي أنه لا يعدل عن الحقيقة إلا إلى المجاز، إلا إذا كان هناك مزية وفضل، أو سر بلاغي غير صحيح، حيث إن "في" الطلي "معنى ليس في" الذرا". سوى العلو، ذرورة الجبل أعلاه ولكن لا حياة فيها، وظل الشيء. وهو عنده لا يكون إلا الذي

هذا، وقد ذكر الإمام العلوي بعض الفوائد والأسرار التي من أجلها يعدل عن الحقيقة إلى المجاز، وأشار إلى أن ذلك إما أن يرجع إلى اللفظ فقط، وإما أن يرجع إلى المعنى وحده، وإما أن يرجع إلى اللفظ والمعنى معاً يقول: "اعلم أن الحقيقة إذا كانت هي الأصل في الكلام. كما ذكرتم، فلأي شيء يكون التكلم بالمجاز، وما الباعث عليه؟ فنقول: العدول عن الحقيقة إلى المجاز قد يكون لأمر يرجع إلى اللفظ وحده وإلى المعنى وحده، وإليها جميعاً. فهذه مقاصد ثلاثة:

المقصود الأول: ما يرجع إلى اللفظ على الخصوص، وذلك من أوجه أماؤلاً. فلما يرجع إلى جوهر اللفظ، بأن يكون اللفظ الدال على المجاز أخف من الحقيقة على اللسان إما لخفة مفرداته أو لحسن تعديل تركيبه، أو لخفة وزنها، أو لسلاسته، أو لغير ذلك من الأمور التي تقتضي السهولة فيتعديل إلى المجاز لما ذكرناه. وأما ثانياً: فلأن اللفظة المجازية ربما كانت صالحة للاقافية إذا كان الكلام شعراً منظوماً، أو لأجل التشاكل في السجع إذا كان الكلام متثوراً، والحقيقة غير صالحة في ذلك، أو لأجل أن الكلمة المجازية مألوفة الاستعمال، والحقيقة غريبة وحشية، فتكون المجازية أخف لاما يحصل من الإنس المألوف ما ليس يحصل في غيره. وأما ثالثاً: فربما كانت اللفظة المجازية جارية على الأقىسة الصحيحة في تصريفها في بيانها، والحقيقة منحرفة عن ذلك، فلهذا عدل إلى استعمال اللفظة المجازية من أجل ذلك.

المقصود الثاني: ما يرجع إلى المعنى على الخصوص، وذلك من أوجه أماؤلاً: فلأجل التعظيم، كما يُقال: سلام على الحضرة العالية والمجلس الكريم، فيُعدل عن اللقب الصريح إلى المجاز تعظيماً لحال المخاطب، وتشريفاً لذكر اسمه عن أن يخاطب بلقبه فيقال: سلام على فلان. وأما ثانياً: فلأجل التحzier، كما يعبر عن قضاء الوطأ من النساء

روح، فالعقل فيه حياة وإذا أزيل عن موضعه هلك صاحبه، واستعارة "الطل" في بيت البحترى في الرواية الثانية تلاميذ المعنى المراد، لأن الشاعر أراد تحطيم الجبل، وكل ذلك من يزال عنده فاني بهوى ساقطاً، فللمجاز هنا فائدة ومعنى لا يأتي عن طريق الحقيقة المنكورة في الرواية الأولى يذهب ظاهر المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجازيه ومتاعبه / عبد العظيم المطعني ٢٢٥/١.



بالوطء، وعن الاستطابة بالغائط. ويُترك لفظ الحقيقة استحقاراً له، وتزهداً عن التلفظ به، لما فيه من البشاعة والغلظة، وقد نزه الله تعالى كتابه الكريم وخطابه الشريف عن مثل هذه الأمور، وعدل إلى المجازات الرشيقه لما ذكرناه، فقال: ﴿أَوْ لَنَسْمُمُ الْأَسَاء﴾ [النساء/٤٣]. كناية عن ا لوطء، و قال ت عالي: ﴿كَانَا يَأْكُلُانِ الْطَّعَامَ﴾ [المائدة/٧٥]. كنّى به عن قضاء الحاجة، لما في لفظ الحقيقة من الرّكّة والسماحة. وأما ثالثاً: فالأجل تقوية حال المذكور، فإذا قلت: رأيتأسداً في سلاحه. كان أقوى من قوله: رأيت رجلاً يُشبّه الأسد. كما سنورد الفرق بين الاستعارة والتّشبّيـه، فلا جـرم عدل إلى المجاز لمكان هذه القوة. وأما رابعاً: فلما يحصل في المجاز من التوكيد بخلاف الحقيقة، فأنت إذا قلت: رأيتأسداً في سلاحه، وبحرأ في بريديـه. كان أكثر توكيداً ووقعاً في النـفوس من قوله: رأيت رجلاً كـريـماً أو شـجاعـاً، لما يحصل في ذلك من المـكانـة والمـبالغـة بـذـكـرـ المـجاـزـ دونـ الحـقـيقـةـ.

المقصود الثالث: ما يرجع إلى اللـفـظـ والمـعـنىـ جـمـيعـاًـ لما يحصلـ فيـ المـجاـزـ منـ تـلطـيفـ الكلـامـ وـحسـنـ الرـشاـقةـ فـيهـ وـتـقرـيرـ ذـلـكـ: هوـ أنـ النـفـسـ إـذـاـ وـقـفتـ عـلـىـ كـلـامـ غـيرـ ثـمـ بالـمـقـصـودـ مـنـهـ، تـشـوـقـتـ إـلـىـ كـمـالـهـ، فـلـوـ وـقـفتـ عـلـىـ تـعـامـرـ المـقـصـودـ مـنـهـ، لـمـ يـقـ لـهـاـهـاـكـ تـشـوـقـ أـصـلـاـ، لـأـنـ تـحـصـيلـ الـحـاـصـلـ مـحـاـلـ، إـنـ لـمـ تـقـفـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـهـ فـلـاـ شـوـقـ لـهـاـهـاـكـ فـلـمـ إـذـاـ عـرـفـتـهـ مـنـ بـعـضـ الـوـجـوهـ دـوـنـ بـعـضـ فـإـنـ الـقـدـرـ الـمـعـلـومـ يـحـصـلـ شـوـقـاًـ إـلـىـ مـاـيـسـ بـمـعـلـومـ، فـإـذـاـ عـرـفـتـهـ مـنـ جـمـيعـ وـجـوهـهـ، فـإـذـاـ عـبـرـ عـنـ الـمـعـنىـ بـالـلـفـظـ الدـالـ عـلـىـ الـحـقـيقـةـ حـصـلـ كـمـالـ الـعـلـمـ بـهـ مـنـ جـمـيعـ وـجـوهـهـ، فـإـذـاـ عـبـرـ عـنـ بـمـجـازـهـ لـمـ تـعـرـفـ عـلـىـ جـهـةـ الـكـمـالـ، فـيـحـصـلـ مـعـ الـمـجاـزـ تـشـوـقـ إـلـىـ تـحـصـيلـ الـمـجاـزـ، فـلـاـ جـرمـ كـانـ الـعـبـارـةـ بـالـمـجاـزـ أـقـرـبـ إـلـىـ تـحـسـينـ الـكـلـامـ وـتـلـطـيفـهـ^١.

وعلى هذا الأساس، وتلك القاعدة. أعني: أنه لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز ولا يقال به إذا كان التعبير بالحقيقة المباشرة ينهض بأداء المعنى دون تقطان، وليس وراء

١. الطراز/٤٠، وانظر: التصوير البياني/ حفيـنـ شـرفـ صـ ٦٧ـ.

العدول عن ذلك من الأسرار واللطائف ما يدعوه إليه، فيبقى الكلام. حينئذ. على حقيقته لأنه الأصل، والعدول عنه خلاف الأصل. بني المفسرون لكتاب الله عز وجل آراءهم، فإذا وجدوا أن البيان القرآني يصح أن يحمل على الحقيقة، كما يصح أن يحمل على المجاز نراهم يرجحون ويفضلون حمله على الحقيقة، خاصة إذا لم يكن هناك ما يدعوه إلى حمله على المجاز؛ لأنه. كما أشرت من قبل. رجوع إلى أصل الكلام.

يقول جمال الدين القاسمي: وهو يفسر قول الله عز وجل: ﴿يَكَانُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِيمَانًا نَّزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ مُجْوَهًا فَنَرَدَهَا عَلَى أَذْبَارِهَا أَوْ تَلْعَبُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَخْحَدَبَ أَسَبَّبَتْ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْوُلاً﴾ [النساء / ٤٧].

من قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ مُجْوَهًا أي: نمحو تحطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم، قال ابن عباس: طمسها: أن تعفي فَنَرَدَهَا عَلَى أَذْبَارِهَا أي: فنجعلها على هيئة أدبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها جزاء على الكفر، أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الأقفاء، والأقفاء إلى موضعها، وقد اكتفى بذلك أشدهما.

هذا، وفي الآية تأويل آخر، وهو: أن المراد من طمس الوجوه: مجازه، وهو: صرفهم عن الحق ورد هم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلال، يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم، (وطمس الوجوه) على هذا التأويل يحمل معندين: -

أحدهما: تقبیح صورتهم، يقال: طمس الله صورته، كقوله: قبح الله وجهه.
والثاني: إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها.
وثمة تأويل آخر، وهو أن المراد بالوجوه: الوجهاء، على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير، أي: من قبل أن نغير أحوال وجهائهم، فنسلب إقبالهم ووجهاتهم، ونكسوهم صغراً أو أدباراً، وقال بعضهم: الأظهر حمل قوله ﴿أَوْ تَلْعَبُهُمْ﴾ الخ، على الاعن المتعارف، لا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ هَلَّ أَتَيْتُكُمْ بِشَرٍ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَيْرُهُ﴾

عَيْنُهُ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقَرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ [المائدة ٦٠]. ففصل تعالى بين اللعن وبين مسخهم قوله
وختانير!“

ثم قال القاسمي: “أقول: لا يخفى أن جميع ما ذكر من التأويلات، غير الأول - وهو التأويل الحقيقى - لا يساعد مقام تشديد الوعيد، وتعظيم التهدى، فإن المتبادر من اللفظ: الحقيقة، ولا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذر إرادتها، ولا تعذر هنا، كمان المتبادر من اللعن المتشبه بلعن أصحاب السبت، هو: المسخ، وهو الذي تقتضيه بلاغة التنزيل، إذ فيه الترقى إلى الوعيد الأعظم.

ولا ننكر أن تكون هذه التأويلات، غير الأول، مما يشمله لفظ الآية، وإنما البحث في دعوى إرادتها دون سابقتها، فالحق أن المتبادر من النظم الكريم هو الأول لأنه أدخل في الزجر”.^٢

الخامسة: الحقيقة عند البلاغيين:

ذكرت، آنفًا، أن البلاغيين عندما تعرضوا للحقيقة لم يتناولوا فيها إلا مسائل قليلة وهي: تعريفها في اللغة واشتقاقها ونوع التاء فيها، كما عرفوها في اصطلاحهم، وذكروا أقسامها، ثم أخيراً وزنوا بينها وبين قسميهما المجاز، والآن أستعرض تلك المسائل بشيء من الإيجاز، فأقول:

المسئولة الأولى: تعريفها في اللغة واشتقاقها ودلالة التاء الملحقة بها.
إن مادة (حق) تعني في اللغة: الصدق والوجوب، والثبات والاستقرار، والحقيقة هي: اللفظ الذي أُقرَّ في الاستعمال على أصل وضعه. فيقال: حقيقة الشيء: خالصه وكنه وحقيقة الأمر: الشيء الثابت يقينا. يقول ابن فارس: ”إن الحقيقة هي من قولهم: حق الشيء: إذا وجب، واشتقاقه من الشيء المحقق وهو: المحكم، تقول العرب: ثوب محقق النسج، أي: محكمه، قال الشاعر:

١. محا سن التأو يل للاقا سمى ٥/٢٨٢ و ما بعدها، تحق يق: مح مد فؤاد ع بد ال باقي، ط: دار إحياء الكتب العربية لعييس الحلبي.

٢. المرجع السابق: ٥/٢٨٤.

تسربيل جلد وجه أبيك إنما كفيناك المحققة الـِّقا

وهذا جنس من الكلام يصدق بعضه بعضاً، فالحقيقة: الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل، ولا تقديم فيه ولا تأثير، كقول القائل: أَحْمَدَ اللَّهُ عَلَى نِعْمَهِ وَإِحْسَانِهِ، وهذا أكثر الكلام، قَالَ اللَّهُ جَلَ ثَناؤهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَمَّا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة/٤]. وأكثر ما يأتي من الآي على هذا، ومثله في شعر العرب:

وفي الشرنجاة حـ يـن لا يـنجـيـكـ إـحسـانـ^١

وجاء في لسان العرب تحت مادة (حق): "الحق: نقىض الباطل، وحق الأمر يتحقق ويتحقق من بابي ضرب وقتـلـ حـقـاـ وـحقـوقـاـ صـارـ حـقـاـ وـثبتـ قالـ الأـزـهـريـ معـاهـ وجـبـ يـجـبـ وجـوـباـ، وـحقـ عـلـيـهـ الـقـوـلـ وـأـحـقـقـتـهـ أـناـ وـفـيـ التـنـزـيلـ: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص/٦٣] أي: ثبتـ وـقـولـهـ تـعـالـىـ: ﴿وَلَكـنـ حـقـتـ كـلـمـةـ الـعـذـابـ عـلـىـ الـكـفـرـينـ﴾ [الزمـرـ/٧١] أي: وجـبـ وـثـبـتـ، وـحقـ يـجـعـهـ حـقـاـ وـأـحـقـهـ كـلاـهـماـ: أـثـبـتهـ وـصـارـ عـنـهـ حـقـاـلـ يـشـكـ فـيـهـ وـأـحـقـهـ صـيرـهـ حـقـاـ، والـحـقـيقـةـ: ماـ يـصـيرـ إـلـيـهـ حـقـ الـأـمـرـ وـوـجـوـبـهـ، وـبـلـغـ حـقـيقـةـ الـأـمـرـ أيـ يـقـيـنـ شـائـنـهـ، وـفـيـ الـحـدـيـثـ: "لـاـ يـلـغـ الـمـؤـمـنـ حـقـيقـةـ الـإـيمـانـ حـتـىـ لـاـ يـعـيـبـ مـسـلـمـاـ بـعـيـبـ هـوـ فـيـهـ" يـعـنـيـ خـالـصـ الـإـيمـانـ وـمـحـظـهـ وـكـنـهـ، وـالـحـقـيقـةـ فـيـ الـلـغـةـ: ماـ أـقـرـرـ فـيـ الـاسـتـعـمالـ عـلـىـ أـصـلـ وـضـعـهـ، وـالـمـجـازـ مـاـ كـانـ بـضـدـ ذـلـكـ، وـإـنـمـاـ يـقـعـ الـمـجـازـ وـيـعـدـلـ إـلـيـهـ عـنـ الـحـقـيقـةـ لـمـعـانـ ثـلـاثـةـ وـهـيـ: الـإـسـاعـ، وـالـتـوـكـيدـ، وـالـتـشـيـيـهـ، فـإـنـ عـدـمـ هـذـهـ الـأـوـصـافـ كـانـتـ الـحـقـيقـةـ الـبـيـتـةـ^٢.

وفي تاج العروس عند مادة (حق) ورد: "والحق: الم موجود الثابت الذي لا يسough إـنـكـارـهـ، وـحـقـيقـةـ الـأـمـرـ: ماـ يـصـيرـ إـلـيـهـ حـقـ الـأـمـرـ وـوـجـوـبـهـ، يـقـالـ: بـلـغـ حـقـيقـةـ الـأـمـرـ، أيـ يـقـيـنـ

١ـ لـصـاحـبـيـ لـاـ بنـ فـارـسـ صـ٣٢ـ طـ: دـارـ إـرـيـ يـاءـ الـكـ تـبـ الـعـربـ يـةـ لـعـ يـسـىـ الـحـلـ بـيـ .ـ الـ قـاهـرـةـ طـ: ٩٧٨ـ مـ، وـادـ ظـرـبـ: قـالـيـسـ الـلـاـغـةـ لـاـ بنـ فـارـسـ صـ١٥ـ تـحـقـيقـ /ـ عـبـدـ اـسـلـامـ هـارـونـ طـبـ وـشـرـ: اـتـ حـادـ الـكـ تـبـ الـعـربـ طـ: ٢٠٠٢ـ هـ ١٤٢٣ـ مـ، وـشـيـرـهـنـاـ إـلـىـ أـنـ مـاـذـ كـرـهـاـ بـنـ فـارـسـ حـولـ كـلـمـةـ "الـحـقـيقـةـ" وـاشـتـفـاقـهـاـ بـعـهـ فـيـهـ جـلـ مـنـ أـتـيـ بـعـدـهـ مـنـ الـلـغـوـيـنـ وـالـبـلـاغـيـنـ.

٢ـ يـنـظـرـ: لـسـانـ الـعـربـ مـادـةـ (ـحـقـ).ـ طـ: دـارـ صـادرـ بـيـرـوـتـ طـ: الـأـوـلـىـ ٢٠٠٢ـ هـ ١٤٢٣ـ مـ.

شأنه، و﴿الْحَقَّةُ﴾ [الحاقة ١٧]: النازلة الثابتة، كالحقيقة. وحق الشيء: أوجبه وأثبته. وصار عنده حقاً لا يشك فيه. ويقال: يحق عليك أن تفعل كذا، أي: يجب كاحقه، وحققه. وقيل: أحقه: صيره حقاً. وحق الأمر يتحقق بالضم ويتحقق بالكسر حقه، بالفتح، وكذلك حقاً، وحقوقاً. كفعود: صار حقاً، وثبت، قال الأزهري: معناه: وجَبَ وجوباً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُنْ حَقَّتْ كُلَّمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الزمر ٧١] أي: وجَبَ وثبتَ. والحقيقة: ما أقر في الاستعمال على أصل وضعيه. وقيل: هو اسم لما أريد به ما وضع له (فعيلة) من حق الشيء: إذا ثبت، بمعنى (فاعلة). (التاء) فيه للنقل: من الوصفية إلى الاسمية، كما في العلامة، لا للتأنيث، وهي ضد المجاز.

هذا هو أصل مادة (حق) ومعناها واشتقاقيتها كما ورد عند أهل اللغة، والذي يدور كما أسلفت. حول الثبات والاستقرار، والرسوخ والوجود.

وقد نقل البلاغيون . عن أهل اللغة . ذلك في مصنفاتهم فها هؤلا الخطيب يقول: "الحقيقة في اللغة: وصف بزنة" فعل " إما بمعنى اسم المفعول فيكون مأخوذاً من قولك: حققت الشيء. بالتحفيف. أحقه بمعنى: أثبتته. وإما بمعنى اسم الفاعل فيكون مأخوذاً من قولك: حق الشيء يتحقق بمعنى: ثبت، أي: أن معنى "الحقيقة" هي: الكلمة المثبتة في موضعها الأصلي (على اعتبار أنها بمعنى اسم المفعول)، أو هي: الكلمة الثابتة في موضعها الأصلي (على اعتبار أنها بمعنى اسم الفاعل)." ٢

أما عن دلالة التاء الملحقة بلفظ: حقيق(حقيقة)، فقد ورد عن البلاغيين رأيان فيه: الأول يقول: إنها للتأنيث. وصاحب هذا الرأي هو: السكاكي. حيث يقول: " والتاء عندي للتأنيث في الوجهين. أي: في فعل إذا كانت بمعنى: فاعل، أو بمعنى مفعول، لتقدير لفظ"

١. ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي مادة (حق) ط: طبع ونشر دار الهدى.
٢. الإيضاح مع البغية ٨٩/٣، وانظر: شرح التخيس، ٤، والمطلوب ص ٣٤٨، ومفتاح العلوم ص ٣٦٠.

الحقيقة" قبل التسمية: صفة مؤنث غير مجردة على الموصوف وهو: الكلمة" أو ميرتضى الخطيب ما قاله السكاكى عن هذه "التاء" فعلق عليه بقوله: وفيه نظر.

والآخر: يقول: إنها لنقل الكلمة من الوصفية إلى الاسمية. وصاحب هذا الرأى هو: جمهور البلاغيين يقول الخطيب: "وقيل: إن التاء. هي لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية الصرفة. كما في قيل: أكيلة ونطیحة. إن التاء فيهما لنقلهما من الوصفية إلى الاسمية. فلذلك لا يوصف بهما. فلا يُقال: شاة أكيلة أو نطیحة".

وقد أبان ابن يعقوب عن كيفية النقل ودلالة في هذه التاء بصورة أوضح قليلاً: إن التاء. في الكلمة الحقيقة. للنقل من الوصفية إلى الاسمية. وبيان ذلك: أن التاء في أصلها تدل على معنى فرعى وهو: "التأثر". فإذا رو عي ذقل الوصف عن أصله الذي هو: "الذكير" إلى ما كثر استعماله فيه وهو: "الاسمية" اعتبرت التاء فيه، وأتي بها إشعاراً بفرعية "الاسمية" فيه، كما كانت في "الوصفية"! شعاراً بالتأثر. وذلك كقولهم: "ذبيحة" فإنها بلاء: وصف في الأصل لكل مذبوح من: إبل أو بقر أو غنم، ولكن كثر استعمالها في الشاة، واعتبر نقلها اسمياً لها. فجعلت "التاء" فيها: للنقل من الوصفية للاسمية. وكذلك لفظ "الحقيقة" هنا، لما اختص بعض ما يوصف به وصار اسمياً له، جعلت للنقل فيه.^٢

والذي أرجحه هنا هو رأى الجمهور أعني: أن التاء في لفظ الحقيقة لنقل الكلمة من الوصفية إلى الاسمية. أما القول: بأنها للتأثر باعتبار أن الحقيقة اسم ل الكلمة فهذا لا يصح، لأنه يُقال: "هذا اللفظ حقيقة". ولو كانت التاء فيها للتأثر لم يصح ذلك، لعدم اتحاد الصفة مع الموصوف في الذكير والتأثر.

ونلحظ هنا أيضاً أن البلاغيين اقتضوا أثر اللغويين في دلالة تلك التاء الملقة بكلمة "الحقيقة".^٣

١. مفتاح العلوم ص ٣٦٠.

٢. الإيضاح، ٨٩/٣، وانظر: موهب الفتاح لابن يعقوب، ٤/٤ (ضمن شروح التلخیص).

٣. راجع: ما ذكرناه آنفاً في آخر حمل صاحب "تاج العروس" عند انتقاد كتابة (حق).

المسألة الثانية: تعریف مصطلح "الحقيقة" عند البلاغيين:

إن "الحقيقة" في اصطلاحهم تعني: "الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب". ثم أخذوا يشرحون هذا التعريف، ويوضحون ما فيه من أوجه الاحتراز ليثبتوا أنه تعريف جامع مانع، فيقولون: قولنا: الكلمة "المستعملة" احتراز عما لم يستعمل، فإن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة.

وقولنا: "فيما وضعت له" احتراز عن شيئاً:

أحددهما: ما استعمل في غير ما وضعت له غلطًا، كما إذا أردت أن تقول لصاحبك: خذ هذا الكتاب، مشيرًا إلى كتاب بين يديك، فغلطت فقلت: خذ هذا الفرس. والآخر: أحد قسمي "المجاز"، وهو: ما استعمل فيما لم يكن موضوعاً له لا في اصطلاح به التخاطب ولا في غيره، وذلك كاستعمال لفظة "الأسد" في الرجل الشجاع. وقولنا: "في اصطلاح به التخاطب"، احتراز عن القسم الآخر من "المجاز"، وهو: ما استعمل فيما وضع له لا في اصطلاح به التخاطب، وذلك كلفظ "الصلة" يستعمله المُخَاطِبُ بعرف الشرع في "الدعاء" مجازاً.

المقصود "بالوضع": لقد اشتمل تعريف الحقيقة على "الوضع"، واعتبر هو الأساس الذي يرجع إليه في تحديد نوع الكلمة من جهة الحقيقة أو المجاز، بل وإلى تعين أقسامهما أيضًا، فما المراد به؟

"الوضع" عند جمهور المحققين هو: تعين اللفظ للدلالة على معنى بنفسه وقولنا: بنفسه"احتراز من تعين اللفظ للدلالة على معنى بقرينة. أعني: المجاز فإن ذلك التعين لا يسمى وضعًا ودخل "المشترك" في الحد، لأن عدم دلالته على أحد معنّيه بلا قرينة لعارض. أعني: الاشتراك. لا ينافي تعينه للدلالة عليه بنفسه، وذلك كلفظ "القرء" فقد عيّن تارة للدلالة على "الطهر" بنفسه، وعيّن تارة أخرى للدلالة على "الحيض" بنفسه كذلك، فهو موضوع لكل منها على استقلال.

وأقيل: إن الوضع وهذا القول ينسب إلى عباد بن سليمان الصيمرى وهو من المعتزلة.
هو: دلالة اللفظ على معناه لذاته، بمعنى: أن بين اللفظ والمعنى علاقة ذاتية طبيعية ربطت
بينهما، واقتضت دلالة اللفظ على معناه، فكل من سمع اللفظ، فهم المعنى بهذه
العلاقة الذاتية، وحجة صاحب هذا الرأي ثلاثة أمور:

الأول: وجود العلاقة الذاتية بين كثير من الألفاظ ومعانيها، فلafظ "العواء"
بالضم، إنما دل على صوت الذئب، لما بين الدال والمدلول من علاقة ذاتية هي التوافق
في الصوت والحرروف، ومثله "المواء" بضم الميم لصوت القط، و"القهقهة" لصوت
الضاحك، إلى غير ذلك مما فيه توافق بين الدال والمدلول.
الثاني: أنه لو لا وجود هذه العلاقة بينهما لكان اختيار لفظ دون آخر ترجياً بلا
مرجع.

الثالث: أن للحرروف في أنفسها خواصاً، وصفاتٍ.. وذلك "كالفصم" بالفاء التي هي حرف رخو، فإنه وضع لكسر الشيء من غير أن يَبِينَ، و"كالقصم" بالقاف التي هي حرف شديد، فإنه وضع لكسر الشيء حتى يَبِينَ، ولا شك أن كسر الشيء مع البيوننة أشد وأقوى من الكسر بلا بيوننة. كما أن لهيئات تركيب الحروف أيضاً خواصاً وصفاتٍ تقتضي ألا يهمل أمرها عند وضع اللفظ للمعنى، بأن يراعي التناسب بينهما أداء لحكمة اتصاف الحروف، أو هيئاتها بتلك الخواص، وذلك مثل وزن "الفعلان، والفعلى" بالتحريك فيهما فإنهما وضعا لما فيه حركة واضطراب، كالنَّزُوان والغَيَان، وكالحَيَدَى والجمَرَى وصفين للحمار السريع، ومثل وزن "فَعْلَ" كشرفٌ وعَظَمٌ فإنه يدل على أفعال الطبيع والسجلا وقد حُكم على هذا الرأي بالفساد، ورد عليه بعدة ردود، منها:

أولاً: لو أن اللفظ يطلب المعنى لعلاقة ذاتية بينهما، للزم أن يفهم الإنسان معنى اللفظ في أي لغة من اللغات، بدون حاجة إلى تعلمٍ متى رجع إلى ما بينهما من علاقة الواقع ليس كذلك، بل لماً اختلفت اللغات في معنى اللفظ الواحد باختلاف الأهم لأن اللفظ دال بذاته، وما بالذات لا يختلف باختلاف الغير واللازم باطل.



ثانياً: لو أن اللفظ دال بذاته على المعنى؛ لامتنع أن يدل بواسطه القراءة على المعنى المجازي دون الحقيقي. كـ ما في "الأسد" المستعمل في الرجل الشجاع بقراءة "الحمام" مثلاً، ولامتنع أيضاً أن ينقل اللفظ من معنى إلى آخر بحيث لا يفهم منه إلا المعنى الثاني "الصلة" المنقوله من معنى الدعاء إلى الأركان الخاصة، وكالدابة المنقوله من كل ما يدب على الأرض إلى ذوات الأربع لأن اللفظ. فيما ذكرنا دال بذاته على المعنى الأول وما بالذات لا يزول بالغير واللازم باطل.

ثالثاً: لو كانت المناسبة الذاتية دليلاً على المعنى فيما بينهما من ذلك التوافق في الصوت والحرف كالذي مثل به هذا القائل من "العُوَاء، والمُوَاء، والقَهْقَهَة"؛ فكيف تهض دليلاً فيما لا تتوافق بينهما، مع ما نعلمه من خلو غالب الألفاظ من هذا التوافق؟.
رابعاً: ماذا يقول صاحب هذا الرأي فيما هو مشاهد من دلالة كثير من الألفاظ على معانيها، وعلى أضداد هذه المعاني، فأي أثر للمناسبة الذاتية هنا بين اللفظ، وضد معناه؟
خامسًا: هل كفي أن يكون مجرد عروض للفظ، دون غيره للخاطر مر جحًّا وداعاً إلى اختياره؟.

سادساً: أن اعتبار التناسب بين اللفظ والمعنى بحسب خواص الحروف أو هيئات تركيبها كما قيل إنما يظهر في بعض الكلمات. كالأمثلة التي ذكرت آنفاً، أما اعتباره في جميع الكلمات من لغة واحدة، فضلاً عن جميع اللغات، فمتعذر أيماتعذر، ولعل تلك الألفاظ المذكورة وما شاكلها وضعت لمعانيها اتفاقاً، بدون مراعاة التناسب بينهما! ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن مصطلح "الوضع" الذي ذكره البلاغيون في تعريفهم للحقيقة والمجاز، والمعتبر في التمييز بينهما إنما هو "الوضع اللغوي"، فالكلمات التي استعملت فيما وضعت له سميناها "حقيقة"، والتي استعملت في غير ما وضعت له سميناها "مجازاً". وليس المقصود به الوضع الأول أعني: الصورة التي تحققت بها اللغة

١- يرا جع: الإيضاح مع البغيية ٣/٨٤، واد ظر: شروح التأسيخ ٤/٨، والمذاهاج الواضح لحا مد عوني ٣/١٩٨، ط: مكتبة الجامعة الأزهرية ط: ١٩٧٢م.

عند نشأتها الأولى، وإنما المراد به الوضع أو الاستعمال العرفي، أعني: الدلالات التي يشيع استخدام الكلم فيها في عرف الاستعمال، وهو الذي يستطيع في ضوئه التفرقة بين الحقيقة والمجاز، والذي يقود، وبالتالي، إلى الوعي بتطور اللغة لا الإيمان بثباتها أو جمودها^١.

المسألة الثالثة: أقسام الحقيقة عند البلاغيين:

إن البلاغيين قد قسموا الحقيقة بالنظر إلى الواقع إلى أربعة أقسام: فإذا كان واعظ تلك الحقيقة هو واعظ اللغة، سميت (حقيقة لغوية)، وإذا كان واعظها واعظ الشرع سميت (حقيقة شرعية)، وإذا كان واعظها أهل عرف خاص، سميت (حقيقة عرفية خاصة)، وإذا كان واعظها أهل عرف عام، أطلق عليها (حقيقة عرفية عامة).

وإليك الحديث عن هذه الأقسام بشيء من التفصيل:

أولاً: الحقيقة اللغوية: وهي ما واعظها واعظ اللغة، ودللت على معانٍ مصطلح عليها في تلك المواجهة، وذلك نحو الألفاظ: السماء، الأرض، الإنسان، النبات، الفرس... إلى آخره فإذا استعملت هذه الألفاظ في معناها الأصلي، فإنها تكون حقيقة لغوية، وإذا استعملت في غيره فإنها تكون مجازاً، ومثل كلمة "أسد" إذا أطلقها المخاطب على "السبع" فإنها تكون حقيقة لغوية.

ثانياً: الحقيقة الشرعية: وهي اللفظة التي يستفاد من جهة الشرع وضعها المعنى غير ما كانت تدل عليه في أصل واعظها اللغوي، وهي نوعان:

الأول: أسماء شرعية: وهي التي لا تفيد مدحاً أو ذمّاً عند إطلاقها نحو: الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، وسائر الأسماء الشرعية.

والآخر: أسماء دينية: وهي التي تفيد مدحاً أو ذمّاً نحو: مسلم، مؤمن، وكافر، وفاسق، ومنافق، إلى آخره.

ثالثاً: الحقيقة العرفية العامة: وهي الألفاظ التي واعظها أهل العرف العلررأي: التي لم يختص بوضعها طائفة مخصوصة من الناس، وذلك كلفظ "دابة"، فإنها وضعت في الأصل

¹ محاضرات في علم البيان / حسن طبل ص ١٢٠ - ١٢٨ ط: مكتبة الزهراء، ط٤: ٩٨٤ هـ.



لكل ما يدب على الأرض، فيشمل ذلك الحيوانات والحشرات وغير ذلك، ولكنها اختصت من بين سائر ما يدب على الأرض. بعض الدواب ذات القوائم الأربع مثل: الحمار، والبغل، والفرس.

رابعاً: الحقيقة العرفية الخاصة: وهي الألفاظ التي وضعها أهل عرف خاص وجرت على ألسنة العلماء من الاصطلاحات التي تخص كل علم، فإنها في استعمالها تعتبر حقائق، وإن خالفت الأوضاع اللغوية، وذلك نحو: ما يجريه أهل الحرف والصناعات والعلوم فيما يفهمونه بينهم، مثل ألفاظ: الجوهر، والعَرْض، والكُوْن، وغير ذلك مما يستعمله أهل الكلام في مباحثهم، ومثل: الرفع، والنصب، والجذم، والحال، والتمييز، وغير ذلك مما يستعمله النحاة في مُواضعاتهم.

هذا، ويلاحظ أن الحقيقة اللغوية هي أساس اللغة، أما الحقيقة الشرعية والعرفية فهما نقل للغة إلى معانٍ جديدة يصطلاح عليها الناس.¹

النقطة السادسة: الموازنة بين القيمة الجمالية لأسلوبي الحقيقة والمجاز:
إن هذه النقطة تعد من أهم الدوافع والأسباب التي كانت وراء تناول هذا الموضوع حيث إن المقوله الذائعة في مصنفات البلاغيين وهي: "أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة" أحسب أنها كانت وراء إلحاجم وعزوف كثير من العلماء عن تناول أسلوب الحقيقة والإبحار في أعماقه، لاستخراج درره ولآلئه المكنونة في الأساليب البليغة الرائقية إلتي أحظ أن البلاغيين في الوقت الذي يربطون فيه بين وجود أسلوبيني الحقيقة والمجاز على اعتبار أن أحدهما لا تتضح مكانته إلا بذكر الآخر، فإننا نراهم حين يوازنون بينهما يتهمون إلى نتيجة واحدة. وهي التي ذكرتها آنفًا أعني: "أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة". وكتأن هذه المقوله التي تناقلها العلماء على إطلاقها قد أصبحت أمراً مسلماً به، حتى وجدناها تتردد في كلامهم جميعاً.

¹ براج: الا طراز ص ٢٦، والإيضاح ٨٨/٣، وشروح التأصيص ٤/٢٧، ومعجم الاصطلاحات البلاغية وتطورها د/أحمد مطلوب ص ٤٧٦ ط: مكتبة لبنان للنشر ون، بيروت، ط: الثانية ط: ١٩٩٦م.

وفي هذا المقام أجد أن هناك عدة أسئلة تفرض نفسها، وهي: من صاحب تلك المقوله التي ذاعت في تراثنا البلاغي؟ والتي كان من آثارها الإهمال الذي أطاب الحقيقة وهل صحيح: أن المجاز عموماً أبلغ من الحقيقة؟ وما المقصود من الأبلاغية عندهم؟ هل هي من البلاغة أم من المبالغة؟.

وللإجابة عن التساؤل الأول والثاني: أقول: الذي يبدوا لي أن ابن رشيق (٤٥٦هـ) يعد هو أول من جهر بهذه المقوله صراحة، وإن وردت عند من سبقه ضمناً، ثم تناقلها اللاحقون من بعده، وعبارةه التي سجلها في كتابه (العمدة) هي: "والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع".

لاحظ قوله: "في كثير من الكلام، إنه يتحفظ في ذكرها، ويقيد إطلاقها، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى وعيه وفهمه لأسرار الكلام وإدراكه مراميه إن فهو عبارته هذه تشير إلى أن هناك مواطناً للمجاز لا يكون فيها أبلغ من الحقيقة وإنما يكون هو والحقيقة سواء في أداء المعنى، بل ربما تكون الحقيقة أبلغ وأبين منه في ذلك. وهذه المقوله لها واقع عند من سبقه من البلاغيين والذقاد من أمثل: الأمدي ت (٣٧٠هـ)، والرماني ت (٣٨٦هـ)، وابن جني ت (٣٩٢هـ)، وابن فارس ت (٣٩٥هـ)، وأبي هلال العسكري ت (٣٩٥هـ)، والشريف الرضي ت (٤٠٤هـ)، وابن سنان ت (٤٤٠هـ)، وغيرهم. وإليك بعض أقوالهم التي تضمنت القول بأبلغية المجاز على الحقيقة يقول الرماني في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿فَاصْنَعْ بِمَا تُؤْمِنُ﴾ [الحجر/٩٤]. "حقيقةه: فبلغ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدح بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدح الزجاجة والت bliغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع، والمعنى الذي يجمعهما الإيصال، إلا أن الإيصال الذي له تأثير كصدح الزجاجة أبلغ"، كما يعلق على قوله عزوجل:

١. العمدة/٤٣٠. تحقيق د/ النبوى شعلان، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة. ط: الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

﴿إِنَّا لَمَا كُنَّا طَفَالًا حَمَلْتُمُونِي إِلَيْهِ﴾ [الحاقة ١١/٦] بقوله: "حقيقة عَلَى والاستعارة أبلغ لأن

طغى عَلَى قاهرًا وهو مبالغة في عظم الحال".^١

ويقول أبو هلال في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبَنَا﴾ [مريم ٧/٤]

"حقيقة: كث الشيب في الرأس وظهر، والاستعارة أبلغ، لفضل ضياء النار على ضياء الشيب، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه، وأنه لا يتلا في انتشاره في الرأس كملا

يتلا في اشتعال النار." ك ما يعلق على قوله تعالى: ﴿مِنْ أَعْذَابِ الْأَدَقَ دُونَ﴾

[السجدة ٢١/٣]. بقوله: "حقيقة: لنعذبنهم، والاستعارة أبلغ، لأن حس الذائق أقوى لإدراك ما يذوقه، وللذوق فضل على غيره من الحواس... ألا ترى أن الإنسان إذا رأى شيئاً لم يعرفه شمّه، فإن عرفه وإن ذاقه، لما يعلم أن للذوق فضلاً في تبيان الأشياء".^٢

ويعلق ابن سنان الخفاجي على قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبَنَا﴾ [مريم ٧/٤]

بقوله: "الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب، فلما نقل إليه، بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس، ويensus في فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسرى. فيه، حتى تحيله إلى غير حالته المقدمة، وهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ولابد أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها: لأن الحقيقة لو قامت مقلماً كانت أولى: لأنها الأصل، والاستعارة الفرع".^٣ وغير ذلك كثير.

وعندما أتى ابن رشيق (٤٤٥٦هـ). ورأى مثل هذه المقولات وغيرها، والتي ترفع من شأن العبارة المجازية، أيًّا كان نوعها، ووجد من سبقه يكادون يجمعون على أن المجاز يفيد ما لا تفيده الحقيقة، ولو لا ذلك ل كانت الحقيقة أولى منه. صاغ ما قاله السابقون في

١. النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٨٠ (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن). تحقيق د/ محمد خلف الله د/ محمد زغلول سلام. ط: دار المعارف. القاهرة.

٢. الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٧٨. ٢٨١.

٣. سر الافتتاح لابن سنان الخفاجي ص ١٣٤ تحقيق عبد المتعال الصعدي. ط: مكتبة صبيح. لا فلهرة. ط: ٩٥٢م.

هذه المقوله الشهيره: ”المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة“، وتبعد فيه اجل من أتى بعده، وأصبحت تلك المقوله ذاته الصيت في تراثنا البلاغي، بل وزادوا عليها ولم تنقل كما قالها.

وعندما جاء سيبويه البلاغة وخلياه على حد تعبير د / عبد العظيم المطعني^١. الإمام عبد القاهر الجرجاني: رأينا في كتابه (دلائل الإعجاز) ينسب إلى من سبقه هذه العبارة، ويصوغها صياغة تؤكد ارتضاه لها، فيقول: ”قد أجمع الجميع على أن ”الكلية“ أبلغ من الإفصاح، و”التعريض“ أوقع من التصريح، وأن ”الاستعارة“ مزية وفضلا، وأن ”المجاز“ أبداً أبلغ من الحقيقة“^٢.

وإذا أنعمنا النظر في نظمته لتلك العبارة لرأينا أن فيها تسامحاً إلى حد ما، حيث إنه بدأها بقوله ”قد أجمع الجميع“، ونحن نعلم أن الحرف ”قد“ عندما يدخل على الفعل الماضي فإنه يفيد التحقيق والتأكيد، ثم عندما ذكر ”الكنية والتعريض“ ذكر معهما المفضل عليه ”الإفصاح والتصريح“، وعندما ذكر ”الاستعارة“ لم يذكر المفضل عليه معها، ربما لشهرته لم يذكره وهو ”التشبيه“. وإنما قال ”لها مزية وفضلا“، ثم خرج من التعبير بهذا الخاص وهو ”الاستعارة“ إلى التعبير بلفظ العموم، فقال ” وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة“، فجمع بين المفضل والمفضول عليه معًا، لإفاده التأكيد، ثم لاحظ قوله ”أبداً“ التي هي ظرف زمان يفيد الدوام والاستمرار.

فمعنى كلامه. رحمة الله. أن المجاز أينما حل في العبارة كان أفضل وأبلغ، مع أنه نفسه ذكر أن هناك نوعاً من الاستعارة يسمى بالاستعارة ”غير المفيدة“^٢. فكيف يكون أبلغ دائمًا ومنه غير المفید؟ كما أن هناك من النقاد من قال بأن الاستعارات

١. ينظر: المجاز، ١٠٧٧/٢.

٢. دلائل الإعجاز، ٧٠، تحقيق/ محمد مودع شلكر، ط: الـمـدـنـيـ، الـقـاهـرـةـ، وـجـدـةـ، طـ:ـالـثـالـثـةـ، طـ: ١٤١٣ـهـ، ١٩٩٢ـمـ.

٣. راجع: أسرار البلاغة، ٣٠، ٤٠.

ليست كلها على درجة واحدة من الجمال، فهناك الاستعارات التي قيل عنها أنها قبيحة مطروحة!

ومن ثم يكون قوله: "إن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة" فيه تسامحٌ وكان عليه أن يقييد ذلك بالمجاز "المفيد" لا غير، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه قال في صدر عبارته "قد أجمع الجميع"، وهذا يدل على أن جميع من سبقه من العلماء قد قال بأفظالية المجاز على الحقيقة، مع أن هناك منهم من ساوي بينه ما في ذلك كالباقلاني (٤٠٣)، وذلك في قوله: "والتصرف في الاستعارة البدعة يصح أن يتعلق به الإعجاز كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام؛ لأن البلاغة في كل واحد من الباسين تجرييجري واحداً، وتأخذ مأخذًا مفرداً".^٢

ولو أنه خفف من عبارته تلك وقال مثلاً: "أجمع كثير من السابقين على كذا" كان كلامه أقرب إلى الصواب والدقة.

ومن ثم أقول: إن الادعاء بأن المجاز على عمومه أبلغ من الحقيقة، ادعاء لا يمكن قبوله، لأنه غير دقيق، ولا يستند إلى دليل.

ثم عندما نأتي إلى السكاكي ت (٦٢٦هـ) نجد أنه يقتفي أثر عبد القاهر ويردد المقلولة نفسها، فيقول: "واعلم أن أرباب البلاغة، وأصحاب الصياغة للمعاني مُطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأن الكلية أوقع من الإفصاح بالذكر".^٣

ثم نراه يشرح تلك العبارة ويوضحها، وبين المعنى منها، ذاكراً العلة والسبب الذي من أجله كان المجاز في الكلام أبلغ من الحقيقة، مشارياً إلى أن ذلك يرجع إلى طبيعة المجاز نفسه، وأن الشيء معه يقدم مصحوباً بدليله. متأثراً في ذلك بما قرره عبد القاهر

١. انظر الموسوعة ١٨٧، ٢٠٨، ص ١٨٧، تحقق يق / ١٨٧١، مد صقر، ط: دار المعرفة، ١٩٦٥م، و سرالا فضاحية، ١٣٩، والوساطة بين المتبني وخصوصه للفاضي الجرجاني، ص ٣٠، تحقيق / محمد أبوالفضل إبراهيم، وعلى البجاوي، ط: عيسى الحلي، القاهرة.

٢. إعجاز القرآن للباقلاني، ص ٤٢، تحقيق / السيد أحمد صقر، ط: دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٣. مفتاح العلوم، ص ٤٢.

في هذا الشأن. يقول السكاكـي: "والسبب في أن المجاز أبلغ من الحقيقة هو: ما عرفت أن مبني المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، فأنت في قوله: "رعينا الغيث". وهو التعبير المجازي. ذاكراً لملزوم "النـت" مـريداً به لازمهـ بمنزلة مـدعـي الشـيء بـبيـنة، فإن وجود الملزوم شـاهـد لـوـجـودـ الـلـازـمـ، لـامـتنـاعـ اـنـفـكـاـكـ المـلـزـومـ عنـ الـلـازـمـ، لأـداءـ اـنـفـكـاـكـ عـنهـ إـلـىـ كـوـنـ الشـيءـ مـلـزـومـاـ غـيرـ مـلـزـمـ باـعـتـارـ وـاحـدـ. أماـ قـولـكـ: "رعينا النـتـ". وهوـ التـعبـيرـ الـحـقـيقـيـ. فأـنـتـ فـيـهـ تـكـونـ مـدـعـيـاـ لـلـشـيءـ لـاـ بـيـنةـ، وـكـمـ بـيـنـ اـدـعـاءـ الشـيءـ بـيـنةـ، وـبـيـنـ اـدـعـاءـهـ لـاـ بـهـاـ".

وعندما نصل إلى الخطيب القزويني ت (٥٧٣٩هـ) نجدـهـ يـحـذـوـ حـذـوـ مـنـ سـبـقـهـ فـيـنـقـلـ كـلـامـهـمـ فـيـ ذـلـكـ، وـيـقـولـ: "أـطـبـقـ الـبـلـاغـ عـلـىـ أـنـ الـمـجـازـ أـبـلـغـ مـنـ الـحـقـيقـةـ وـأـنـ الـاسـتـعـارـةـ أـبـلـغـ مـنـ التـصـرـيـحـ بـالـتـشـبـيـهـ، وـأـنـ التـمـثـيلـ عـلـىـ سـبـيـلـ الـاسـتـعـارـةـ أـبـلـغـ مـنـ التـمـثـيلـ لـاـ عـلـىـ سـبـيـلـ الـاسـتـعـارـةـ، وـأـنـ الـكـنـاـيـةـ أـبـلـغـ مـنـ الإـفـصـاحـ بـالـذـكـرـ".^٢

ومـاـ قـالـهـ العـلـوـيـ ت (٦٧٤٩هـ) فـيـ "الـطـرـازـ" لـاـ يـخـرـجـ عـمـاـ قـيـلـ قـبـلـ حـيـثـ يـقـولـ: "اعـلـمـ أـنـ أـرـبـابـ الـبـلـاغـ، وـجـهـابـذـةـ أـهـلـ الصـنـاعـةـ، مـطـبـقـوـنـ عـلـىـ أـنـ الـمـجـازـ فـيـ الـاسـتـعـامـلـ أـبـلـغـ مـنـ الـحـقـيقـةـ، وـأـنـ يـلـطـفـ الـكـلـامـ، وـيـكـسـبـهـ حـلـاوـةـ، وـيـكـسـوـهـ رـشـاقـةـ".^٣

أـرـأـيـتـ كـيـفـ ذـاعـتـ تـلـكـ الـمـقـوـلـةـ "الـمـجـازـ أـبـلـغـ مـنـ الـحـقـيقـةـ" فـيـ مـصـنـفـاتـ الـبـلـاغـيـنـ عـلـىـ مـرـعـصـورـ، حـتـىـ أـصـبـحـتـ كـثـيرـةـ الدـورـانـ فـيـمـاـ بـيـنـهـمـ؟!

كـمـاـ أـنـ هـذـهـ الـمـقـوـلـةـ توـمـئـ إـلـىـ أـنـ هـنـاكـ اـتـفـاقـاـ بـيـنـ عـلـمـائـاـنـ الـأـجـلـاءـ عـلـىـ أـنـ التـعـبـيرـ بـالـمـجـازـ أـعـظـمـ تـأـثـرـاـ، وـأـكـثـرـ جـمـالـاـ مـنـ التـعـبـيرـ بـالـحـقـيقـةـ. وـلـكـنـ" هـذـاـ الـحـكـمـ يـفـتـقـرـ إـلـىـ الـدـقـةـ، لـأـنـ هـنـاكـ كـثـيرـاـ مـنـ التـعـبـيرـاتـ الـمـجـازـيـةـ فـقـدـتـ قـدـرـتـهاـ عـلـىـ إـلـثـارـةـ، فـمـاـ تـتـ وـتـحـجـرـتـ، وـأـنـ هـنـاكـ كـثـيرـاـ مـنـ الـأـسـلـيـبـ الـحـقـيقـيـةـ تـشـتـمـلـ عـلـىـ طـاقـةـ هـائـلـةـ مـنـ الـحـيـاةـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ إـلـثـارـةـ. فـالـمـثـالـ الـتـقـلـيدـيـ "أـسـدـ شـاكـيـ السـلاـحـ"، مـثـالـ مـتـحـجـرـ بـارـدـ يـفـتـقـرـ إـلـىـ

١ـ المرجـعـ السـابـقـ الـمـوـضـعـ نـفـسـهـ بـتـصـرـفـ.

٢ـ الإـلـيـاضـحـ مـعـ الـبـغـيـةـ ١٩١/٣.

٣ـ الـطـرـازـ صـ ٢٠٦.



الطاقة المثيرة، وإنه بوسع الشخص أن يعبر عن "الشجاع" بأسلوب حقيقي أكثر إثارة للانتباه، وتحريكاً للعواطف، فيمكن أن يقال مثلاً: "دخل الحرب غير هياب، دخالها وأسراب الطائرات المدوية، ودخان القنابل والحرائق الهائلة يغطي السماء، لا تمضي ساعة بل أقل منها إلا ويسقط إلى جنبه الواحد أو الاثنين مضرجين بالدم، ويلهجان بالشهادة. أما هو فكان على شراسته يواجه العدو، ويضمد الجرحى، ويواري القتلى من الشهداء".^١

أما الإجابة عن التساؤل الثالث: وهو: ما المقصود من الأبلغية عندهم، هل هي من البلاغة أم من المبالغة؟.

أقول: إن كلمة "أبلغ" أفعال تفضيل، وهي إما أن تكون مأخوذة من الفعل الثلاثي: "بلغ" ومصدره "بلاغة" ومعنىها اللغوي: أفضل وأحسن. وإما أن تكون مأخوذة من الفعل الرباعي: "أبلغ" ومصدره "إبلاغاً"، أو مأخوذة من الفعل "بالغ" ومصدره "بالغة". وصياغة أفعال التفضيل من الفعل غير الثلاثي "جائز قياساً مطلقاً على مذهب سيبويه والمحققين من أصحابه، واختاره ابن مالك إن كان الفعل مزيداً بالهمزة في أوله؟"؛ ونقل الرضي في شرح الكافية عن "الأخفش والمبرد جواز بنائه من جميع الأفعال المزيد فيها"؛ ويكون المعنى: أن الكلام الذي يستعمل على المجاز يصبح أكثر مبالغة من غيره وما ذكره عبد القاهر حول شرحه لعبارة يؤيد هذا المعنى الثاني. أما الأول وهو أنها

١. المجاز في البلاغة العربية / د. هدي صالح لسامرائي ص ٢٣٨، ط: دار الدعوة - سوريا، ط: الأولى ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

٢. الكتاب لسيبوهيا ٢٠٣٧/٦٤ تحقيق عيسى الشيخ / بدأ لسلام هارون، ط: دار الجيل، بيروت، ط: الأولى، واد ظر، شرح التصريح على النحو صحيح لشيخ خالد الأزر هري ٩١/٢، وشرح الكافية لشافعية ابن مالك ٢٠٨٩/٥٧٩، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفورا ٢٣٠.

٣. شرح كافية ابن الحجا ج ٤/٢٣٠، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

مأخوذة من البلاغة فلا يتسق مع مغزى العبارة، لأنه، كما قيل، ”رب حقيقة تكون أبلغ من مجاز، لوقوعها في مقام لا يستدعي المبالغة“^١.

إذاً كلمة أبلغ هنا لا يمكن أن تتحمل على البلاغة الاصطلاحية، وهي: المطابقة لمقتضى الحال؛ لأنها تثبت للحقيقة أيضًا، إذ قد يكون الحال لا يقتضي إلا الحقيقة فتكون أبلغ من المجاز، أي: أكثر مطابقة للحال منه.

وأنبه هنا إلى أن الإمام عبد القاهر عندما ذكر عبارته عن أبلغية المجاز على الحقيقة لم يرم بها، كغيره، دون شرح أو توضيح، بل وقف أمامها ليوضح مكمن الأبلغية، أين هي؟ مع بيان العلة والسبب في ذلك، حتى تطمئن النفوس، وتسكن تمام السكون على حد تعبيره، إذا عرفت السبب في ذلك والعلة، ولمْ كان كذلك؟ ثم أشار إلى أن الأبلغية في ”المجاز والاستعارة والكناية والتمثيل“، ليس معناها أنها تفيد زلة في أصل المعنى لا يفيدها ما يقابلها، وإنما المراد: أنها تفيد توضيح الصورة مع تقوية المعنى وتأكيداته، فالمعنى لا يتغير حين نسوقه في أسلوب المجاز أو الحقيقة، فلن تكون الشجاعة على سبيل المثال. في المجاز غير الشجاعة في الحقيقة، ولكن الذي يتغير هو الطريق الذي منه نسوق المعنى ونثبته، يحدثنا عن ذلك فيقول: ”اعلم أن سبيلك أولًا تعلم أن ليست المزية التي تُثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعى لها، في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إليها“، فليست فضيلة قولنا ”رأيت أسدًا“ على قولنا ”رأيت رجلًا هو والأسد سواء في الشجاعة“، إن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفدها الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات تلك المساواة لم يفدها الثاني، والسبب في ذلك أن الانتقال يكون من الملزوم إلى اللازم، فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته من دعوه بلا بينة“^٢.

١- تحرير العلامة البناي مع مختصر العلام / سعد الدين التفتازاني ٢٨٣/٢ ط: محمد على صبح، القاهرة، ط: الثانية، ١٣٥٧هـ.

٢- دلائل الإعجاز ص ٧٦، والإيضاح ص ١٩٢، وانظر: مفتاح العلوم ص ٤١٣.



وبذلك استطاع الإمام بعقربيته الفذة أن يضع أيدينا على ما يفعله المجاز في العبارة ، وهذا مما يحمد له هنا، حيث إنه أبى أن يقف حيث وقف من سبقه. وبذلك يكون قد فتح الباب أمام من أتى بعده للبحث عن جمال الأساليب المجازية، وأسباب تأثيرها، فنجد الرازي ت(٦٠٦هـ) يذكر لنا شيئاً من ذلك فيقول: "إذا عبر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة، حصل كمال العلم به، فلا تحصل اللذة القوية، أما إذا عبر عنه بلوازمه الخارجية، وعرف لا على سبيل الكمال فتحصل الحالة المذكورة التي هي كالدغدة النفسانية، فلأجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية أذ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقة"^١ ويزيد صاحب كتاب "الصورة الفنية في التراث النثري والبلاغي" كلام الرازي وضوحاً، بقوله: "أي: أن الصورة المجازية تحل محل مجموعة من العبارات الحرافية، تتساوى معها في الدلالة، ولكن خصوصية الصورة المجازية تتجلى في أنها لا تقود المتلقى إلى الغرض مباشرة، مثلاً تفعل العبارات الحرافية، وإنما تحرف به عن الغرض، وتحاوره وتداوره بنوع من التمويه، فتبرز له جانباً من المعنى، وتحفي عنه جانباً آخر، حتى تثير شوقة وفضوله، فيقبل المتلقى على تأمل الصورة المجازية واستبطاطها، وعندئذ ينكشف له الجانب الخفي من المعنى، ويظهر الغرض كاملاً، ويكون من نتائج هذه العملية أنها تتيح للمتلقي نوعاً من الدهشة السارة، أو المفاجأة الممتعة".^٢

وعندما نلتقي بابن الأثير ت(٦٣٧هـ) نجده يحدثنا عن جمال العبارة المجازية، وأثرها النفسي المباشر في سامعها، وأنها تعمل فيه عمل السحر في الإنسان، فيقول: "وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال، حتى إنها ليس بمحظوظ بها البخل، ويشجع بها الجبان، ويحكم بها الطائش المتسريع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق

١. الم حصول في علم الأصول . محمد بن عبد الله لرازي ص ٤٦٧ تحقيق / طه جابر فياض العلواني، نشر: جامعة الإمام بالرياض. ط: ٤٠٠٤هـ.

٢. الصورة الفنية في التراث النثري والبلاغي / جابر أحمد عصفور ص ٣٦٢ ط: دار المعارف، ط: ١٩٨٠م.

وندم على ما كان منه من: بذل مال، أو ترك عقوبة، أو إقدام على أمر مهول وهذا فهو
السحر الحال المستغنى عن إلقاء العصا والجبار.^١

هذا، وبعد تأصيلنا لتلك المقوله، وذكرنا لرأي بعض البلاغيين حولها، والتبيّن التي
توصلوا إليها وهي: أن المجاز أبلغ من الحقيقة، أقول: من خلال اطلاعنا على كثير من
الأساليب المعبرة، والمؤدية للمعاني المتعددة، والمؤثرة في متلقينها، على اختلاف
ثقافتهم، وتنوع مشاربهم، لا نسلم بتلك النتيجة، أو المقالة المذكورة على إطلاقها
لأن فيها هضماً للحقيقة، وتهويناً لشأنها، وإجحافاً لدورها في الأداء التعبيري، "أجل إن
المجاز في تعبير بعينه. قد يكون له من الأثر الفني، والوظيفية التعبيرية، ما به يكون أبلغ
وأسمني من الحقيقة، ولكن ذلك لا يبرر إطلاق الحكم بأن المجاز دائمًا أبلغ من الحقيقة
وأجمل منها، فالحقيقة والمجاز هما وسليتان من وسائل التعبير، تستمد كل منهما
بلاغتها وجمالها الفني من موامعتها في موقعها الخاص للسياق الذي ترد فيه، ومؤدى
ذلك أن: الحقيقة في موقعها هي أبلغ وأجمل من المجاز في غير موقعه".^٢

فالمجاز إذا كان له قيمته الجمالية التي تكمن في التصوير والتخيل، فإن
للحقيقة أيضاً قيمتها الجمالية التي تمثل في الواقعية والصدق، والبساطة والقرب ومن
ثمر كان للحقيقة موضعها الذي تستعمل فيه، كما أن للمجاز موضعه الذي يستقر فيه فلا
يطغى أحدهما على موطنه الآخر، ولا يُزاحمه فيه، والذي يحدد التعبير بأيهما وينتلي عليه
إنما هو: السياق، ومقتضيات الأحوال، حين يتوافر شرط البلاغة في الكلام.

فالبلاغة إذا كان مضمونها يتمثل في: مراعاة الكلام لمقتضى الحال، فإن هناك
أحوالاً كثيرة تقتضي الاعتماد على الحقيقة البسيطة المجردة عن التصوير، كما إذا كان
المتكلمون على جانب من السذاجة والبساطة لا يستطيعون معها إدراك ما في المجاز
من تخيل، وليس مفروضاً في الكلام البليغ أن يكون دائمًا موجهاً إلى متلقين واعين.

^١.المثل السائِر: ٧٧/١.

^٢.محاضرات في علم البيان ص ١٧٧.

وأيضاً كما لو كان المجال يقتضي من الأديب أن يقنع أو يناقش، فإن المجاز في هذا المجال لا يعني شيئاً.

ولو كانت الحقيقة دائماً أبلغ من المجاز، لو كان كلام الله سبحانه. حقيقة كلام من حيث إنه أبلغ الكلام، ولكننا نرى الحقيقة والمجاز يتباينان جنباً إلى جنب في القرآن الكريم، يقول الزركشي: في كتابه (البرهان) "لَا خَلَفَ فِي أَنَّ كَتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُشْتَمِلُ عَلَى الْحَقَائِقِ، وَهِيَ: كُلُّ كَلَامٍ بَقِيَ عَلَى مَوْضِعِهِ، كَالآيَاتِ الَّتِي لَمْ يَتَجُزُ فِيهَا وَهِيَ الْآيَاتُ النَّاطِقَةُ ظَواهِرُهَا بِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ، وَتَنْزِيهِهِ، وَالْدَّاعِيَةُ إِلَى أَسْمَاهُ وَصَفَاتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَوَالِهِ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر/٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة/٧] ثُمَّ قَالَ أَكْثَرُ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَيِّ عَلَى هَذَا^١"

كما أن التعبير بالحقيقة لو كان أقل بلاغة من التعبير بالمجاز، لخلاف القرآن الكريم كلية من الحقيقة، وفضل التعبير بالمجاز في جميع المواقف والأحوال، في تشريحه وتعليمه كما في ترهيبه وترغيبه، ولسار على نمط واحد من التخييل والتأويل لكي يترك أثره الذي لا يتركه التعبير المحدد الدقيق، ولكن ذلك ناء عن الصواب، فأيات القرآن العديدة أمام الأبطار، واستخراج الآيات التي عبر فيها بالحقيقة ولم يتجوز فيها لا يحصرها عد^٢.

ونصل من ذلك كله إلى أن الحقيقة لا تقل في قيمتها البلاغية عن المجاز، فالبلاغة هي: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والحال أحياناً يدعونا إلى التوضيح أو التحديد أو التقرير، وأحياناً يدعونا إلى المبالغة أو التأكيد أو تكفي فيه الإشارة، أو يفي به الرمز، ولكل موقف ما يناسبه من الكلام سواء كان بالحقيقة أو بالمجاز، بحيث لا يعني أحدهما عن الآخر في نقل المعنى، أو رسم الصورة.

١. البرهان للزرکشی ٢٥٥/٢ . وانظر: الصاحبی ص ٣٠ .

٢. ينظر: القرآن والصورة البیانية / عبد القادر حسین ص ١٢٥ .

فالقول بأن المجاز أبلغ من الحقيقة، لأنني فيه ما يدعمه حتى نقنع به، فهو قضية تقبل النقاش، وليس مبدأ يجب التسليم به، وما قاله البلغاء قديماً: "إن المجاز أبلغ من الحقيقة". كان ذلك تعبيراً عن فقه استدلالي لا علاقة له بالواقع الذي يمارسه الشعراء والأدباء، ونحن ندعى أن الحقيقة تنافي المجاز، وأن المجاز في تعبيرات كثيرة ألمارة على معنى مجرد وراءه، وأن قمة المجاز وهي: الاستعارة المكنية، ينبغي ألا تكون مطمحًا دائمًا متميزًا.^١

وأرى أن موضوع الأبلغية يجب ألا يرتبط بنوع الأسلوب حقيقي أو مجاري بقدر ما يرتبط بالمقامات والأغراض التي يُلقي فيها الكلام، فهناك من المقامات التي تكون في حاجة إلى التعبير بالألفاظ الحقيقة الدلالية، القرية السهلة الواضحة، كما أن هناك من المقامات التي تكون في حاجة إلى التحليق في عالم الخيال بالألفاظ المجازية الجزلة القوية. وهنا يجب على البلغ أن يراعي ذلك كله، يقول الجاحظ، فيما رواه عن صحيفة بشر بن المعتمر: "ينبغي على المتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".^٢

ويقول أيضًا: "كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسميع، والخفيف والتقليل وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعابروا".^٣

١. المرجع السابق الصفحة نفسها.

٢. البيان والتبين للجاحظ/٨٧، تحقيق / فوزي عطوي. ط: دار صعب - بيروت ط: الأولى: ١٩٦٨م.

٣. المرجع السابق/٩٠.

يؤيد ذلك ويؤكد ما ذكره صاحب الأغاني عن بشار بن برد حين قال له قيل: إِنَّكَ
لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت، قال: وما ذاك؟ قال: قلت: بينما تقول شعراً تشير به

الدقع وتخلع به القلوب، مثل قولك:

هَتَكَنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمْطِرَ الدَّمَّا
إِذَا مَا غَضِبَنَا غَضَبَةً مُظْرِيَّةً

ذُرِّيْ مِنْ بِرِّ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَ
إِذَا مَا أَعْرَنَا سَيِّدًا مِنْ قَيْلَةٍ

تقول:

رَبَّابَةُ رَبَّةُ الْبَلْ يَتِ
تَصْبِبُ الْأَخْلَقَ فِي الرَّزْ يَتِ

لَهَاءُ شَرُّدَجَاجَ آتِ
وَدِ يَكْحَ سَنَّا لَصَوْتِ

فقال: لكتل وجه وموضع، فالقول الأول جد، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وألا لا كل
البيض من السوق، وربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض وتحفظه
عندها، فهذا عندها من قوله أحسن من:

قِفَّانِبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ... عَنْكَ ".

رأيت كيف راعى الشاعر المقام فأتنى في البيتين الآخرين بألفاظ سهلة مألوفة
وأسلوب واضح لا التوء فيه ولا غموض؛ لأن المقام يستدعي ذلك، في حين جاءت ألفاظ
الأبيات الأولى جزلة فخمة قوية، محلقاً بها في أفق الخيال "هتكنا حجاب الشمس"؛ لأن
مقامها استدعي ذلك أيضاً؟

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن كثيراً من الباحثين قد أشاروا إشارات موجزة إلى
دور أسلوب الحقيقة في الصورة الفنية، وأن المقام في كثير من الأحيان يحتاج إليها
والسياق ينادي عليها، وأنها لا تقل في دورها وبلاugasتها عن قسيمهما المجاز. ٢

١. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني -ج ٢ / ص ١٥٦، ١٥٧، باب بعض من نوادر بشار. تحقيق: سمير جابر. طبع ونشر: دار الفكر - بيروت. ط: الثانية.

٢. راجع: في ذلك على سبيل المثل لا الحصر: الصورة في شعر بشار بن برد/ عبد الفتاح صالح نافع ص ٥٨ ط: دار الفكر - عمان - ط: ١٩٨٣م، آ. بوتهر الطلق - حيا ته وحياة شعره / نجيب محمد البهبي - ط: ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢م، ١. الصورة في الشعر العربي / ع علي حل - ط: ٢٢٣ ط: دار الثقافة - ط: الأول - ١٩٨٠م. المجاز في البلاغة العربية ص ١٢٣٦ ط: دار الأندلس - بيروت. ط: برهيم بن عبد الرحمن الغنيم ص ١٧٦ ط: = لشركة العربية للنشر والتوزيع .

وفي ختام الحديث حول تلك النقطة: وهي الموازنة بين الحقيقة والمجاز والمقوله التي حفظت عن البلاغيين في ذلك ”أن المجاز أبلغ من الحقيقة“، والتي أطلق عليها بعض الباحثين مسمى المبتورة المطللة.^١ قوله: إن هناك عبارة ذكرها البلاغيون وهم يدافعون عن وقوع المجاز في القرآن الكريم، وهذه العبارة أحسب أنها تعد من الإشارات التي تؤدي من طرف خفي إلى رفع شأن الحقيقة وإعلاء منزلتها. هذه العبارة هي: قولهم: ”لو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن“.^٢

ونحن نتساءل هنا: إذا كان المجاز في القرآن قد حاز شطر الحسن والجمال فلين يذهب شطر الحسن الآخر، ونحن قد أشرنا من قبل. إلى أن الكلام لا يدعو إما أن يكون حقيقة، وإما أن يكون مجازاً، إنه بلا شك يكون من نصيب الحقيقة. وقد سبق أن رأينا الباقلياني يساوي بين المجاز والحقيقة فيما يتعلق بالإعجاز.

* * *

الـ قاهرة ط: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٦ مـ، الذي قد الأدـ بيـ الاـ حديثـ / مدغـيـ هيـ هـلالـ ص: ٤٣٢ـ طـ: زـ هـضاـةـ مصرـ. طـ: ٢٠٠١ـ مـ، الـصورةـ الـبلاغـ يـةـ نـدـعـ بـدـالـ قـاهرـ الجـرـ جـانـيـ منهـ جـاـ وـتطـيـ قـادـ أحـ مدـعـ لـيـ بهـ مـانـ صـ: ١٦٢ـ طـ: مـكتـبةـ الأـسـدـ . سـورـيـةـ طـ: التـانـيـةـ ٢٠٠٠ـ مـ، الـصـورـةـ الـأـدـبـيـةـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ / صـلاحـ الدـينـ عـ بدـ الـتـوابـ صـ: ٢٤ـ طـ: مـكتـبةـ لـبـنـانـ نـاـ شـرـونـ طـ: الأوـلـ: ١٩٩٥ـ مـ، وـغـيرـ هـؤـلـاءـ كـثـيرـونـ . وـلـولاـ خـشـيـةـ الـإـطـاـلـةـ لـهـ لـنـقـلـ نـابـ عـضـامـ ماـ قـالـوهـ فـيـ شـائـنـ بـلـغـةـ الـتـصـوـرـ عـنـ طـرـيقـ الـحـقـيقـةـ . وـحـسـبـنـاـ أـنـاـ شـرـنـاـ إـلـىـ مواـطنـ حـدـيـثـهـمـ عـنـهـاـ، فـلـيـرـجـعـ إـلـيـهـاـ مـنـ شـاءـ .

١ـ انـظـرـ: فـلـسـفـةـ الـبـلـاغـةـ بـيـنـ التـقـنـيـةـ وـالـتـطـورـ / رـجـاءـ عـيـدـ صـ: ٧٤ـ طـ: مـشـأـةـ الـمـعـارـفـ . مصرـ: ١٩٧٩ـ مـ .

٢ـ الـإـتقـانـ: ٢ـ / ١٠٩ـ .

المبحث الثاني

وهو بعنوان: "الجانب التطبيقي". وفيه شواهد متنوعة جاء التصوير فيها بأسلوب الحقيقة، وهي كما يلي:

أولاً: شواهد من القرآن الكريم.

ثانياً: شواهد من الحديث النبوي الشريف.

ثالثاً: شواهد من الشعر العربي.

أمثلة تطبيقية على أسلوب الحقيقة:

والآن أنتقل إلى الجانب التطبيقي على ما سبق أن قررته من أن الحقيقة تعد من الأساليب البينية التي لا يمكن إهمالها.

أقول: إن هناك شواهد وأمثلة كثيرة من الأساليب التعبيرية الفائقة، اعتمدت في تصويرها للمعنى، وإيصاله للمتلقى على أسلوب الحقيقة، وهذه الأمثلة قد وردت في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي. أذكر بعضًا منها لأؤكد وأدعم بها ما ذكرته في شأن الحقيقة كطريق من طرق التعبير البليغة المؤثرة. فأقول:

أولاً: من القرآن الكريم:

لقد اعتمد البيان القرآني في كثير من المواطن على أسلوب الحقيقة واتخذه طريقاً في الإفصاح عما يريد بيانه، وإظهاره للعيان، فمن ذلك، على سبيل المثال لا الحصر: **إِنَّمَاٰ حَفِظُواْ عَلَىَ الْأَصَلَوَاتِ** ﴿١﴾ **وَالصَّلَاةَ الْأَوَّلَةَ وَقُوْمًا لَّهُ قَدِنِيَنَّ** ﴿٢﴾ **إِنْ خَفْتُمْ فِي جَاهَلَةٍ أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنَمْتُمْ فَأَذْكُرُوْنَ** ﴿٣﴾ **اللَّهُ كَمَا عَلَمْتُمْ مَا لَمْ تَكُنُواْ تَعْلَمُونَ** ﴿٤﴾ [البقرة / ٢٢٩ - ٢٢٨].

ومعنى القنوت: قيل المراد به: الطاعة، وهو قول ابن عباس، وقيل: القيم، وهو قول ابن عمر، وقيل: السكوت، وهو مروي عن مجاهد، وقيل: الخشوع.^١

^١ راجع: هذه المعنی في تفسير آيات الأحكام للشيخ/ محمد مدعلي لـ سايس المجلد ١/١٧١. تحقیق/ ناجي إبراهيم سودان. ط: المكتبة الاعصرية. بيروت. ط: الأولى: ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٢ م. هذا، ورجح المؤلف المعنى

إن البيان القرآني في هاتين الآيتين يصور لنا المعنى المطلوب خير تصور وهو إبراز مكانة الصلاة من بين الفرائض، وإبراز منتهى المحافظة عليها، وقد جاء ذلك في ثوب الحقيقة بألفاظ مستعملة في مواضعها، وهذه الألفاظ تتعاون فيما بينها لإخراج هذا المعنى على أكمل وجه، انظر إلى قوله: ﴿ حَفِظُوا ﴾، ومجئها على صيغة "فاعل" وهي تتطلب المبالغة في الحفظ، ثم اختيار حرف الجر ﴿ عَلَى ﴾، ليدل على أن حفظ الصلاة يشمل حفظها من جميع النواحي: من طهارة ووضوء، وأداء لها في أوقاتها ثم الخشوع فيها... إلخ، ثم مجيء ﴿ الْأَصْلَوَاتِ ﴾ بلفظ الجمع دون لفظ المفرد (الصلاحة) حتى لا يفهم من ذلك أن المحافظة تكون على صلاة بعينها، وإنما تعم جميع الصلوات فرضياً كلتاً فـ نـ فـ لـاً، ثم انظر إلى التخصيص بعد العامر: ﴿ وَالْأَصْلَوَاتُ الْوُسْطَى ﴾، ليطلب الحفاظ عليها مرة ثانية، والبيان القرآني لم يعين تلك الصلاة الوسطى قاصداً إلى ذلك حتى يجتهد في المحافظة عليها كلها، وكأنه بذلك قد أمر بالمحافظة على الصلاة كلها مرتين، أما الاجتهاد في تعين الصلاة الوسطى فلا يعوّل عليه، ثم يأتي ختام الآية الأولى بقوله: ﴿ وَقُوْمُوا لِلَّهِ قَدِنِيَّنَ ﴾، لأن المحافظة على الصلاة تتطلب الخشوع فيها، فالخشوع هو روح الصلاة.

ثم إن البيان القرآني في الآية الأولى، قد يفهم منه أن المحافظة على الصلاة إنما يكون في حالة الأمان فقط، أما في حالة الخوف فلا يحافظ عليها، فجاءت الآية الثانية لتزيل هذا اللبس، وتؤكد على أن أمر المحافظة على الصلاة ينبغي أن يكون على أي وضع كان: ﴿ فَإِنْ خَفْتُمْ فِرَجًا أَوْ رِكَابًا ﴾، إن مجيء قوله: ﴿ فَإِنْ خَفْتُمْ ﴾ بعد الأمر بالمحافظة عليها يدل على المحافظة عليها أيضاً في حالة الخوف، ولكن يلاحظ أنه في هذه الحالة، حالة الخوف، فإن المحافظة عليها قد يخدشها عدم الطمأنينة، ولذا عبر (يابان) لتدل على أن الخوف الذي يتطلب عدم الطمأنينة هو أمر طارئ، ومع أنه حالة

الذي ورد عن مجاهد وهو السكوت، استناداً إلى ما جاء في الصحيح: عن زيد بن أرقم قال: كنا نتكلّم في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَقُوْمُوا لِلَّهِ قَدِنِيَّنَ ﴾ فأمرنا بالسكوت، وإن كان معنى الخشوع أعم.

طارئة إلا أنه أمر بالمحافظة على الصلاة في هذه الحالة أيضاً التي هي مظنة لضياع الصلاة أو التقصير فيها، وجواب ﴿فَإِنْ﴾ يدل على المحافظة على الصلاة أيضاً، إذ التقدير: "وان خفتم فصلوا رجالاً أو ركباناً، وألمح من تقديم ﴿فِجَالًا﴾ على ﴿رُكْبَانًا﴾ أن الرجال القائم على القدمين، أو الواقف على الأرض. لاشك أنه أقدر على المحافظة على هيئة الصلاة والخشوع فيها من الراكب، وأن الركوب ينبغي أن يكون طارئاً ولا يكون هو الأصل، وإنما يلجمأ إليه عند الحاجة أو الضرورة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: فإذا تحقق لكم الأمان رجعتم إلى الأصل في أداء الصلاة وهي حالة "الأمن"، وعندئذ ينبغي عليكم أن تعودوا إلى المحافظة على الصلوات وتأديتها على خير وجه مع العلم أنه يغتفر ما وقع فيها من تقصير في حالة الخوف، أما في حالة الأمان فينبغي أن تؤدي الصلاة مستوفية للأركان والشروط، والطمأنينة والخشوع إلى غير ذلك.

إن ألفاظ الآيتين الكريمتين كلها ألفاظ حقيقة يأخذ بعضها بحجز بعض التصوير منتهى المحافظة على جميع الصلوات، في جميع الأوقات، حتى في الوقت الذي هو مظنة لضياع الصلاة، "وقت الخوف"، لقد برز ذلك في عدة أمور، هي:

أولاً: الأمر بالمحافظة على الصلوات كلها.

ثانياً: تحصيص الصلاة الوسطى.

ثالثاً: عطف قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَنْتِيْنَ﴾ على قوله: ﴿كَفِظُوا﴾.

رابعاً: الأمر بالمحافظة على الصلاة في حالة الخوف.

كل هذه الأمور وغيرها تعاونت على إبراز المعنى وإخراجه على أكمل وجه وفي أحسن صورة.

٢. يقول عز وجل: وهو يأمرنا بالتزام أوامره في توزيع الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّهِ كُمْ مِثْلُ حَظِ الْأَشْيَاءِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوَقَ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَحْدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُبَوِّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ الْمُوَلَّدُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَمْوَلَدُ

وَرِئَةٌ مُّؤْمِنٌ بِأَبَاؤهُ فَلِأُمِّهِ أَسْدُ مَنْ يُعْدِ وَصِيَّةٌ يُوصَىٰ بِهَا أَوْدِينٌ إِبْرَاهِيمُ كُلُّهُمْ
وَابْنَاؤُكُلُّهُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْتُمْ أَفْرَبْ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

[النساء، ١١].

الوصية هي: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقتربنا بوعظ، مأخذة من قولهم: أرض
واصية أي: متصلة النبات^١

إن هذه الآية الكريمة باعتبار أنها تبيّن لنا حكمًا من الأحكام الشرعية، قد جلت
ألفاظها مستعملة في مواضعها الأصلية، وصورت المعنى المراد تصويراً دقيقاً مؤثراً، وإذا
أردت التدليل على ذلك، فانظر إلى قوله: ﴿يُوصِيكُدُ اللَّهُ إِنْ لَفْظَ الْوَصِيَّةِ وَإِلَيْطَهِ يَدِلُّ
عَلَى الْعَنْيَةِ وَالْاَهْتَمَامِ بِالْمَوْصِيِّ بِهِ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ الْمَوْصِيُّ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَ وَهُنَّا
يَدِلُّ عَلَى الْاَهْتَمَامِ بِشَأنِ الْأَوْلَادِ، ثُمَّ اخْتِيَارِ حَرْفِ الْحَرْفِ فِي دُونِ (الباء) مَثَلًا، وَذَلِكَ
لِلْدَلَلَةِ عَلَى أَنْ تَكُونُ الْوَصِيَّةُ مِنَ الْآبَاءِ مُحَاطَةً بِالْأَوْلَادِ إِحْاطَةً الظَّرْفَ بِالْمَظْرُوفِ، ثُمَّ قَالَ:
﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (أَبْنَاءِكُمْ)، وَفِي ذَلِكَ إِشْعَارٌ بِكَمَالِ الشَّفْقَةِ وَالْعَطْفِ، كَمَا أَنَّ
اسْتِعْمَالَ لِفَظِّ "الْأَبْنَاءِ" يَأْتِي عِنْدِ الإِفْصَاحِ عَنْ عَلَاقَةِ النَّسْبِ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي خَطْمِ الْآيَةِ
فَقَالَ: ﴿إِبَابَاؤُكُلُّهُمْ وَابْنَاؤُكُلُّهُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْتُمْ أَفْرَبْ لَكُمْ نَفْعًا﴾، ثُمَّ انْظُرْ إِلَى إِضَافَةِ لِفَظِّ
الْأَوْلَادِ إِلَى "الْمَوْصِينِ"، وَهِيَ إِضَافَةٌ تَفِيدُ التَّخْصِيصِ، أي: وَهُمْ أَبْنَاؤُكُلُّهُمْ تَخْصِيصًا ثُمَّ التَّعْبِيرُ
بِلِفَظِ (الْذَّكْرِ)، وَاخْتِيَارِهِ لِيَكُونَ مُقَابِلًا (لِلْأَنْثَى)، وَكُونُهُ ذَكْرًا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَقَّهُ ضَعْفٌ
حَقَّ الْأَنْثَى، صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، وَقَالَ: ﴿لِلَّذِكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأَنْثَيَيْنِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: (لِلْأَنْثَى)
نَصْفُ حَظِّ الذَّكْرِ؛ وَذَلِكَ لِلْاَهْتَمَامِ بِشَأنِ الْأَنْثَى، وَبِيَانِ مَكَانَتِهَا، حِيثُ جَعَلَ نَصِيبَهَا هُوَ
الْأَصْلُ الَّذِي يَقَاسُ عَلَيْهِ حَقُّ الذَّكْرِ، وَفِي هَذَا تَأكِيدٌ عَلَى اسْتِحْقَاقِهَا لِلْمِيرَاثِ الَّذِي كَلَّتْ
تَحرِمُ مِنْهُ فِي الْمُجَمَّعِ الْجَاهِلِيِّ، ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الصِّياغَةِ الشَّرْطِيَّةِ، وَمَحْيَ تَوزِيعِ
الْأَنْصِبَةِ فِي قَالِبِ الْجَمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ، وَذَلِكَ لِلْدَلَلَةِ عَلَى شَدَّةِ الْاِلْتَزَامِ بِهَذِهِ الْأَمْوَارِ

^١ انظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ٧٢٢/٢. مادة (وص).



وتحديدها وتفصيلها بذكر فعل الشرط وجوابه، ثم انظر إلى المغزى من تقييم: (الوصية) على (الدين)، حيث إن في ذلك حثاً على الاهتمام بشأنها، لأنه قد يقع فيها التقصير، ويتهانون في أمرها، ولأن الدين له من يطالب به ويطلب، لكن الوصية ليس لها ذلك، ثم انظر إلى الدقة في التعبير في قوله في نهاية الآية ﴿إِبَآءَوْكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ﴾، فقد جاء التعبير هنا بلفظ "الأبناء" وفي أول الآية جاء بلفظ "الأولاد"، وذلك ليقابل كل لفظ بما يناسبه فللفظ "الأولاد" يقابل لفظ "والدين"، ولفظ "الآباء" يقابل "الأبناء"، ثم جاء بالعلة التي قد تدفع إلى التفضيل بين الأبناء وهي تحقق المنفعة فنفها: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيْمَنَ أَقْبَلَ لَكُمْ نَعْمًا﴾، ثم قال: ﴿فَرَبِّكُمْ مِنْ أَنَّهُ﴾، للدلالة على أن هذا التوزيع شيء يجب الالتزام به، لأنه فرض تولي الله عز وجل توزيعه بنفسه، ولم يتركه لملك مقرب، ولأن النبي مرسلاً ثم انظر أخيراً إلى ختام الآية بالفاصلة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْمًا حَكِيمًا﴾، حيث إن توزيع هذه الحقوق يقتضي علمًا وحكمة، وحتى لا يحتكم الإنسان في توزيع هذه الأنحصارية إلى هواه، فالله حكيم يضع كل شيء في موضعه بحكمة وتقدير، وعاليم بمن يقوم بتفيذ تلك الأوامر أو مخالفتها.

إن ألفاظ هذه الآية جلها مستعمل في معناه الحقيقي، ومع ذلك أبرزت لنا المعنى المراد وصورته في أنتم صورة وأكملاها، وهو الاهتمام بشأن الأولاد، ومراعاة جلب العدل في توزيع الحقوق، وإعطاء كل ذي حق حقه، والالتزام بأوامر الله عز وجل في ذلك، إن التفصيل في الأحكام، وتوزيع الحقوق، وتحديد الأنحصارية، لابد أن يكون بلفظ الحقيقة فهي الأحق بذلك، ولا يصح فيها المجاز لأنه يتحمل التأويل، وخير دليل على ذلك ألفاظ الطلاق غير الصريحة، فإنها تحتمل أكثر من رأي، بخلاف الألفاظ الصريحة، فهي لا تحتمل إلا رأياً واحداً وهو: وقوع الطلاق فقط، إن آيات الأحكام باعتبار أنها خاصة بالأحكام وهي تتسم بالدقة والوضوح، فلابد أن يكون تصويرها عن طريق الحقيقة إلا ما ندر منها.

٣. يقول تعالى: وهو يصور لنا لوناً من ألوان العذاب الشديد، الذي أعده سبحانه وتعالى لل مجرمين الطالمين في هذا اليوم العظيم، يوم القيمة: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَبِينَ فِي الْأَنْفَادِ ۝ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَقَشْنَى وَجُوهُهُمُ الْثَّارِ ۝ ۵۰﴾ [إبراهيم/٤٩].

الاقتران: كالازدواج في كونه اجتماع شيتين أو أشياء في معنى من المعنى ويقال: قرنت البعير بالبعير: جمعت بينهما، ويسمى الجبل الذي يشد به قرنا، فالمراد: وضع اثنين في قرن، أي: في جبل والأصفاد: جمع صفاد بوزن كتاب: وهو القيد والغل، والأصفاد: الأغلال. والسرابيل: جمع سربال وهو: القميص، من أي جنس كان، أو هو كل مالبس والقطران: هو ما يتقطر من الهناء، وهو عبارة عن دهن من تركيب^١ كيماوي قديم عند البشر، وهو أسود متتن يسرع فيه اشتعال النار^٢.

إن البيان القرآني في هاتين الآيتين نجده يصور لنا مشهداً من مشاهد يوم القيمة، هذا المشهد هو لون من ألوان العذاب الحسي والمعنوي الذي ينتظر هؤلاء المجرمين، وقد برز هذا المشهد في صورة محسوسة مليئة بالحياة والحركة بالرغم من أن حل ألفاظهما مستخدم في معناه الحقيقي، لكنها تتآزر فيما بينها في رسم تلك الصورة الحسية البالغة الدلالة على مدى العذاب الذي أعد لهؤلاء المجرمين يوم القيمة. "فهانحن أولاء نراهم وقد كُلُّوا بالسلاسل والقيود، وقد أحقدت بهم النار من كل جانب، لتذيقهم أقصى العذاب، ولتأمل كيف وُظفت تلك الألفاظ "الحقيقة الدالة" في الإيحاء بما سيقت تلك الصورة الفنية لتصويره^٣؟"

١. وهذا التركيب يصنع من: إغلاع شجر الأرض وشجراً لسو وشجر الأبهُل: بضم الهمزة والهاء وبينه ما موحدة سلكنة، وهو شجر من فصيلة العرعر، ومن شجر العرعر. وتتداوي به إلا بل الجر بي، في حرق القطران: الجرب بما فيه من الحدة الشديدة، وقد تصل حرارته إلى الجحوف يعني: ظرفة سبيرة أبي السعدود مجلد/٢/٥ ص٦١، والتحرير والتتوير للطلهري بن علشور ٢٥٢/٣.

٢. يند: فردات ألفاظ القرآن الكريم للرا غب الأصفهاني. مواد: قرن ٢/٣٥٢ (صفد ٢/٢٦). سرب (٢/٣٧)، (قطار ٢/٤٦)، وانظر: لسان العرب الموسادنفسها.

٣. محاضرات في علم البيان ص ٧٧٩.

انظر على سبيل المثال. إلى قوله عز وجل: ﴿ وَتَرَى كِيفَ جَاءَ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ مَعَ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الْفَعْلِ الْمَاضِي فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾ [إبراهيم / ٤٨]؟! وذلك لاستحضار صورتهم في هذا العذاب وكأنه يشاهد الآن، أو للدلالة على الاستمرار ثم تأمل حديثه عنهم، ووصفه لهم بصفة الإجرام: ﴿ الْمُجْرِمِينَ ﴾، مع أن السياق هنا يتحدث عن الطالمين: ﴿ وَلَا تَحْسَبْكَ اللَّهُ غَنِيًّا عَنْمَا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤْخِرُهُمْ لِيَوْمٍ شَخَصٌ فِيهِ الْأَبْصَرُ ﴾ [إبراهيم / ٤٢]؛ ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [إبراهيم / ٤٥]. فلم يقل مثلاً "وترى الطالمين أو الكافرين"؛ وذلك للدلالة على أن هؤلاء القوم بلغ بهم الأمر إلى أنهم تجاوزوا كل حدود الظلم أو الكفر، فجعل وصف الإجرام، ليدل على أنهم جمعوا مع الظلم أموراً أخرى، كالتعالي والتطاول والاستكبار إلى درجة أنهم شكوا في وجود الله عز وجل: ﴿ فَرَدُوا أَيْدِيهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْنَا مَعَهُ وَإِنَّا لَنَفِقَ مَمَانَدْ عَوْنَائِيَهُ مُرِبِّي ﴾ ١) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَاءَ فَاطَّرَ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [إبراهيم / ١٠٩]؛ ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الْمُصَفَّقُوا لِلَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبِعًا ﴾ [إبراهيم / ٢١]. ومن ثم جاء وصفهم بالإجرام؛ لإِفادة العموم والبالغة في ارتکابهم لهذه الأمور، كما أن هذا الوصف يعد أشنع وأفحى من غيره وهذا يتنااسب مع كثرة إجرامهم وتنوعه.

ثم تأمل قوله: ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾، كيف يدل التضييف في اللفظة الأولى على م坦ة الأصفاد، وإحكام التقيد والتكييل، ثم دلالة تلك اللفظة: ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ على أن تلك ﴿ الْأَصْفَادِ ﴾ الوثيقة ليست لكل شخص من هؤلاء المجرمين على حدة بل إنها تجمع كل شبيهٍ منهم إلى شبيهه في الإجرام والكفر، فنحن إذن، إزاء جماعات مكبلة تتضارع حركات أفرادها، فتناهى أو تتصادم من أجل الخلاص، حيث لا خلاص. ثم دلالة إيثار حرف الجر ﴿ فِي ﴾ دون (الباء) مثلاً، فنحن معها نتمثل صورة هؤلاء المجرمين وقد أحاطت بهم الأصفاد من كل جانب، كما يحيط الطرف بما يحويه.

ثم تأمل قوله جل شأنه: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ أي: قمصانهم التي يلبسونها فستجد أنها تجعل النار تصل إلى أجسادهم في سرعة بالغة، وتحيط بهم من كل ناحية، خاصة أنها من قطران، ولكن لا شك أن للفظة (سربال) بتشكيلها الصوتي لها إيحاؤها بكثافة المادة المصنوع منها وغلظتها، الأمر الذي يجعل قبولها للاشتعال أشد وأسرع، فكيف تخيل، إذن، صورة هؤلاء المجرمين، وقد أحاط بجسد كل منهم لا سربال واحد، ولكن "سرابيل عديدة"، وكانت، فضلاً عن ذلك، من "القطران"، تلك الملء الحارقة التي لا مثيل لها في سرعة الاشتعال؟.

إن القطران: وهو دهن أسود منتشر يسرع فيه اشتعال النار^١ يُطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاوه لهم كالسراويل، ليجتمع عليهم الألوان الأربع من العذاب: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش، وتناثر الريح، على أن التفاوت بينه وبين النارين لا يكاد يقادر قدره، فكان ما شاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة، وجعلت سرابيلهم من قطران، لأنه شديد الحرارة فيؤلم الجلد الواقع هو عليه، فهو لباسهم قبل دخول النار ابتداء بالعذاب حتى يقعوا في النار^١.

ثم لتأمل، أخيراً، قوله عز وجل: ﴿وَتَعْنَى وُجُوهُهُمْ أَنَّارٌ﴾، فتمثل مع الفعل

﴿وَتَعْنَى﴾ صورة النار وقد غطت وجوه هؤلاء القوم، فلم تدع ذرة من ذراتها إلا وفتحتها بلهي بها الحارق، ثم تخصيص "الوجه" بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم، ثم تقديمها على الفاعل في تلك العبارة ﴿أَنَّارٌ﴾، وذلك لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها، كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة، ومحل المعرفة، وكونها أيضاً مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق، وقد أعرضوا عنه، ولم يستعملوها في تدبيره، وربما خصت من بين الأعضاء الأخرى، لخلوها من القطران المغني عن ذكر غشيان النار لها، ولعل تخليتها عنها ليتعارفوا عند انكشف اللعب أحياناً، ويتبغضون

^١ - ظهير الـ كشف ٢/٥٣، تحقيق ع بدأ لرازق الم هدي ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: الثانية ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، وانظر: التحرير والتبيير ١٣/٥٢.



عذابهم بالخزي على رءوس الأشهاد، كما يفيد تقديم لفظ "الوجوه" ألطاعاً على أن الوجه هو أول ما يتعرض للنار، ثم يكون سريانها السريع منه إلى باقي أعضاء الجسم، ولهذا دلالته على الذلة والهوان من جهة، وعدالة الجزاء من جهة أخرى، فالوجه. كما أشرت من قبل، هو أشرف أعضاء الجسم، وهو كذلك مركز معظم الحواس التي تعطلت لدى هؤلاء القوم، فانساقوا بها في طريق الإجرام والكفر، وانغمسو في غواية الإلحاد والضلال، إذن فالعذاب هنا عذاب حسي ومعنوي، وذلك يتمثل في غشيان النار لوجوههم، وفي تقريرهم في الأصفاد، وهذه سمة الإهانة والاحتقار.

إن أسلوب الحقيقة هنا قد أدى دوره في تشكيل صورة هذا المشهد لهؤلاء القوم، وصورة أعظم تصوير، بالرغم من أن أكثر ألفاظ الآيتين قد استخدم في معناه الحقيقي إن تصوير هذا المشهد قد أليس ثوب الحقيقة، وكانت جديرة به، ونهضت بأداء المعنى أبلغ ما يمكن.

﴿ وَاقْرَا أَيْضًا: قُولَهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَيْنِهَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا فُتُحَّ لَهُمْ أَبُونَبُ التَّمَّلَ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِعَّ الْجَمَلُ فِي سَرِّ الْغَيَاطِ وَكَذَلِكَ يَمْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الآعراف/٤٠] وَقَطَّعَ زُوْجٌ قُلْتَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادَ الْكَامِنَتِ رَقِيَ لِنَفَادَ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ تَنَفَّدَ كَمَنُتِ رَقِيَ وَلَوْ جِنَانَ يُشَلِّيهِ مَدَداً ﴾ [الكهف/١٠٩]

فسوف يتتأكد لديك أن جمال الصورة الأدبية لا يتوقف على صور الخيال المختلفة حتى نحكم بجمالها، فقد تكون الصورة خالية، أو تکاد من هذه الصور الخيالية، ومع ذلك فهي جميلة رائعة كل الروعة والجمال، ومصورة معبرة أتم وأدق ما يمكن التصوير والتعبير.

^١ يد. ظر: محا ضرات في علم البيان ص ١٧٩. بتصريف، وانظر: مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ص ١٦٧ ط: دارا لشروع - بـ بيروت، وـ فسيلا كشاف ٢/٥٣، وـ فسيرا بي ٦١ سعودي، والتحرر بر. والتبيير ٢/٣٢.

ففي الآية الأولى تطالعك هذه الصورة المشعة الموحية المعبرة التي تثير الخيال لديك، وتجعله عاكفاً على تمثيل تلك الحركة العجيبة التي لا تتم ولا تقف ما تابعها الخيال، هذه الحركة هي - ولو الجمل في سر الخياط - الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة، فهذه صورة ليس فيها استعارة ولا كناية ولا تشبيه، ولكنها فقط تعبر عن معنى المستحيل غيّراً بصورة المستحيل حسّاً ومشاهدةً.

ونلاحظ الصورة في الآية الثانية فنجدها أيضاً خالية من الاستعارة والكلنية والتشبيه ومع ذلك فإننا نراها صورة رائعة معبرة، تصور حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله في غير ما توقف ولا انتهاء، إلى أن ينتهي البحر بالنفاد، وما نفذت كلمات الله ثم يظل الخيال يتبع الصورة والبحر يمدد بمثله فينفذ. كذلك. وما نفذت كلمات الله أياً: ﴿وَلَئِنْ شَاءَ يُبَثِّلَهُ مَدَدًا﴾^١

ثانياً: من الحديث النبوى الشرييف:

هناك أيضاً أحاديث نبوية كثيرة أليس ثوب الحقيقة، ومع ذلك صورت المعنى وأبرزته أعظم ما يكون التصوير، مما يدفعنا إلى القول بأن الصور الحقيقة فيه قد حازت قصب السبق، وتفوقت على الصور نفسها التي جاءت في الأدب، حيث إنه خلامن الإيفر والتعقيد، والإسفاف في الكلام، والتكلف والغموض، والإغرار في الخيال حتى يشبهه الأوهام، ومن ثمّ أقول: إن "الحديث النبوى يترفع عمما يتسقط فيه منهج الصورة الحقيقة في الأدب، وذلك يكون تبعاً للمحتوى الفكري الغيبي الذي تحمله صوره الحقيقة، فنقع على نماذج رائعة عجائبية خالية من المجاز، بل لا مجال للمجاز فيها، لأنها حقائق لا تحتاج إلى تلوين".^٢

وإليك بعضاً من تلك الأحاديث، التي نوردها على جهة التمثيل، منها:

١. يـ: ظر: التصوير الفنـي لـسـيد قـطب صـ76ـ75ـ76 طـدار الشـروقـ بيـروـتـ طـ1988ـمـ، وـاذـظرـ: اـلـصـورةـ الـأـدـبـيـةـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ/ـصـلاحـ الدـينـ عـبدـ التـوابـ صـ2ـ؛ـ بـتـصرـفـ.

٢. لـمـورـةـ الـفـنـيـةـ فـيـ الـحـدـيـثـ الـنـبـوـيـ الشـرـيفـ/ـأـحـمـدـ زـكـرـ يـاـيـاسـوـفـ صـ385ـ طـدارـ المـكـبـيـ .ـ سـوـرـيـةـ طـ2006ـمـ،ـ الثـالـثـيـةـ:ـ ٤٢٧ـ.

الحاديـث الـذـي روـاه أنس بن مـالـكـ. رـضـي اللـهـ عـنـهـ. وـالـذـي يـقـولـ فـيـهـ: "جـاءـ ثـلـاثـ رـهـطـ إـلـى بـيـوـتـ أـزـوـاجـ النـبـيـ صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـسـأـلـونـ عـنـ عـبـادـةـ النـبـيـ. صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـلـمـاـ أـخـبـرـوـ بـهـاـ كـأـنـهـمـ تـقـالـوـهـاـ، فـقـالـوـاـ: أـينـ نـحـنـ مـنـ النـبـيـ. صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ؟ـ قـدـ غـفـرـ اللـهـ لـهـ مـاـ تـقـدـمـ مـنـ ذـنـبـهـ وـمـاـ تـأـخـرـ. قـالـ أـحـدـهـمـ: أـمـاـ أـنـاـ فـإـنـيـ أـصـلـيـ الـلـيـلـ أـبـداـ وـقـالـ آخـرـ: أـنـاـ أـصـومـ الـدـهـرـ وـلـأـفـطـرـ، وـقـالـ آخـرـ: أـنـاـ أـعـتـزـلـ النـسـاءـ فـلـأـتـزـوـجـ أـبـداـ. فـجـاءـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ. فـقـالـ: أـنـتـمـ الـذـينـ قـلـتـمـ كـذـاـ وـكـذـاـ؟ـ أـمـاـ وـالـلـهـ إـنـيـ لـأـخـشـاـكـمـ اللـهـ وـأـتـقـاـكـمـ لـهـ، لـكـنـيـ أـصـومـ وـأـفـطـرـ، وـأـصـلـيـ وـأـرـقـدـ، وـأـتـزـوـجـ النـسـاءـ. فـمـنـ رـغـبـ عـنـ سـنـتـيـ فـلـيـسـ مـنـيـ؟ـ".

وـمـعـنـيـ "تـقـالـوـهـاـ": أـيـ اـسـتـقـلـوـهـاـ، أـيـ: رـأـيـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ أـنـهـاـ قـلـيلـةـ. وـبـالـتـأـمـلـ فـيـ الـأـفـاظـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ يـتـبـيـنـ لـنـاـ أـنـهـاـ اـسـتـعـمـلـتـ فـيـ مـعـنـاـهـاـ الـحـقـيـقـيـ وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ صـورـتـ الـمـعـنـىـ الـمـرـادـ أـدـقـ تـصـوـيرـ، إـنـهـاـ صـورـتـ هـذـاـ الـمـشـهـدـ الـحـسـيـ لـهـؤـلـاءـ الـثـلـاثـةـ مـنـ الـصـاحـابـةـ الـأـخـيـارـ. رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ أـجـمـعـينـ..، وـبـيـنـتـ مـدـىـ حـرـصـهـمـ عـلـىـ طـاعـتـهـمـ لـخـالـقـهـمـ، وـذـلـكـ بـالـجـدـ فـيـهـاـ، وـالـإـكـثـارـ مـنـهـاـ، وـالـمـبـالـغـةـ فـيـهـاـ، بـلـ وـالـإـسـرـافـ فـيـهـاـ إـلـىـ درـجـةـ الزـهـدـ فـيـ زـخـارـفـ الـدـنـيـاـ وـمـتـاعـهـاـ.

فـهـذـهـ الـأـلـفـاظـ الـحـقـيـقـيـةـ الـدـلـالـةـ صـورـتـ وـجـهـةـ نـظـرـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ الـثـلـاثـةـ فـيـ الـعـلـةـ الصـحـيـحةـ. وـقـدـ بـرـزـ فـيـ هـذـهـ الـوـجـهـةـ مـدـىـ التـشـدـدـ وـالـمـعـلاـةـ فـيـ تـلـكـ الطـاعـةـ، حـيـثـ إـنـهـمـ فـهـمـوـاـ أـنـ الـعـبـادـةـ لـلـهـ عـزـ وـجـلـ. حـقـ الـعـبـادـةـ. هـيـ فـيـ الـانـقـطـاعـ عـنـ الـدـنـيـاـ، وـاجـتـنـابـ الـمـبـيـحـاتـ، وـهـذـاـ مـاـ يـنـاقـضـ الـطـبـيـعـةـ الـبـشـرـيـةـ: أـلـنـ فـيـهـاـ تـلـبـيـةـ لـجـانـبـ الـرـوـحـ دـوـنـ الـجـسـدـ فـجـاءـ كـلـامـ النـبـيـ. صـلـى~ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ. لـيـصـحـ هـذـاـ الـفـهـمـ الـخـاطـئـ لـلـعـبـادـةـ، وـبـيـزـيلـ عـنـهـ أـيـ لـبـسـ، بـهـذـهـ الـعـبـاراتـ الـتـفـصـيـلـيـةـ الـدـقـيقـةـ قـائـلـاـ: "أـمـاـ وـالـلـهـ إـنـيـ لـأـخـشـاـكـمـ اللـهـ وـأـتـقـلـكـمـ لـهـ، لـكـنـيـ أـصـومـ وـأـفـطـرـ، وـأـصـلـيـ وـأـرـقـدـ، وـأـتـزـوـجـ النـسـاءـ". فـجـمـعـ لـهـمـ. صـلـى~ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ. فـيـهـاـ

١ـ.ـ صـحـيـحـ الـبـخارـيـ /ـ ٥ـ،ـ بـابـ التـرـغـيـبـ فـيـ الـنـكـاحـ،ـ حـيـثـ يـقـدـ /ـ ٤٧٧٦ـ،ـ تـحـقـيـقـ /ـ مـصـطـفـيـ دـيـبـ الـبـغاـ.ـ طـ:ـ دـارـاـ بـنـ كـثـيرـ الـيـامـةـ.ـ بـيـرـوـتـ طـ:ـ الـثـالـثـةـ ٧ـ،ـ ١٤٠٧ـ هـ.ـ وـالـحـدـيـثـ فـيـ صـحـيـحـ مـسـلـمـ أـيـضاـ:ـ أـخـرـ جـهـ فـيـ كـتـابـ الـنـكـاحـ بـابـ:ـ اـسـتـجـابـ الـنـكـاحـ لـمـنـ تـاقـتـ نـفـسـهـ إـلـيـهـ،ـ بـرـقـمـ ١٤٠١ـ،ـ ١٤٠١ـ هـ.

يبين تلبية دواعي الروح ومتطلبات الجسد. وجاء هذا ردًا على ما ورد على لسانهم عندما قال أحدهم: ”أما أنا فإني أصلى الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا فطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أنزوج أبدًا“، وانظر إلى مدى الدقة في التعبير، حيث أكد المصلى وممعن النساء كلامهما بالتأكيد ”أبدًا“، أما الذي اختار الصيام فلم يؤكد بقوله: ”أبدًا“ كما جاء عند صاحبيه، وذلك لأنه لا بد له من الفطر في: الليل، وأيام العيددين، وأيام التشريق.

إن النهي قد ورد عن التشديد في كل شيء وخاصة في العبادة، لأن المشدد لا يلمن من الملل، بخلاف المقتضى فإنه أمكن لاستمراره، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه وقد أرشد إلى ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم. في الحديث الآخر: ”المبت لأرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى“.^١

ثم أكد صلى الله عليه وسلم لهم ولغيرهم ضرورة التمسك بهذا الفهم الصحيح للعبادة، والبعد عن المغالاة بهذا التحذير الشديد الذي جاء في ختام هذا البيان النبوى ”فمن رغب عن سنتي فليس مني“. أي: من ترك طريقي وأخذ بطريقة غيري ليس مني، وهو في هذا يعرض طريق الرهبانية، فإنهما هم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوا بما التزموا، أما طريقة النبي صلى الله عليه وسلم، فهي الحنفية السمحنة، فيفطر؛ ليتقى على الصوم، وينام؛ ليتقى على القيلم، ويتزوج؛ لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتکثیر النسل^٢.

فالحديث بألفاظه الحقيقة صور لنا الطريق الصحيح، والمنهج السليم الذي يجب علينا أن نسلكه في عبادتنا لله عز وجل، هذا المنهج يتمثل في الوسطية الذي ليس فيها مغالاة في اجتناب الأمور المباحة مطلقاً، ولا فعلها كذلك إلى حد المبالغة والإسراف، لأن ”ملازمة استعمال الطيبات تفضي إلى الترفه والبطر، ولا يأمن. الإنسان من الوقوع في الشبهات، لأن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحياناً، فلا يستطيع الانتقال عنه فيقع في

١. فتح الباري شرح صحيح البخاري لا بن حجر العسقلاني ١٠٥٩. باب الترغيب في النكاح. حديث رقم ٤٧٧٦. ط: دار المعرفة. بيروت. ط: ١٣٧٩هـ.
٢. المرجع السابق: الصفحة نفسها.

المحظور، كما أنّ منع تناول ذلك أحياناً يفضي إلى التنطع المنهي عنه.. وأيضاً إن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الممل القاطع لأصلها، وملازمة الاقترار على الفرائض مثلاً وترك التتغافل، يفضي إلى إيثار البطالة وعدم النشاط إلى العبادة، وخير الأمور الوسط؟! أرأيت كيف جاءت ألفاظ هذا البيان النبوى الشريف خالية من المجاز، وسيقت في قالب الحقيقة، وأدت دورها في تصوير المعنى وبيانه، وجاءت معبرة أعظم تعبير؟!.

٢ـ الحديث الذى رواه أبو هريرة. رضي الله عنه: "أن رسول الله. صلى الله عليه وسلم. دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي. صلى الله عليه وسلم. فرد عليه السلام، فقال: ارجع فصلّ فإنك لم تصل، فرجع الرجل فصلى كما كان صلّ ثم جاء إلى النبي. صلى الله عليه وسلم. فسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال: له رسول الله. صلى الله عليه وسلم.. ارجع فصلّ فإنك لم تصل، حتى فعل ذلك ثلث مرات، فقال له الرجل: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غير هذا، فعلماني، فقال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها".

بالنظر في ألفاظ هذا الحديث نجد أنها جاءت في أسلوب الحقيقة، لأنها في مقدمة التعليم والتوجيه وتوضيح حقيقة الصلاة الصحيحة لهذا الرجل الذي يجهلهوا لا يعرفها فكان المقتضى والمناسب لهذا المقام أن يعبر الرسول. صلى الله عليه وسلم. في خطابه لهذا الرجل بأسلوب الحقيقة، لكي يفهم عنه ما يريد الرسول. صلى الله عليه وسلم. بيانه له، ولذلك بنى على أسلوب التفصيل، وتوضيح الأركان التي ينبغي القيام بها في أداء الصلاة حتى تكون صحيحة كاملة. فالحديث كله بيان وتوضيح لتلك الأركان.

١ـ المرجع السابق ١٠٦/٩.

٢ـ سنت الترمذى ١٠٣٢، باب: ما جاء في وصف الصلاة، حديث رقم ٣٠٣. تحقق يق /أحمد محمد شاكر وأخرون، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. وعلق الترمذى على الحديث بأنه: حديث حسن صحيح. وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

بطريقة: افعـل كـذا حتـى يتحقق كـذا." اركـع حتـى تطمـئن راكـعاً، ثم ارفع حتـى تعتـدل قائـماً... إلـخ".

نم انظر إلى طريقة النبي. صلـى الله عـلـيـه وسلـمـ. فـي معـالـجـة الخـطـأ الـذـي وقـعـ فـيـهـذا الرـجـلـ الذـي صـلـى صـلـاتـه خـفـيـفةـ وـلـمـ يـتـمـ رـكـوعـهـاـ وـلـاـ سـجـودـهـاـ. وـإـنـمـاـ نـقـرـهـاـ كـمـاـ يـنـقـرـ الدـيـكـ. إـنـهـ لـمـ يـعـلـمـهـ الـكـيـفـيـةـ الصـحـيـحةـ لـأـدـاءـ الـصـلـاتـةـ مـنـ أـوـلـ مـرـةـ أـخـطـأـ فـيـهـاـ. وـلـمـ يـبـدـأـ بـتـعـلـيمـهـ، بـلـ اـنـتـظـرـ حـتـىـ طـلـبـ الرـجـلـ نـفـسـهـ ذـلـكـ. وـفـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ تـتـبـثـتـ الـمـعـلـومـةـ لـدـيـهـ وـتـرـسـخـ فـيـ ذـهـنـهـ وـمـنـ ثـمـ "قـيـلـ لـمـ سـكـتـ النـبـيـ. صـلـى الله عـلـيـهـ وـسـلـمـ. عـنـ تـعـلـيمـهـ أـوـلـاـ حـتـىـ اـفـتـقـرـ إـلـىـ الـمـرـاجـعـ كـرـةـ بـعـدـ أـخـرـيـ؟ وـأـجـبـ: لـأـنـ الرـجـلـ لـمـ يـسـتـكـشـفـ الـحـالـ مـغـتـرـاـ بـمـاـ عـنـهـ سـكـتـ عـنـ تـعـلـيمـهـ، زـجـراـ لـهـ وـإـرـشـادـاـ إـلـىـ أـنـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـسـتـكـشـفـ ماـ اـسـتـبـهـمـ عـلـيـهـ. فـلـمـ طـلـبـ كـشـفـ الـحـالـ بـيـنـهـ بـحـسـنـ الـمـقـالـ، وـأـيـضـاـ أـرـادـ بـهـذـاـ الـانتـظـارـ اـسـتـدـرـاجـهـ بـفـعـلـ ماـ جـهـلـهـ مـرـاتـ، لـاحـتمـالـ أـنـ يـكـونـ فـعـلـهـ نـاسـيـاـ أـوـ غـافـلـاـ فـيـذـكـرـ فـيـفـعـلـهـ مـنـ غـيرـ تـعـلـيمـ، فـهـوـمـنـ بـابـ تـحـقـقـ الـخـطـأـ، أـوـ بـأـنـهـ لـمـ يـعـلـمـهـ أـوـلـاـ، لـيـكـونـ أـبـلـغـ فـيـ تـعـرـيفـ غـيرـهـ، وـلـتـفـحـيمـ الـأـمـرـ وـتـعـظـيمـهـ عـلـيـهـ، كـمـاـ أـنـ فـيـ عـدـمـ الـمـبـادـرـةـ إـلـىـ الـتـعـلـيمـ مـصـلـحةـ لـلـمـتـعـلـمـ لـأـسـيـمـاـعـ دـمـ خـوفـ فـوـاتـهـاـ، حـيـثـ إـنـهـ سـيـكـونـ هـنـاكـ زـيـادـةـ فـيـ قـبـولـهـ لـمـاـ يـلـقـىـ عـلـيـهـ بـعـدـ تـكـرـارـ فـعـلـهـ، وـاستـجـمـاعـ نـفـسـهـ، وـتـوجـهـ سـؤـالـهـ؟ـ!ـ

إـنـ الـحـدـيـثـ هـنـاـ. كـمـاـ رـأـيـتـ. صـيـغـ كـلـهـ فـيـ ثـوـبـ الـحـقـيـقـةـ، لـأـنـ الـمـقـامـ مـقـامـ تـعـلـيمـ وـتـوجـيهـ، وـلـاـ مـجـازـ فـيـهـ.

٣ـ الـحـدـيـثـ الذـي روـاهـ أـبـوـ ذـرـ الغـفارـيـ. رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ. قـالـ: قـالـ رـسـولـ اللـهـ. صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: "إـنـيـ أـرـىـ مـاـ لـاـ تـرـوـنـ، وـأـسـمـعـ مـاـ لـاـ تـسـمـعـونـ. أـطـّـتـ السـمـاءـ وـحـقـّـهـاـنـ تـبـطـّـ

مـاـ فـيـهـاـ مـوـضـعـ أـرـبـعـ أـصـابـعـ إـلـاـ وـمـلـكـ وـأـضـعـ جـبـهـتـهـ سـاجـداـ. وـالـلـهـ لـوـ تـعـلـمـونـ مـاـ أـعـلـمـ

١ـ تـحـفـةـ الـأـحـوـذـيـ بـشـرـحـ جـامـعـ التـرـمـذـيـ لـمـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الرـحـيمـ الـمـبـارـكـفـورـيـ ٢٧٧/٢ـ، بـابـ مـاـ جـاءـ فـيـ وـصـفـ الـصـلاـةـ حـدـيـثـ رقمـ ٢٠٢ـ. طـ: دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ بـيـرـوـتـ.

لضحكتم قليلاً، ولبكى يتمّ كثيراً، ولمّا تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّدَادَاتِ تجأرون إلى الله". فقال أبو ذر: لو ددت أدي كنت شجرة تعذّد! وأطلتِ، وتنطِّ، والأطيط: صوت الرحل والقطب وشبههما. الصُّدَادَاتِ: الطرقات وقيل المراد بها هنا: البراري والصحاري، تجأرون: تتضرعون إليه بالدعاء ليدفع عنكم البلاء تعذّد: تقطع وستتأصل، جاء في لسان العرب: "عذَ الشجرَ يعْذِدُ بالكسر عذّداً فهو معْضُودٌ وعَضِيْدٌ، والعَضَدُ مَا عُضِدَ مِن الشَّجَرِ أَو قَطْعٌ بِمَنْزِلَةِ الْمَعْضُودِ، وَفِي حِدَثٍ تَحْرِيمَ الْمَدِينَةِ" نهى أن يُعذَّدَ شجرها أي: يقطع، العَضِيْدُ والعَضَدُ: ما قُطِعَ من الشجر"؟ إن هذا الحديث من الأحاديث التي تثير الخيال أيما إثارة، إذ إنه يتعلق بأمر غيبي، والأمور الغيبية تعد مجالاً خصباً لإثارة الخيال، وإعطائه مساحة كبيرة للفكر والتبرير إن ألفاظ هذا البيان النبوى استعملت في معناها الحقيقى، ووظفت بدلاتها الحقيقية لتصوير تلك المشاهد الغيبية، والتي تمثل في بيان ازدحام السماء بأحد مخلوقات الله عز وجل وهم: الملائكة، ونتيجة لكثرة من في السماء من الملائكة المنقادين العابرين ربهم قد أذقتلتها، حتى أصدرت أصواتاً كثيفة، ولمّا لا تصدر منها تلك الأصوات الكثيرة وليس فيها مكان خالٍ من ملك قائم أو راكع أو ساجد لله عز وجل؛ ولذا قال "ولسمع ما لا تسمعون"، ثم انتقل بعد ذلك إلى تصوير مشهد آخر من تلك المشاهد الغيسة وهو مشهد الخوف من الله عز وجل وما يتربّ عليه. إذ "إن الخوف من الله يكون على قدر العلم، بعظمته وجلاله." *إِنَّمَا يَخْشَىَ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَكُوْنِ* [فاطر / ٢٨] فلأعلم الناس ما علم رسول الله. صلى الله عليه وسلم. لازداد خوفهم من الله، ولبكوا كثيراً، ولا متنعوا عن اللذاذ المباحة، ولو أنهم كانوا يعلمون ما يعلم رسول الله. صلى الله عليه وسلم. لتركوا حياة الله والعيش، وأقبلوا على الله يتضرعون أن يجيرهم من عذابه، ويقيهم

١. الحديث رواه الإمام النووي في ريلض ا لصالحين: في باب الخوف رقم ٤١٦ ص ٢٠٢ تحقيق/ جماعة من العلماء. المكتبة الإسلامية - بيروت. ط: الأول: ١٤١٢ هـ. ٩٩٢ م. رواه الإمام الترمذى في سننه برقم ٢٢٢، باب قول النبي . صلى الله عليه وسلم. لوعلمون. ج ٤/ ٥٥٦. و قال عنه: حديث حسن، و قال الألبانى: حديث حسن دون قوله: لو ددت... رواه الإمام أحمد في مسنده

٢. ينظر: لسان العرب مادة (عذّد) ٢٩٢/٣

أهواه يوم القيمة، إنه. صلى الله عليه وسلم. يرى ما لا يرون. ويسمع ما لا يسمعون.
ويعلم ما لا يعلمون”!^١

تأمل كيف ربط البيان النبوي بين أهل السماء وأهل الأرض، فمن في السماء يعبدون ربهم قائمين راكعين ساجدين، وهم ليسوا في حاجة إلى ذلك. أما من في الأرض مع حاجتهم للعبادة والطاعة إلا أنهم مقبلون على الدنيا: (بكثرة الضحك وما يؤدي إلىه)، ومعرضون عن الآخرة: (بقلة بكائهم وما يترب عليه)، إن التمهيد بذكر أهل السماء وما يقومون به، يُقصد به حث أهل الأرض على الجد والاجتهاد في الطاعة، لأن الملائكة في السماء على قدر قربهم من ربهم وعلمهم به، يسبحونه وله يسجدون.

إن ألفاظ الحديث بدلاتها الحقيقية تبرز لنا المعنى المقصود منه، وهو تصوير عظمة الله تعالى، ثم وجوب الخشية منه، وذلك بترجح جانب الخوف على الرجاء، يؤيد ذلك القسم الذي صدر به هذا المشهد: (والله)، ثم اختياره أدلة الشرط: (لو). (لو تعلمون ما أعلم). للربط بين أجزاء الكلام بعضه وبعض، وذلك للدلالة على قلة خوفهم من الله، ومن ثم أقبلوا على المللذات، وأكثروا من المبيحات، فكثر ضحكتهم وقل بكاؤهم، ولو يعلمون ما علمه الرسول . صلى الله عليه وسلم . من عظم انتقام الله وعقابه من من يعصيه، وأهواه يوم القيمة وأحوالها.. بداية من الموت وسكناته، ومروراً بعذاب القبر وويلاته، وانتهاء بعذاب جهنم وحسراته. لتغير حالهم على ما هم عليه، وما ضحكومن الأصل، وقد عبر عن ذلك بقوله: (الضحكتم قليلا ، إذ القليل هنا) بمعنى العديم على ما يقتضيه السياق؛ لأن لحرف امتناع؟! وفي هذا من المبالغة من التخويف من تلك الأهوال ما فيه.

١ـ. ال تصوير الفني في الـ حديث النبوي / مح مداط في الصياغ ص ٢٢٣ . ط: المكتبة الإسلامية - بيروت . ط: الأولى ١٤٠٩هـ .

٢ـ. فيض القدير لعبدالرحيم ناوى / ٣٥٥ حديث ٧٤٣٦ . تحقيق / ما جد الحموي . ط: المكتبة التجارية . القاهرة . ط: الأولى ١٣٥٦هـ .



ونلحظ هنا أن البيان النبوى فى انتقامه لتلك العبارات المؤثرة، كان مقتفياً فيها أثر البيان القرآنى، وذلك عندما قال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿فَلَمَّا وَيْتُكُمَا كَيْرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبه ٨٢].

وبالتأمل في هذا الحديث أيضًا نجد أنه اشتمل “على صورتين صوتيتين: صورة أصوات السماء، وقد نادت بـ“قليلًا وَيَبْتَكُوا كَيْرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ” [التوبه ٨٢].

وهي صورة صوتية لا ندرك ماهيتها كما ندرك أصوات البشر.

والصورة الصوتية الثانية: أصوات الداعين، وفي الحديث صورة حقيقة ذات تأثير، وإن كانت محتملة بوساطة أسلوب الشرط، بل إن هذا الاحتمال يثير الخيال، ويحبس الأنفاس من شدة الهلع، فهناك تضليل الضحك حتى يكثر البكاء، وهجر الفرش أي تحدي الفناء لأعلى لذة دنيوية، ثم الانطلاق بلهفة ورعب إلى الطرقات، وكأن المقصود ضيق النَّفَسَ بعد معرفة العذاب الشديد المنتظر، وأن المؤمنين كالصادرون الذي يحار ويطلب العون من أي أحد، إنها صدمة نفسية بعد كشف، تخليع أجسادهم من البيت في أحلى أوقاتها إلى الكون الفسيح، مع صوت شديد جماعي، كما يفيد معنى الجوار في اللغة: وهو الصوت المرتفع في التعرض والاستغاثة، بل إن غرابة المفردة هنا تلمح إلى غرابة الموقف، وقوتها الصوتية تفي بشدة الحاجة، وفطاعة اللحظة!

رأيت كيف يمكن استلهام الجمال من الصور الحقيقة في تلك الأحاديث المثيرة للخيال والحواس من غير وجود مجاز فيها؟ ولكن مع الإشارة إلى أنه ليس من السهل اكتشاف ذلك، إذ إنه يحتاج إلى تذوق عميق ورهافة حس؛ لأن وجود الصور الحقيقة غير مقترب بالشفافية، فنحن نجد الصور المجازية طفرة في اللغة، وانحرافاً عن المعجمية، وإنشاءً جديداً. في حين تكون الصور الحقيقة المؤثرة عند الكثيرين كغيرها من الكلام المباشر المسروق غير المتمتع بالعاطفة والعمق وثمة سبب آخر في

١. الصورة الفنية في الحديث النبوى الشريف ص ٣٨٨.

صعوبة اكتشاف الصور الحقيقية هو أن البحث عن مساحات الخيال المنطلقة من اللاخيالي يعني البحث في فضاء المفردات، ومحتوها الفكري الذي يميزها، وتفردها بدلالة نفسية^١.

إذن فالتصوير من خلال أسلوب الحقيقة لا يمكن إهماله، ولكن لا بد من التأني والتمهل في استنباطه، وخير شاهد على ذلك ما وجدها في القرآن الكريم والحديث النبوي من كنوز ثمينة، تلك التي تبهر العقول، وتوقظ النفوس، وتخلع القلوب.

ثالثاً: من الشعر العربي:

إن هناك نماذج من الشعر العربي جاءت بأسلوب الحقيقة، وبالرغم من ذلك فقد قامت بأداء المعنى وتصويره، أحسن ما يكون، فمن ذلك:

١. تلك الأبيات التي يرثي بها ابن الزيات. وهو من الشعراء القدامى. زوجته، والتي

يقول فيها:^٢

فهبني استطعت الصبر عنها لأنني	ج ليد ف من لا لصبر بابن ئ مان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر حسبة	ولا يأسى بالناس في ال حدثان
رأى كل أمر واب نها غير أم له	يبي تان ت حت الا يل ينتج يان
و بات وح يدا في ال فراش تح ثم	بلابل ق لب دا ئمر الخف قان

فالشاعر في هذه الأبيات يصور مصيبة التي حلّت به على أنها أقوى من أن يتحملها على الرغم من جلالته وقوته تحمله، ثم صور مدى تحسره بوجود هذا الطفل الصغير الذي لا يتحمل الصبر، فهو يأسى له ويتحسر لحاله، ويتألم لفارق أمه وهو لا يقدر على فراقها. كما أنه يبالغ في إظهار ألمه وتوجعه وحسرته على فراق زوجته من خلال ابنته الصغيرة، وهو حين يصف ولده بأنه ضعيف، كأنه يصف ضعفه هو من خلال ولده هذا، ودلل

١. المرجع السابق ص ٣٩٢.

٢. التصوير الإيجي / حفني شرف ص ٨١. والبلا بل: شدة لا هم والoid وليس في الصدر، وحديث النفس. راجع: لسان العرب (بلا).



على ذلك بأنه لا يمكن أن يحتمل، لأنه لا يعرف الصبر، ولم يبلغ مبلغ الرجال حتى يُلْسِى بالناس في مصيبته، وهو في تصوير كل ذلك يحاول تصعيد معانٍ الحسرة والألم والتوجع التي أحاطت به، ثم عندما يرى هذا الصغير كل ابن مع أمه يلازمها، ويرى نفسه وحيداً يعاني آلام الفراق في جنح الليل، وجاء قوله "بيتان تحت الليل" خاصة، إعلاناً عن الوقت الذي يشتغل فيه حاجته لأمه.

ثُمَّ تأمل اختياره للفعل: "بات"، ولم يقل مثلاً: "أصبح"؛ للدلالة على تأكيد الحاجة للألم في هذا الوقت. ثُمَّ انتظر إلى قوله: "و بات وحيداً"؛ وما يعنـيـه تقـيـيـدـ الفـعـلـ: "بات" بالحال: "وحيداً"؛ ثـمـ ما تعـنيـهـ كـلـمـةـ "وحيداً"ـ منـ الانـفـرـادـ وـالـإـحـسـاسـ بـالـوـحـدـةـ وـالـغـرـبـةـ مما يـزيـدـ فـيـ شـدـةـ أـلـمـهـ، وـعـظـيمـ حـسـرـتـهـ.

ثُمَّ تأمل تقـيـيـدـهـ كـلـمـةـ: "وحيداً"ـ بـقـولـهـ "فيـ الفـراـشـ"ـ، إنـ هـذـاـ يـعـدـ تصـعـيـدـ الشـدـةـ الأـلـمـ، لأنـهـ فيـ الفـراـشـ خـصـوـصـاًـ يـفـتـرـضـ أـنـهـ يـكـونـ معـ أـمـهـ، إـذـ الأـصـلـ أـنـهـ إـذـ ماـ أـتـىـ اللـيلـ أـنـ يـكـونـ الطـفـلـ الصـغـيرـ فيـ الفـراـشـ معـ أـمـهـ مـتـلـازـمـانـ، ثـمـ انـظـرـ كـيـفـيـكـونـ حـالـ الطـفـلـ الـذـيـ بـاتـ وـحـيدـاًـ فيـ الفـراـشـ دـوـنـ أـمـهـ؟ـ إـنـهـ بـلـ شـكـ لـاـ يـسـكـنـ وـلـاـ يـهـدـأـ، لأنـهـ فـقـدـ مـنـ يـأـوـيـ إـلـيـهـ فـرـاشـهـ، وـيـسـكـنـ إـلـيـهـ بـعـطـفـهـ وـحـنـانـهـ، إـنـهـ لـاـ يـنـامـ وـدـائـمـ الـقـلـقـ وـالـاضـطـرـابـ، لأنـهـ فـقـدـ أـنـسـهـ وـمـصـدـرـ عـطـفـهـ وـحـنـانـهـ، إـنـهـ أـمـهـ.

بالتأمل في ألفاظ هذه الأبيات نجد أن أغلبها قد استعملت في معانيها الحقيقية، ولكنها مع ذلك تزخر بشتى المعاني التي تدل على حسرة هذا اليتيم، ومدى تفعّله على فقد أمه، وبالتالي يكون أسلوب الحقيقة في هذه الأبيات قد أدى دوره في تصوير أحاسيس الشاعر، ومشاعره تجاه زوجته.

٢. ومن النماذج التي جاءت فيها الحقيقة أياً مصورة لعاطفة الشاعر، قول الخنساء في رثائها لأخيها صخر:^١

١. د. يوان الخنساء ص:٨٤. تحقق يق / كرم الـ بـسـتـانـيـ طـ: دـارـ صـادـرـ بـ: بـيـرـوـتـ طـ: ١٩٦٣ـ مـهــ. وـصـ ٢٥٢ـ تـحـقـ يـقـ / إـبرـاهـيمـ عـوضـيـنـ طـ: الـمـكـتبـةـ الـأـزـهـرـيـةـ لـلـتـرـاثـ الـقـاهـرـةـ طـ: الـأـولـىـ ١٤٠٥ـ مـهــ.

يذكرني ط لوع ا لشمس صخرأ
و لولاك ثرة الـ باكين حولي
و ما يـ كون مثلـ أـ خـ واـ كـنـ
وـ لـ عـ لـ إـ خـ وـ اـ نـ هـ مـ لـ تـ زـ فـ سـ يـ

من خلال هذه الأبيات يتضح لنا مدى حزن النساء على فراق أخيها صخر، وقد جاءت ألفاظ تلك الأبيات. برغم أنها تخلو من أساليب المجاز مصورة لكل ما تعانيه النساء من ألم وحزن، تأمل -عـ لـ إـ سـ بـ يـلـ المـ ثـ الـ - قولـاـ هـ "يـ ذـ كـ رـ نـ يـ طـ لـ عـ لـ الشـ سـ مـ". وقولـاـ هـ "وـ أـ ذـ كـ رـ هـ لـ كـ لـ مـ غـ يـ بـ شـ سـ مـ". وربطـاـ هـ بين طلـوـعـ الشـ سـ مـ وـ مـغـيـبـهاـ وكيفـ يـ دـلـ لـ كـ عـ لـ إـ سـ تـ مـ رـارـيـةـ حـزـنـهاـ وـ تـواـصـلـهـ، وـ أـنـ صـخـرـاـ لـ لاـ يـغـيـبـ عنـ خـاطـرـهاـ لـحظـةـ؟ـ بـإـضـافـةـ إـلـىـ كـثـرـةـ عـطـائـهـ وـ كـرـمـهـ، وـ لـذـاـ أـجـابـ الأـصـمـعـيـ عـنـدـمـاـ سـئـلـ:ـ لـمـاـذـ أـخـصـتـ طـلـوـعـ الشـ سـ مـ وـ غـرـوـبـهاـ دـوـنـ أـثـنـاءـ الـدـهـارـ؟ـ فـقـالـ:ـ لـأـنـ وـقـتـ الطـلـوـعـ وـقـتـ الرـكـوبـ إـلـىـ الـغـارـاتـ، وـوـقـتـ الـغـرـوبـ وـقـتـ قـرـىـ الـأـضـيـافـ، فـذـكـرـتـهـ فـيـ هـذـيـنـ الـوقـتـيـنـ مـدـحـاـلـهـ بـلـهـ بـغـيرـ عـلـىـ أـعـدـائـهـ، وـأـنـهـ يـقـرـيـ أـضـيـافـهـ؟ـ"

ثم انظر إلى قولهـاـ "لـقـتـلـتـ نـفـسـيـ"ـ، وـمـاـ تـدـلـ عـلـيـهـ كـلـمـةـ "ـقـتـلـتـ"ـ عـلـىـ عـظـمـ فـجـيـعـهـاـ وـأـنـهـاـ مـاـ لـيـحـيـطـ بـهـاـ الـوـصـفـ، لـأـنـهـ رـبـماـ يـصـلـ بـهـاـ الـأـمـرـ.ـ نـتـيـجـةـ لـذـلـكـ، إـلـىـ إـنـهـاءـ حـيـاتـهـاـ وـفـيـ هـذـاـ التـعـبـيرـ مـنـ تـجـسـيدـ أـلـمـ الـفـرـاقـ مـاـ فـيـهـ.

ثم تأمل قولهـاـ "ـوـمـاـ يـكـوـنـ مـثـلـ أـخـيـ"ـ، وـمـاـ يـشـيرـ إـلـيـهـ هـذـاـ التـعـبـيرـ مـنـ تـفـرـيـهـاـ فـيـ الـبـكـاءـ وـأـنـ بـكـاءـهـاـ عـلـىـ أـخـيـهـاـ لـيـسـ كـبـكـاءـ الـبـاكـينـ عـلـىـ إـخـوـانـهـمـ، وـكـأـنـ الـمـرـثـيـنـ لـيـسـوـاـ فـيـ طـبـقـةـ أـخـيـهـاـ مـنـ حـيـثـ الـخـلـالـ الـحـمـيـدةـ، وـالـصـفـاتـ الـكـرـيمـةـ، فـهـوـ مـتـفـرـدـ فـيـ ذـلـكـ كـلـهـ وـكـمـاـ أـنـ صـخـرـاـ مـتـفـرـدـ فـيـ تـلـكـ الـخـلـالـ وـالـصـفـاتـ فـإـنـ الـخـنـسـاءـ أـيـضاـ مـتـفـرـدـةـ فـيـ بـكـائـهـاـ عـلـيـهـ مـنـ بـيـنـ الـبـاكـينـ عـلـىـ إـخـوـانـهـمـ، ثـمـ انـظـرـ إـلـىـ قـوـلـهـاـ "ـعـلـىـ إـخـوـانـهـمـ"ـ، وـاـخـتـيـارـ كـلـمـةـ "ـالـإـخـوانـ"ـ خـاصـةـ مـنـ بـيـنـ باـقـيـ الـأـقـارـبـ، لـتـدـلـ بـذـلـكـ عـلـىـ أـنـ فـجـيـعـهـاـ فـيـ أـخـيـهـاـ أـعـظـمـ

١. من ضروب البلاغة والبيان العربي المع جز (الاحتراس) ص ٥٢ / رفيق حسن الحلي مي. مجلة لوعي الإسلامي العدد: (٥٤٥). ديسمبر ٢٠١٠م.

وأشد، وأنه لا يمكن تعويضه أبداً، وكأنها بذلك تؤكد صدق المقوله التي تقول: إن الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود.

إذن هذه الأبيات تبرز مكانة أخيها صخر، وأنه ليس له نظير يشابهه، ومن تميّزها إلى بكاء متفرد يليق بمكانته، وهذا ما قامت به الألفاظ التي استعملت في معانٍ لها الحقيقة على أكمل وجه.

٣. ومن النماذج التي صورت المعانٍ بأسلوب الحقيقة، قول حازم القرطاجني:

والأسُّ والرِّبْ حَانُ قَدْ صُفُّ وَ قَدْ
أَلْقَى عَالِيهِ كُلَّ طَاهِ مَا طَاهَ
فِي سُعْفَ الْدَّوْمِ وَ صَلَاهَ لَظَاهَ
وَ لَفَّ كُلَّ خَابِرْمَمْ لَوْكَاهَ
ثُمَّ حَثَّى مِنْ فَوْقِهِ جَمْرَ الْغَضَى
مِنْ بَعْدِ مَا أَحْمَى لَصْفِيجَ تَحْتَهُ

فالشاعر في هذه الألفاظ الحقيقة الدلالية يصف لنا مشهدًا من مشاهد الصيد الذي قام به مجموعة من الأصدقاء، ثم قيامهم بأكل ما اصطادوه بعد الشوّي، إنه نقل إلينا من خلال تلك الأبيات ما رآه بألفاظ في غاية الجلاء والوضوح، وليس فيها خيال ولا مجاز، فأسلوب الحقيقة هنا قام بدوره في نقل هذا المشهد الذي شاهده الشاعر، ونهض به أفضل ما يكون.

وأكفي بهذه النماذج المتنوعة من: القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، والشعر العربى، في إبراز مكانة أسلوب الحقيقة وقيمتها في التصوير الفنى حيث إن هدفنا ليس استقراء الأمثلة أو الشواهد كلها، وإنما التمثيل فقط، وكما يقال: يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق.

* * *

١. قصائد ومقطوعات لـ حازم القرطاجني ص ٣٢ تحقق بقد / محمد مدحت الجب، بيب ا بن الخوجة، ط: ١ لدار التو نسية للنشر. تونس. ط: ١٩٧٢. والأس، والرِّبْ حان: من أنواع الأشجار. والسعف: الورق. الدُّورَه: نوع من الشجر يشبه النخلة. والمملوك: العجين الخليط..

الخاتمة

بعد تناول موضوع "أسلوب الحقيقة بين النظرية والتطبيق" وبيان قيمته البلاغية، والانتهاء، بحمد الله، من معالجته، أستطيع أن أسجل أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي:

أولاً: إننا اقتصرنا في حديثنا على أسلوب الحقيقة اللغوية فقط، وأسميناه "الحقيقة" على إطلاقه ولم نقيده باللغوية؛ اتباعاً لمنهج جمهور البلاغيين.

ثانياً: أن أسلوب الحقيقة يعد أحد الأساليب التي يستعين بها المتكلم على إبراز ما في نفسه من مشاعر وأحاسيس.

ثالثاً: أن إهمال البلاغيين لهذا الأسلوب، ليس له ما يبرره.

رابعاً: أن ابن رشيق كان من أوائل العلماء الذين قالوا: "إن المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة".

خامساً: أن مقوله: إن المجاز أبلغ دائمًا من الحقيقة، ليست مقبولة على إطلاقها فقد تكون الحقيقة أبلغ منه، بالإضافة إلى أن الأولي هو حمل كلمة "أبلغ" في العبارة على زيادة في المبالغة، وليس مصطلح البلاغة المعروف.

سادساً: أن الحقيقة والمجاز يتجاوزان جنباً إلى جنب في أبلغ كلام، وأفصح بيان وهو القرآن الكريم، كما أنهما يتآزران معاً في تصوير الغرض المقصود.

سابعاً: أن الحقيقة هي الأصل في الكلام، والمجاز فرع عنها، ولا يعدل عنها إلا عند الحاجة إلى ذلك، وإذا صرّح حمل الكلام على الحقيقة والمجاز، فإنه لا يحمل إلا على الحقيقة حينئذ، لأنه رجوع إلى الأصل.

ثامناً: أن أسلوب الحقيقة له دوره في التعبير، كما أن أساليب المجاز دورها كذلك ولا يُقال إن أحدهما أبلغ من الآخر، حيث إن ذلك يرجع إلى السياق ومقتضيات المقام، فاحياناً يقتضي المقام أسلوب الحقيقة، وأحياناً يقتضي أسلوب المجاز، وأحياناً يقتضي المزاوجة بينهما، ومن ثم يبقى للحقيقة دورها ومكانتها في البلاغة العربية.



تاسعاً: أن المجاز إذا كان قد حاز على شطر الحسن، فقد حازت الحقيقة على الشطر الآخر منه.

عاشرأً: أن النماذج التطبيقية المتنوعة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة والشعر العربي، أثبتت دور الحقيقة في التصوير، وأنه لا يقل في ذلك عن أسلوب المجاز. والحمد لله أولاً وآخراً.. وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

ثبات المصادر والمراجع على رأسها: القرآن الكريم.

١. أبو تميم الاطائي حياته وحياته شعره / نجيب محمد البهيمي. ط: دار الثقافة . الم غرب ط: ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
٢. الإذقان في علم القرآن لسيوطى، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم. ط: مكتبة دار التراث . القاهرة. بدون تاريخ.
٣. سرار البلاغة لعبدالقليل الحر جانى، تحقيق: أبو فهد محمد مودع شاكر، شردار المدنى . جدة ، ط: المدنى القاهرة. ط: الأولى ١٤٩١ هـ ١٩٧٥ م.
٤. إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف القاهرة ط: ١٩٧٥ م.
٥. الأغاني لأبي الفرج الأصفهانى . تحقيق: سمير جابر. طبع ونشر: دار الفكر - بيروت. ط: الثلاثية . بدون.
٦. الإيضاح مع البغية تحقيق/ عبد المتعال الصعدي، ط: مكتبة الآداب. القاهرة. ط: الرابعة. بدون.
٧. البرهان في علوم القرآن لمحمد بن عبد الله الزركشي . تحقيق/ محمد أبوالفضل إبراهيم. ط: دار المعرفة. بيروت. ط: الأولى ١٣٩١ هـ.
٨. البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق / فوزي عطوي. ط: دار صعب - بيروت ط: الأولى ١٩٦٨ م.
٩. تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ط: طبع ونشر دار الهدایة. بدون.
١٠. تجريدة العلامة البناني مع مختصر العلامه / سعد الدين التفتازاني. ط: محمد علی صبح . القاهرة. ط: الثانية: ١٣٥٧ هـ.
١١. التحرير والتقوير للطاهر بن عاشور. ط: دار سجنون للنشر والتوزيع - تونس. ١٩٩٧ م.
١٢. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى لمحمد بن عبد الرحيم المباركفورى. ط: دار الكتب العلمية . بيروت. بدون.
١٣. التصوير البىانى د. حفني شرف، ط: مكتبة الشباب. القاهرة. ط: الثانية. ط: ١٩٧٢ م.
١٤. التصوير البىانى د. محمد محمد أبو موسى. ط: مكتبة وهبة. ط: الثانية: ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

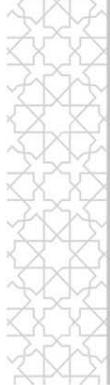
١٥. التصوير الفني لسيد قطب. ط: دار الشروق. بيروت. ط: ١٩٨٨ م.
١٦. تفسير إرشاد العقل للسليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن محمد العمامي أبو السعد. ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. بدون.
١٧. تفسيراً يات الأحكام لشيخ/ محمد مدعلي لسليس. تحقق/ ناجي إبراهيم سودان. ط: المكتبة العصرية. بيروت. ط: الأولى: ٤٢٠٢ هـ / ٢٠٠٣ م.
١٨. تفسير القاسمي لا مسمى: محا سن التأويل لج مال الدين القاسمي. تحقق/ محمد فؤاد بد الباقي. ط: دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي. بدون.
١٩. تفسير لا كشف للزم خشري. تحقق/ ع بدالرزاق المهدى. ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. ط: الثانية: ٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.
٢٠. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. تحقق/ محمود محمد شاكر. ط: المدنى . القاهرة، و جدة . ط: الثالثة. ط: ٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
٢١. ديوان البحترى. ط: دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. ط: ٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
٢٢. د. يوان الخسائى. تحقق/ كرم البتانى ط: دار صادر . بيروت. ط: ١٩٦٣ م. و تحقق/ يقى د/ إبراهيم عوضين. ط: المكتبة الأزهرية للتراث. القاهرة. ط: الأولى: ٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٢٣. زهر الربيع في المعانى والبيان والبداع لشيخ/ أحمد الحملاوى. ط: مصطفى الحلبي . القاهرة. ط: الخامسة. ط: ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م.
٢٤. سر لا فصاحة لابن سينا الخفاجي تحقيق/ عبد المتعال لصعيدي. ط: مكتبة محمد على صبيح . القاهرة. ط: ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م.
٢٥. السنن الترمذى. تحقيق/ أحمد محمد شاكر وأخرون. ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. بدون.
٢٦. شرح التصريح على التوبيخ لشيخ خالد الأزهري. تحقق/ محمد باسل عيون لسود. ط: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: الأولى: ٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
٢٧. شرح جمل الزجاجى لابن عصفور. تحقيق/ صاحب أبو جناح. ط: دار الكتب للطباعة والنشر . جامعة الموصل. العراق. بدون.

٢٨. شرح اسعد لـ خيس (ضمن شروح الطحاوي). ط: دار الـ بـان العـرـبـي . بـيرـوتـ طـ: الرابـعـةـ ١٤٩٢ـ هــ ١٩٩٢ـ مــ.
٢٩. شرح كافية ابن الحاـجـبـ للـ رـضـيـ. تـحـقـيقـ دـ إـمـيلـ بـدـيـعـ بـعـ قـوبـ. طـ: دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ . بـيرـوتـ طـ: الأولىـ ١٤٩٨ـ هــ ١٩٩٨ـ مــ.
٣٠. شـرـحـ الـكـافـيـةـ الـلـشـافـيـةـ لـابـنـ مـاـلـكـ. تـحـقـيقـ دـ عـبـدـ الـمـعـمـهـرـ يـدـيـ. طـ: دـارـ الـأـمـمـوـنـ لـلتـرـاثـ دـ مـثـقـ. طـ: الأولىـ ١٤٠٢ـ هــ ١٩٨٢ـ مــ.
٣١. شـرـوحـ التـلـخـيـصـ. طـ: دـارـ الـبـيـانـ الـعـرـبـيـ. بـيرـوتـ طـ: الرابـعـةـ ١٤١٢ـ هــ ١٩٩٢ـ مــ.
٣٢. الصحـبـيـ لـابـنـ فـارـسـ. طـ: دـارـ إـحـيـاءـ الـكـتـبـ الـعـرـبـيـ لـعـيـسـيـ الـحـلـبـيـ. الـقـاهـرـةـ طـ: ١٩٧٨ـ هــ.
٣٣. صـحـيـحـ الـبـخـارـيـ. تـحـقـيقـ دـ مـصـطـفـيـ دـ يـبـ الـبـغـاـ. طـ: دـارـ بـنـ كـثـيـرـ الـيـمـاـمـةـ. بـيرـوتـ طـ: الثالثـةـ ١٤٠٧ـ هــ ١٩٨٧ـ مــ.
٣٤. صـحـيـحـ مـسـلـمـ. تـحـقـيقـ مـحـمـدـ فـؤـادـ عـبـدـ الـبـاقـيـ. طـ: دـارـ إـحـيـاءـ التـرـاثـ الـعـرـبـيـ. بـيرـوتـ بدـ وـنـ.
٣٥. اـلـصـنـاعـتـيـنـ أـلـ بـيـ هـلـالـ الـعـسـكـرـيـ تـحـقـيقـ دـ مـحـمـدـ بـوـالـ فـضـلـ إـ بـرـاهـيمـ، وـ عـلـيـ مـحـمـدـ الـجاـوـيـ. طـ: عـيـسـيـ الـحـلـبـيـ. طـ: ١٩٧١ـ هــ ١٩٩٥ـ مــ.
٣٦. الـصـورـةـ الـأـدـبـيـةـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ دـ /ـ صـلـاحـ الـدـينـ عـبـدـ التـوـابـ. طـ: مـكـتـبـةـ لـبـنـانـ نـاـشـرـونـ، طـ: الأولىـ ١٩٩٥ـ مــ.
٣٧. الـصـورـةـ الـبـلـاغـيـةـ عـنـ عـبـدـ الـقـلـهـ الرـجـانـيـ مـنـهـ جـاـ وـتـطـيـقـ قـادـ /ـ أـحـمـدـ عـلـيـ بـهـ مـانـ. طـ: مـكـتـبـةـ الـأـسـدـ . سـورـيـةـ طـ: الثانيةـ ٢٠٠٠ـ مــ.
٣٨. الـصـورـةـ الـفـنـيـةـ فـيـ التـرـاثـ النـقـديـ وـالـبـلـاغـيـ دـ /ـ جـاـبـرـ أـحـمـدـ عـصـفـورـ. طـ: دـارـ الـمـعـارـفـ طـ: ١٩٨٠ـ هــ ١٩٨٠ـ مــ.
٣٩. الـصـورـةـ الـفـنـيـةـ فـيـ الـحـدـيـثـ الـذـبـوـيـ الـلـشـرـيفـ دـ /ـ أـحـمـدـ زـكـرـ يـاـيـاـ سـوـفـ. طـ: دـارـ الـمـكـتـبـيـ . سـورـيـةـ طـ: الثانيةـ ١٤٤٢ـ هــ ٢٠٠٦ـ مــ.
٤٠. الـصـورـةـ فـيـ شـعـرـ بـشـارـ بـنـ بـرـدـ /ـ عـبـدـ الـفـتـاحـ صـالـحـ نـافـعـ. طـ: دـارـ الـفـكـرـ عـمـانـ طـ: ١٩٨٣ـ هــ ١٩٨٣ـ مــ.
٤١. الـصـورـةـ فـيـ الشـعـرـ الـعـرـبـيـ دـ /ـ عـلـيـ الـبـطـلـ. طـ: دـارـ الـأـنـدـلـسـ. بـيرـوتـ طـ: الأولىـ ١٩٨٠ـ هــ ١٩٨٠ـ مــ.

٤٢. الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد / إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم. ط: الشركة العربية للنشر والتوزيع. القاهرة ط: ١٤١٥هـ ١٩٩٦م.
٤٣. إل طراز لإ مل الع لوی، تحقیق / مح مدعا بدا لسلام شلهین. ط: دار الكتب العلمية - بیروت. ط: الأولى: ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
٤٤. عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص). ط: دار البيان العربي. بیروت. ط: الرابعة: ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
٤٥. علم البيان / بدوي طباعة ط: دار الثقافة. بیروت. بد.ون.
٤٦. العمدة لابن رشيق. تحقيق د / النبوی عبد الواحد شعلان ط: الأولى: ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
٤٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني. ط: دار المعرفة. بیروت. ط: ١٣٧٩هـ.
٤٨. فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور / رجاء عيد. ط: مشاؤل المعرفة. مصر ط: ١٩٧٩م.
٤٩. فيض القدر لعبدالرؤوف المناوي. تحقيق / ما جد الحموي. ط: المكتبة التجارية - إل قاهرة. ط: الأولى: ١٤٣٦هـ ١٩٥٦م.
٥٠. القرآن والصورة البيانية / عبد القادر حسين. ط: دار المنار. القاهرة. ط: الأولى: ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
٥١. قصائد ومقطوعات لأبي الحسن حازم القرطاجي. تحقيق د / محمد الجبّاب بن الخوجة. ط: ادار التونسية للنشر. تونس. ط: ١٩٧٢م.
٥٢. الكمال لإ ملأ بي العبلين المبرد. تحقيق د / مح مد أح مد ا لدالي. ط: مؤسسة الرسالة - بیروت. ط: الثالثة: ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
٥٣. الكتاب لسيبوه، تحقيق ا لشيخ / عبدا لسلام هارون. ط: دار الجيل - بیروت. ط: الأولى. بدون تاريخ.
٥٤. لسان العرب ط: دار صادر. بیروت. ط: الأولى: ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
٥٥. المثل السادس لابن الأثير. تحقيق د / محمد محيي الدين عبد الحميد. طبع ونشر: المكتبة الحصرية . بیروت، ط: ١٩٩٥م.
٥٦. المجاز في اللغة العربية / مهدي صالح ا لسامرائي. ط: دار الدعوة . سوريا. ط: الأولى: ١٣٩٤هـ.

٥٧. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنعنـد / عبد العظيم المطعني. ط: مكتبة وهبة . القاهرة. ط: الأول. ط: ٦٤٠ هـ ١٩٨٥ مـ.
٥٨. محاضرات في علم البيان / حسن طبل. ط: مكتبة الزهراء، ط: ١٩٨٨ مـ.
٥٩. الم حصول في علم الأصول . مـحمد بن عـمرـا لـراـزـي . تـحـقـيقـ / طـه جـابرـ فـيـاضـ العـلـوـانـي . شـرـشـنـةـ جـامـعـةـ الإـمـرـيـيـيـنـ بـالـرـيـاضـ . طـ: ٤٠٠ هـ ١٩٨٠ مـ.
٦٠. مشاهد القيامة في القرآن لـسـيـد قـطـبـ طـ: دـارـ الشـرـوـقـ بـيـرـوـتـ . بـدـونـ .
٦١. المطول لـسعـدـ الدـيـنـ التـفـتـازـانـيـ طـ: مـطبـعـةـ أـحـمـدـ كـامـلـ . طـ: ٣٢٣ هـ .
٦٢. معجم الـمـصـطـلـحـاتـ الـبـلـاغـيـةـ وـتـطـوـرـ هـادـ / أحـمـدـ مـدـمـطـ لـوـبـ طـ: مـكـتبـةـ بـلـانـنـاـ شـرـونـ - بـيـرـوـتـ طـ: الثانية ط: ١٩٩٦ مـ.
٦٣. مـفـاتـحـ الـعـلـوـمـ لـأـبـيـ يـعـوبـ يـوسـفـ بـنـ أـبـيـ بـكـرـ السـكـلـيـ . تـحـقـيقـ / نـعـيمـ زـرـزـورـ طـ: دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ بـيـرـوـتـ طـ: الأول ط: ٤٠٣ هـ ١٩٨٣ مـ.
٦٤. مـقـلـيـسـ الـلـاـغـةـ لـابـنـ فـارـسـ تـحـقـيقـ / عـبدـ اـلسـلـامـ هـارـونـ طـ: بـعـ وـ نـشـرـ اـتحـادـ الـكـتبـ الـعـرـبـ طـ: طـ: ٢٠٠٢ هـ ١٤٢٣ مـ.
٦٥. المنهـاجـ الواـضـحـ لـحامـدـ عـوـنيـ طـ: مـكـتبـةـ الجـامـعـةـ الـأـزـهـرـيـةـ طـ: ١٩٧٢ مـ.
٦٦. الموازنة الـآـمـدـيـ . تـحـقـيقـ / السـيـدـ أـحـمـدـ صـقـرـ طـ: دـارـ الـمـعـارـفـ طـ: ١٩٧٢ هـ ١٤٣٢ مـ.
٦٧. موا هـبـ الـفـاتـحـ لـابـنـ يـعـوبـ (ضـمـنـ شـرـوحـ التـلـخـيـصـ) طـ: دـارـ الـبـيـانـ العـرـبـيـ بـيـرـوـتـ طـ: الرابـعـةـ ط: ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ مـ.
٦٨. النقد الـأـدـبـيـ الـحـدـيـثـ / محمدـ غـنـيمـيـ هـلـالـ . طـ: نـهـضـةـ مـصـرـ طـ: ٢٠٠١ مـ.
٦٩. النـكـتـ فيـ إـعـجـازـ الـقـرـآنـ لـلـرـمـانـيـ (ضـمـنـ ثـلـاثـ رـسـائـلـ فيـ إـعـجـازـ الـقـرـآنـ) . تـحـقـيقـ / محمدـ خـلـفـ اللـهـ دـ/ محمدـ زـغـلـوـنـ سـلـامـ طـ: دـارـ الـمـعـارـفـ الـقـاهـرـةـ . بـدـونـ .
٧٠. الوـسـاطـةـ بـيـنـ المـتـبـيـ وـخـصـومـهـ لـلـقاـ ضـيـ الـجـرـ جـانـيـ . تـحـقـيقـ / مـحـمـدـ بـوـالـ فـحـضـلـ بـرـاهـيـمـ . وـعـلـيـ الـبـجاـويـ طـ: عـيسـىـ الـحـلـيـ الـقـاهـرـةـ طـ: ١٩٦٦ هـ ١٤٣٨ مـ.

* * *





الجوهريُّ قارئاً لسيبويه

د. بدر بن محمد بن عباد الجابري
قسم اللغويات - كلية اللغة العربية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة



الجوهريُّ قارئاً لسيبوه

د. بدر بن محمد بن عباد الجابري

قسم اللغويات - كلية اللغة العربية - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

ملخص البحث:

إنَّ المتصفح للتراث المعجميِّ الْأَثْرِيِّ يقف على فرائد ودررٍ من ذَلِكَ: نصوص مبتوثةٌ في ثنايا هذا التراث ه عزَّوةٌ لسيبوه ت ٤٨٠هـ، وآراءٌ وأقوالٌ مسوبيةٌ إلَيْهِ، وَهَذِهِ النصوص وَلَكِ الآراء وَالْأَقوال بحاجةٍ إلى توثيقٍ وَتدقيقٍ، ودراسته ونقدُه، ولَا كَانَ هَذَا الْبَحْثُ محاولةً لِنَهْوٍ بِهَذَا الْمَهْمَمَةِ. ومدار هذا الْبَحْثُ هو صحاح الجوهرىُّ ت ٤٠٠هـ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْأَخْتَيَارُ لِيَارِهِ عَدْدًا أَوَّلًا: أَنَّ عَدْدًا لِيَسْ بِالْيَسِيرِ مِنَ النصوص وَالْأَقوالِ الْمَعْزَوَةِ لسيبوه في عددٍ من المعجمات كانَ مُصْدِرَها صحاح الجوهرىُّ. ثالثًا: أَنَّ مدرسة القافية التي كانَ رائِهَا الجوهرىُّ هي المدرسة التي تنتهيُّ إلى هاكمُرِياتِ المعاجمِ العربية "لسان العرب" و"تاج العروس"، فإذا بحثَ الأَطْلَالُ الْأَذْيَ اعتمدَ تَهَا شَبَحَ ذَلِكَ عَلَى المعجماتِ الْمَتَضَرِّعَةِ عَنْهُ. ثالثًا: مَكَانَةُ الجوهرىُّ الْعَلَمِيُّ، وَدَرَاسَتُهُ لِيَاثِنِينَ مِنْ مُشْهُدِيِّ شِرَاحِ كِتابِ سِيبُوهِ، وَهُوَ مَا: لِسِيرَافِيُّ ت ٣٦٨هـ، وَالفارسيُّ ت ٣٧٧هـ، مِمَّا يَجْعَلُهُ حَرِيًّا بِأَنَّهُ فَرِيدٌ بِالْأَدْرِسِ. رابعًا: تَفْرِيدُ الجوهرىُّ بِمَا شَبَهَ لسيبوه في بعض موادِ معجَّمهِ. هذا وَيَتَنَوَّلُ الْبَحْثُ جَمِيعَ المَوَاعِدِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي الْجَزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ صحاحِ الجوهرىُّ بِتَقْسِيمِ مَحْقُوقِه "رَحْمَهُ اللَّهُ". وهو بِلِكُورَةِ هَذَا النَّتَاجِ الْعَلَمِيِّ الَّذِي سَيَتَوَاصِلُ بِصَنْيَّةِ اللَّهِ.



Al-Jawhari: A Reader of Sibawaih

Dr. Badr Muhammad Aljabry

Abstract

The reader of the rich lexical heritage would pause upon unique and magnificent masterpieces; of those are texts, opinions, and sayings scattered in the folds of this heritage attributed to Sibawaih (died 180 Hijri). These texts, opinions, and sayings require documentation, scrutiny, study, and criticism. Thus, this study has come into being to embrace this endeavor. The scope of the study is Sihah Al-Jawhari (died 400 Hijri, unconfirmed). There are many reasons behind this choice: first, a large number of texts and sayings that are attributed to Sibawaih in many dictionaries have cited Al-Jawahari; second, many Arabic authentic dictionaries such as (*Lisan al-Arab* and *Taj al-Arus*) belong to the school of 'Al-qafiyah', whose pioneer was al-Jawhari; therefore, if the original dictionary is investigated, the search will draw on all other sub-dictionaries; third, the scientific status of al-Jawhari and his education on the hands of two famous interpreters of Sibawaih's book, al-Sirafi (died in 368 Hijri) and al-Farisi (died in 377 Hijri), which makes it worthy of study; fourth, al-Jawhari is unique in what he attributes to Sibawaih in some articles of his dictionary. The study deals with all issues in the first part of Sihah al-Jawhari as divided by its editor (may Allah's mercy be upon him), and it is the foundation of this scientific product which will continue (if Allah wills).

المقدمة:

حمدًا لك اللهم على تعدد الآلاء، وصلة وسلاماً دائمين على خاتم الأنبياء، وعلى جميع الصحابة والآل النجباء،

وبعد،

فإن المتصفح للتراث المعجمي الثري يقف على فرائد ودرر، ومن ذلك: نصوص مثبتة في ثنايا هذا التراث معزوة لسيبوه (ت ١٨٠ هـ)، وأراء وأقوال منسوبة إليه. وهذه النصوص وتلك الآراء والأقوال بحاجة إلى توثيق وتدقيق، ودراسة ونقد، ولذا كان هذا البحث محاولة للنهوض بهذا المهمة.

ومدار هذا البحث هو صحاح الجوهرى (ت ٤٠٠ هـ ظنناً)، وقد كان هذا الاختيار لخمسة أسباب:

أولاً: أن عدداً ليس باليسير من النصوص والأقوال المعزوة لسيبوه في عدد من المعجمات كان مصدرها صحاح الجوهرى.

ثانياً: أن مدرسة القافية التي كان رائدها الجوهرى هي المدرسة التي تنتهي إليها كبريات المعاجم العربية (سان العرب وتابع العروس)، فإذا بحث الأصل الذي اعتمدته انسحب ذلك على المعجمات المتفرعة عنه.

ثالثاً: مكانة الجوهرى العلمية، ودراسته على اثنين من مشاهير شراح كتاب سيبويه وهما: السيرافي (ت ٣٦٨ هـ)، والفارسي (ت ٣٧٧ هـ)، مما يجعله حرياً بأن يفرد بالدرس.

رابعاً: تفرد الجوهرى بما نسبه لسيبوه في بعض مواد معجمه.

خامساً: أن الجوهرى رغم كل ما كتب عنه قدیماً وحديثاً لم يدرس من ناحية تعاطيه لنصوص سيبويه ونسبة الأقوال إليه، بحسب علم الباحث وبإفاده عدد من المختصين.

وفي هذا البحث (بمشيئة الله) كشف عن مدى إبحار الجوهرى في كتاب سيبويه وفهمه له، وشرحه لبعض جزئياته، وإنما به بعض كليلاته، مما له صلة بعمله المعجمي



إطار البحث: يتناول البحث جميع المواضع الواردة في الجزء الأول من صاحب الجوهرى بتقسيم محققه (رحمه الله)، وهو باكورة هذا النتاج العلمي الذي سيتواءط (بمشيئة الله).

- منهج البحث: يمكن إجمال المنهج الذي سار عليه البحث في النقاط الآتية:
- إيراد نص الجوهرى كما هو في معجمه، وعلى وفق ترتيبه مع الإبقاء على علامات الترقيم والضبط الذي وضعه محقق الصحاح الأستاذ: أحمد عطار (ت ١٤١١ هـ): كتاريخ ومعلم لجهود رائد من رواد اللغويين في المملكة.
 - التعليق عند الحاجة وفي أضيق الحدود، على ما يحويه النص المحقق من معجم الصحاح من تطبيقات واستدراكات ونحوها.
 - إيراد نص كتاب سيبويه، أو نصوصه في حالة كثرتها، أو كون نص الجوهرى مجموعاً من نصوص متعددة لسيبويه، أو منقولاً بالمعنى؛ مع الاكتفاء بفحوى نصوص سيبويه عند عدم نقل الجوهرى لكلام سيبويه، واكتفائه بعزو الرأي لسيبويه دون اعتقاده بنص.
 - التعليق عند الحاجة وباختصار على ما يحويه نص كتاب سيبويه من تطبيقات ونحوها.
 - بيان الحكم على قراءة الجوهرى لنصوص سيبويه، والتذكير فيما يعزوه له من أقوال، مما يجعل القارئ على بينة مما عزاه الجوهرى لسيبويه تصوياً وتهيماً.
 - إيراد أقوال العلماء السابقين في التنبية على أوهام الجوهرى في عزو الرأي لسيبويه، وكذا الخلل في نقل نصوص كتابه، وذلك قدر الاستطاعة.
 - بيان سبب وقوع الوهم من الجوهرى، ومحاولة الاعتذار عنه.
 - سيقتصر هذا البحث على نصوص الجوهرى التي صرّح فيها بسيبويه أو كتابه فحسب؛ ولن يعرض البحث للمواد والمسائل التي لم يصرّح فيها الجوهرى بقول سيبويه

أولم يعز الرأي إليه، أو ينقل نصّ كتابه، مما سار فيها الجوهرى على خلاف مذهب سيبويه، أو قال فيها بغير قوله، ويستثنى من ذلك ما كان له صلة بالمسائل المدرسة. ولم يعرض البحث لترجمة سيبويه والجوهرى لشهرتهما، ولكون ما كتب عنهما قدימה وحديثاً فيه غنية، وأما صحاح الجوهرى فقد درسه محققه وكذا عدد من الباحثين في المعاجم، فكان انصراف البحث لما يقصده مكتفيًا بما كتبه هؤلاء الفضلاء.

وختاماً: فالبحث يأمل أن يكون خطوة تضيء الطريق لقارئ الصحاح، وغيره من معجمات مدرسة القافية، فيما يخصُّ نصوص سيبويه المعزوة، وأقواله المنسوبة، مما يجعل القارئ على بينة وبصيرة منها، مع الكشف عن جهود الجوهرى في قراءة كتاب سيبويه.

وليس ما في هذا البحث بضربة لازب، بل هو اجتهاد يؤمل أن يكون صواباً وهو في حاجة إلى إسداء النصح، وتقويم الموجّ. والله المسؤول أن يسدد القول والعمل.

١- سوا

قال الجوهرى: ((وَسُوْتُ الرَّجُلَ سَوَائِيَّةً وَمَسَائِيَّةً، مَخْفَفَانِ، أَيْ سَاعَهُ مَا رَأَهُ مِنِّي))^(١)
قال سيبويه: سأله - يعني الخليل - عن سُوْتِه سَوَائِيَّةً، فقال: هي فعالية، بمنزلة علانية
والذين قالوا: سَوَائِيَّة حذفوا الهمزة، وأصله الهمز. قال: سأله عن مسليّة فقال: مقلوبة
وأصلها مَسَائِيَّة فَكَرِهُوا اللَّاوَ مَعَ الْهَمْزَةِ، وَالَّذِينَ قَالُوا: مَسَائِيَّة^(٢) حذفوا الهمزة
تحفيفاً^(٣).

(١) في الأصل: مني، بدون دقيق لاياء، وكذا فيما كان نحوها، وهو على الرسم الإملائي، ولكنه معدول عنه اليهـ.

(٢) كما، ولاعنة لمنع الصرف، ولعله تطبيعاً.

(٣) الصحاح ٥٦/١ (سوأ).

هذا النصُّ في كتاب سيبويه (ت ١٨٠ هـ) يحروفه تقريرياً ما عدا الجملة الأخيرة، ففيه ((وسألته عن قوله^(١): سُؤْتُه سَوَائِيَّةً، فقال: هي فَعَالِيَّةٌ بِمَنْزِلَةِ عَلَانِيَّةٍ، والذين قالوا: سَوَائِيَّةٌ حذفوا الهمزة كما حذفوا همزة هارِ ولاتِ...))

وسأله عن مسائية فقال: هي مقلوبة، وكذلك أشياء وأشواوى...، فمسائية إنما كان حدها متساوية فكرهوا الواو مع الهمزة، لأنهما حرفان مستقلان^(٢).)

ومن خلال نص سيبويه موازناً بما نقله الجوهرى أنها تتضح جملة أمور، وهي:
 ١/ حِرْصُ الْجَوَهْرِيِّ عَلَى إِلَافَةِ مِنْ نَصوصِ سِيبُويهِ فِي مَعْجمِهِ.
 وهذا ظاهر بخلاف هذا النص والنصوص الآتية من صالح الجوهرى، مما يمكن القول معه بكل تجرد علمي: إن الجوهرى كان من منهجه في معجمه: التعرج على أقوال سيبويه، والاعتزاد بنصوصه، بل ومحاولة تفسيرها.

٢/ أن من منهجه الجوهرى: إيراد النص الذي يناسب مراده، وليس كاملاً نص سيبويه
 ٣/ أن الجوهرى أقحم الجملة التفسيرية "يعنى الخليل" ليفسر مرجع الضمير في سألته، وهو تصرف حسن.

٤/ إلافة الجوهرى من هذا النص في توجيه قولهما: "مسائية"؛ وهو غير وارد في نص سيبويه.

ولا يعلم هذا إلا بالوقوف على نص سيبويه، وفي بعض المصادر^(٣) ييدو النص برمته من كلام سيبويه.

٢ - كلام

قال الجوهرى: ((والمُكَلَّا بالتشديد: شاطئُ النهر ومَرْفأُ السُّفُنِ، أبو زيد: كَالْقَوْمُ سَفِينَتَهُمْ تَكْلِيَّاً: حَبِسُوهَا، وَمِنْهُ الْكَلَامُ مُشَدَّدٌ مَدُودٌ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْبَصَرَةِ لِأَنَّهُمْ يُكَلِّنُونَ سَفَنَهُمْ هُنَاكَ، أَيْ يَحِسِّسُونَهَا، يُوتَّثُ وَيَذَكَّرُ^(٤))).

(١) قول القائل من العرب.

(٢) الكتاب ٣٧٩ / ٤ و ٣٨٠.

(٣) ينظر: العباب ٧١، ولسان العرب ١/ ٩٥ و ٩٦ (سوا).

(٤) ينظر: المنكر والمؤنث لأبي حاتم ص ١٤٨، ويوازن بالمخصلص ٣/ ٢٠، والمحكم ٧/ ٦٥ (كلام).

وقال سيبويه: هو فَعَالٌ مثل جَبَارٍ بالتشديد. والمعنى أن الموضع يدفع الريح عن السفن ويحفظها. وهو على هذا مذكُرٌ مصروفٌ^(١).

= نص سيبويه على أن وزن الكلاء: فَعَالٌ؛ حيث يقول: ((ويكون على فَعَالٍ في الاسم والصفة، فالاسم نحو: الكلاء والقذاف والجبان، والصفة نحو: شَرَابٌ ولباسٌ ورَكَابٌ))^(٢).

وليس في نص سيبويه أو كتابه تفسير لكلاء بأنه موضع يدفع الريح عن السفن ويحفظها، وهذا التفسير موجود بحروفه تقريباً عند ابن سيده^(٣) (ت ٤٥٨ هـ).

والجوهري وكذا ابن سيده - فيما يظهر - نقلوا هذا التفسير من كلام الفارسي^(٤) (ت ٣٧٧ هـ) حيث يقول: ((فأما الكلاء كلام البصرة، فزعم سيبويه أنه فَعَالٌ بمنزلة القذاف والجبان؛ وهو على هذا مذكُرٌ مصروفٌ، ويدل على ذلك أنهم سمواً مرفأ السفن المُكَلَّأ والمعنى: أن الموضع يدفع الريح عن السفن المقربة إليه ويحفظها منها))^(٥).

وأصل هذا التفسير - على الأظاهر - لأبي الحسن الأخفش (ت ٢١٥ هـ)، يقول ابن سيده: ((وكلاء البصرة ممدود؛ لأن السفن تكلاً فيه فكانه فَعَالٌ من كلاء). قال أبو الحسن: الكلاء على أنه الذي يكلؤها، والمُكَلَّأ على أنها تُكلاً فيه))^(٦).

ويلحظ من أسلوب الجوهرى أنه إذا قال: ((وقال سيبويه)) في غير معرض إيراد الأقوال، فإن الجوهرى يستضعف الرأي الذي ينسبه لسيبويه.

وبيان ذلك في هذه المادة: أن الجوهرى مضى في صدر المادة على أن الكلاء ينكر ويؤنث، ثم أعقبه بقول سيبويه المخالف لما سبق له تقريره.

(١) الصحاح/٦٩ (كلاء).

(٢) الكتاب/٤ ٢٥٧.

(٣) ينظر: المخصص/٥ ٦٢، ويقارن بما ورد فيه ٣٢٠ / ٢٠ و ٥٥ .٢٨ .

(٤) التكميلة ص ٣٣٥، وفي النص تطبيقات يخلو منها نص الجوهرى.

(٥) المخصص/٣ ٢٠ .

وهذه الملحوظة تبيّن بجلاء خصيصة للجوهريٌّ في تأليفه، فات دارسي صاحب الجوهرى التتبّه لها، وهي التفريق بين قول الجوهرى: ((قال سيبويه))، قوله: ((و قال سيبويه))، وسيتضح هذا الأمر بجلاء في المواد: "قصب" و "نب" و "ذرح" و "سبح". وختاماً: فقد نسب الأخضـش^(١) التذكير في كلـاء لبني تميم، والتأثـث لأهل الحجاز ونقله عنه الجوهرى^(٢).

٣ - نبا

قال الجوهرى: ((والنـبـاـ الخبر، تقول نـبـاـ ونـبـاـ، أي: أخبر، ومنه أخـدـ النـبـيـ لـأنـهـ آنـبـاـ عنـ اللهـ تعالـىـ... قال سيبويه: ليس أحد من العرب إلا ويقول: نـبـاـ مـسـيـلـمـةـ بالـهـمـزـ، غيرـأـهمـ تـرـكـواـ الـهـمـزـ فـيـ النـبـيـ كـمـاـ تـرـكـوـهـ فـيـ الـذـرـيـةـ وـالـبـرـيـةـ وـالـخـارـيـةـ، إـلـاـ أـهـلـ مـكـةـ فـإـنـهـمـ يـهـمـزـوـنـ هـذـهـ الـأـحـرـفـ^(٣)، وـلـاـ يـهـمـزـوـنـ فـيـ غـيـرـهـاـ، وـيـخـالـفـونـ الـعـرـبـ فـيـ ذـلـكـ. وـتـصـيـرـ النـبـيـ^(٤) نـبـيـ مـثـلـ نـبـيـعـ، وـتـصـيـرـ الـبـنـوـةـ^(٥) نـبـيـةـ مـثـلـ^(٦) نـبـيـعـةـ. تـقـولـ العـرـبـ: كـانـتـ نـبـيـةـ مـسـيـلـمـةـ نـبـيـةـ سـوـءـ، وـجـمـعـ النـبـيـ نـبـاءـ. قـالـ الشـاعـرـ: يا خـاتـمـ النـبـاءـ إـنـكـ مـرـسـلـ بالـخـيـرـ كـلـ هـدـىـ السـيـلـ هـدـاكـ

(١) معاني القرآن /١٨.

(٢) الصحاح /٤٩١ (زقق)، وينظر: لسان العرب /١٠ (زقق).

(٣) لم يرو يومنـاتـ (١٨٢ـهـ) عـلـىـ مـاـ قـلـ أـبـوـ عـبـيدـ (٢٢٤ـهـ) عـلـىـ أـهـلـهـ ((لمـ تـسـمـعـ مـهـ مـوزـةـ)) /٦٤٨ـ، وـيـنـظـرـ الـمـ خـصـصـ /٤ـ، وـقـدـ نـصـاـ بـنـ جـذـيـ (٢٣٩٢ـهـ) عـلـىـ أـهـلـهـ ((لمـ تـسـمـعـ مـهـ مـوزـةـ)) (الـخـصـانـصـ /٢ـ، وـلـمـ يـوـرـدـ الـجـوهـرـيـ فـيـهـ الـهـمـزـ فـيـ "خـيـاـ"ـ، وـمـاهـنـاـ تـجـوـزـأـ وـهـمـ قـدـ يـكـوـنـ سـيـبـيـهـ إـيـرـادـ اـبـنـ اـلـسـيـكـيـتـ (٢٤٤ـهـ) الـخـابـيـةـ مـبـاـشـرـةـ عـقـبـ مـاـيـهـ مـزـهـ أـهـلـ مـكـةـ /ـ صـلـاحـ الـمـذـقـصـ /١٥٩ـ، وـقـلـ الـفـ يـوـمـيـ (٢٧٧٠ـهـ تـقـرـيـبـاـ) جـواـزـهـمـزـ هـاـاـلـ مـصـبـاحـ الـمـذـيـرـ (٦٢ـخـيـاـ)، وـعـنـهـ الـزـبـ يـدـيـ (٢٠٥ـهـ)ـ تـاجـ الـعـرـوـسـ /٢٠٧ـخـيـاـ، وـهـوـ خـالـفـ الـسـمـاعـ، وـمـنـ تـابـعـ الـجـوهـرـيـ فـيـ حـاـنـكـاهـهـ نـاـاـ الصـغـانـيـ (١٥٥ـهـ)ـ الـكـدـ بـابـ /١١٧ـزـ بـاـ، وـاـبـنـ مـذـ ظـورـاتـ (٧٧١ـهـ)ـ لـسانـ الـعـرـبـ /١٦٢ـزـ بـاـ، وـاـ سـيـطـيـ (١١٥ـهـ)ـ الـمـزـهـرـ /٢٥ـهـ، وـالـزـيـديـ (تـاجـ الـعـرـوـسـ /٤٤ـهـ)ـ تـبـاـ، وـيـقـارـنـ بـعـادـ "خـيـاـ"ـ فـيـ هـذـهـ الـمـعـاـجـمـ.

(٤) وـرـدـتـ فـيـ التـبـيـهـ وـالـيـاضـاخـ (٣٠ـهـ)ـ الـذـبـيـ، وـلـصـابـ مـاـأـتـهـ مـحـقـقـقـاـ لـصـحـاحـ لـمـاـ سـيـأـتـيـ بـيـاـهـ فـيـ نـهاـيـةـ الـمـسـأـلـةـ.

(٥) فـيـ الـأـطـلـ ضـبـطـتـ الـلـوـنـ بـالـضـمـرـ وـنـ إـثـلـاتـ الـشـدـةـ، وـقـدـ تـكـرـرـهـاـكـثـيـرـاـ فـيـ ضـبـطـ ماـ بـعـدـ الـلـامـ الشـمـسـيـةــ.

(٦) كـذاـ وـكـذاـ فـيـ طـبـعـةـ بـوـلـاقـ مـنـ الـصـحـاحـ /٢٤ـ، وـصـ ١٤ـ مـنـ سـخـةـ خـطـيـةـ غـاـيـةـ فـيـ الـجـودـةـ لـصـحـاحـ (مـتـاـحـةـ عـلـىـ مـوـقـعـ وـيـكـيـ مـصـدـرـ). وـأـمـاـ نـسـخـةـ جـامـعـةـ الـمـلـكـ سـعـودـ مـنـ الـصـحـاحـ (٧ـهـ)ـ فـيـهـاـ مـثـلـ، وـهـوـأـلـيـقـ بـمـاـ قـبـلـهـ.

ويُجمَعُ أيضًا على أنبياء، لأن الهمز لَمَا أُبْدِلَ وَالْزِمَّ إِلَبْدَالَ جَمْعٌ جَمْعٌ مَا أَصْلُ لَمِهِ حَرْفُ الْعَلَةِ، كَعِيدٍ وَأَعِيادٍ، عَلَى مَا نَذَكِرُهُ فِي بَابِ الْمَعْتَلِ إِن شَاءَ اللَّهُ (١).

= هنا بضعة نصوص لسيبوه، وإن كان صنيع الجوهرى لا يفصح عن ذلك، وفيما يلى نص كتاب سيبويه بحروفه لتوضح تلکم النصوص: ((فَأَمَّا النَّبِيُّ فَإِنَّ الْعَرَبَ قَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ، فَمَنْ قَالَ: النَّبَّاءُ قَالَ: كَانَ مُسَيْلَمَةً نَبِيًّا سَوْءً، وَتَقْدِيرُهَا تَبَعُّ، وَقَالَ الْعَبَاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ:

يَا خَاتِمَ النَّبَّاءِ إِنَّكَ مَرْسَلٌ
بِالْحَقِّ كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَّاكَ

ذَا الْقِيَاسِ؛ لَأَنَّهُ مَمَّا لَا يَلْزَمُ.

ومن قال أنبياء قال: نَبِيٌّ سَوْءٌ كَمَا قَالَ فِي عِيدٍ حِينَ قَالُوا أَعِيادٌ: عِيدٌ، وَذَلِكَ لَنْهُمْ أَلْزَمُوا الْيَاءَ، وَأَمَّا النَّبِيَّةُ فَلَوْ حَقَرَتْهَا لَهَمَزَتْ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: كَانَ مُسَيْلَمَةً (٢) نَبِيَّةً سَوْءَ، لَأَنَّ تَكْسِيرَ النَّبِيَّةِ عَلَى الْقِيَاسِ عِنْدَنَا، لَأَنَّهُ هَذَا الْبَابُ لَا يَلْزَمُهُ الْبَدْلُ وَلِيُسَمِّنُ الْعَرَبَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ: نَبِيٌّ مُسَيْلَمَةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْبَاتٍ (٣).

ومن خلال نص سيبويه موازنًا بما نقله الجوهرى آنفًا تتضح جملة أمور: وهي:
١/ أن الجوهرى قارئ تمييز لكتاب سيبويه يعرف كيف يجني منه مبتغاه، وذلك أنه استثمر نص سيبويه وذلك عن طريق التقديم والتأخير في كلام سيبويه في ثلاثة قضايا وهي:

أ - اشتغال النبيء. ب - تصغير النبيء، وتصغير النبوة. ج - جمع النبيء.

٢/ أن الجوهرى أقحم تعليقاً يتعلق بلغات العرب في بعض ما لا يُهمز في نص سيبويه.

(١) الصداح ١/٧٥ و ٧٤ (أباً)، وينظر: ٢/٥١٥ (عود).

(٢) في الأصل: ((مسىلمة)) بفتح الهمزة في هذا الموضع فقط، تطبيع لم يتم قد.

(٣) الكتاب ٢/٤٦٠، ووقع في الإغفال (١/٢٣٦): ((لأن تحقر النبوة)) من إحدى ساختيه، وأثبتته المحقق.



ولا يظهر هذا الإقحام إلا بالوقوف على كلام سيبويه، ولذا يجدون النص في بعض المصادر^(١) الناقلة عن الصحاح، وكأنه برّمته من كلام سيبويه.

وذهب بعض الباحثين إلى أن الجوهري هنا قد نسب لسيبويه ما لم يقله، حيث يقول: ((ومعنى هذا أن صاحب الصحاح ينسب إلى سيبويه قوله: إن العرب تركوا الهمز في نبي كما تركوه في الذرية والبرية والخالية، والواضح من نص سيبويه أنه لم يقل هذا بالصورة التي نقلها عنه صاحب الصحاح، وإنما أثبت الهمز، وإن كان قد وصفه بأنه قليل رديء))^(٢).

والبحث لا يرى هذا، وإنما قصارى ما هنالك أن الجوهري أقحم في نص سيبويه شيئاً من منقوله، وذلك أن قول الجوهري: ((غير أنهم تركوا الهمز... في ذلك)) منقول بتصرُّف عن أبي عبيد^(٣) (القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ).

٣ / أن الجوهري شرح في نصِّه المتقدم ما أجمله سيبويه^(٤) بقوله: ((ومن قال أتيلاء قال: نَبِيٌّ سَوْءٌ كما قال في عِيدٍ حِينَ قَالُوا أَعْيَا: عِيدٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَلْزَمُوا إِيَّاهُ)).

٤ / وقع في الصحاح: ^{تُبَيِّعُ وَتُبَيِّعَةُ}، وكذلك في لسان العرب وتاج العروس وفي الكتاب المطبوع المحقق: ^{تُبَيِّعٌ فَحَسِبٌ؛ وَتُبَيِّعٌ وَتُبَيِّعَةٌ} – وإن كانت غير واردة في نص سيبويه – أولى، لموافقة أوله أول حرف في الموزون، وهو أسلوب سيبويه^(٥) في نظائره، وباللون جاءت في نسخة ابن خروف (ت ٦٠٩ هـ) من كتاب سيبويه، وكذلك في طبعتي باريسن وبولاق^(٦).

(١) لسان العرب ١/١٦٢ (ابن)، وتاج العروس ١/٤٤٤ (ابن).

(٢) ما فهم على غير وجهه من كتاب سيبويه ص. ٦١.

(٣) الغريب المصنف ٣/٨٤، وينظر: مجاز القرآن ٢/١٤٥، وجمهرة اللغة ٣/١٢٨٤.

(٤) ينظر: شرح كتاب سيبويه ٤/١٩٨، ٢٠١، والإغفال ١/٢٣٥، واللحجة للقراء السبعة ٢/٩٠.

(٥) ينظر مثلاً: الكتاب ٣/٤٥٦ ((هويرٌ على مثال: هويرٌ)).

(٦) كتاب سيبويه (نسخة ابن خروف) ٢/٨٢، ١٣٨/٢، باريس ٢/١٢٦، وبولاق ٢/١٢٦.

٥ / قول الجوهرى: ((تقول العرب: كانت نبیة مسیلامة نبیة سوء))، فيه مخالفة يسيرة لنص سبیویه حيث ورد النص فيه دون تصغير نبوة الأولى، وقد نبه على هذه المخالفة كل من ابن بری (٥٨٢ هـ)، والصفدي (٧٦٤ هـ).

٦ / اعترض ابن بری والصفدي إطلاق الجوهرى القول في تصغير "نبی" على "نبیع" بالهمز بالقطع به، دون ذكر وجه آخر بالتسهيل؛ بأن سبیویه نص على ورود الوجهين وخطا الفیروزآبادی (٨١٧ هـ) إطلاق الجوهرى وأجاب الزبیدی (١٢٠٥ هـ) - نقلًا عن شیخه الفاسی (١١٧٠ هـ) - بلّه لاختصاراً أصلًا، لأن الجوهرى إنما عرض لتصغير المهموز.

وما أجاب به الزبیدی هو الصواب، لأن الجوهرى يتکلم هنا عن تصغير "نبیع" في أثناء حديثه في مادة: "نبأ"، وقد نص على تصغير "نبی" غير المهموز على "نبی" في ملة: "نبأ".^(٥)

٤ - تلب

قال الجوهرى: ((التَّوْلِبُ: الجحش. قال سبیویه: هو مصروف، لأنَّه فَوْعَلٌ))^(٦).
نص سبیویه على أن تاء "تولب" ليست مزيدة، وأنه مصروف، حيث يقول: ((ولاما جاء نحو تهشلٍ وتَوْلَبٍ فهو عندنا من نفس الحرف، مصروفٌ حتى يجيء أمر يبينه))^(٧).
وكذلك فعلت به العرب، لأن حال التاء والنون في الزيادة ليست كحال الألف والياء،

(١) ينظر: التبيه والإيضاح /٣٠.

(٢) ينظر: نفوذ السهم /٦٤ و ٦٥.

(٣) القاموس المحيط /١٢١ (نبأ).

(٤) تاج العروس /٤٥٠ و ٤٥١ (نبأ).

(٥) الصحاح /٦ (نبأ).

(٦) الصحاح /٩١ (تلب).



لأنهما لم تكثرا في الكلام زائدين كثيرتهما، فإن لم تقل ذلك دخل عليك أن لا تصرف نهشلاً ونهسراً، وهو قول العرب والخليل ويونس (١).

ونص سيبويه على أن "تولبًا" من الثلاثي المزيد، حيث يقول: ((اعلم أن كل شيء كان من بنات الثلاثة فلحقته الزيادة فبني بناء بنات الأربع وألحق ببناتها، فإنه يكسر على مثال مفَاعِلَ كَمَا تكسّر بنات الأربع، وذ لك: جَدُولٌ وجَادَولٌ، وعِثْرٌ وعَثَابٌ، وَكَوْكَبٌ وَكَوَاكِبٌ، وَتَوْلَبٌ وَتَوَالِبٌ، وَسَلَامٌ وَسَلَالِمٌ...)) (٢).

وقد استبط الجوهرى من هذين النصين أن وزنه: "فَوْعَلٌ" عند سيبويه، وهو استبطان صحيح؛ لأن كلام سيبويه كالمنطق الصريح بأن وزنه: فَوْعَلٌ، وقد تابع ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) الجوهرى فيما نسبه لسيبويه (٣).

ونص ابن سيده على أصلة تاء "تولب" عند سيبويه، حيث يقول: ((سيبويه تاء "تَوْلِبٍ" أَصْلٌ، وَلَا تَكُونُ زَانِدَة إِلَّا بَثَبَتٌ (٤)، مَمَّا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ وَزْنَهُ عَنْدَ سِيبُويه فَوْعَلٌ وَقَدْ نَصَّ ابْنُ جَنِيِّ (٥) (ت ٣٩٢ هـ) وَابْنُ سِيدَه (٦) عَلَى أَنَّ التاء فِيهِ أَصْلٌ وَالواو زَانِدَة: لَأَنَّ فَوْعَلًا فِي الْكَلَامِ أَكْثَرُ مِنْ تَفْعَلٍ، وَنَصَّ الْحَرِيرِيُّ (ت ٥١٦ هـ) عَلَى أَنَّ وَزْنَهُ: فَوْعَلٌ (٧)، وَوَقَعَ فِي ارْتِشَافِ الضَّرْبِ (٨) أَنَّ وَزْنَهُ: يَفْعُلٌ، وَهُوَ تَحْرِيفُ صَوَابِه: تَفْعَلٌ (٩)، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِمَا سَبَقَ

(١) الكتاب / ٣ ١٩٧ و ١٩٦.

(٢) الكتاب . ٦١٣ / ٣.

(٣) معجم البلدان ٢ / ٥٩ (تولب).

(٤) المخصص . ٢٦٩ / ٢.

(٥) سر صناعة الإعراب ١ / ١٦٨.

(٦) المحكم ١٠ / ١٨٤ (تلب).

(٧) درة الغواص ص ٧٨.

(٨) وفي الجملة التي قبله سقط استدرك هنا، فوقع الخطأ.

(٩) ارتشاف الضرب (نسخة الرياط) ١ / ٢٥٦ أ.

نقله، ولعل "تولباً" محرّفة عن "تَالْبَ"١؛ وقد نصّ سيبويه٢ على منع صرفه اسم رجل لشبهه بالفعل، وأن وزنه: "تَمْعَلٌ".

وبناء على ما سبق، فلا حاجة إلى قول ابن منظور٣ (ت ٧١ هـ) والزيدي٤: ((وحُكِي عن سيبويه أنه مَصْرُوفٌ))، لأنّه قول سيبويه نصاً، ولعلّ صحة ضبط الفعل "حُكِي" في كلامه ما بالبناء للمع لوم، ويكون الفاعل حِينَئِذٍ ضميراً راجعاً لصاحب الصاح (الجوهري)، وذلك أن النص فيهما: ((وفي الصاح: التولب الجحش. وحُكِي...)). والله أعلم.

٥ - توب

قال الجوهرى: ((وتاب إلى الله توبةً ومتاباً. وقد تاب الله عليه: وَفَقَهَ لها. وفي كتاب سيبويه: التَّوْبَةُ عَلَى تَفْعِلَةِ التَّوْبَةِ))٥.

= هذا النص في سيبويه بحروفه، حيث يقول: ((... قول العرب في تفعلة من دار يدور: تدوره... والتَّوْبَةُ تريده: التَّوْبَةِ)).

٦ - ثوب

قال الجوهرى: ((قال سيبويه: يقال لصاحب الثياب ثَوَابٌ))٦.
= هذا النص في سيبويه بحروفه، حيث يقول: ((هذا بابٌ من الإضافة تحذف فيه ياء الإضافة، وذلك إذا جعلته صاحب شيء يزاوله أو ذا شيء.

(١) كما قرأتها في التنيل والتكميل ج ٥/٤٨، وأ، وفي مجلد النص تحرير وسقط.

(٢) الكتاب .١٩٦/٣.

(٣) لسان العرب ١/٢٣٢ (طلب).

(٤) تاج العروس ٢/٧٦ (طلب).

(٥) الصحاح ١/٩٢ (توب).

(٦) الكتاب .٣٥٢/٤.

(٧) الصحاح ١/٩٤ (ثوب).

أما ما يكون صاحب شيء يعالجه فإنه مما يكون "فعالاً"؛ وذلك قوله لصاحب الثياب: ثوابٌ ولصاحب العاج: عواجٌ...^(١).

٧ - جدب

قال الجوهرى: ((والجندب والجندب: ضربٌ من الجراد، واسم رجلٍ. قال سيبويه: نونُها زائدة))^(٢).

= هذا النصُّ في سيبويه بحروفه تقريباً، حيث يقول: ((والنون من جندبٍ وعنطلٍ وعنطبيٍ زائدة))^(٣).

٨ - رحب

قال الجوهرى: ((ورَحِبْتِ الدارُ وأرْحَبْتِ بِمَعْنَىً، أي اتسَعَتْ. قال الخليل: قال نصر بن سيار: أَرَحْبَكُمُ الدخولُ فِي طاعةِ الْكِرْمَانِيِّ، أي أَوْسِعُكُمُ. قال: وهي شاذةٌ ولم يجيء في الصحيح فَعَلَ بضم العين متَعدياً غيره. وأما المعتلُ فقد اختلفوا فيه قال الكسلاني^(٤): أصل قُلْتَه قَوْلَتَه. وقال سيبويه: لا يجوز ذلك لأنَّه يتعدى. وليس كذلك طلته، ألا ترى أنَّك تقول طَوِيلٌ))^(٥).

= الكلام في هذه المادة عن "رَحْبٍ"؛ وهو فعل ماضٍ على زنة: "فَعَلَ"؛ وما كان على هذه الزنة فلا يتعدى بحسب الأصل المطرد، وشنَّدَ هذا الفعل في الصحيح^(٦) ومثله: "طَلَعَ" في: "إِنْ بِشِرًا قد طَلَعَ اليمَنَ"^(٧)، وقد انجرَ الحديث من "رَحْبٍ" في الصحيح إلى ما يتعدى على زنة: "فَعَلَ" من المعتلٍ، فعرض الجوهرى لفعلنين هما: قال وطال عند إسنادهما للثاء

(١) الكتاب .٣٨١/٢.

(٢) الصاحب .٩٧/١(جدب).

(٣) الكتاب .٤/٣٢٠، وينظر: .٤/٣٢١، وينظر أيضًا: .٢/٦١٣، .٤/٤٢٩.

(٤) العين .٢١٥(رحب)، وإليه ينتهي النقل. وينظر: تهذيب اللغة .٥/٢٦(رحب).

(٥) ينظر: دفاق التصريف ص .٢٥٥، وتنكرة النهاية ص .٧٣٠ (نقلاً عن المحلّي للمظفر بن أحمد ت .٣٣٣هـ).

(٦) الصاحب .١/١٣٤ و .١/١٣٥(رحب).

(٧) ينظر: شرح التسهيل .٣/٤٢٦، وشرح الشافية .١/٧٤.

(٨) ارشاد الضرب .١/١٥٤، والمزهر .٢/٣٧.

حيث يقال: قُلْتُه وَطَلَّتُه، وَلَمْ يُعْرَضُ الْجَوَهْرِيُّ لِوَجْهِ دَخْوَلِهِمَا فِي "فَعَلَّ"؛ وَقَدْ عُرْضَ لَهُ سَبِيبُوهُ^(١)، وَلِحَصْهِ الْمُخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) قَائِلًا: ((وَقَدْ حَوَّلُوا عِنْدَ اتِّصَالِ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ "فَعَلَّ" مِنَ الْوَاءِ إِلَى "فَعَلَّ" وَمِنَ الْيَاءِ إِلَى "فَعِيلَّ" ثُمَّ تَقْلِتُ الْضَمْمَةُ أَوْ الْكَسْرَةُ إِلَى الْفَاءِ))^(٢). فَقَيْلٌ: قُلْتُ وَقُلَّنَّ وَبِعْتُ وَبِعْنَ))^(٣)؛ فَسَبِيبُ التَّعْدِيَّةِ ((التَّحْوِيلُ مِنْ بُنْيَةِ إِلَى أُخْرَى))^(٤). وَقَدْ أَفْصَحَ الْجَوَهْرِيُّ عَنْ أَصْلِ "قُلْتُ" وَأَنَّهَا عَلَى "فَعَلَّ"؛ حِيثُ يَقُولُ: ((أَوْأَلَ قُلْتُ قَوَلْتُ بِالْفَتْحِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِالضَّمِّ، لَأَنَّهُ يَتَعَدَّدُ))^(٥)؛ وَفَصَلَ الْحَدِيثُ نَوْعًا مَا عَنْ "طَلَّتُ" حِيثُ يَقُولُ: ((وَطَلَّتُ أَصْلُهُ طَلَّتُ بِضْمِ الْوَاءِ، لَأَنَّكَ تَقُولُ طَوْلُّ فَقَلْتُ الضَّمَّةَ إِلَى الطَّاءِ وَسَقَطَتِ الْوَاءُ لِاجْتِمَاعِ السَّاكِنِينِ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ مِنْهُ طَلَّتُهُ لَأَنَّ فَعَلَّتُ لَا يَتَعَدَّدُ فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْدِيَ قَلْتَ طَوْلَتَهُ أَوْ طَلَّتَهُ . وَأَمَّا قَوْلُكَ طَأْوَلَنِي فَلَانَ فَطَلَّتَهُ فَإِلَمَا تَعْنِي بِذَلِكَ كُنْتَ أَطْوَلَ مِنْهُ . مِنَ الطُّولِ وَالظَّوْلِ جَمِيعًا))^(٦).

وَعَوْدًا عَلَى نَصِّ الْجَوَهْرِيِّ الْمُنْقُولِ فِي صُدُرِ الْمَسَأَلَةِ وَمَا نَسْبَهُ لِسَبِيبِهِ فَإِنَّ الْبَحْثَ يَسْتَظْهِرُ دَقَّةً الْجَوَهْرِيِّ فِي قِرَاءَتِهِ لِسَبِيبِهِ، فَقَدْ نَصَّ سَبِيبُوهُ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي أَصْلِ "قُلْتُ" حِيثُ يَقُولُ: ((وَأَمَّا "قُلْتُ" فَأَصْلُهَا فَعَلْتُ مَعْتَلَةً مِنْ فَعَلْتُ، وَإِنَّمَا حَوَّلْتُ إِلَى فَعَلْتُ لِيغِيرُوا حَرْكَةَ الْفَاءِ عَنْ حَالِهَا لَوْلَمْ تَعْتَلَّ؛ فَلَوْلَمْ يَحْوِلُوهَا وَجَعَلُوهَا تَعْتَلَّ مِنْ قَوْلُتُ لَكِنَّ الْفَاءِ إِذَا هِيَ الْقَيْ عَلَيْهَا حَرْكَةُ الْعَيْنِ غَيْرُ مُتَغَيِّرَةٍ عَنْ حَالِهَا لَوْلَمْ تَعْتَلَّ، فَلَذِكَ حَوَّلُوهَا إِلَى فَعَلْتُ فَجَعَلُتُ مَعْتَلَةً مِنْهَا.

(١) يَنْظَرُ: الْكِتَابُ ٤ / ٣٣٩.

(٢) الْمَفْصَلُ ص ٥٢٦، وَيَنْظَرُ: الْمَنْصَفُ ١ / ٢٢٤، وَشِرْحُ الْمَفْصَلِ ١٠ / ٧١ وَ ٧٢.

(٣) الْمَقَاصِدُ الشَّافِيَّةُ ٤ / ٣٣٤، وَيَنْظَرُ: شِرْحُ التَّسْهِيلِ ٣ / ٤٣٦.

(٤) الصَّاحِحُ ٥ / ١٨٠٦ (قُول)، وَيَنْظَرُ: ٥ / ٢٠٤٦ (بِنَوَاهِ).

(٥) الصَّاحِحُ ٥ / ١٧٥٣ (طَوْلِ).

وكانت فَعْلَتُ أُولى بِفَعَلَتٍ مِنَ الْوَاوِ مِنْ فَعِلْتُ^(١) لَأَنَّهُمْ حَيْثُ جَعَلُوهَا مَعْتَلَةً مَحْوَلَةً
الْحَرْكَةُ جَعَلُوا مَا حَرَكَتْهُمْ مِنْهُ أُولَى بِهِ كَمَا أَنَّ يَغُزُّو حَيْثُ اعْتَلَ لِزَمْهَ يَفْعُلُ، وَجَعَلُ
حَرْكَةً مَا قَبْلَ الْوَاوِ مِنَ الْوَاوِ فَكَذَلِكَ جَعَلَتْ حَرْكَةً هَذَا الْحَرْفُ مِنْهُ.
وَيَدْلُكُ عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ فَعَلْتُ^(٢): أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ فَعَلْتَهُ وَنَظِيرُهُ فِي الاعْتَلَالِ مِنْ
مَحْوَلٍ إِلَيْهِ يَعْدُ وَيَزَنُ، وَقَدْ يَبْيَنُ ذَلِكَ.
فَإِمَّا "طَلْتُ" فَإِنَّهَا فَعَلْتُ^(٣) لَأَنَّكَ تَقُولُ: طَوِيلٌ وَطَوَالٌ كَمَا قَلْتَ: قَبْحٌ وَقَبْحٌ وَلَا يَكُونُ
طَلْتَهُ كَمَا لَا يَكُونُ فَعَلْتَهُ فِي شَيْءٍ، وَاعْتَلَتْ كَمَا اعْتَلَتْ خِفْتَهُ وَهِبْتَهُ^(٤) (٥).
وَقَدْ يَبْيَنُ السِّيرَا فِي^(٦) (٦) (٣٦٨ هـ) كَلَامُ سِيبِيُّوْهِ، وَمَرَادُهُ بِالنَّقْلِ هُنَا بِمَثَلِ مَا سَبَقَ
بِيَانِهِ فِي صُدُرِ الْمَسَأَلَةِ، وَنَحْصُ سِيبِيُّوْهِ وَاضْعَفَ الدَّلَالَةَ عَلَى أَنَّ "قَالَ" مِنْ بَابِ "فَعَلَ" ، وَلَكِنَّ
عِنْدَمَا أَسْنَدَ لِتَاءَ الْمُتَكَلِّمِ نُقْلَةً مِنْ بَابِ "فَعَلَ" إِلَى بَابِ "فَعَلَ" ، وَنَسْبَهُ الرَّضِيُّ^(٧) (٧) (٦٨٨ هـ)
لِظَاهِرِ قَوْلِ سِيبِيُّوْهِ وَالْجَمْهُورِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ نَحْصُ قَوْلِ سِيبِيُّوْهِ لَا ظَاهِرُ قَوْلِهِ.
وَقَوْلُ سِيبِيُّوْهِ: ((لَيْسَ فِي الْكَلَامِ فَعَلْتَهُ)) هُوَ مَا فَسَرَهُ الْجَوَهِرِيُّ بِقَوْلِهِ: ((لَأَنَّهُ
يَتَعَدَّ)) ، وَذَلِكَ أَنَّ فَحْوَى كَلَامُ سِيبِيُّوْهِ: لَيْسَ قَلْتُ أَصْلَهُ فَعَلْتُ^(٨) لَأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ "فَعَلَ"
مَتَعَدِّيًّا^(٩).

ثُمَّ قَالَ سِيبِيُّوْهُ عَقْبَ النَّصِّ السَّابِقِ: ((وَقَالَ بَعْضُهُمْ: طَلْتَهُ مُثْلَ قَلْتَهُ، وَهُوَ فَعَلْتُ
مَنْقُولَةً إِلَى فَعَلْتُ فَعَدَّيْ طَلْتُ، وَلَوْ كَانَتْ فَعَلْتُ لَمْ تَتَعَدَّ))^(١٠) ، وَسِيبِيُّوْهُ يَتَكَلَّمُ هَنَا عَنْ بَلَهُ
"طَالُ" لِلْمَغَالِبَةِ، وَهُوَ الْوَارِدُ فِي كَلَامِ الْجَوَهِرِيِّ الْأَنْفُ فِي مَادَةِ: "طَوْلٌ".

(١) ضَبْطُ الْعَيْنِ نَقْلٌ عَنِ الْكِتَابِ (سُخْنَةُ ابْنِ خَرْوَفَ) ١٤/١.

(٢) الْكِتَابُ ٤/٤ .٣٤٠.

(٣) شِرْحُ السِّيرَا فِي ٥/٢٢٨-٢٢٣، وَيَنْظَرُ: الْمَنْصُفُ ١/٢٢٣-٢٤٣.

(٤) شِرْحُ الشَّافِعِيَّةِ ١/٨٨.

(٥) يَنْظَرُ: شِرْحُ كِتَابِ سِيبِيُّوْهِ ٥/٢٣٣، وَالْمَنْصُفُ ١/٢٣٦.

(٦) الْكِتَابُ ٤/٤ .٣٤١.

وممّا تقدّم يُعلم أنّ "طلّتْ" على نوعين^(١):

١/ أن تكون من "فعَلَ" غير منقول، وهو غير متعدّ، والوصف منه: طويل.

٢/ أن تكون من "فعَلَ" منقولاً إلى "فعَلَ" للمغالبة، وهو متعدّ، والوصف منه: طائل.
وختاماً: ففي نصِّ الجوهرِيِّ الوارد في "رحب" فائدتان:

الأولى: عَزُّ الجوهرِيِّ صدر النصِّ إلى الخليل - وقد سبق توثيقه من العين -، يفيد نسبة كتاب العين للخليل؛ ونسبة العين للخليل مما اختلف فيها كما هو معلوم مشهور.

الثانية: إيراد قول الكسائيِّ (ت ١٨٩ هـ) في المسألة مما تخلو منه جلُّ المصادر الصرفية مع أَنَّ ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ)، وأَبْن مالك (ت ٦٧٢ هـ)، والرضي، وأَبَا حِيَان (ت ٧٤٥ هـ)، فمن بعدهم ينقلون عن الجوهرِيِّ.

ولعلَّ سبب عدم إيراده هو غراسته، ويُضاف له مانصٌ عليه المظفر بن أحمد النحوِيِّ المصريُّ (ت ٢٣٢ هـ) من أَنَّه قد ((خالفه جميع النحويِّين من أهل الكوفة والبصرة))^(٢).

٩- عَظِيب

قال الجوهرِيُّ: ((قال الأصممي العُنْطَبُ الذُّكرُ مِنَ الْجَرَادِ، وفَتَحَ الظَّاءَ لِغَةً. قَالَ الْكَسَائِيُّ هُوَ الْعُنْطَبُ وَالْعُنْطَابُ وَالْعُنْطُوبُ، وَالْأَنْثَى عُنْطُوبَةً، وَالْجَمِيعُ عَنْطَابٌ^(٣)... وَفِي كِتَابِ سَيِّبُوِيِّ: الْعُنْطَبَاءُ بِالضَّمِّ وَالْمَدِّ))^(٤).

= أورد سَيِّبُوِيِّ العُنْطَبَاءَ مُنْكَرَةً في سياق كلامه في "باب ما لحقته أَفَ التَّأْيِيثُ بَعْدَ أَلْفِ فَمْنَعَهُ ذَلِكُ مِنَ الْاِنْصَارَفِ فِي النَّكَرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ"، حيث يقول: ((وَمِنْهُ أَيْضًا: أَصْدَاقَاءُ وَأَصْفَيَاءُ، وَمِنْهُ: زِمَّكَاءُ وَبِرَوْكَاءُ وَبِرَاكَاءُ وَدَبَوْقَاءُ وَخُنْفَسَاءُ وَعُنْطَبَاءُ وَعَفَرَبَاءُ وَرَكَرِيَاءُ))^(٥).

(١) ينظر: التبصرة والتذكرة ٢ / ٨٧٢، وينظر: شرح كتاب سَيِّبُوِيِّ ٥ / ٢٣٩ و٢٤٢.

(٢) تذكرة النحاة ص ٧٣٠.

(٣) من بداية المادة إلى هنا نقل بتصرف عن الغريب المصنف ١ / ٢٢٧ و٢٢٨.

(٤) الصاحح ١ / ١٨٤ (عَظِيب).

(٥) الكتاب ٣ / ٢١٤، وفيه: ((دَبَوْقَاءُ)), تطبيع.



وسيق في "جذب" إيراد نصٌّ لسيبوه يقول فيه: عَنْطَبُ، وَنَصٌّ ثَعْلَبٌ^(١) (ت ٢٩١ هـ) على أنَّ بعض الكلم الممدود - ومنه: العَنْطَبَاءُ - يُقال بحذف مده. وقد نبه ابن قتيبة^(٢) (ت ٢٧٦ هـ) على وقوفه على "عَنْطَبَاءُ" بالمدِّ في كتاب سيبويه ونقله عنه الأزهري^(٣) (ت ٣٧٠ هـ). ويغلب على الظنِّ تقلُّ الجوهريٌّ عن ابن قتيبة.

١- عندليب

قال الجوهريُّ: ((العنديب: طائر يقال له: الْهَزَار... والبلبل يُعَنْدِلُ، إذا صوت. قال سيبويه: إذا كانت النون ثانية فلا تجعل زائدة إلا يثبَتٌ))^(٤). كون النون ثانية لا تزاد إلا بثبت هو مجموع كلام سيبويه، حيث يقول: ((فَلَمَّا إِذَا كَانَتْ ثَانِيَةً فَإِنَّهَا لَا تَزَادُ إِلَّا بِثَبْتٍ، وَذَلِكَ: جِنْزَ قُرْ وَحِبَّتُرْ لِقَلْةِ الْأَسْمَاءِ مِنْ هَذَا النَّحْوِ، لِأَنَّكَ لَا تَجِدُ أَمْهَاتِ الزَّوَادِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَكَذَلِكَ عَنْدَلِبٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَسْمَاءِ هَذَا الْمَثَالُ، وَلَأَنَّ أَمْهَاتِ الزَّوَادِ لَا تَقْعُدُ ثَانِيَةً فِي هَذَا الْمَثَالِ، إِذَا كَانَ الْحَرْفُ ثَالِثًا مُتَحْرِكًا أَوْ ثَالِثًا فَلَا يَزَادُ إِلَّا بِثَبْتٍ كَمَا لَمْ يَزَدْ وَهُوَ ثَانِي سَاكِنًا إِلَّا بِثَبْتٍ، وَذَلِكَ: جُنَاعَدٌ وَشِنْفَارٌ وَخَدَرْنَقٌ، لِقَلْتَهَا فِي الْكَلَامِ، وَلِقَلْلَةِ مَوْاقِعِ الزَّوَادِ فِي مَوَاضِعِهَا))^(٥). وصدر كلام سيبويه عن النون الثانية الساكنة وعجزه عنها متحرّكة، والجوهريُّ حرّر كلام سيبويه فيها، والذي يدلُّ منطوقه على إطلاق القول فيها بعدم زيلتها ثانية ساكنة أو متحرّكة - إلا بثبت، وهو ما فهمه السيرافيُّ حيث يقول: ((والنون إذا جلت ثانية فُضي عليها بأنها أصلية حتى يتبيَّن أنها زائدة باشتقاء أو غيره))^(٦).

(١) مجالس ثعلب ١/٨٩.

(٢) أدب الكاتب ص ١٠٣.

(٣) تهنيب اللغة ٣/٣٥٦ (عنطَب).

(٤) الصحاح ١/١٨٩ (عندليب).

(٥) الكتاب ٤/٣٢٣ و ٥/٣٤، وينظر: ٤/٣٩ و ٣٠.

(٦) شرح كتاب سيبويه ٥/٥٢١، وينظر: شرح عيون كتاب سيبويه ص ٢٩٦.

١١ - قصب

قال الجوهرى^٤: ((القصب: الآباء. والقصباء مثله. الواحدة قصبة. قال سيبويه القصباء واحدٌ وجمع. قال: وكذلك الحلفاء والطرفاء))^٥.

= نص سيبويه على أنَّ الحلفاء والطرفاء يقع على الواحد والجمع، حيث يقول: ((هذا باب ما هو اسمٌ واحد يقع على جميع وفيه علامات التأنيث وواحده على بنائه ولفظه، وفيه علامات التأنيث التي فيه.

وذلك قوله للجميع: حلفاءُ وحلفاءُ واحدةٌ، وطرفاءُ للجميع وطرفاءُ واحدةٌ، وبهمَّ للجميع وبهمَّ واحدة، لماً كانت تقع للجميع، ولم تكن أسماءُ كُسرٍ عليها الواحد، أرادوا أن يكون الواحد من بناءٍ فيه علامة التأنيث، كما كان ذلك في الأكثر الذي ليس فيه علامة التأنيث، ويقع مذكراً نحو: التمر والبر والشعير، وأشباه ذلك))^٦. ونصٌّ على أنَّ "قصباء" مثل: طرفاء وحلفاء على زنة: "فعلاء"، حيث يقول: ((و يكون على فعلاء في الاسم والصفة؛ فالاسم نحو: طرفاء وحلفاء وقصباء، والصفة نحو: خضراء وسوداء وصفراء وحمراء))^٧؛ ومن هذا النص يُستنبط أنَّ القصباء تكون عند سيبويه مثل: الحلفاء، تقع على الواحد والجمع.

وقد نصَّ ابن قتيبة^٨ - والجوهرى^٩ ناقل عنه فيما يظهر^{١٠} - على أنَّ هذه الكلمة عند سيبويه واحد وجمع، ونصَّ أبو عليٍّ الفارسي^{١١} - وهو أحد شيوخ الجوهرى^{١٢} - على أنَّ

(١) الصحاح/٢٠٢ (قصب).

(٢) الكتاب/٣ ٥٩٦.

(٣) الكتاب/٤ ٢٥٧.

(٤) أدب الكاتب ص ٦٦٨، وقد سقطت القصباء في إيراد قول سيبويه، وأورتها في قول غيره.

(٥) إنَّ قول سيبويه بوا سطة ا قتي به موجوع ندغ يرال جوهري^{١٣}، ينْظر مابعد مثلاً: الابارع ص ٥٠٦ (قوب)، وتهنيد اللغا ٦٧/١٠ (سكن). وينظر مابعد في: "عطلب". وما سيأتي في "سبح".

(٦) التكميلة ص ٣٤١.

سيبوه يذهب فيها إلى أنّها اسم يُراد به الجمع، ونصّ الرضيٌّ^(١) وأبو حيّان^(٢) على أنّ سيبويه يراها اسم جمع.

وفي ختام هذه المسألة يحسن التنبية على أنّ الجوهرى لا يرى رأى سيبويه هنا، وذلك من وجهين:

١/ نصّه في هذه المادة على أنّ لها مفردًا، وهو قَبَّة.

٢/ نصّه في غير هذه المادة على مفردها ومفرد غيرها من هذه الكلم، وذلك قوله ((واحد الشَّجَرَاءِ شَجَرَةٌ، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرفٌ سَيِّرَةٌ: شَجَرَةٌ وشَجَرَاءُ، وقَبَّةٌ وقَبْيَاءُ، وطَرْفَاءُ، وحَلَفَاءُ، وكان الأصمعي يقول في واحد الحَلَفَاءِ: حَلَفَةٌ بكسر اللام، مخالفةً لآخواتها^(٣)). وقال سيبويه: الشَّجَرَاءُ واحدٌ وجمعٌ، وكذلك القَبَّباءُ والطَّرْفَاءُ والحلَفَاءُ^(٤)).

وبناء على هذا النصّ فإنّ الجوهرى يستضعف رأى سيبويه، ويبدو أنّ الواو سقطت قبل قوله في مادة "قب": ((قال سيبويه)): بدالة إيرادها في النص السالف، وبرأي الأصمعي (ت ٢٦٦ هـ) احتاج المبرد (ت ٢٨٥ هـ) على سيبويه في مسلسل الغلط، وردد ابن ولاد^(٥) (ت ٣٢٢ هـ) بأنّ السماع صحيح، ولكن قَبَّباءً ونحوه ليس بجمع مكسر لضعف ذلك في النحو، ودليله تصغيره على لفظه ولو كان جمعاً لردّ إلى مفرده ثم بعد تصغيره يجمع بالألف والتاء، وبأنه لو جمع على باه، لجمع على "فَعَلَ" كشَجَرَةٍ وشَجَرَ.

(١) شرح الشافية ١/٢٩.

(٢) ارشاف الضرب ٢/٧٥٢؛ وينظر: المنصف ٢/٩٦، والممتع ٢/٥١٣، وارشاف الضرب ١/٤٨١.

(٣) يذ ظر: الد بات وا لشجرلأ صمعي ص ٤٢، والا منكر والمؤنث (للله برد) ص ١٢٤، والا صول ٢/٤٤٥، وا لسيرا في الد حوي ص ١٣٣، والتمكم له ص ٢٤٥، والدكت ٢/١٠٠٨، وشرح الشافية ٢/١٩٩؛ وفي هذه المصادر وغيرها كالغريب المصنف ٢/٥٥٠ تبيان في الضبط.

وينظر: لحن العولم ص ١١٧، والمدخل إلى تقويم اللسان ص ١٠٢.

(٤) الصاح ٢/٦٩٣ (شجر)، ولم يرد في كتاب سيبويه لفظ: "شجراء" لامرفأً ولا منكراً، وقول الجوهرى قيل صحيح على حلفاء وطرفاء.

(٥) ينظر: الاتصال ١/٢٤١-٢٤٣، وينظر في رجوع المبرد عن هذه التخطئة: المذكر والمؤنث له ص ١٢٤.

وبهذا الرد يرد على قول الجوهرى وغيره من اللغويين الذين يرون "قباء" ونحوه جمعاً مفرده: قصبة.

ولعل الصواب هو عَدُّ "قباء" وما كان نحوها اسم جمع - لكونه ليس على أوزان الجمع - له واحد من لفظه، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

ويرى ابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) أن الخلاف ليس في التكسير وعدمه، بل هو هذه الأسماء مثل: القوم والإبل لا واحد له من لفظها أم مثل: الجامل والباقر لها واحد من لفظها^(١).

وتصريح الجوهرى وغيره بالجمعية في هذه الكلم يخالف هذا الرأي. ومنه يعلم تجُوزُ اللغويين في تسمية "اسم الجمع" جمعاً، مما يوجب النظر في قواعد التصريف عند النقل عن المعاجم.

١٢- نقب

قال الجوهرى: ((والنقيب، العَرِيف، وهو شاهد القوم وضمينهم، والجمع النقباءُ. وقد نقَبَ على قومه يَنْقُبُ نَقَابَةً، مثل كتب يكتب كتابة.

قال الفراء: إذا أردتَ أنه لم يكن نقيباً ففعل قلت: نقَبَ بالضم، نَقَابَةً بالفتح.

قال سيبويه: النِّقَابَة بالكسر الاسم، وبالفتح المصدر، مثل الولاية والولاية^(٢). مسألة التفريق بين دلالة نقابة بالفتح والكسر، ومثلها: ولاية، يمكن عددها من أهم ما نسبه الجوهرى لسيبويه، وهو مما سلمته المصادر التي وقف عليها البحث، وعلى الرغم من هذا التسليم، فقد كان الجوهرى غير مصيب فيما نسبه لسيبويه فيهما، وسيتضح ذلك في الوقفات التالية:

الأولى: لم يقف البحث على ورود النقابة في كتاب سيبويه لا معرفة ولا منكراً، على الرغم من أن ابن منظور^(٣) والزبيدي^(٤) نقلان نصَّ كلام الجوهرى.

(١) شرح المفصل ٥ / ١١٠، وسبويه (الكتاب ٣ / ٦٢٥) يرى الجامل والباقر اسمي جمع لا جمع جمل وبقرة.

(٢) الصحاح ١ / ٢٢٧ (نقب).

(٣) لسان العرب ١ / ٧٦٩ (نقب).

(٤) تاج العروس ٤ / ٢٩٧ (نقب).



الثانية: الذي ورد في كتاب سيبويه النكابة، قال سيبويه: ((وأما الوكالة والوصاية والجريدة ونحوهن فإنما شبّهن بالولاية، لأن معناهن القيام بالشيء وعليه [ومثل ذلك] الخلافة والإمارة والنكابة والعرفة، وإنما أردت أن تخبر بالولاية))^(١).

والنكابة هي الواردة في طبعات الكتاب الثلاث، ونسخة ابن خروف (ت ٦٠٩ هـ) من الكتاب، وشرح السيرافي^(٢). وكذا وردت عند ابن السراج^(٣) (ت ٢١٦ هـ).

الثالثة: لم يذكر سيبويه الولاية بالفتح، وإنما ذكرها بالكسر على أنه مصدر وكذا صنيع ابن السراج^(٤)؛ وقد نص ابن سيده على أن ((الغالب على هذا الضرب عند سيبويه الكسر؛ يجريه مجرى الصنائع))^(٥).

الرابعة: في تفسير المراد بقول الجوهرى: الاسم.

الذى يدل عليه منصوص كلام الجوهرى أنه يريد بالاسم: الشيء ذاته أي: الاسم غير المصدر، وسيظهر هذا في الوقفة السادسة.

وهو اصطلاح لغوى موجود عند طائفة من اللغويين^(٦) قبل الجوهرى؛ وصرح به السيرافي^(٧).

(١) تتمة من الكتاب نسخة ابن خروف لـ ٦٠٦. وهي واردة في إحدى الشروح لطبعه باريس من الكتاب / ٢ . ٢٢٧

ويدل على صحة استدراكها قول ابن السراج (الأصول ٩١/٣): ((فعالة: للقييم بالشيء وعليه)). (٢) الكتاب ٤/١١.

(٣) السيرافي التحوى ص ٧٨.

(٤) الأصول ٩١/٣.

(٥) ينظر: الأصول ٩١/٣.

(٦) المخصوص ٢٢٥/١.

(٧) منهم: الخط يل (ت ١٧٥ هـ - لا عين ٢١٤٥ "قَعْلَه")، وا بن لسيكت^(٨) صلاح المنطق ص ٢٠)، وا بن قتي به أدب الكاتب ص ٣١ و ٣٨٤ و ٥٥٢، والمبرد (الكامن ١/١٦٥)، وتحلب (الفحيح ص ٢٩٣).

(٨) السيرافي التحوى ص ١٣٠ و ١٣١.

الخامسة: اختلاف الولاية (الفتح) عن الولاية (الكسير) ليس من ناحية الاسم والمصدر بل من ناحية المعنى؛ لأنَّ الولاية (الفتح) تعني: النُّصرة، والولاية (الكسير) تعني: الإمارة، على أَنَّه قد نُقل سمعها بالفتح والكسير في المعنين جميعاً^١. ونُسب الكسر في المعنين لتميم؛ يقول السيوطي^٢ (ت ٩١١ هـ) نقلًا عن نوادر اليزيدي^٣ (يحيى بن المبارك ت ٢٠٢ هـ):)) الولاية في الدين والتولى أهل الحجاز مفتوح، وفي السلطان مكسورة وتميم تكسر في الجميع))^٤. ومع تسلیم الجوهرى^٥ بهذا الفرق كاما سأياتي في الوقفة التالية فقد نسبَ لسيبوه خلافه دونما دليل.

السادسة: شرح الجوهرى مراده هنا بقوله في مادة: ”ولي“:)) والولاية بالكسير: السلطانُ والولايةُ والولايةُ: النُّصرة. يقال: هم عليَّ ولايةً، أي مجتمعون في النصرة. وقال سيبويه: الولاية بالفتح المصدر، والولاية بالكسير الاسم مثل الإمارة والنقابة لأنَّه اسم لِما تولَّته وقامتَ به، فإذا أرادوا المصدر فتحوا))^٦، ونقله ابن منظور^٧، وسلمه الزبيدي^٨ وجعله نصَّ سيبويه!.

وهذا التفريق نقله ابن سيده بمعناه مصدرًا له بـ: ”قيل“^٩، والذي يظهر أنَّه أفاده من الجوهرى؛ إذ إنَّ ابن سيده قد نقل عن الجوهرى ناصًا على تسميته بالجوهرى في مادة: ”شفو“^{١٠}، وأقرَّه الفيروزآبادى^{١١}، وهو تفريق غير صحيح لما تقدم، ويضاف له وجود النص من عدد من اللغويين على أنَّ الولاية بالكسير مصدر أيضًا.

(١) نقله الأزهري (تهذيب اللغة ١٥ / ٤٤٩ ولي) عن الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، وبين ظر: الحاجة لا قراءة لسبعة ٥ / ١٥٠ والمحكم ١٢ / ١٥ و ١٦ (ولي)، وسان العرب ١٥ / ٤٠٥ (ولي)، والقاموس المحيط ٢ / ١٧٦٠ و ١٧٦١ (ولي).

(٢) المزهر ٢ / ٢٧٧.

(٣) الصحاح ٦ / ٢٥٣٠ (ولي).

(٤) لسان العرب ١٥ / ٤٠٥، ٤ (ولي).

(٥) تاج العروس ٤٠ / ٢٤٢ (ولي).

(٦) المحكم ١٢ / ١٥٥ (ولي)، ونصه: ((والولاية الخطأ ك الإمارة والولاية المصدر)).

(٧) المحكم ٨ / ٨٨، وأماماً ورد في ٦ / ٣٥٤ (قفوا)، فهو مقتبس من محققه، وقد نصَّ على زيادته.

(٨) القاموس المحيط ١ / ٢٢٢ (نقب). ٢ و ١٧٦٠ (ولي).

(٩) ينظر: الجين ٨ / ٣٦٥ (ولي)، ومجاز القرآن ١ / ٤٠٥، والكامل ٣ / ١٠٩١ (ولي).

ومن المتقرر أن "فعالة" بالكسر مصدر يدل على الولاية والصناعة (الحرفة) وشبيهها، ويجوز فيه الفتح قليلاً^(١)، يقول الرضي: ((الغالب في الحرف وشبيهها من أي باب كانت الفعالة بالكسر، كالصياغة والخياطة والخياطة والتجارة والإمارة، وفتحوا الأول جوازاً في بعض ذلك، كالوكالة والدلاله والولاية))^(٢).
 وأما "الفعالة" فقد نص سيبويه على كونها مصدرًا لـ "فَعْلَ"^(٣)، قال أبو حيان: ((هو المصدر المقيس فيه بنص سيبويه))^(٤).

وبناء على ما تقدم، فإذا كان الجوهرى يريد هنا في مادة: "نقب" أن النقابة بالفتح عند سيبويه مصدر، فلا يخلو ذلك من أن تكون مصدر الفعل: "نقب" الذي ورد في كلام الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، وهو حينئذ منصوص سيبويه في مصدر "فَعْلَ"؛ أو أن يجعل النقابة بالفتح مصدر "نقب" غير المتعدي الوارد في قوله: ((نقب عليهم))، وهو يخالف منصوص سيبويه في كون مصدر "فَعْلَ" اللازم على "فُعُول"؛ وذلك حيث يقول: ((وأما كل عمل لم يتعد إلى منصوب فإنه يكون فعله على ما ذكرنا في الذي يتعدى، ويكون الاسم "فَاعِلا" والمصدر يكون "فُعُولاً"؛ وذلك نحو: قَعَدْ قَعُوداً وهو قاعِد...))^(٥)، ويستثنى من ذلك ما غالب فيه فعالة، يقول أبو حيان: ((ومصدر "فَعْلَ" اللازم ينافي على "فُعُول" كقعد قعوداً ما لم يغلب فيه "فعالة" ...))^(٦)؛ ولا يظهر أن الجوهرى يقصد الاحتمال الثاني.
 وأما جعل الجوهرى النقابة بالكسر غير مصدر، فهو اجتهاد منه يخالف منصوص كلام سيبويه المتقدّم في صدر المسألة، والذي مفاده أن فعالة مصدر يدل على القيلم.

(١)ينظر: السيرافي التحوي ص ٧٨، والتبصرة والتنكيرة ٢/٧٦٨، والمخصوص ٤/٢٨٥، والمقرب ٢/١٣١.

(٢) شرح الشافية ١/١٥٣، وينظر: شرح التسهيل ٣/٤٦٩، وارشاف الضرب ٢/٤٨٩.

(٣) الكتاب ٤/٢٨، وينظر: شرح الشافية ١/١٦٣، وفتح الأقفال ص ١٨٥.

(٤) ارشاف الضرب ٢/٤٨٩.

(٥) الكتاب ٤/٩.

(٦) ارشاف الضرب ٢/٤٩١، وينظر: شرح الشافية ١/١٥٣ و ١٥٦.

بالشيء وعليه^{١٠}، ولا شك أن النقابة قيام بالشيء وعليه، وتنظير الجوهرى لهاب "كتابه" يجعلها من هذا الباب، وقد نص عليه القالى^{١٢} (ت ٢٥٦ هـ).

وممّا تقدّم يستبين أن النقابة بالكسر والفتح مصدر، ومحاولة تفريق الجوهرى ونسبة التفريق لسيبوه، كلاهما غير صحيح.

وأمّا ما أورده في "ولي" من أن الولاية بالفتح عند سيبويه تكون مصدراً ولــيــ، فهو يخالف منصوص كلام سيبويه المتقدّم في صدر المسألة من أن مصدر الفعل "وليــ" المتعدي الولاية بالكسر، وقد سمع فيه الفتح بنقل الفراء، ونص على وروده السيرافي، فتكون الولاية على الحالين مصدرــاً لــوليــ؛ وقد تقدّم نص الرضــى عليه.

وأمّا إن كان الجوهرى يريد أن الفعل "وليــ" غير متعدــ كقولهم: ولــ عليه فكلامــ حيث يخالف ما قررــ سيبويه في قولهــ: أمرــ عليهــ من أن مصدرــ الإمارة كالولايةــ، حيث يقول: ((وقالوا: أمرــ علينا أمــيرــ كنبــهــ، وهو نبيــ، والإمرة كالرفعةــ، والإمارــة كالولايةــ))^{١٣}، مما يدلــ على أنــ سيبويه يرى الإمارة بالكسر مصدرــاً لــ"أمرــ" وــ"أمرــ"، والولاية بالكسر مصدرــاً لــ: "وليــ" متــعديــاً ولازماً^{١٤}؛ ومثلــها النقاــبة بالكسر تكون مصدرــاً لــ: نقــبــ عليهمــ ونقــبــ.

ولم يقف البحث على هذه التفرقة عند المعجمــين قبل الجوهرىــ.

الســابــعة: من أين للجوهرى عــزــو التــفــريق بين اسمــ الشــيءــ ومــصدرــهــ لــسيــبوــيهــ ومن أين لهــ أنــ ســيــبوــيهــ يــرىــ الفــتحــ للمــصــدرــ والــكــســرــ لــالــاســمــ؟

(١) الأصل .٩١ / ٣.

(٢) البارع ص ٤٨٨ (نقــبــ).

(٣) قال السيرافي^{١٥} (السيرافي الدــحــوي ص ١١٥): ((وــ في بعضــ الشــيخــ: أمــ رــعــيلــناــ كــتبــهــ مــفــتوــحــانــ، وــالــفــتحــ جــوــدــ وأــفــصــحــ)). وهو مثــلــ العــيــنــ. يــنظرــ: تاجــ العــرــوســ ٦٩ / ١٠ (أمرــ).

(٤) الكتاب ٤ / ٣٤؛ وــ في الصــاحــاحــ ٢ / ٥٨٢ (أــمرــ): ((وــالــصــدرــ إــلــمــرــةــ، بــالــكــســرــ. وــالــإــمــارــةــ: الــوــلــاــيــةــ))ــ!. وــتــعــقــ بــهــ الفــيــرــ وــزــآــبــاــيــ بــأــنــ الإــمــرــةــ الــاســمــ، وــيــنــظــرــ تــفــصــيــلــ ماــ قــيلــ فــيــهــ فــيــ: تــاجــ العــرــوســ ٧٠ / ١٠ (أمرــ).

(٥) نــصــ الأــشــمــونــيــ (ت ٩٢٩ هــ)ــ تــقــرــيــبــاــ لــ نــدــرــةــ "عــيــاــلــةــ"ــ مصدرــ الفــعــلــ لــ غــيرــ المــتــعــدــيــ (شرحــ الأــلــفــيــةــ ٣٤٧ / ٢)، وــســلــمــهــ الصــبــانــ (ت ٦١٢ هــ)ــ فــيــ حــلــثــيــةــ ٢٨٧ (ت ١٢٨٧ هــ)ــ فــيــ حــلــثــيــةــ ٢٧٠ / ٢.



والجواب عن هذين التساؤلين في الآتي: صرّح سيبويه في حديثه في أبواب المصادر عن التفريق بين الاسم والمصدر؛ ولكن لا يمكن أن يجهل الجوهرى أن سيبويه في هذه الموضع يعني اسم الفاعل على مانع عليه سيبويه صراحة في أول كلاماً! وأقرب ما وجده البحث ذريعة إلى قوله الجوهرى هذه، هو ما ورد في حديث سيبويه عن صيغتي: "مَفْعَلٌ" و"مَفْعِلٌ" في المصدر الميمى وأسمى زمان ومكان من التصريح بأن المصدر يكون بالفتح في بعضها^(١)؛ وأن بعض الكلم يأتي على هذه الزنة وليس مصدرًا ولا اسم مكان كالمسجد ومدرسة السيف ونحوها^(٢)؛ وكذا ما أورده سيبويه في باب ماجاه من المصادر على فَعُول من أن مصدر وَقَدَ: الوقود، والوقود أكثر، والوقود الحطب^(٣)؛ وأن الطمأنينة والقشعريرة ليسا مصدري اطمأنْ واقشعر^(٤)؛ وكذا ما أورده سيبويه فيه من التفريق بين المَلِءُ (مصدر ملأ) والمِلْءُ (قدر ما يملأ)؛ وما أورده السيرافي في شرحه^(٥) من التفريق بين الطَّحْنُ (مصدر طَحَنَ) والطِّحْنُ (الدقيق المطحون)، ونحوها؛ فبني الجوهرى على مجموع هذه النصوص في النقاوة والولاية تفريقاً بين المصدر وأسم الشيء؛ وأن الفتح للمصدر والكسر لاسم الشيء.

وليس مراد سيبويه هو ما فهمه منه الجوهرى، بل حديث سيبويه في صوغ مَفْعَل من الثلاثي اسمًا غير مصدر منصب على هذه الكلم بذاتها، قال سيبويه في آخر حديثه عن المِفْعَل: ((ويجيء المِفْعَل اسمًا كما جاء في المسجد والمنكب، وذلك: المِطْبَع

(١) الكتاب ٤ / ٥.

(٢) الكتاب ٤ / ٨٧ - ٨٩.

(٣) الكتاب ٤ / ٩٠ و ٩١.

(٤) الكتاب ٤ / ٤٢.

(٥) الكتاب ٤ / ٨٥.

(٦) السيرافي النحوي ص ١٣١.

والمرجع، وكل هذه الأبنية تقع اسمًا للتي ذكرنا من هذه الفصول لا لمصدر ولا لموضوع العمل^(١).

وأما الفتح في المفعول مصدرًا، فقد فصله سيبويه في كلامه بحسب أبواب الفعل الثلاثي، مما لا يصح أن يفهم منه الجوهرى ما فهمه في النقابة والولاية.

وفكرة التفريق بين الاسم والمصدر فكرة متأصلة عند الجوهرى في باب المفعول^(٢)، وغيره كما سيأتي؛ فلعل ما هنا منبثق عنها ومبني عليها. والله أعلم.

وأما الوقود والوقود فقد صرّح سيبويه بمصدر ريتهم بالفتح والضم، ولا يعارضه استعمال المفتوح اسمًا، فالمفتوح مشترك بين الاسم والمصدر؛ وليس الاسم منفردًا به، وقد سلمه الجوهرى^(٣)، ولعل سبب تسليمه به أن التخالف لم يكن بالفتح والكسر.

واما عدا المفعول من مصدر غير الثلاثي نحو: الطمأنينة والقشعريرة، فقيل: هما اسمان وضعًا لوضع المصدر^(٤).

ومن المتقرر أن ما جاء على خلاف المصدر المعهود في غير الثلاثي مثل: استراح ونحوها؛ فقد اصطلاح على تسميتها: اسم مصدر^(٥).

وذهب بعض الباحثين إلى حمل كلام الجوهرى على هذا الاصطلاح^(٦)، والبحث يقرّ أنه ليس هذا المحمل بالسهل؛ لأنّ اسم المصدر على الأشهر مخصوص بما ورد فعله زائدًا عن ثلاثة، وإن كان أبو حيّان^(٧) قد مثل اسم المصدر بما فعله ثلاثي وغيره إلا أنّ في

(١) الكتاب /٤ .٩٢

(٢) ينظر: الصحاح /١٤٠ (عيّب)، و٢ /٥٥٢ (وعد)، و٥ /١٨٤٠ و١٨٤١ (وجل) و (وجل).

(٣) الصحاح /٨١ (وظا).

(٤) ينظر: شرح الشافية /١٧٧، وارشاف الضرب ٤٩٦ /٢، وينظر: عنقود الزواهرص ٣٦٧.

(٥) ينظر: تمهيد القواعد ٨ /٣٨٠٢، وشرح الألفية عند قول ابن مالك: ((وليس محدّر عمل)).

(٦) أسماء المصادر (مجلة التراث العربي - دمشق، العدد ٢٠) ص ١٣٨.

(٧) ينظر: ارشاف الضرب ٥ /٢٢٦٤.



نسبة القول للجوهري أنه يرى النقابة والولاية بالكسر اسمي مصدر مخالفة صريحة لمراد الجوهرى وما عناه بمصطلح الاسم على ما نصّ عليه وصرّ به في مادة: "وكى". وأماماً ما كان نحو: ملِعٌ وطَحْنٌ، فقد صرّ سيبويه بمذهبة فيما كان من هذه الباب قائلا: ((فهذه أشياء تجيء مختلفة ولا تطرد))^(١)، مما لا يصح معه بحال من الأحوال أن يُنسب إلى سيبويه أنه يرى التحالف بين الاسم والمصدر فيما عدا مانص عليه أو كان في معنى المنصوص، شريطة أن لا يخالف منصوصه في موضع آخر، وهو ما لا يتوافر في النقابة والولاية.

وممّا يعده سيبويه لا يرى التفرقة بين المكسور والمفتوح، وأن كلامه مصدر قوله: ((وقالوا: طَوَى يَطَوَى طَوَى وهو طَيَّانٌ، وبعض العرب يقول: الطَّوَى فينيه على فعلٍ لأن زنة فعلٍ وفعَلٍ شيء واحد، وليس بينهما إلا كسرة الأول))^(٢)، والجملة الأخيرة في هذا النص كافية في رد فكرة التفريق، وهي نص صريح لا يُحوج إلى اجتهاد.

وفكرة التفريق بين الاسم والمصدر واردة عند الجوهرى في غير ماقدم فهو يرى التفريق في: زلزال، وقلقال، فالكسر للمصدر والفتح للاسم^(٣)، على عكس النقابة والولاية، وهو رأي الفراء في هذا الباب^(٤).

وأما مذهب سيبويه فهو أن مصدر زَلَّـ وقَلَّـ يكون على "فعلاة"، ونقل عن العرب أنهم يقولون في مصادرهما: زَلَّـاً وقَلَّـاً بالكسر والفتح^(٥)، وليس في نص سيبويه فيهما ذكر للاسم، وإنما كلامه منصب على كونهما بالفتح والكسر مصدرين.

(١) الكتاب ٤ / ٤٢.

(٢) الكتاب ٤ / ٢٢.

(٣) الصحاح ٤ / ١٧١٧ (زلال)، و٥ / ١٨٠٤ (قلال).

(٤) نقله ابن قتيبة في أدب الكاتب ص ٥٩١.

(٥) الكتاب ٤ / ٨٥. ويد ظر في تفصيل لا قول في مصدر زلـ وبـ به لسيرافي الله جاوي ص ٢٢٤. و شرح الشافية ١ / ١٧٨، وارشاف الضرب ٢ / ٤٩٤.

وممّا تقدّم يظهر - والله أعلم - أن الجوهرى في قوله في النقابة والولاية مزج بين نصوص سيبويه وغيره من اللغويين في التفريق في الثلاثي^(١)، وغير الثلاثي. وممّا يقطع دابر الخلاف ويؤكّد أن سيبويه برى أن النقابة والولاية بالفتح والكسر مصدرين؛ ما أورده سيبويه حينما نص على أن المصدر يجيء على الفعال والفعال، وذلك حيث يقول: ((وجاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثل: فعَلٌ) وذلك الصِّرَامُ والجزازُ والجِدَادُ والقطاعُ والجِحَادُ، وربما دخلت اللغة في بعض هذا فكان فيه فِعَالٌ وفَعَالٌ^(٢)). وهو نصٌ صريح من سيبويه على مذهبة، وهو عدم التفريق بين المفتون والمكسور في هذا الباب، وعليه يتخرج ما كان نحوه كالنقابة والولاية، وهو فهم السيرافي والرضي وغيرهما كما تقدّم، وهو الموافق لمنصوص سيبويه ومراده.

وختاماً: يسلّم البحث ورود تفرقة بتغيير الحركة بين المصدر وأسم الشيء في بعض ما ورد في الثلاثي وغيره باتفاق في بعض المفردات اللغوية، ورأياً البعض اللغويين في بعضها، وتابعهم الجوهرى فيما يظهر، إلا أن الجوهرى ومن تابعه لم يحالفهم الصواب في التفريق بين النقابة والولاية بالفتح فيهما والكسر، والوهم في نسبة ذلك لسيبويه. والله أعلم.

وممّا تقدّم يتبيّن أن بعض كتب اللغة والمعجمات المتقدّمة تحديداً، لم يكن التوجيه الصرفي فيها دقيقاً ومتوافقاً مع التعقيد الصرفي^(٣) الذي هو في غالبه بصرى الوجهة.

١٣- نَيْبٌ

قال الجوهرى: ((والناب: المُسِيَّنةُ من النُّوقِ، والجمع النَّيْبُ...، وهو فَعُلٌ مثلاً أَسَدٍ وأَسَدٌ، وإنما كسرُوا النون لِتَسْلُمَ الياءَ، والتَّصْغِيرُ نَيْبٌ. يقال سُمِّيَتْ بذلك لطول نابها))

(١) ينظر مثلاً: الصاحب/١٥٣ (شرب)، ويقارن بالكتاب ٤/٥ و٦، والمقتضب ٢/١٤، والتكميلة ص٥٢١.

(٢) الكتاب ٤/١٢.

(٣) نَبَّه ابن السَّيِّدٍ (١٥٢١هـ) على نحو من هذا الصنيع في الاقتضاب ٢/٢٤٢، وينظر: المنصف ١/٣.

(٤) إلى هنا نقل عن الكامل للمبرد ٢/٦٨٠ و ٦٨١ بتصريح سير.

فهو كالصفة، فلذلك لم تتحقق الهاء، لأن الهاء لا تتحق تصغير الصفات^(١). تقول منه:
نَبَّتِ النَّاقَةُ، أَيْ صارت هرمة. ولا يقال للجمل ناب.

وقال سيبويه: من العرب من يقول في تصغير ناب نُوبٌ فيجيء بالواو لأن هذه الألف
يكثُر انقلابها من الواوات. قال ابن السراج: هذا غلطٌ منه^(٢).

= هذا النصُ في سيبويه بتصريف يسير، يقول سيبويه في تحبير (تصغير) ما كلت
الألف بدلاً من عينه: ((إن كانت بدلاً من واو ثم حقرته رددت الواو، وإن كان بدلاً من ياء
ردت الياء، كما أنك لو كسرته ردت الواو إن كانت عينه واواً والياء إن كانت عينه ياءً
وذلك قوله في بابٍ: بوبٌ كما تقول: أبوابٌ، ونابٌ: نَبَّـ كما تقول: أنيابٌ ولَّـ فإن
حقرت ناب الإبل فكذلك، لأنك تقول: أنيابٌ... وإن جاء اسمٌ نحو: "الناب" لا تدري أمن
الياء هو أمر من الواو^(٣) فاحمله على الواو حتى يتبيّن لك أنها من الياء؛ لأنها مبدلٌ من الواو
أكثر، فاحمله على الأكثر حتى يتبيّن لك.

ومن العرب من يقول في نابٍ: نُوبٌ^(٤) فيجيء بالواو، لأنَّ هذه الألف مبدلٌ من الواو
أكثر، وهو غلطٌ منهم^(٥).

(١) هذا التعليل للخطييل في "ذُحْيَف" تصغير نَصَفَ نَعْتَ ا مرأة وما كان نحوه (الكتاب ٣ / ٤٨٢)، وأمّا تعليل تصغير الناب من الإبل على نَبَّـ عنده فهو أنَّه أحاديٌّ مُبْتَدِئٌ بمذكر (الكتاب ٤ / ٤٨٣)، وقد أخطأ الجوهريُّ التعليل هنا، لأنَّ الناب اسم وليس وصفاً، ينظر: المقتنب ٢ / ٢٣٨، وقد نصَّ الخطييل (الكتاب ٤ / ٤٨٣) على أنَّ البناء تتحقُّقُ الثلاثيَّةُ الْخَالِيَّةُ منها فيما لا يليس بصفة ولا اسمًا شاركَتْ فيه منكراً على معنى واحدٍ، والناب من النوع الثاني لا الأول، ويدلُّ عليه تنظير الخطييل لها بيطين.

وقد عدَّ هذا التصغير شاداً، لعدم تأثيره بال تمام، ينظر: شرح المفصل ٥ / ١٢٧، والم قرب ٢ / ٨٨، وشرح الشافعية ١ / ٢٤، وارشاف الضرب ٢ / ٣٦٠.

(٢) الصحاح ١ / ٢٣٠ (أنيب).

(٣) نحو: سارأي: السائر، ينظر: شرح كتاب سيبويه ٤ / ٢٠٢، وينظر أيضًا: الخصائص ١ / ٢٥٣.

(٤) أجاز الكوفيون تصغير "ناب" على "نوب". ينظر: ارشاف الضرب ٢ / ٣٦٠، والمقدمة ٧ / ٣٦٥.

وهم مع الهوامع ٦ / ١٣٦، وشرح الأشموني ٣ / ٧١٥.

(٥) الكتاب ٣ / ٤٦١، ٤٦٢.

وممّا يُنَبِّهُ عليه هنا أنّ الجوهرى عَقِبَ نَقْلِه قول سيبويه المتقدّم نَقَلَ عن ابن السرّاج قوله: ((وهو غلط منه))^(١)، وقد تعقبه ابن بري^(٢) بأنّ ظاهر صنيع الجوهرى يقضي بأنّ ابن السرّاج غلط سيبويه فيما حكاه، وليس الأمر كذلك بل هذا القول من ابن السرّاج معناه أنّ هذا القول غلط من قائله، ثم عاد وأفصح ابن بري^(٣) بأنّ هذا النصّ من تمام كلام سيبويه، وليس من كلام ابن السرّاج.

وعلى محقق الصحاح حاشية على النص السابق من الصحاح، ونصها: ((قوله غلط منه، أي من بعض العرب المتكلم بهذه اللغة، كما أن سيبويه غلطهم فيليس هذا تغليطا من ابن السرّاج لسيبويه، بل هو موافق له في تغليطهم. اه بالمعنى من مرتضى عن شيخه ردّاً على ابن بري))^(٤)، وقد تعقب الأستاذ: جواد محمد الدخيل هذه الحاشية قائلاً: ((لما كان المحقق نسخ هذه الحاشية من هامش المطبوعة الأولى (ص ١٠٧) ولما كانت خاطئة فقد أخطأ المحقق، وذلك أن كاتب الحاشية (الأصلي وليس المحقق الأستاذ العطار) تعجل في النقل، والكلام الذي أورده ابن بري وليس الفاسي شيخ المرتضى ورد الفاسي ينصب على نقطة أخرى تأتي بعد كلام ابن بري. وليرجع للاتاج من أحب التثبت))^(٥).

وعند الرجوع للزبيدي نجد أنه يقول: ((... قال ابن السرّاج: هذا غلط منه. هذا نصّ الصحاح في لسان العرب.

قال ابن بري: ظاهر هذا اللفظ أنّ ابن السرّاج غلط سيبويه، فيما حكاه، قال: وليس الأمر كذلك، وإنما قوله: وهو غلط منه، من تتمّة كلام سيبويه، إلا أنه قال: منهم، وغيره ابن السرّاج فقال: منه، فإنّ سيبويه قال: وهذا غلط منهم، أي: من العرب الذين يقولونه

(١) الأصول ٣/٢٨.

(٢) التنبيه والإيضاح ١/١٤٤.

(٣) الحاشية ١ من الصحاح ١/٢٣٠.

(٤) ملاحظات على كتاب الصحاح (مجلة العرب السنة ٢١٩ ج ٩/٦٣٤ و ٦٣٥ الملحوظة رقم ١٢٥).

كذلك. وقول ابن السراج غلطٌ منه، هو بمعنى: غلطٌ من قائله، وهو من كلام سيبويه وليس من كلام ابن السراج. انتهى.

قال شيخنا: قلت: الطاهر ينافيء. نعم، يمكن حمله على موافقة سيبويه بأن الجوهرى نقل أولَ كلام سيبويه أولاً. وأيده بكلام ابن السراج، وقال ابن السراج قال هذا الكلام الذي نقله سيبويه غلطٌ من قائله، فيتفقان على تغليط المتكلّم بهذه اللغة. ويكون كلام ابن السراج موافقاً لكلام سيبويه لا اعتراض، ولا نقل عنه، بالنسبة لما في الصحاح كما هو ظاهر، والله أعلم.

واما دعوى ابن بري أن ابن السراج نقل كلام سيبويه بعينه، وأنه مراد الجوهرى بدون إثباته وأخذه من هذه الألفاظ خرط القتاد، وإن نقله ابن المكرم وسلمه فلا يخفى ما فيه من التناقض وعدم تلاؤم الأطراف. انتهى. وهو تحقيق حسن (١).

وفي هذه الأقوال برمتها نظر، وذلك أن الذي يظهر أن الجوهرى هنا ينقل بتصرف يسير كلاماً من نص سيبويه وابن السراج في هذه المسألة - وهو ما فهمه الفاسي - وذلك لغرض يريد به بحسب ما يظهر بعد طول تأمل؛ وهذا الغرض لا يظهر إلا بعد التدقيق في النصوص السابقة وهي نص الجوهرى الآنف، ونص سيبويه المتقدم، ونص ابن السراج، وهو بحروفه: ((قال: وإذا جاء اسمٌ نحو: النَّابُ لا تدرِي أَمِنَ الْيَاءِ هُوَ مِنَ الْوَاوِ فاحمله على الواو حتى يتبيّن لك: لَا تَهَا مِبْدَلٌ مِنَ الْوَاوِ أَكْثَرٌ .

قال أبو العباس: إنما قُبِّلتُ الْأَلْفُ - يعني: الألف التي لا يُدرى أصلها - إلى الواو للضمة التي قبلها - يعني: في باب التصغير -

قال سيبويه: ومن العرب من يقول في ناب: نُوبَبٌ فيجيء بالواو، لأنَّ هذه الألف يكثرُ إبدالُها من الواواتِ، وهو غلطٌ منه (٢).

وبعد استعراض هذه النصوص والتأمل فيها، يظهر الآتي:

(١) تاج العروس ٤ / ٣٢٤ (نبأ).

(٢) الأصول ٣ / ٣٨؛ وما نقله ابن السراج عن المبرد نقل سمعاً (رواية)، وفي المقتضب (٢ / ٢٨٠) بإيماء له.

١/ سيبويه يقول: ((وهو غلط منهم))، وهو يقصد بعض العرب القائلين: "نُوبِيَا".
قال السيرافي: ((فيجيء بالواو على جهة الغلط، لكثرة أن تكون الألف من
الواوا))^١.

٢/ ابن السراج يقول: ((وهو غلط منه))، وهو يقصد سيبويه، أي: أن التعليل الذي
أورده سيبويه لقولهم: نُوبِيَا، غلط من سيبويه، وهو فيما يظهر يرى تعليل شيخه المبرد
٣/ الجوهرى ينقل ((هذا غلط منه))، وينسب قولها لابن السراج، لأنَّه يريد – فيما
يظهر – أن يخطئ تعليل سيبويه لقولهم: نُوبِيَا، ولكن ليس من الوجه الذي يظهر من
نص ابن السراج، وإنما من وجه آخر؛ وذلك ألف "ناب" منقلبة عن الياء، وليس كما يفهم
من هذا النص لسيبويه من أن انقلابها عن الواو، وذلك أن الناب يائي العين. والله أعلم.
وهذا الفهم لكلام الجوهرى مبني على أمرين:

١/ أنه لم يورد نص ابن السراج الذي نقل فيه تعليل المبرد.
٢/ أنه لم يورد نص سيبويه الذي نص فيه على أن "الناب" يُصَغِّر على "نُوبِيَا".
وبناء عليه يمكن القول: وقع الجوهرى في خطأ علمي لا يُقبل؛ وذلك من جهتين:
١/ أنه اجتنأ كلام سيبويه في تصغير "ناب"، فقد نص سيبويه على أن تصغيرها
نُوبِيَا.

٢/ أنه لم يعرض إلى كون سيبويه قد نص على أن ألف "ناب" منقلبة عن ياء.
وهذا الموضع من أغمض المواضع في هذا الجزء من صالح الجوهرى، وهو يحتاج
إلى إمعان نظر وتأمل شديد؛ ولعل البحث وُفق إلى أن يزيل هذا الغموض.

١٤- بيت

قال الجوهرى: ((الْبَيْتُ مَعْرُوفٌ، وَالْجَمْعُ بَيْوتٌ وَأَبْيَاتٌ وَأَبَيَّتٌ)) عن سيبويه، مثل
أقواله وأقاويله^٢.

(١) شرح كتاب سيبويه ٤/٢٠٣.
(٢) الصاحب ٢٤٤/١ (بيت).

= هذا النصُّ في سيبويه بحروفه تقريرًا، حيث يقول: ((قالوا: أقاوِيلٌ في أقوالٍ وأبايتٌ في أبياتٍ، وأناعِيمٌ في أنعامٍ))^١.

١٥ - كمت

قال الجوهرى: ((الكميٰت من الخيل، يستوى فيه المذكـر والمؤنـث، ولونـه الـكمـةـ))^٢. وهي حـمـرة يـدـخـلـها قـنـوـءـ. قال سـيـبـوـيـهـ: سـأـلـتـ الـخـلـلـ عـنـ كـمـيـٰتـ فـقـالـ: إـنـماـ صـغـرـ لـهـيـنـ السـوـادـ وـالـحـمـرـةـ، كـأـنـهـ لـمـ يـخـلـصـ لـهـ وـاحـدـ مـنـهـمـاـ، فـأـرـادـوـاـ بـالـتـصـيـرـ أـنـهـ مـنـهـمـاـ قـرـيبـ))^٣. = هذا النصُّ في سيبويه بحروفه تقريرًا، حيث يقول: ((وسائلـ الـخـلـلـ عـنـ كـمـيـٰتـ فـقـالـ هوـ بـمـنـزـلـةـ جـمـيـلـ، إـنـماـ هـيـ حـمـرـةـ مـخـالـطـهـاـ سـوـادـ وـلـمـ يـخـلـصـ، فـإـنـماـ حـقـرـوـهـاـ لـهـاـ بـيـنـ السـوـادـ وـالـحـمـرـةـ، وـلـمـ يـخـلـصـ أـنـ يـقـالـ لـهـ أـسـوـدـ وـلـاـ أـحـمـرـ وـهـوـ مـنـهـمـاـ قـرـيبـ، إـنـماـ هـوـ دـوـيـنـ ذـلـكـ))^٤.

١٦ - ثلاث

قال الجوهرى: ((وـثـلـاثـ وـمـثـلـثـ غـيرـ مـصـرـوـفـ لـلـعـدـلـ وـالـصـفـةـ، لـأـنـهـ عـدـلـ مـنـ ثـلـاثـ إـلـىـ ثـلـاثـ وـمـثـلـثـ، وـهـوـ صـفـةـ لـأـنـكـ تـقـولـ: مـرـرـتـ بـقـوـمـ مـثـنـىـ وـثـلـاثـ. وـقـالـ تـعـالـىـ: ﴿الْمَدْلُوَّ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلُ الْمُلْكِ كَمَ مُسْلَمٌ أَجْمَعَهُ مَشْنَىً وَثَلَاثَ وَرِيعَ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٥ فـوـصـفـ بـهـ. وـهـذـاـ قـوـلـ سـيـبـوـيـهـ))^٦.

= في نصِّ الجوهرى هنا خلل غيريسير؛ وذلك أنَّ الجوهرى ينسب لسيبوه أنَّ ثلاثَ معدول عن ثلاثة، وال الصحيح أنَّ سيبويه يرى أنَّ ثلاثَ معدول عن ثلاثة ثلاثة يقول سيبويه ((وسائلـهـ عـنـ أـحـادـ وـثـنـاءـ وـمـثـنـىـ وـثـلـاثـ وـرـبـاعـ، فـقـالـ هوـ بـمـنـزـلـةـ أـخـرـ، إـنـماـ حـدـهـ وـاحـدـاـ وـاحـدـاـ))

(١) الكتاب / ٣، ٤٠٧ / ٣، وينظر: ٦١٩ / ٣، ٦٢٢ / ٣.

(٢) الصحاح / ١٢٦٣ (كتبت).

(٣) الكتاب / ٣، ٤٧٧ / ٣.

(٤) سورة فاطر من الآية الأولى.

(٥) الصحاح / ٢٧٥ / ٣ (ثلاث).

واثنين اثنين، فجاء محدوداً عن وجده فترك صرفه، قلت: أفتصرفه في النكرة؟ قال: لا لأنّ نكرة يُوصف به نكرة، وقال لي: قال أبو عمرو: ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلٌ الْمَلَائِكَةَ رُسَّالًا أُولَئِنَّ أَجْنَحَةَ مَثْنَى وَمَثْلَثَ وَرَبِيعَ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الصافرون) قلت: أولي أجنة اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة؟ (٢).

وليس في كتاب سيبويه مخالفة لرأي شيخه الخليل؛ فهو موافق له في تفسير العدل؛ ونسب أبو حيّان (٢) للخليل وسيبوه القول بمنع الصرف للوصفيّة والعدل.

وقد نصّ سيبويه على أنّ مثنياً؛ ليس معدولاً (٣) عن "اثنين"؛ حيث يقول: ((وأمّا عمر فليس محدوداً من عامر كما أنّ ميتاً محدود من ميتٍ؛ ولكنّه اسم بُني من هذا اللفظ وخُولف به بناء الأصل؛ يدلّك على ذلك: أنّ مثني ليس محدوداً من اثنين)) (٤). واستناداً لهذا النص يُقال: إنّ سيبويه لا يرى "ثلاثة" معدولاً عن لفظ "ثلاثة" مفرداً. وكون العدل في "ثلاثة" إنّما هو عن لفظ "ثلاثة" مكرراً هو المنصوص عليه في تفسير العدل؛ يقول الزجاج (ت ٢١ هـ):)) لأنّه عدل به عن ثلاثة ثلاثة (٥)، وكذا نصّ غيره (٦)، وهو ((قول سيبويه والجمهور)) (٧).

ويقول الرضا (٨) في لبيان العدل هنا: ((وأمّا ثلاثة ومثلثة، فقد قام دليل على أنّهما معدولاً عن ثلاثة ثلاثة؛ وذلك أنّا وجدنا ثلاثة وثلاثة ثلاثة بمعنى واحد؛ فلما وجد ثلاطه غير مكرر لفظاً حكم بأنّ أصله لفظ مكرر، ولم يأت لفظ مكرر بمعنى ثلاط إلا ثلاثة

(١) سورة فاطر من الآية الأولى.

(٢) الكتاب .٢٢٥ / ٣

(٣) التنبيل والتكميل ج ٥ / ٤٣ / ب، وارشاف الضرب .٨٥٧ / ٢

(٤) يقول السيرافي (شرح كتاب سيبويه ٣٠ / ٤٩٠)، ((وسمى سيبويه المعدل: محدوداً)).

(٥) الكتاب .٢٢٧ / ٣، وينظر: شرح كتاب سيبويه .٤٩٢ و .٤٩٣

(٦) ما ينصرف وما لا ينصرف ص .٥٩

(٧) ينظر: المقتصد .١٠٠٨ / ٢، وشرح المفصل .٦٢، والملخص .٦٢٠ / ١

(٨) شرح الأشموني .٥٤ / ٢



ثلاثة: فقيل: إنّه أصله^(١)، ويقول ابن هشام (ت ٧٦١ هـ): وهي معدولة عن ألفاظ العدد الأصول مُكررة^(٢). ويقول الشاطبي^(٣) (٧٩١ هـ): مثنى معدول عن اثنين أو عن لفظ اثنين مراداً به التفصيل... وكذلك ثلث المعدول عن ثلاثة المراد به التفصيل على مانكرا^(٤)! وقد جاء قول سيبويه على الصواب عند الزبيدي^(٥) الذي مزج بين نص الجوهرى ونص الفيروزآبادى^(٦): حيث يقول: ((وفي الصحاح: ثلث ومثلث (غير مصروف) للعدل والصفة والمصنف أشار إلى علة واحدة وهي العدل، وأغفل عن الوصفية فقال: معدول من ثلاثة^(٧) إلى ثلث ومثلث، وهو صفة، لأنك تقول: مررت بقومٍ متنى وثلاث، وهذا قول سيبويه))^(٨).

والذى يظهر أن الجوهرى أخذ هذا من ابن السراج^(٩): حيث يقول: ((فَلَمَّا ذَرَ عَدْلَ إِزَالَةَ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى، فَمَتَنَى وَثَلَاثَ وَرَبْعَ وَاحِدَ، فَهَذَا عَدْلٌ لِفَظُهِ وَمَعْنَاهُ عَدْلٌ عَنْ مَعْنَى اثْنَيْنِ إِلَى مَعْنَى اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَعَنْ لَفْظِ اثْنَيْنِ إِلَى لَفْظِ مَتَنَى، وَكَذَلِكَ أَحَادُ عَدْلٌ عَنْ لَفْظِ وَاحِدٍ إِلَى لَفْظِ أَحَادٍ، وَعَنْ مَعْنَى وَاحِدٍ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ، وَسِيبُوِيَّهُ يَذْكُرُ أَنَّهُ لَمْ يَنْصُرِفْ لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ وَأَنَّهُ صَفَةٌ))^(١٠): فتصرّف الجوهرى في النص، فجعل تفسير ابن السراج للعدل في اللفظ هو قول سيبويه في تفسير العدل، فوقع له هذا الخلل.

١٧ - شربث

قال الجوهرى: ((الشَّرَبَثُ: الغليظ الكفين والرجلين، وربما وصف به الأسد وكذلك الشَّرَبَاثُ بضم الشين. قال سيبويه: النون والألف يتعارون ان الاسم في معنٍ نحو شربث وشرابث، وجَرَنَفْشٍ وجُرَافِشٍ))^(١١).

(١) شرح الكافية ق ١١٤.

(٢) أوضح المسالك ٤ / ١٢٠.

(٣) المقاصد الشافية ٥ / ٥٩٧.

(٤) تاج العروس ٥ / ٨٢؛ وما بين الأقوال نص كلام الفيروزآبادى (القاموس المحيط ١/٢٦٥ "ثلث").

(٥) هومن عناء الجوهرى (الصحاح ١/٢٧٥) بقوله عقب قول سيبويه: ((وقال غيره: إنما لم ينصرف ...)).

(٦) الأصول ٢ / ٨٨؛ وينظر: المقتضى ٢ / ١٠١.

(٧) الصحاح ١/٢٨٥ (شربث).

= هذا النصُّ في سيبويه مع اختلاف يسير في رواية الكلمتين الأخيرتين ففي كتاب سيبويه عقب حديثه عن زيادة النون الساكنة الواقعة ثلاثة في الكلمة الخامسة والأحرف، وأنها من الرباعيِّ المزيد: ((وقد بَيْنَ تعاورها والألف في الاسم في معنى واحد وذلك قولهم: رجلٌ شَرَبَتْ وشُرَابِثْ، وجَرْنَفَسْ وجَرَافِسْ، وقالوا: عَرَنْتُنْ وعَرَنْتُ، فلذا حذفوا النون كما حذفوا ألف عَلِيَّطٍ [وعَجَلِيَّطٍ] وهذا دليل، وهو قول الخليل))^(١). وبالسين وردت اللفظتان عند ابن السراج^(٢)، والفارسي^(٣)، وابن جنِّي^(٤) وكذا ابن منظور^(٥) في نقل نصٍّ سيبويه الذي أورده الجوهرى؛ وهو تصرفٌ من ابن منظور. ولم يورد الجوهرى في صاحبه اللفظتين بالسين، وإنما أوردهما بالشين^(٦)؛ وأورد الأزهري جرنفس^(٧) فحسب، وأوردهما بالشين ابن الشجري^(٨) (ت ٥٤٢ هـ). وتتابع السخاوي^(٩) (ت ٦٤٣ هـ) الجوهرى – وإن لم ينص – فيما نسبه لسيبويه. وعلق محقق الصحاح على اللفظتين قائلاً: ((وفي اللسان: "وجرنفس وجرافس". وكلاهما صحيح))^(١٠)، ويقابله أنهما عند ابن سيده بالشين والسين لغة^(١١).

- (١) استدراك من الكتاب طبعة باريس ٢٨٦/٢، وطبعة بولاق ٢٥١/٢. والمعجم لط: الباين الخاتر (المتن خب ٢ /٥٧٠)، أو الثixin الخاتر. ينظر: الصحاح ٣/١٤٢ (اعجلطا)، وينظر أيضًا: الغريب المصنف ١/٢٧.
- (٢) الكتاب ٤/٣٢٣، وفيه: ((بين)) و(جرنفَس)). تطبيع.
- (٣) الأصول ٣/٤٢٤٠.
- (٤) التكلمة ص ٥٦٥، والمسائل البصرية ١/٢٠١، والمسائل الحلبية ص ٣٧٧.
- (٥) سر صناعة الإعراب ٢/٤٣٩ و ٧٥٤.
- (٦) لسان العرب ٢/١٦٠ (شربيث).
- (٧) الصحاح ٢/٩٩٨.
- (٨) تهنيب اللغة ١١/٢٦٠ (جرنفس).
- (٩) أماي ابن الشجري ٢/١٦٧، وينظر: تعليق محققته.
- (١٠) سفر السعادة ١/٣٥.
- (١١) الحاشية ٣ من الصحاح ١/٢٨٥.
- (١٢) ينظر: المحكم ٧/٤٠١ (جرفشن)، وينظر أيضًا: ٧/٤٠٣ (جرفس).

ونص ابن بري^(١) على أن الجرنفشن والجرافش - وهو عظيم الجنين - حرفان ذكرهما سيبويه ومن تبعه من البصريين بالسين، وقال أبو سعيد السيرافي: هما لغتان وبالرجوع لشرح السيرافي نجده يورد اللفظتين بالسين؛ ويفسراهما بالغليظ، ثم يقول: ((وبعضاً منهما يقوله بالشين))^(٢).

ووقع للزبيدي^(٣) قلْبُ النسبة، فنسب لسيبوه ومن تبعه من البصريين أَذْهَم يقولون: جرنفشن؛ و لا يخفى تأثره بالجوهري، والصواب ما تقدم، وممّا تقدم يتبيّن أن الجوهرى عدل عن رواية سيبويه للفظتين بالسين إلى ما يرويه من كونهما بالشين^(٤)، ووهم في نقله عن سيبويه أنّهما بالشين.

١٨ - ترجمة

قال الجوهرى: ((هي الأُتْرَجَةُ وَالْأَتْرَجُ ... وَحَكَى أَبُو زِيدٍ تَرْنَجٌ وَتَرْنَجٌ، وَنَظِيرَاهَا مَا حَكَاهُ سَيْبُوِيَّهُ: وَتَرْ عَرْنَدٌ، أَيْ غَالِيْظٌ))^(٥).

= لم يقف البحث على ما نسبه الجوهرى هنا وفي مادة: "عرد"^(٦)، لسيبوه من أنه حكى: ((وتر عرند))، على الرغم من متابعة بعض المصادر له^(٧)؛ وإنما وقف البحث على كون "عرند" وصفاً على وزن: "فعُنْلٌ"؛ وأنه يعني: الشديد، يقول سيبويه: ((ويكون على فَعُنْلٌ - وهو قليل - قالوا: عرند للشديد، وهو صفة))^(٨)، ونص سيبويه على زيادة نونه فَعُنْلٌ

(١) التنبية والإيضاح ٢٥/٢.

(٢) شرح كتاب سيبويه ٥ / ٢١٧، وفيه: ((جرنفشن وجرافش))، والإعجمي في الأولى تصحيف.

(٣) تاج العروس ١٥ / ٤٩٨ (جرفس).

(٤) عن أبي عبيد فيما يطرئ، فقد رواها (الغريب المصنف ٢ / ٥٤٦) بالشين.

(٥) الصحاح ١/٣٠١ (ترجمة).

(٦) الصحاح ٢ / ٥٠٨ (عردا)، وسيأتي (بمشيئة الله) في الجزء الثاني من هذا البحث.

(٧) يذكر: لسان العرب ٢ / ٢١٨ (ترجمة). و ٣ / ٢٨٧ (عردا). ولا مساعد ٤ / ٥٦، و تاج الـ عروس ٥ / ٤٣٧ (ترجمة).

٢٧٢ / ٨ (عردا).

(٨) الكتاب ٤ / ٢٧٠.

حيث يقول: ((ونون عُرْنَدٌ زائدةٌ، لأنهم يقولون: عرد، ولأنه ليس في بنت الأربعة على هذا المثال))^(١).

وقد وقف البحث على "وتر عُرْنَدٌ" عند أبي حاتم السجستاني^(٢) (ت ٢٥٥ هـ)، والسيرافي^(٣)، ويظهر أن الجوهرى مزج في نقله هذا بين نص سيبويه وما في هذين المصادرتين.

وفي تنظير الجوهرى ترنجا بـ"عُرْنَدٌ" إثبات لوزن: "فُعْنِلٌ" اسمًا، وسيبوهيلما القصر على إيراده وصفًا كما تقدم، وقد أورده ابن السراج^(٤)، وغيره^(٥)، وفيه أيضًا جودة قراءة الجوهرى لسيبوه في تنظيره هذا.

١٩ - عوج

قال الجوهرى: ((والعاج: عظم الفيل، الواحدة عاجة. قال سيبويه: يقال لصاحب العاج عواج))^(٦).

= والنصل في سيبويه بحروفه، حيث يقول: ((هذا باب من الإضافة تحذف فيه يلمي الإضافة، وذلك إذا جعلته صاحب شيء يزاوله أو ذا شيء. أما ما يكون صاحب شيء يعالجه فإنه مما يكون "فعالاً"؛ وذلك قوله لصاحب الثياب: ثواب، ولصاحب العاج: عواج))^(٧).

(١) الكتاب ٤ / ٣٢٢، وينظر: التكملة ص ٥٦٦، وحكى الإجماع عليه في مختار التنكرة ص ٤١٢ وفي المسائل الشيرازيات (٤٢١ / ٢) ((وتقول في عُرْنَدٍ: إنه فعل، وليس بفتح)).

(٢) تفسير غريب ما في كتاب سيبويه من الأبنية ص ١٦٣.

(٣) السيرافي النحوي ص ٦٤٨.

(٤) ينظر: الأصول ٢ / ٢٠٦، وفيه: ((ترجمة)).

(٥) ينظر: ارشاد الضرب ١ / ٦٢، ووقفات مع شيخ التحاة ص ١٣٤.

(٦) الصحاح ١ / ٣٣٢ (عوج).

(٧) الكتاب ٣ / ٢٨١.

٢٠- مذحج

قال الجوهرى: ((مَذْحِجٌ، مَثَلُ مَسْجِدٍ: أَبُو قَبْيلَةٍ مِنَ اليمَنِ، وَهُوَ مَذْحِجٌ بْنُ يَحَابِرٍ بْنِ مَالِكٍ بْنِ زِيدٍ بْنِ كَهْلَانَ بْنِ سَبَّا^١). قال سيبويه: الميم من نفس الكلمة ((^٢)).
لم يقف البحث على نصٌّ لسيبوه في الكلام عن ميم "مذحج"; بل لم يتعرض سيبويه في كتابه للكلام عن "مذحج". وهذا الموضع من المواضع التي انتقدت على الجوهرى قدیماً وحدیتاً؛ وقد درسه محقق الصحاح الأستاذ: أحمد عطار (ت ١٤٦١هـ) فأجاد ذلك حيث يقول: ((وقد نسب الجوهرى لسيبوه القول بأصل الميم؛ وسيبوه لم يقل ذلك، وإنما ذكر زيادة الميم في مفعول نحو: مجلس ومسجد))^٣. ثم عرض بعد ذلك لكون سيبويه لم ينص على أصل الميم إلا في ماجج ومجن ومعد موئقاً كلامه بالعزول إلى كتاب سيبويه، ثم نقل الإجماع على أن الميم تكون زائدة حال تصدرها ومعها ثلاثة أصول، وأنه لو كانت الميم أصلية وكانت على: فعل، وهو وزن غير موجود في الرباعي، وأنه لم يستدرك أحد هذا الوزن على سيبويه، ثم نقل تخطئة المجد (الفيروز آبادى)، ومحاولة دفاع الفاسدي بدعوى أصل الميم، وأنها خرق للإجماع، وختم حديثه بالنقل عن الزبيدي بأن الجوهرى صحف كلمة: "ماجج"؛ التي نص سيبويه على أصل الميمها^٤.

ومما يستدرك على الأستاذ ما يلي:

أولاً: بقي مما نص سيبويه على أصل الميم في هذه المسألة: مهددا^٥. وهناك أطاحت أخرى، ولكنها لا تدخل في ماهية المسألة محل الدراسة، على ماسيأتي في الاستدراك التالي

(١) الصحيح في شبهأن مذحجا هو: مالك بن أدد بن زيد بن عريب بن يشجب بن كهلان بن سبا، ويحابر أحد أبناءه، وهو مراد بن مذحج لينظر: جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٧ و ٤٠٥، وقد بيّد حسنين نصار على خطأ الجوهرى هنا ومن تابعه (الحاشية من تاج العروس ٢٠٦/٦ "مذحج").

(٢) الصحاح ١/٣٤٠ (مذحج).

(٣) مقدمة الصحاح ص ١٤٣.

(٤) ينظر: مقدمة الصحاح ص ١٤٣ و ١٤٤، وينظر: تاج العروس ٥/٥٨٥ (فتح)، و ٦/٢٠٦ (مذحج).

(٥) ينظر: الكتاب ٤/٢٠٩ و ٢٤.

ثانيًا: أن الإجماع لم ينعقد، فهذه المسألة يمكن تسميتها: حكم الميم وبعدها ثلاثة أحرف والثالث محتمل للزيادة^(١)؛ وهو من جنس ما قبله غير مدغم^(٢) نحو: مأجَحْ؛ وقد نص أبو حيَان فيها على أصالة الميم، لأجل فَكِ الإدغام، وإجازة السيرافي زيادة الميم وكون فَكِ الإدغام جاء شاذًا^(٣).

وحيثند لا تصح دعوى انعقاد الإجماع، بل المتعين النص على أنه قول سيبويه والجمهور.

والأستاذ تابع لليبيدي^(٤)؛ فقد حكى الإجماع في مادة: "مَذْحَجْ"، ولكن الأستاذ لم يتبه لكون الزبيدي يقصد الإجماع على أصالة ميم "مَذْحَجْ"، وذلك أنه قد سبق له عرض الخلاف بين سيبويه والسيرافي في "مأجَحْ" في مادة: "مأجْ".

ثالثًا: التنبية على خطأ الجوهرى في نسبة هذا الرأى لسيبويه موجود قبل تخطئة المجد، فقد نص عليه الصفدي^(٥)، بل نص ابن منظور على أن نسخةً من الصحاح بحاشيتها تخطئة هذه النسبة^(٦)، وبه الفيومي^(٧) (ت ٧٧٠ هـ تقريباً) على ضعف هذا الرأى **رابعاً:** أن ممن وافق المجد: داود زادة^(٨) (كان حيًّا سنة ١٠٢٧ هـ) في الدراللقيط، مع أن كتابه معقود للدفاع عن الجوهرى^(٩).

(١) اقتبس من ارشاد الضرب ١٩٦، ويقارن بالممعن ٢٤٩.

(٢) أضفت هذا القيد لخروج "مجن".

(٣) يد ظر: ارشاد الضرب ١٩٦، وبن ظر: شرح كتاب سيبويه ٥٢١، وفي هاي قول السيرافي: ((فلما قل أن يقول: مأجَحْ ومهدد جاء على الشذوذ... وقول سيبويه أقوى)).

(٤) ينظر: تاج العروس ٦٢٠ (منج).

(٥) نفوذ السهم من ١٣٩.

(٦) لسان العرب ٢٧٨/٢ (نج).

(٧) المصباح المنير ص ٧٨ (منج)، وأورتها في كلامه في: ذحج.

(٨) الدراللقيط ١٥/أ.

(٩) ينظر: رسائل ونحوص في اللغة (التعريف بمخطوطات الدراللقيط) ص ٤٠٥ وما بعدها.



وممن دافع عن الجوهرى: التادلى^١ (ت ١٢٠٠ هـ)؛ محتاجاً بأنه ليس بعد نصٍ سيبويه
مقالات!

خامسًا: لا ريب أن الجوهرى هنا أخطأ في نسبته هذا القول لسيبوبيه، وألمسب لهذا
الخطأ وتعليله، فيحمل أمرين:

١/ التحرير أو التصحيف كما ذهب إليه الزبيدي، ووافقه فيما يظهر الأستاذ: أحمد
عطار، حيث حرّف الجوهرى "مَاجَ" الواردة في نصٍ سيبويه.

٢/ أن سبب ذلك هو: وقوع الجوهرى^٢ في القياس الخاطئ على كلام سيبويه في
ميم "مَاجَ"؛ والتي نصٌ سيبويه على أصالتها، ولما لم يكن لسيبوبيه نصٌ في "مَذْحَجَ"
أجراها الجوهرى على قياس قوله، فنسب لسيبوبيه القول بأصالة الميم، وفات الجوهرى
النظر إلى الاختلاف بين ثالث "مَاجَ" المفتوح وثالث "مَذْحَجَ" المكسور؛ والذي لا يمكن
معه قبول القول بأصالة الميم في "مَذْحَجَ"؛ لعدم التنظير بعكس "مَاجَ" الذي نظيره
موجود، وهو جَعْفَرَ.

سادسًا: لم يعرض الأستاذ لتنظير الجوهرى بمسجد؛ الذي يدلُّ على زيادة ميم
"مَذْحَجَ"؛ وقد ناقشه الزبيدي^٣، والبحث يستظهر أن الواو ساقطة قبل قول الجوهرى:
((قال سيبويه))، لأنَّه لا يمكن التوفيق بين تنظير "مَذْحَجَ" بمسجد والقول بأصالة الميم؛
 مما يدعوه إلى أن يكون القول الذي نسبه الجوهرى خطأ لسيبوبيه عنده مخالفًا لما قرره
من أن ميم "مَذْحَجَ" مثل: ميم مسجد.

٢١ - ولج (ولوج)

قال الجوهرى: ((ولَجَ يَلْجُ وَلُوْجًا وَلِجَةً، أي دخل. قال سيبويه: إنما جاء مصدره ولوجًا
وهو من مصادر غير المتعدى، على معنى ولجتُ فيه))^٤.

(١) الوشاح وتنقيف الرماح ١/١٦٣.

(٢) ينظر: تاج العروس ٦/٢٠٦ (منج).

(٣) الصحاح ١/٣٤٧ (ولج).

= هذا النص بحروفه تقريرًا في سيبويه، حيث يقول: ((وأمّا دخلته دخولاً وولجته ولوجاً فإنما هي ولجت فيه ودخلت فيه، ولكنَّ القى "في" استخفافاً كما قالوا: ^{بَشَّتْ زِيداً} وإنما يريد: ^{بَشَّتْ} عن زيد))^(١). وسبق لسيبوبيه تقرير أن "فُعُولاً" مصدر الفعل غير المتعدي، وذلك حيث يقول: ((وأمّا كلُّ عملٍ لم يتعدَّ إلى منصوب فإنه يكون فعله على ما نكرنا في الذي يتعدّ، ويكون الاسم "فَاعِلاً" والمصدر يكون "فُعُولاً"؛ وذلك نحو: قَدَّ فَعُودُّا وهو قاعِد...))^(٢)، وهو هنا يعلّل مجيء مصدر الفعل "ولج" الذي ظاهره التعدي في "ولجته" على "فُعُول" ^(٣).

وكون "ولج" متعدياً بواسطة حرف الجرّ مذهب نسبه ابن سيده لسيبوبيه، ونسب للمربي تعديه دون بواسطة حيث يقول: ((فأمّا سيبويه فذهب إلى إسقاط الوسيط، وأمّا محمد بن يزيد فذهب إلى أنه متعدٌّ بغير وسيط))^(٤).

٢٢ - ولج (دولج)

قال الجوهرى: ((والتَّوْلَجُ: كِنَاسُ الْوَحْشِ الَّذِي يَلْجُ فِيهِ مثَلُ الدَّوْلَجِ. قال سيبويه اللهم مبدلة من الواو، وهو فَوْعَلٌ لَأَنَّكَ لَا تَكَادْ تَجِدُ فِي الْكَلَامِ تَفْعَلٌ ^(٥) اسْمًا، وَفَوْعَلٌ كَثِيرًا))^(٦). سبق للجوهرى النص في "دلج" على أن ((الدَّوْلَجُ: كِنَاسُ الْوَحْشِ، مثَلُ التَّوْلَجِ))^(٧) وأمّا ما ذكره الجوهرى هنا فقد وقف البحث عليه في كتاب سيبويه منقولاً عن الخليل مع تسليم سيبويه له، وذلك أن سيبويه ينقل عن شيخه الخليل أن "تَوْلَجًا" أصلها: وَلَجٌ، فأبدلت العرب الواو تاء، وأن وزن "تَوْلَج": فَوْعَلٌ، وليس تَفْعَلًا، لكثرة الأول دون الثاني ومن

(١) الكتاب ٤ / ١٠.

(٢) الكتاب ٤ / ٩.

(٣) ينظر: الكتاب ٤ / ٩، وينظر: السيرافي التحوي ص ٧٠ و ٧١، والتكميلة ص ٥٢٢.

(٤) المحكم ٧ / ٢٨٣ (ولج)، وينظر: تاج العروس ٦ / ٢٦١ (ولج).

(٥) كذا، والإعراب يقتضي نسبه بتتجدد، ولكنَّ فيما يظهر على الحكمة.

(٦) الصحاح ١ / ٣٤٨ (ولج).

(٧) الصحاح ١ / ٣٥٥ (دلج).



ثم يُسِّين سيبويه أنَّ من العرب من يقول في تولج: دولج؛ وذلك حيث يقول: ((ورِبَّما أبدلوا التاء إذا التقت الواوين؛ كما أبدلوا التاء فيما مضى، وليس ذلك بمطرد ولم يكُن في هذا كما كثُر في المضموم؛ لأنَّ الواو مفتوحة فشَّيَّهْتُ بواو وَحَدِّ، فَكما قلت في هذه الواو وكانت قد تبدل منها كذلك قلت في هذه الواو، وذلك قولهم: تَوْلُجٌ، زعم الخليل أنَّها فَوْعَلٌ، فأبدلوا التاء مكان الواو وجعل فَوْعَلًا أولى بها من تَفْعَلٍ لأنَّ لا تكاد تجد في الكلام تَفْعَلًا اسمًا وفَوْعَلًا كثيرًا.

ومنهم من يقول: دولج يريده تولج^(١)، وهو المكان الذي تلح فيه^(٢).
إلا أنَّ في اكتفاء الجوهري بقوله: إن "دَوْلَجًا" مثل: "تَوْلُجٌ"، إعراض عمًا في كتاب سيبويه من أنَّ الدال في "دوَلَج" بدل التاء، ففيه: ((كما قالوا: الدولج في التولج؛ فأبدلوا الدال مكان التاء^(٣)، وكُون دال "دولج" مبدلًا من تاء "تولج" التي هي بدورها بدل من الواو؛ هو تحرير كلام سيبويه في دولج وتولج؛ وهو ما نصَّ عليه السيرافي^(٤)، والفارسي^(٥)، وغيرهما^(٦).

بقي أن يقال: إن ((بعضهم))^(٧) ذهب إلى أنَّ تاء "تولج" مزيدة، وذُّسب هذا للبغداديين^(٨)، وللكوفيين^(٩)، وزُونها عندهم: تَفْعَل، وأمامًا عند البصريين فوزنها: فَوْعَل

(١) كذلك، والإعراب يقتضي نصبه ييريد، ولكنه فيما يظهر على الحكایة.

(٢) الكتاب ٤/٣٣٢.

(٣) الكتاب ٤/٣٦٦.

(٤) ينظر: شرح كتاب سيبويه ٥/٢٢٢.

(٥) التعليقة ٥/٩.

(٦) يد ظر: سر صناعة الإعراب ١/١٠٥، وأ. مالي ابن الشجري ٢/٢٦٦، والممعتع ١/٣٨٣، وشرح الشافية ٣/٢٢٩ و ٣/٢٢٨.

(٧) شرح كتاب سيبويه ٥/٢٢٢.

(٨) سر صناعة الإعراب ١/١٤٦، وشرح المفصل ٩/١٥٨، والممعتع ١/٣٨٣.

(٩) شرح الشافية ٣/٨١، وار شراف الضرب ١/٢١٥، ونصَّا بن الأబاري^(١٠) (أعلى أنَّه فَوْعَلَ عَلَى رأي البصريين) الزا هر ١/١٦٨، ولم يعرض لرأي الكوفيين؛ ولعلَّ لا قول الم Shi'ib ١/٢٣٨ هـ في المصادر

٢٤ - ذر

قال الجوهرى ((الذرّاح)) بالضم: دُوَيْهَ حِمَاء مُنْقَطَة بِسْوَادٍ تطير، وهى من السُّمُوم، والجمع الذَّارِيج. وقال سيبويه: واحد الذَّارِيج ذَرَحْ. وليس عنده في الكلام فُعُولٌ واحدة. وكان يقول سَبُوح وَقَدْوَس بفتح أوائلهما (١).

= ما قاله الجوهرى في مفرد الذاريج نقله عن خاله: الفارابي (٢) (ت ٢٥٠ أو ٣٧٥ هـ) الذي نقل ذلك دون تصريح عن ابن قتيبة (٣)، وهو اجتزاء غير جيد لكلام سيبويه، فقد نص سيبويه على أنَّ الواحد ذَرَحْ. وأنَّه يكون على ذَرَحْ وذَرْوَحْ وذَرْنُوحْ؛ واقتصر ابن قتيبة والفارابي والجوهرى على الأولى؛ وهو غريب، والجمع: ذَرَاحْ - ولم يذكره الجوهرى؛ ولا ابن قتيبة ولا الفارابي - وذَرَارِيج بباء التعويض؛ حيث يقول: (وتقول في تحبير ذَرَحْ: ذَرِيجْ، وإنما ضاعفت الراء والراء كما ضاعفت الدال في مَهْنَد، والدليل على ذلك: ذَرَاحْ وذَرْوَحْ، فضاعف بعضهم الراء، وضاعف بعضهم الراء والراء وحرته ككتسirك للجمع ألا ترى أنَّ من لغته ذَرَحْ يقول: ذَرَاحْ... وإن شئت قلت: ذَرِيجْ عِوْضًا كما قالوا: ذَرَارِيجْ، وكراهوا ذَرَاحْ وذَرِيجْ للتضعيف والتقاء الحرفين من موضع واحد، وجاء العِوْض فلم يغِروا ما كان من ذلك قبل أن يجيء، ولم يقولوا في العِوْض: ذَرِيجْ فيكون في العِوْض على ضربٍ وفي غيره على ضربٍ، ومع ذَرَاحْ فَعَاعِيلَ وَفَعَاعِيلَ أكثر وأعرف من فَعَالَلَ وَفَعَالِيلَ (٤)، وقال: ((والذَّرْنُوح من ذَرَاحْ؛ وهو فُعُونُولٌ (٥)).

وأما مسألة فُعُول وضبط سيبويه لسَبُوح وَقَدْوَس، فستبحث في المادة الآتية.

١. قيل على قول الفراء في التوراة: إنه تَمْعِطة (الزاهر - سابق). وبين ظر: معاني القرآن وإعرا به ٣٧٤.

٢. مجالس العلماء ص ٩٥.

٣. ينظر التبيه الوارد نهيلية المسألة.

٤. الصحاح ٣٦٢ و ٣٦٣ (ذر).

٥. ديوان الأدب ١/٣٣٨.

٦. ينظر: أدب الكاتب ص ٥٨٩ و ٥٩٠.

٧. الكتاب ٣/٤٣٢، وينظر: شرح كتاب سيبويه ٤/١٧٩ و ١٨٠، وفهارس كتاب سيبويه ص ٦٥٦.

٨. الكتاب ٤/٣٢٢.

وهنا تنبية: وهو أنه قد وقع في نص الصحاح المحقق - وكذا في طبعة بولاق^١ - في صدر مادة: "ذر" المنقول في بداية المسألة سقط بمقدار كلمة واحدة وقد استدرك السقط نقلًا عن مخطوطتين للصحابي . والنصل بعد استدراك السقط: ((الذرّاح [والذرّوح^٢] [٣]). بالضم: دَوْيَة...)).

٤٤ - سبع

قال الجوهرى: ((وسبوح من صفات الله. قال ثعلب: كل اسم على "فعولٍ" فهو مفتوح الأول، إلا السبوح والقدوس، فإنضم فيهما أكثر، وكذلك الذروح^٤). وقال سيبويه: ليس في الكلام فعولٌ بوحدة^٥). ما ذكره الجوهرى في هذا النص، وفي مادة: "ذر" المتقدمة، ومادتي: "قدس" وستق، نقل عن خاله: الفارابي^٦، وهو بدوره - وإن لم يصرح - ناقل عن ابن قتيبة^٧، ولعله أول من نسب هذا القول لسيبوه، وقد وهم فيه من الغريب أن ابن السيدات^٨ ها لم ينتقده في القسم الثاني من الاقتضاب، ونسبة السيوطي^٩ لسيبوه متابعة لابن قتيبة والجوهرى.

وهذا القول المنسوب لسيبوه ليس قول سيبويه إلا في جزء يسير جداً، وقد ظاع هذا الجزء اليسير في خضم هذا القول المفعم بالوهم، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

(١) الصحاح (طبعة بولاق) ١٧٣ / ١ (ذر).

(٢) استدراك من الصحاح (نسخة جامعة الملك سعود) ٥٠ / ١. وص ٩٧ من نسخة موقع ويكي مصدر. ويدل على سقوطها إيراد الجوهرى لكلمة "ذرّوح" في المقام: سبع (٣٧٢ / ١)، وسيأتي في البحث). وقس ٩٦١ / ٢، وأحال فيها على ذرّوح، قائلاً: ((وقد ذكرناه في ذرّوح !)). وستق (٤ / ١٤٩٤).

(٣) الفصحى ص ٢٩٢، وبعده: ((الواحد الذارج بالضم، وقد يفتح)). وينظر: ما تلحن فيه العامة ص ١١٢.

(٤) الصحاح ٣٧٢ / ١ (سبح)، وفي تاج العروس (٦ / ٣٧٤) "ذر" تفسير "بوحدة" بمعنى: فقط والبنة.

(٥) ديوان الأدب ٣٣٨ / ١، والا جوهرى يروى "ديوان الأدب" عن خاله. يذكر مع جم الأدب ٦١٨ / ٢ و ٦١٩ . وديوان الأدب ٣٨ / ١.

(٦) أدب الكاتب ص ٥٨٩ و ٥٩٠، وينظر تعليق محققته.

(٧) المزهر ٥١ / ٢، وينظر: ١٠٠.

١/ نص سيبويه على أن سبّوحاً وقدوساً صفتان على وزن: فَعُول؛ ونص أيضاً على أنّهما يأتيان على زنة: فَعُول؛ حيث يقول: ((ويكون على فَعُولٍ فيهما، فالاسم: سَفُودٌ وكَلْوبٌ، والصفة: سَبَوحٌ وَقَدْوَسٌ، ويكون على فَعُولٍ قالوا: سَبَوحٌ وَقَدْوَسٌ؛ وهو ما صفة))^١؛ وقد نقل الجرمي^٢ (ت ٢٥٥ هـ) عن سيبويه الضبيطين^٣، وكذا ورداً بالضبيطين عند ابن السراج^٤. ونص ابن جنّي على أنه قول سيبويه فيهما^٥.

وبناء عليه يُعدّ واحداً كلّ من نسب لسيبويه أنه لم يرو في قدوس وسبوح إلا فتح فائهما.

٢/ ما نسبة الجوهرى وغيره لسيبويه من أنه ليس عنده "فَعُول" في الكلام، وهم آخر، والنصل السابق من كتاب سيبويه يكشفه.

وممّا ينبيء عليه - وقد نص عليه ابن خروف^٦ - أن سيبويه لم يذكر في كلامه في الأبنية "فَعُولاً" اسمًا، مع أنه ذكر في التحقيق (التصغير): ذُرُوح؛ وقد سبق إيراد نصّه في "ذرّ".

وقد نبه الزييدي^٧ نقلًا عن شيخه الفاسدي^٨ إلى وهم الجوهرى^٩ فيما نسبه إلى سيبويه حيث يقول: ((قال شيخنا: وقوله: وكان يقول: سَبَوحٌ وَقَدْوَسٌ، بفتح أوائلهما صريح في أن سيبويه لم يَحْكِ الضمَّ فيهما. وليس كذلك، فإن سيبويه حَكَى الضمَّ فيهما مع الفتح أيضًا، كما في الكتاب وشرحه، والعجب من المصنف كيف غَفَلَ عن التنبيه عن هذا))^{١٠}.

(١) الكتاب ٤/٢٧٥؛ وفيه: ((سبوحٌ))، وعمّ شديد الباء تطبيع.

(٢) نقله السخاوي في: سفر السعادة ١٤/٤١٥ و ٤١٦.

(٣) الأصول ٣/٢١٠.

(٤) المحاسب ٢/٣٧ و ٣٨.

(٥) ينظر: حلشية ساخته من الكتاب ل ٧٩/أ.

(٦) تاج العروس ٦/٣٧٤ و ٣٧٥ (ذرّ)، وينظر: القاموس المحيط ١/٣٣٨ (سبح)، و ٧٧٣ (قس).



وممّن تابع الجوهرى في وهمه: ابن منظور^(١)، والصفانى^(٢) (ت ٦٥٠ هـ)، وتابعه السخاوي في نسبة إنكار الضم لسيبوه في كلامه على سبُوح^(٣)؛ ثم عاد وصرّح بأنّه لا يصحُّ عن سيبوه في قدُوس^(٤)).

وهذا القول الذي نسبه الجوهرى لسيبوه في "سبُوح" و"قدُوس"؛ قد نُقل عنه أيضًا في غير المصادر اللغوية^(٥)، والصواب ما تقدم.

وأما عن تعليل وقوع الوهم في نسبة هذا القول لسيبوه فقد يكون سببه وقوع سقط في النسخة التي رجع لها ابن قتيبة من كتاب سيبوه، ويكون ذرُّوحًا بفتح أوله، وهو احتمال ممكِّن إلا أن ذرُّوحًا لم يضبط في كتاب سيبوه إلا بضمِّ أوله.

وقد يقال: إن هذا وهم من ابن قتيبة، وليس ذلك بغرير فقد وقع في عدَّة أوهام فيما نسبه لسيبوه على ما نصَّ عليه ابن السَّيِّد^(٦)، وتابعه من تابعه على هذا الوهم.

ويغلب على الظنِّ أن منشأ الوهم هو وجود سقط في نسخة ابن قتيبة من كتاب سيبوه، والخطأ في ضبط الوزن الوارد في قول سيبوه عقب كلامه عن سبُوح وقدُوس - بفتح أولهما وضمِّه - ((وليس في الكلام فُعُول، ولا شيء من [هذا]^(٧) النحو لم نذكره)).^(٨) والله أعلم.

(١) ينظر: لسان العرب ٤٧٢ / ٢ (سبُوح)، وينظر: ٦ / ١٦٨ (قدُوس).

(٢) ينظر: العباب (نسخة حاسوبية) ص ١٦٤ (قدس).

(٣) سفر السعادة ١ / ٢٩٤، وينظر تعليق محققه.

(٤) سفر السعادة ١ / ١٥، وينظر تعليق محققه.

(٥) ينظر مثلاً في التصرّيف بالنقل عن الجوهرى: شرح النووي لصحيح مسلم ٤ / ٢٠٤، وفي النقل دون تصريح: الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٣٩٠.

(٦) ينظر مثلاً: الاقتضاب ٢ / ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩.

(٧) تتمة من الكتاب طبع باريس ٢ / ٣٥٨، وبولاق ٢ / ٣٢٩.

(٨) الكتاب ٤ / ٢٧٥، ويقارن بضبط الوزن في أدب الكاتب (ص ٥٨٩).

وختاماً: نص ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) على أنه لم يرد على فَعُول إلا ثلاثة ألفاظ: سبُوح وقدُوس - ويفتحان - وذرُوح - وأورد بعض لغاته، ومنها: ذرُوح^(١) -، وبقي مما جاء على فَعُول: فُرُوح، وستوق، وشبوط، وسُفُود وكُلوب؛ وحُكى فيها جميعاً الفتح^(٢).

٢٥- سرح

قال الجوهرى: ((والسِّرْحَان: الذئب. وهذِيلٌ تُسَمَّى الأَسَد سِرْحَانًا... قال سيبويه: النون زائدة، وهو فِعْلَانٌ والجمع سَرَاحِينٌ))^(٣).

= ما ذكره الجوهرى هو مجموع كلام سيبويه، وذلك أن سيبويه نصوصاً في زيادة نون سِرْحَانٍ، وأن وزنه: "فِعْلَانٌ"؛ أهمها قوله: ((هذا باب ما لا ينصرف في المعرفة مما ليست نونه بمنزلة الألف التي في نحو: بشري، وما أشبهاها.

وذلك كل نون لا يكون في مؤنثها فَعُلَى وهي زائدة؛ وذلك نحو: عُرْيَانٌ وسِرْحَانٌ وإنسانٌ، يدلّك على زيادته سراح؛ فإنما أرادوا حيث قالوا: سِرْحَانٌ أن يبلغوا به باب سِرْدَاح^(٤)، وأصرّحها قوله: ((ويكون على فِعْلَانٌ اسمًا نحو: ضِبْعَانٌ وسِرْحَانٌ وإنسانٌ))^(٥)، ونص سيبويه على أن جمعه: "سراح"؛ وقد تقدّم في النص السابق؛ ولم يذكره الجوهرى، و"سرَاحِين" وهو ما نص عليه الجوهرى؛ وقد ورد في عدة نصوص؛ منها قوله: ((وذلك قوله: سُرِيَحِينٌ في سِرْحَانٌ؛ لأنَّك تقول: سَرَاحِينٌ))^(٦).

وكعاده الجوهرى فإنّه يجمع كلام سيبويه في الكلمة، ويخلّصه بعبارة موجزة.

(١) ينظر: ليس في كلام العرب ص ٢٥٠.

(٢) ينظر: تاج العروس ٦ / ٤٤٨ (سبح)، وفي ٦ / ٣٧٤ (ذرح) نص على أنها ثلاثة!.

(٣) الصحاح ١ / ٣٧٤ و ٣٧٥ (سرج).

(٤) الكتاب ٣ / ٢١٦، وينظر: ٤ / ٣٢٦.

(٥) الكتاب ٤ / ٢٥٩.

(٦) الكتاب ٣ / ٤٢١، وينظر: ٣ / ٤٢٤، ٤٩٦، ٤٢٤، ٤٩٦، ٤٢٤، ٤٢١ / ٣.

٢٦ - صبح

قال الجوهرى: ((ولقيته صباحاً وذا صباح، وهو ظرفٌ غير متمكّن، وأما قول الشاعر
أنس بن نهيكٍ:

عَزَمْتُ عَلَى إِقَامَةِ ذِي صَبَاحٍ
لَا مِرْ مَا يُسَوِّدُ مَنْ يَسُودُ

فلم يستعمله ظرفاً. قال سيبويه: هي لغة لخثعمٍ)) .١٠

هذا النصُّ بحروفه تقريراً في سيبويه، حيث يقول بعد أن قرر ظرفية بعض الكلم:
((وذو صباح بمنزلة ذاتٍ مرتّة، تقول: سير عليه ذا صباح، أخبرنا بذلك يومنا عن العرب، إلا
أنه قد جاء في لغة لخثعم مفارقاً لذاتٍ مرتّة وذاتٍ ليلة، وأما الجيدةُ العربيةُ فأن تكون
بمنزلتها، وقال رجل من خثعمٍ:

عَزَمْتُ عَلَى إِقَامَةِ ذِي صَبَاحٍ
لِشَيْءٍ مَا يُسَوِّدُ مَنْ يَسُودُ

فهو على هذه اللغة يجوز فيه الرفع)) .١١

وفي نصِّ الجوهرى تسمية قائل البيت، واختلاف يسير في روایته فيه لشيءٍ بدل
لأمرٍ.

الخاتمة: درس هذا البحث سبعاً وعشرين مسألة ضمن ست وعشرين مادة، هي
جميع المواقع التي أورد الجوهرى لسيبوه فيها نطاً أو قوله أو رأياً في الجزء الأول من
الصالح، مؤثقاً كلَّ ما عرضه من كتاب سيبويه، مدققاً في كلِّ ما نسبه الجوهرى
لسيبوه، مبيناً ما كان من ذلك صواباً، وما كان وهماً، موظحاً متابعي الجوهرى فيه،
ومحاولاً الكشف عن مصدر الجوهرى في ذلك الوهم، مبيناً في الوقت نفسه ما انفرد به
الجوهرى من ذلك، وسبب الواقع فيه، مجتهداً في كلِّ ذلك قدر الوعي والطاقة.

(١) الصاحب/٢٨٠ (صبح).

(٢) الكتاب/٢٢٦ و ٢٢٧.

أهم النتائج:

خلص البحث إلى جملة من النتائج، وقد كان من أهمها:

- ١- اهتم الجوهرى بالإفادة من نصوص سيبويه في معجمه، وتطرizه بأقوال سيبويه وآرائه.
- ٢- يستظهر البحث تضريقاً بين قول الجوهرى: ((قال سيبويه))، والتي تعنى: التسليم والمتابعة، وقوله في غير عرض الأقوال: ((وقال سيبويه))، والتي تعنى: عدم التسليم وعدم المتابعة.
- ٣- أصحاب الجوهرى في جلّ ما نسبه لسيبويه، ولم يقع له الخطأ والوهم فيما عرضه البحث إلا في خمس مواد، وهي: "نقب"، "ثلث"، "مذحج"، "ذرح"، "سبح".
- ٤- وقع الجوهرى في اجتزاء كلام سيبويه في "نيب" و"ذرح"، ووقع له في "عد" ليراد حكاية قوله غير وارد في كتاب سيبويه، ولم يحسن تحرير قوله في دوج وتوج في: "ولج".
- ٥- أجاد الجوهرى في تلخيص نصوص سيبويه في أكثر مواد البحث.
- ٦- كان الجوهرى يستقى ما ينسبه لسيبويه كثيراً بالنقل عن الكتاب مباشرة، وأصاب في أكثر ذلك، إلا أنه قد تابع بعض المتقدمين في بعض ما ينسبه وهما سيبويه ولم يقف على النص في كتاب سيبويه، وهذا من تغليب جانب الرواية والنقل عن النقل، ولكنه ليس صحيحاً هنا لوجود الكتاب الذي ينقل عنه هؤلاء العلماء.
- ٧- مما انفرد الجوهرى به ما ينسبه لسيبويه في "نقب"، ومثلها: "ولي"، وعلى الرغم من تسليم المصادر به، فلم يوافقه البحث.
- ٨- تابع الجوهرى عدد من اللاحقين عليه من معجميين وغيرهم ثقةً بذقل الجوهرى، وهو غير صواب، لوجود الأصل المنقول عنه، ومنه يعلم عدم وقوف بعض العلماء على كتاب سيبويه.

٩ - تعقب بعض العلماء الجوهرى في بعض ما نسبه لسيبوه، وتركوا كثيراً من الموضع دون تعقب، وقد قام البحث بالتوثيق والتدقيق والتعليق راجياً التوفيق.
والحمد لله أولاً وأخرأ، وصلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَاحْبِهِ، وَمَنْ تَابَعَ
بإحسان.

* * *

ثبات المصادر والمراجع

- أدب الكاتب: لابن قتيبة، تحقيق: محمد الدالي، ط٢، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ارشاد الضرب من لسان العرب: لأبي حيان، تحقيق: د. رجب عثمان محمد، ط١، مكتبة الخاجي - القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ارشاد الضرب من لسان العرب: سخنة الخزانة العامة بالرباط.
- أسماء المصادر: صلاح الدين الزعبلاوي، مجلة التراث العربي - دمشق، العدد ٢٠، ذوالقعدة ١٤٠٥هـ - تموز (أيليو) ١٩٨٥م.
- إصلاح المذاهب: لا بن الحسين، تحقيق: أحد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، ط٤، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٧م.
- الأصول في الذرائع: لا بن الحسن، تحقيق: د. عبد الحسين الفطلي، ط٣، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الإغفال: للفارسي، تحقيق: د. عبد الله بن عمر براهمي، المجمع الفقهي - أبوظبي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- الاقتضاب في شرح أدب الكاتب: لا بن الحسين، تحقيق: مصطفى السقا ود. حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية - القاهرة، ١٩٩٦م.
- أمالى ابن الشجيري، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، ط١، مطبعة المدى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٨م.
- الاذتصار لسيوطى على المبرد: لا بن ولاد، تحقيق: د. زهير عبد الله حسن سلطان، ط١، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- أوضاع المسالك إلى ألفية ابن ما لك: لا بن هشيم الأنباري، تحقيق: بركات يوسف بود، دار الفكر - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- البارع في اللغة: لفالي، تحقيق: هاشم الطعان، ط١، مكتبة النهضة - بغداد، دار الحضارة العربية - بيروت، ١٩٧٥م.

- تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدي، تحقيق: عبد السنار أحمد فراج وآخرين، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- الت بصرة والتنكرة: لصimirي، تحقيق: د. فتحي أحد مدعى لـ الدين، ط١، جامعه أم القرى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- تذكرة الذهاب: لأبي حيان، تحقيق: د. عفيف عبد الرحمن، ط١، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٢م.
- التنليل والتكميل: لأبي حيان، مصورة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- التعليقة على كتاب سيبويه: للفارسي، تحقيق: د. عوض بن حمد القوزى، ط١، مطبعة الأمانة - القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- فضييرغر بيب ما في كتاب سيبويه من الأنبية: لأبي حاتم البصري جستاني، تحقيق: د. محمد مختار مد الدالي، ط١، دار البشرى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- التكميلة: للفارسي، تحقيق: د. كاظم بحر المرجان، ط٢، عالم الكتب - بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: لناظر الجيش، تحقيق: أ. علی محمد فاخر وآخرين، ط١، دار السلام - القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- التنبيه والإيضاح عمما وقع في الصدح: لابن بري، تحقيق: مصطفى حجازي وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٠م.
- هذيب اللغة: للأزرهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وآخرين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأباء والنشر، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان: لقرطبي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرين، ط١، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- جمهرة أنساب العرب: لابن حزم، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٥، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٢م.
- جمهرة اللغة: لابن دريد، تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٨٧م.

- حاشية الخضري على شرح الشيخ ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تعلق: تركي فرحان المصطفى، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- حاشية محمد بن علي الصبان على شرح علي بن محمد الأشموني لألفية ابن مالك، دار الفكر.
- الحجة لا قراء لسبعة: لفارسي، تحق يق: بدرالدين ق هوجي و بشير حجو جاتي، ط١، دار الامامون للتراث - دمشق، ١٤٠٧هـ.
- الخصائص: لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، عالم الكتب - بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ادرا لا قيط في أ غلاظ القاموس المحيط: لدواود زادة، نسخة لي بزج (المكتبة الرفاعية)، متاح على الرابط المختصر: <http://goo.gl/gxFAQ>
- درة الغواص في وهله الغواص: للحريري، مطبعة الجوائب - القسطنطينية، ١٢٩٩هـ.
- د قالق لا تصريف: للا مؤدب، تحق يق: د. حاتم صالح لضامن، ط١، دار الشنايدر - دمشق - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ديوان الأدب: لفارابي، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، ط مجمع اللغة العربية.
- رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ: د. إبراهيم لسامرائي، ط١، مكتبة المنار - الزرقاء، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الظاهر في معاني كتابات ابن باری، تحق يق: د. حاتم صالح لضامن، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧هـ.
- سر صناعة الإ عرب: لا بن جنی، تحق يق: د. حسن هنداوي، ط٢، دار الفارابي - دمشق، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- سفرا لسعادة وسفير الإ فادة: للسحاوی، تحقيق: د. محمد أح مد الدالی، ط٢، دار صادر - بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- لسيرافي النجوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه: دراسة وتحقيق: د. عبد المنعم فائز، ط١، دار الفکر - دمشق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. [جزء من شرح لسيرافي، ويبدأ من الجزء الرابع من ط١، هارون، وينتهي في منتصفه].

- شرح الأشموني على ألفية ابن ما لك، تحقق يق: محمد مهدي ا لين عبد الحميد، ط١، دار الكتب العربي -لبنان، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م.
- شرح الشهيل: لا بن ما لك، تحقق يق: دعاء لرحمنا سيد ود. محمد بدوي المخنون، ط١، هـ جر للطباعة، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- شرح الرضي لكافية ابن الحاچب، والقسم الأول، تحقق يق: د. حسن الحفظي، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- شرح شافية ابن الحاچب: للرضي، تحقيق: محمد نورالحسين وأخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- شرح عيون كتاب سيبويه: للمجري طي القرطبي، تحقق يق: د. عباس بدري بداعي اللطف يفعى بدري به، ط١، مطبعة حسان - القاهرة، ٤٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- شرح كتاب سيبويه: لسيرافي، تحقق يق: أحمـد حسن مهـدى وـلي سـيـدـىـلـىـ، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- شرح المفصل: لابن عيسى، عالم الكتب - بيروت، مكتبة المتتبـى - القاهرة.
- شرح التووسي لصحيح مسلم، ط١، دار الريان للتراث - القاهرة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- الصاحح (تاج اللغة و صحاح العربية): لا جوهري، تحقق يق: أـحمدـعـبدـالـغـفورـعـ طـارـ، ط٤، دار العـلمـ للملايين - بيروت، ١٩٩٠.
- الصحاح طبع بولاق، ومعه كتاب: الوشاح وتنقيف الرماح في رد توهيم المجد الصحاح: للتادـيـ.
- الصحاح: مخطوطـةـ جـامـعـةـ الملـكـ سـعـودـ برـقمـ ٢٨١ـ.
- الصحاح: نسخـةـ موقعـ ويـكيـ مصدرـ؛ متـاحـ عـلـىـ الـرـابـطـ المـخـتصـ: <http://goo.gl/VeDfu>
- العـبابـ الزـاـ خـرـ وـالـ بـاـ بـاـ فـاـ خـرـ لـصـاغـيـ، جـ. تـحـقـيقـ دـ. فـيـرـ مـهـدـ حـسـنـ، طـ١ـ، مـطـبـعـةـ المـجـ معـ العلمـيـ العـراـقـيـ، ١٣٩٨ـ هـ - ١٩٧٨ـ مـ.
- العـبابـ (ـسـخـةـ حـلـسـوـيـةـ)ـ؛ متـاحـ عـلـىـ مـوـقـعـ الـوـرـاقـ.

- عند قود الزروا هر في ا لصرف:للقو شجي, تحق يق:أد.أحد مدعي في, ط١, دار الكتب الـ مصرية - القاهرة, ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- كتاب العين:للخليل, تحق يق:د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي [مصورة].
- الغريب الـ مصنف:أبي عبد الله, تحق يق:د.محمد المختار العـ بدـي, ط٢, دار مصر للطبـعة - الـ قـاهرة, ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- فتح الأـ قـالـ وـ حلـ الإـ شـكـالـ بـ شـرـحـ لـامـ يـةـ الـ أـلـافـ عـالـ الـ أـلـافـ مـشـهـورـ بـاـ لـ شـرـحـ الـ كـبـيرـ بـ لـ بـ حـرقـ, تـحقـ يـقـ:ـ دـ مـصـطـفـ النـحلـسـ, ١٤١٤هـ - ١٩٩٣مـ.
- الفصـحـ:لـ تـعلـبـ, تـحقـ يـقـ:ـ دـ عـاطـفـ مـذـكـورـ, دـارـ الـ مـعـارـفـ - الـ قـاهـرةـ.
- فـ هـارـسـ كـ تـابـ سـيـيـوـهـ وـ درـ سـةـ لـهـ:ـ مـحـ مـدـعـ بـ الـ خـالـقـ عـضـيـمـ, طـ١ـ, مـطـعـةـ الـ سـعـادـةـ, ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥مـ.
- الـ قـامـوسـ الـ مـ حـيـطـ:لـ لـفـيـرـ وـ زـآـ بـاديـ, إـ عـادـ وـ تـقـيـمـ:ـ مـحـ مـدـعـ بـداـ لـ رـحـمـنـ الـ مـرـ عـشـلـيـ, طـ١ـ, دـارـ إـحـيـاءـ الـ تـرـاثـ الـ عـرـبـيـ وـ مـؤـسـسـةـ الـ تـارـيخـ الـ عـرـبـيـ - بـيـرـ وـتـ, ١٤١٧هـ - ١٩٩٧مـ.
- الـ كـاملـ:لـ لمـبـرـدـ, تـحقـ يـقـ:ـ دـ مـحمدـ أـحـمـدـ الدـالـيـ, طـ٣ـ, مـؤـسـسـةـ الرـسـالـةـ, ١٤١٨هـ - ١٩٩٧مـ.
- الـ كـ تـابـ:ـ لـ سـيـيـوـهـ, تـحقـ يـقـ:ـ عـ بـداـ لـ سـلـامـ مـحـ مـدـ هـارـونـ, طـ٣ـ, مـكـتـبةـ الـ خـانـجـيـ - الـ قـاهـرةـ, ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨مـ.
- الـ كـتابـ (ـ نـسـخـةـ اـبـنـ خـرـوفـ).ـ الـ مـكـتبـةـ الـ وـطـنـيـةـ بـيـارـيسـ, بـرـقـمـ ٦٤٩٩ـ ARABEـ.
- الـ كـتابـ:ـ تـحقـ يـقـ:ـ هـرـتـوـغـ دـرـنـرـغـ, الـ مـطـبـعـ الـ عـامـيـ - بـيـرـ وـتـ, ١٨٨٨مـ.
- الـ كـتابـ:ـ طـبـعـ بـولـاقـ, ١٢١٦هـ.
- لـ حـنـ الـ عـوـمـ:ـ لـ لـزـ بـ يـديـ, تـحقـ يـقـ:ـ دـرـ مـظـانـ عـ بـداـ تـوـابـ, طـ٢ـ, مـكـتـبةـ الـ خـانـجـيـ - الـ قـاهـرةـ, ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠مـ.
- لـ سـانـ الـ عـرـبـ:ـ لـ اـبـنـ مـنـظـورـ:ـ دـارـ صـادـرـ - بـيـرـ وـتـ.
- لـ يـسـ فيـ كـلـامـ الـ عـرـبـ:ـ لـ اـبـنـ خـالـوـيـهـ, تـحقـ يـقـ:ـ أحـ مـدـعـ بـدـاـ الـ غـ فـورـ عـ طـارـ, طـ٢ـ, مـكـةـ الـ مـكـرـمـةـ, ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩مـ.

- ماتلحن فيه العامة: لا كسانى، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، ط١، مكتبة الخانجي - القاهرة، دار الرفاعي -الريلض، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م.
- ما فهمه لغة يرجحه من كتاب سيبويه: د. صبحي عبد الحميد عبد الكريم، ط١، دار الطباعة المحمدية - القاهرة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ما ينصرف وما لا ينصرف: لزجاج، تحقيق: د. هدى القراءة، ط٢، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- مجالس القرآن: لأبي عبيدة، تحقيق: د. محمد فؤاد سرakin، مكتبة الخانجي - القاهرة.
- مجالس ثعلب: لثعلب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، النشرة الثانية، دار المعارف - القاهرة.
- مجالس العلاماء: تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- المحكم والمحيط الأعظم: لا بن سيده، تحقيق: عبد الله ستار أحmed فراج وآخرين، ط١، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ١٣٧٧ هـ - ١٩٨٥ م.
- مختار تذكرة أبي علي الفارسي وتهذيبها: لا بن جني، تحقيق: د. حسين أحمد بوعباس، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠ م.
- المخصص: لا بن سيده، قيم له: د. خليل إبراهيم جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان: لا بن هشيل اللخمي، تحقيق: مأمون محبي الدين الجنان، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- المذكر والمؤنث: لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: د. حاتم رضا لضامن، ط١، مطبوعات مركز جمعة الماجد، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- المذكر والمؤنث: للمبرد، تحقيق: د. رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهاشمي، مطبعة دار الكتب، القاهرة - ١٤٢٠ هـ - ١٩٧٠ م.
- المزهر: للسيوطى، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك وآخرين، ط٣، دار التراث - القاهرة.

- المسائل البصرية: للفارسي، تحقيق: محمد مطر المطر، ط١، مطبعة المدنى - القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- المسائل الحلبية: للفارسي، تحقيق: د. حسن بن نداوى، ط١، دار الفخر - دمشق، دار المدارسة - بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- المسائل الشيرازية: للفارسي، تحقيق: د. حسن بن نداوى، ط١، كنوز إشبيليا - الريليس، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- المساعدة لتبسيط الفوائد: لابن عقبة، تحقيق: د. محمد مدكا مل بر كات، دار الفكر - دمشق - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- المصباح المنير: للفيومي، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.
- معاني القرآن للأخفش، تحقيق: دهدى قراعة، ط١، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- معاني القرآن واعرا به: للزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل شلبي، ط١، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأئمة: لياقوت الحموي، تحقيق: د. إحسان عبلس، ط١، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٣م.
- معجم البلدان: لياقوت الحموي، دار صادر - بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- المفصل في صنعة الإعراب: للزمخشري؛ قصر له وبه: د. علي بوملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ١٩٩٣م.
- المقدمة الصافية في شرح الخلاصة الكافية: لشاطبي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العشيمين، وأخرين، ط١، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.
- المقتضى في شرح الإيضاح: للجرجاني، تحقيق: د. كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية، ١٩٨٢م.
- المقتضى: للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب - بيروت.
- مقدمة الصحاح: لأحمد عبد الغفور عطار، ملحقة بكتاب الصحاح، وهي المجلد السابع.

- المقرب: ابن عصفور، تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري، ط.١٣٩١ـ١٩٧١هـ.
- ملاحظات على كتاب الصحاح: لجود الدخيل، مجلة العرب، السنة ٢١، ج. ٩/١٠.
- الملخص في ضبط قوانين العربية: لا بن أبي الربيع، تحقيق: د. علي بن سلطان الحكمي، ط.١٤٠٥ـ١٩٨٥هـ.
- الممتع في التصريف: لا بن عصفور، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط.١، دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٨هـ.
- المنتخب من غريب كلام العرب: لكراء العمل، تحقيق: د. محمد أمد العمري، ط.١، جامعة أمر القرى، ١٤٠٩ـ١٩٨٩هـ.
- المنصف بشرح كتاب التصريف لاما زني: لا بن جنى، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط.١، وزارة المعارف العمومية - إدارة إحياء التراث القديم، ١٣٧٣ـ١٩٥٤هـ.
- كتاب النبات والشجر: للأصمي، شرح: د. أوضحت هفتر، المطبعة الكاثوليكية - بيروت، ١٨٩٨ـ١٩٥٤هـ.
- ذ فوذ لسهم في ما وقع لا جوهري من الوهم: لصفدي، تحقيق: محمد عايش، ط.١، دار الشبان، الإسلامية - بيروت، ١٤٢٧ـ٢٠٠٦هـ.
- الذكت في تفسير كتاب سيبويه: لأعلم لشتميري، تحقيق: زهير عبد الله حسن سلطان، ط.١، معهد المخطوطات العربية - الكويت، ١٤٠٧ـ١٩٨٧هـ.
- همع الهوا مع في شرح جمع الجوا مع: للسيوطى، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ود. عبد العال سالم مكرم، في الجزء الأول، واد فرد الأخير بتحقيق بقية الأجزاء، ط.٢، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٧ـ١٩٨٧هـ.
- الوشاح وتتفيف الرماح في رد توهيم المجد الصحاح: مطبوع بهامش الصحاح طبعة بولاق.
- وقفات مع شيخ النهاة سيبويه: د. أحمد عبد المنعم الرصد، بدون ط و ت.



الدلالة التركيبية في سورة الفتح

د. حمدي صلاح الهدى

كلية اللغة العربية بالقاهرة-جامعة الأزهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة



الدلالة التركيبية في سورة الفتح

د. حمدي صلاح المدهش

كلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة - بالمدينة المنورة

ملخص البحث:

تأتي هذه الدراسة في مصاف دراسات عديدة تجاهول الإسهاف في فهم النص القرآني، وهي ترکز على الدلالة التركيبية في سورة الفتح، محاولة الكشف عن بعض الدلالات التي تعيشها تركيب السورة الكريمة. وتناول الدلالة التحويية في السورة الكريمة، قويم على محورين: الأول: من دلالة الجملة في السورة الكريمة. الثاني: من ظاهر الترابط الدلالي في السورة الكريمة، ويفصل البحث على المنهج الوصفي التحليلي ينطلق من إحساس الأنماط التركيبية في السورة، وتحليل النتائج التي عكستها إلى حصاء في ضوء مقصود السورة العلم وسياقاتها المتنوعة، مع محاولة الاستثناء بما أدى إلى بعثة التأويل في فقه دلالة تركيب السورة الكريمة. ويسبق الكشف عن الدلالة التركيبية في السورة الكريمة مدخل يتناول أطرًا عامة للسورة الكريمة موضوع الدراسة.



The Structural Dimension of Al-Fath Sura

Dr. Hamdy Salah Alhodhod

Abstract

This is one of the studies that tries to contribute to the understanding the Qur'anic text, and it concentrates on the structural dimension in Al-Fath Sura; in an attempt to figure out some dimensions that the Sura reflects. Investigating the syntactic dimension is built on two axes: the first stems from the sentence dimension in the Sura, and the second from features of its dimensional correlation. This research paper uses the descriptive - analytical approach, which enumerates the structural patterns in the Sura, analyzing the results of the enumeration, in light of the general purpose of the Sura and its various contexts, guided by what scholars of interpretation have said in the explanation of structural dimension of the Sura. Prior to the search of the structural dimensions of the Sura, there is an entry that conducts general frameworks of the Sura under discussion.

تقديم

- الحمد لله الفتاح العليم، الممتن على نبيه ومصطفاه بالفتح المبين، المظهرييه على الدين كله، الناصر أولياء المؤمنين، والصلوة والسلام على البشير النذير السراج المنين، محمد صلی الله عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين -.
- تأتي هذه الدراسة في مصاف دراسات عديدة تحاول الإسهام في فهم النص القرآني، وهي ترکز على الدلالـة الترکيبية في سورة الفتح، محاولة الكشف عن بعض الدلالـات التي تعكسها تراكـيب السورة الكـريمة.
- فابن جـني عـرف الإـعراب بـقولـه: ((الإـعراب هو: الإـبـانـة عن المعـانـي بالـأـفـاظـ)).^(١) فالإـعراب وسـيلة أساسـية من وسـائل تـحـقـيقـ المعـنىـ، وقد أـتـىـ ابنـ جـنيـ هـذـاـ التـعـرـيفـ بـالتـدـلـيلـ عـلـىـ ضـبـطـهـ، فـقاـلـ: ((أـلاـ تـرـىـ أـنـكـ إـذـاـ سـمعـتـ (أـكـرـمـ سـعـيدـ أـبـاهـ) وـ(شـكـرـسـعـيدـ أـبـوهـ) عـلـمـتـ بـنـصـبـ أـحـدـهـماـ وـرـفـعـ الـأـخـرـ الـفـاعـلـ مـنـ الـمـفـعـولـ، وـلـوـكـانـ الـكـلامـ شـرـجاـ وـاحـدـاـ لـاستـبـهـمـ أـحـدـهـماـ مـنـ صـاحـبـهـ)).^(٢) وقد بين أن هناك ملامح نحوية بديلة حال تعذر ظهور الإـعرابـ، منهاـ: مـلـمـحـ التـرـتـيبـ، وهذاـ جـليـ منـ قـوـلـهـ: ((فـإـنـ قـلـتـ فـقـدـ تـقـوـلـ: ضـربـ يـحـيـيـ بـشـرـىـ؛ فـلاـ تـجـدـ إـعـرـابـاـ فـاصـلـاـ وـكـذـلـكـ نـحـوـهـ. قـيـلـ: إـذـاـ اـتـفـقـ مـاـ هـذـهـ سـبـيـلـهـ مـاـ يـخـفـيـ فـيـ الـلـفـظـ حـالـهـ، أـلـزـمـ الـكـلامـ مـنـ تـقـدـيمـ الـفـاعـلـ وـتـأـخـيرـ الـمـفـعـولـ مـاـ يـقـومـ مـقـامـ بـيـانـ الإـعرـابـ)).^(٣) ومن الملامح نحوية البديلة للإـعرـابـ ما يمكن أن نطلق عليه مـلـمـحـ القرـينـةـ وهذهـ القرـينـةـ مـتـنـوـعـةـ، منهاـ القرـينـةـ العـقـلـيةـ نـحـوـهـ (أـكـلـ كـمـثـرـىـ يـحـيـيـ) فـإـنـ القرـينـةـ قـلـمـةـ علىـ أـنـ الـمـفـعـولـ (كـمـثـرـىـ) وـالـفـاعـلـ (يـحـيـيـ) لـكـونـ الـكـمـثـرـىـ مـمـاـ يـؤـكـلـ، وـيـدـخـلـ فـيـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ القرـينـةـ مـاـ قـالـهـ ابنـ جـنيـ: ((وـكـذـلـكـ لـوـ أـوـمـأـتـ إـلـىـ رـجـلـ وـفـرـسـ فـقـلـتـ: كـلـمـهـ هـذـاـ هـذـاـ فـلـمـ يـجـبـهـ، لـجـعـلـتـ الـفـاعـلـ وـالـمـفـعـولـ أـيـهـمـاـ شـئـتـ، لـأـنـ فـيـ الـحـالـ بـيـانـ لـمـاـ تـعـنـيـ)).^(٤)

١) الخصائص (٣٥/١).

٢) السابق: الصفحة نفسها.

٣) السابق: الصفحة نفسها.

٤) السابق: الصفحة نفسها.



- والوحدات النحوية التركيبية يراد بها: ((كل مادل على معنى يوصف به التركيب أو الجملة بأسيرها)).^(١)
- ولعل قول عبد القاهر الجرجاني: ((الألفاظ لا تفيده حتى تؤلف ضربا خاصمنا التأليف، ويحمد بها إلى وجه آخر من التركيب والترتيب))^(٢) دليل على إدراك أسلافنا لأهمية الدلالة التركيبية، ومن ثم فقد أقام نظرية النظم على علم النحو حيث قال: ((وإذ قد عرفت أن مدار النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفرق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهيلاً لتجدها أزيداً بعدها.....))^(٣) وقال أحد المحدثين: ((النحو كما قدمه علماؤنا علم نصي؛ لأنَّه يتعامل مع التراكيب، ولا يمكن فهم تركيب إلا من خلال بنية النحوية، فالنحو يكتشف حجب المعانى)).^(٤)
- وتناول الدلالة النحوية في السورة الكريمة يقوم على محورين: الأول: من دلالة الجملة في السورة الكريمة. الثاني: من مظاهر الترابط الدلالي في السورة الكريمة.
- وسيقوم البحث على المنهج الوصفي التحليلي ينطلق من إحصاء الأذمات التركيبية في السورة، وتحليل النتائج التي عكسها الإحصاء في ضوء مقصد السورة العام وسياقاتها المتنوعة، مع محاولة الاستئناس بما أدلّى به علماء التأويل في ف cedarلة تراكيب السورة الكريمة.
- ويسبق الكشف عن الدلالة التركيبية في السورة الكريمة - مدخل يتناول أطراً عامة للسورة الكريمة موضوع الدراسة.

١) دلالة السياق (٢٢٨.٢٢٩) د. البركاوي

٢) أسرار البلاغة (٢)

٣) دلائل الإعجاز (٦٧ وما بعدها)

٤) منهج في التحليل النصي للقصيدة (١١٥) د. محمد حملسة

مدخل

بين يدي سورة الفتح

اسم السورة: رأى بعض المفسرين أن سورة (الفتح) سميت بهذا الاسم، لأن الله افتتحها ببشرى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالفتح والنصر.^(١)

عدد آياتها: آياتها تسع وعشرون آية بالإجماع.^(٢)

سبب نزولها: جمهرة علماء التفسير على أن السورة مدنية أو نزلت بين مكة والمدينة، فهي مدنية بالإجماع على حد قول القرطبي.^(٣) وقد أورد التوحيدي سبب نزول السورة الكريمة على النحو الآتي: ((..... عن قتادة عن أنس قال: أنزلت هذه الآية على النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾)^(٤) عند رجوعه من الحسيمة نزلت وأصحابه مخالطون للحزن، وقد حيل بينهم وبين نسائهم ونحرروا الاهدي بالحدبية، فلما أنزلت هذه الآية قال لأصحابه: لقد أنزلت علي آية خير من الدنيا جميعها فلما تلاها النبي صلى الله عليه وسلم قال رجل من القوم: هبئنا مريئاً يا رسول الله قد يدين الله ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فأنزل الله تعالى ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية....)).^(٥)

المقاصد العامة لسوره الكريمه:

- تتجلی المقاصد العامة لسوره الفتح في النقاط الآتية:

(١) ينـ ظر: التحرير والتـ نوير، لا طهـ را بن عـ شورـ (٢٥١٤) طـ ١، لـ دار التـ وـ شـ يـة لـ لـ شـ يـر عـ مـ ٩٨، مـ ١٩٩٤، والـ فـ سـ يـر المـ ذـ يـر فـ يـ العـ قـ يـ دـة وـ لـ شـ يـرـ عـ وـ لـ مـ نـ هـ يـ (٢٦١٤) لـ وـ هـ يـ بـ يـ مـ صـ مـ طـ فـ يـ الرـ حـ يـ لـ يـ طـ دـارـ الفـ حـ كـ رـ المـ عـ صـ بـ دـمـ شـ يـقـ - الثـانـيـة عـ مـ ٤١٨، مـ ١٤١٨ـ هـ.

(٢) يـ ظـر: الـ جـامـع لـ أحـ كـلمـ الـ قـرـآن (١٥٢٥) لـ القـرـطـيـ طـ دـارـ عـالـمـ الـ كـتبـ بـاـ لـسـعـوـيـةـ تـحـقـيقـ هـشـمـ الـ بـخـارـيـ ٢٠٠٣ـ مـ. رـوحـ الـ معـانـي (٢٤٨) لـ الـأـلوـسـيـ طـ دـارـ إـحـيـاءـ التـرـاثـ الـعـرـبـيـ بـيـرـوـتـ.

(٣) يـ نـظـر: الـ جـامـع لـ أحـ كـلمـ الـ قـرـآن (١٥٢٥) (٢٥٩)

(٤) أـسـبـابـ النـزـولـ (صـ ٢٨٤)



- (١) بشاراة النبي - صلى الله عليه وسلم - بالفتح، والمغفرة المطلقة، وتمام النعمة، والهداية، والنصر العزيز، وهذا ما يدل على كرامة النبي عند ربه، والوعده بالنصر المتعاقب.
- (٢) الامتنان على المسلمين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق، وتبيشيرهم بالمغفرة والثواب، وعون السماء بجنود الله، وما أعده الله لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من الغضب واللعنة والعذاب الأليم.
- (٣) التدوية ببيعة أهل الإيمان رسول الله، واعتبارها بيعة لله، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق.
- (٤) الكشف عن فضيحة الذين تخلفوا عن الحديبية من الأعراب، ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله وبالكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر، فإن استجابوا غفر لهم تخلفهم عن الحديبية، وبيان الأعذار المستحقة للتخلُّف عن الخروج للجهاد في سبيل الله.
- (٥) وعد النبي بفتح آخر، وهو فتح خيبر، يعقبه فتح أعظم منه، وهو فتح مكة المكرمة، والتنكيل بأعداء المسلمين الذين صدوا أهل الإيمان عن المسجد الحرام والهادي.
- (٦) الإشارة إلى الصفات التي تتميز بها أممَّة محمد - صلى الله عليه وسلم - وبيان وصفهم في الكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل).^(١) : الجو العام في السورة الكريمة - إن الجو العام للسورة يحكى حال ثلات فئات متتصارعة: فئة تناوح عن الحق وتذهب عن حياضه وهي الفئة المؤمنة التي خرجت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - لأداء العمرة. وأخرى تكابح في تعتن غاشم، واستعلاء ظالم، وهي الفئة الطاغية والشريرة

(١) اعتمدت في صياغة هذه المقاصد على تفسير: التحرير والتبيير (٢٤٣٢٤٢).

الbaghīyah. I�ا ان إرادة الله شاعت ألا يصل أهل الحق إلى المراد، وعزب عنهم الارتياد، فخالطتهم حزن حزين، وأسى دفين، لا لمكاسب دنيوي فاتتهم وشمس عنهم، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، I�ا أن عناية الله بدللت الحزن فرحا، والأسى نجاحا وملات القلوب سكينة، والنفوس طمأنينة، فزفت لهم البشيريات، وسيقت لأعدائهم المخزيات ثم تأتي فئة ثلاثة مذبحة، وهي فتنة الأعراب المتخلفين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الموسومين بسوء الظن والخداع، فكشفت السورة عنهم القناع، فالسورة في جوها العام وعد ووعيد وبشارة وندارة.

* * *

المحور الأول

من دلالة الجملة في السورة الكريمة

- السورة الكريمة موضوع الدراسة اشتملت على أكثر من (١٠٠) مائة جملة، منها (٢١) إحدى وعشرون جملة اسمية، وأكثر من (٨٠) ثمانين جملة فعلية.
- غلبة الجمل الفعلية على الاسمية تتناغم مع الأسلوب السردي للأحداث التي قامت عليه السورة الكريمة.

- ويمكنناتناول دلالة كل نمط من أنماط الجملة على حدة.

- أولاً: دلالة الجمل الاسمية في السورة الكريمة:
 - بداية لابد من التنويه إلى أن السياقات التي وردت فيها الجمل الاسمية سياقات اقتضت استعمالها بما لها من دلالة على الثبوت والدوام، فعلى سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: «إِنَّا فَخَنَا لَكَ فَتَحْمًا مُبِينًا» وقوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» وقوله: «وَلِلَّهِ جُنُودُ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وغير ذلك من الموضع (٢١) في السورة فالفتح مصدره ثابت ودائم وإنزال السكينة لا يكون إلا من الله ولا ينزلها إلا على أولياته، وجند السماء والأرض لله وحده، فكلها أمور ثابتة دائمة ناسبها التعبير بالجملة الاسمية.

- كما أنه تلاحظ أن غالبية هذه الجمل قد ورد في سياق الوعيد والبشارة والامتنان لرسول الله والمؤمنين، فلم ترد الجمل الاسمية في سياق الوعيد إلا في جملتين وهو ما يعكس ثبوت موعودات الله لرسوله وللمؤمنين وديمومة ذلك لهم.

- وبتأمل الجملتين الاسمتين اللتين وردتا في سياق الوعيد وهما: قوله: «عَلَيْهِمْ ذَآءِرَةُ الْسَّوْءِ» وقوله: «هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَهُدَى مَعْكُوفًا» نلاحظ أن كل جملة تعكس أمرا ثابتا ودائما، فالأول تعكس أن دائرة السوء ثابتة وملازمة ودائمة على أهل الكفر والنفاق، ولعل تقديم المسند (عليهم) الذي يفيد الحصر والقصر يؤكد هذه اللطيفة، وهناك من شواهد القرآن ما يؤكذ ذلك، ولعل منها

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسَرَةً ثُمَّ يُغَلَّبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ﴾ [الأفل: ٣٦]

والجملة مفهومها أن دائرة السوء لا تصيب أهل الإيمان في أي زمان.

- والجملة الثانية أيضاً تعكس دلالة ثابتة دائمة وهي أن أهل الكفر يتهمون صاحب الإيمان عن القيام بشعائر دينهم وحربهم في كل زمان واستهلال الجملة بالضمير (هم) له دلالة أوضح عنها ابن عاشور حين قال: ((وضمير الغيبة المفتتح به عائد إلى الذين كفروا من قوله: ﴿وَلَوْ قَتَلْكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرَ﴾ والمقصود بالافتتاح بضميرهم هنا

لاستدعاء السمع لما يرد بعده من الخبر...))

- وقد تنوّعت الجمل الاسمية في السورة الكريمة على النحو الآتي:

(١) جمل اسمية مثبتة: وقد بلغت (١٩) تسع عشرة جملة.
(٢) جمل اسمية منافية ولم ترد إلا مرتين في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فالجملتان المنفيتان بـ(لا) اسميتان، وقد كشف الألوسي عن دلالة النفي قائلاً: ((وليس في نفي ذلك عنهم نهي لهم عن الغزو بل قالوا: إن أجرهم ماضعف في الغزو، وقد غزا ابن أمر مكتوم وكان أعمى - رضي الله تعالى عنه - وحضر في بعض حروب القادسية وكان يمسك الراية...)) وهو ما تؤكده دلالة النفي بـ(لا) العاملة عمل (ليس) إذ إن النفي بها ليس نفياً عاماً وإنما هو نفي خاص وهو الفارق بين النفي بـ(لا) النافية للجنس، وـ(لا) العاملة عمل (ليس) فالنفي بالأولى علم وبالثانية خاص.

- ويمكن التركيز على بعض الدلالات الفرعية للجمل الاسمية الواردة في السورة الكريمة.

١) التحرير والتبيير (٨٧/٢٥)

٢) روح المعاني (١٠٥/٢٥)



- دلالة التوكيد في الجملة الاسمية:
- جاءت الجملة الاسمية مؤكدة بالحرف الناسخ (إن) في أربعة مواضع، وهي على ترتيبها في الورود:
 - قوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» وقوله: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»؛ وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَاعِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَاعِعُونَ اللَّهَ» وقوله: «فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا»
 - أما عن التوكيد في الجملة الأولى؛ فقد اختلف المفسرون في الغرض من توكيد الجملة، وقد عرض الألوسي عدداً من هذه الآراء؛ فقال: ((والتأكيد بـ(إن) للاعتناء بالرد الإنكار. وقيل: لأن الحكم لعظم شأنه مظنة للإنكار. وقيل: لأن بعض السامعين منكر كون ما وقع فتحا...))^(١) في حين برر ابن عاشور هذا التوكيد بقوله: ((افتتاح الكلام بحرف (إن) ناشئ على ما أحل لل المسلمين من الكآبة على أن أجيب المشركين إلى سؤالهم الهدنة كـ ما سيأتي من حديث عـ مر بن الخطاب..... فالتأكيد مصروف للسامعين على طريقة التعریض...))^(٢) ويمكن أن تجتمع هذه المبررات جمیعاً فـ مما لا ريب فيه أن التردد كان واضحاً على عدد غير قليل من المسلمين الذين صحوا رسول الله في الحديبية، وعلى ذلك يكون التوكيد هنا طلبياً، والتوكيد أيضاً للاعتناء مخاطبة للواثقين، أمثال النبي وأبي بكر وغيرهما.
 - بينما كان التوكيد في الموضعين (الثاني والثالث) للاهتمام.^(٣) وفي الموضع الرابع للتهديد والوعيد.
 - دلالة التضاد في الجملة الاسمية:

(١) روح المعاني (٨٥/٢٥)

(٢) التحرير والتبيير (١٤٣/٢٥)

(٣) السابق (١٥٧، ١٥٥/٢٥)

- وقد ظهر هذا التضاد أو هذه المقابلة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعْهُ، أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ وقد كشف ابن عاشور عن هذه الدلالة بقوله: ((وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين: الشدة والرحمة، إيماء إلى أصلة آرائهم وحكمة عقولهم وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكم والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجحيلة وعدم الرؤية.))

- ثانياً: دلالة الجملة الفعلية في السورة الكريمة:

- تنوعت الجمل الفعلية في السورة الكريمة بأكثر من اعتبار؛ فباعتبار الخبر والإنشاء نلاحظ أن عدد الجمل الإنسانية وردت(٥) خمس مرات وكلها مبتدأة بفعل الأمر، في حين وردت الجمل الفعلية الخبرية في أكثر من (٧٥) خمس وسبعين مرة.

- ولعل غلبة الجمل الخبرية تتtagم مع أسلوب سرد الأحداث والأخبار الذي يشتغل عليه السورة الكريمة.

- ويمكن عرض تنوع دلالة الجمل الفعلية في السورة الكريمة على النحو الآتي:

- دلالة الطلب:

- من اللافت للنظر أن الجمل الطلبية لم ترد إلا في سياق الحديث عن موقف الأعراب، هي قوله: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ وقوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ﴾ الله شيئاً وقوله: ﴿ذُرُونَا نَتَبِعُكُمْ﴾ وقوله: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّسِعُونَا﴾ وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُحَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ولعل مجيئها هنا مناسب لطبيعة الحوار الذي دار بين رسول الله والأعراب، ولا يخفى أن ثمة تبايناً بين هذه الجمل الطلبية، فالجملتان (الأولى والثالثة) الصادرتان عن الأعراب تعكسان انكساراً وذلة، بينما الأمر الصادر عن الله في الثالثة المتبقية أمر على حقيقته.

- دلالة التعليل:

(١) السابق (٢٥/٢٥)



- وردت الجمل الفعلية التعليلية في السورة الكريمة (١٧) سبع عشرة مرّة وهو عدد غير فليل، ومن اللافت أن (١٦) ست عشرة جملة وردت في سياق الوعيد والبشارة ولم يرد إلا موضع واحد في سياق الوعيد وهو قوله: ﴿وَيُعِذِّبُ الْمُنَفِّقِينَ وَالْمُنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ بِاللَّهِ ظَرَفَ السَّوْءُ﴾ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَئْنَثُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وربما يكون شیوع التعليل في سياق الوعيد راجعاً إلى أن التعليل وسيلة تحقق اليقين بموعد الله ووسيلة لجذب أولي الألباب إلى الحرص على الإقبال على عطاءات الله بمرادات الله.

- وقد لوحظ اختلاف في وجهات نظر أهل التأويل في بعض هذه الجمل وسيتم الاقتصر على ما ثار جدل حوله بشيء من التحليل.

- الموضع الأول: اللام في قوله: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وقد اختلف العلماء في كنه اللام في (ليغفر) فقد نقل ابن الأباري عن السجستاني بأن اللام هنا لام القسم، فقال: ((قال السجستاني: هي لام القسم، وهذا خطأ، لأن لام القسم لا تكسر، أي: أن لام كي تكون مكسورة أبداً...)) (١) بينما رأى جمهرة العلماء - إن لم يكن جميعهم - أن اللام هنا هي لام كي، وهذا يدخلنا في مناقشة هذا السؤال: هل اللام تفيد معنى التعليل والسببية، وهي دالة ملازمة لللام كي؟ وهل المغفرة علة وسبب للفتح؟

- فقد رأى ابن عطية أن اللام هنا لام كي ولكن لها معنى غير معناها الذي وضعت له، فقال: ((ليغفر، هي لام كي، لكنها تخالفها في المعنى، والمراد هنا أن الله تعالى فتح لك كي يجعل لك ذلك أمارة وعلامة لغفرانه لك، فكانها لام صيرورة....)) (٢) وقد بنى الطبراني علة المغفرة على سورة النصر، فقوله: (فسبّح بحمد ربك واستغفره) إذ إن

(١) إيضاح الوقف والابداء (٧٠٠/٢) والقطع والاتفاق (٤٠٢) والجامع لأحكام القرآن (٢٦٢/١٥)

(٢) المحرر الوجيز (٦٦٥/٧)

الله أمره أن يسبح بحمد ربه وأن يستغفره وأعلم أنه تواب على من فعل ذلك، ففي ذلك بيان واضح أن قوله: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إنما هو خبر من الله لنبيه عن جزائه له على شكره له.^(١) وقد ضعف ابن عطية بناء العلة في لام (إيغفرا) على ما جاء في سورة النصر قائلاً: ((وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إنما نزلت في آخر مدة النبي – صلى الله عليه وسلم – ناعية له نفسه حسب ما قال ابن عباس – رضي الله عنه – والآخر: أن تخصيص النبي بالتشريف كان يذهب، لأن كل واحد من المؤمنين مخاطب بهذا الذي قاله الطبرى)).^(٢) وما قاله الزمخشري في بيان العلة التي تؤديها اللام طار شبه إجماع بين كثير من أهل التأويل، إذ يقول: ((فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربع، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة وهدية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، كأنه قال: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين، وأغراض العاجل والأجل...))^(٣) وهذا ما يؤكده العطف بالواو التي تدل على المشاركة.

- الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجَرَّبِي مِنْ تَحْتَهَا الْأَئْنَثُرُ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ اختلف أهل التأويل في متعلق اللام، وقد ذكر الرازى نصاً مطولاً أورد فيه هذه الآراء، يمكن إيجازه على النحو الآتي:

- (١) إما أن يكون التعلق بفعل مذكور سلفاً، وهناك أكثر من فعل تتغير دلالته التعليل وفقاً له.

١) ينظر: جامع البيان (٤٢٤٣/١١)

٢) المحرر الوجيز (٦٦٦/٧)

٣) الكثاف (٢٥٢/٢) وينظر: مفاتيح الغيب (٧٨/٢٧) والجامع للقرطبي (٢٦٢/١٥)



(أ) أن يكون متعلقاً بـ(ليزدادوا) وعلى هذا يكون المعنى: كأنه تعالى أنزل السكينة عليهم ليزدادوا إيماناً بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات وقد ترتب على هذا الاحتمال تساؤل طرحة الرازي قائلاً: ((إإن قيل: فقوله (يُعذب) اعطف على قوله (يدخل) وازيد إيمانهم لا يصلح سبباً لتعذيبهم؟ نقول: ذلك على وجهين، أحدهما: أن التعذيب مذكور لكونه مقصوداً للمؤمنين، كأنه تعالى يقول: بسبب ازيدكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنات ويُعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين، الثاني: تقديره: ويُعذب بسبب ما لكم من الازدياد، يقال: فعلته لأجرب به العدو الصديق، أي: لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو، فكذلك ليزداد المؤمن إيماناً فيدخله الجنة، وزداد الكافر كفراً فيُعذبه به...)) (١) وعلى هذا تكون دالة التعذيب في (يُعذب) على الوجه الأول دالة عاجلة في الدنيا، وعلى الثاني تكون دالة التعذيب آجلة أي: يوم القيمة.

(ب) أن (يدخل) متعلق بـ(وينصرك الله) وعلى هذا يكون المعنى: وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.

(٢) أن يكون متعلقاً بـ(ليغفر) شرط جمل الذنب على ذنب المؤمن، ويكون المعنى: ليغفر لك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، وإنما أن يكون التعلق بلفظ غير صريح، وهو يحمل وجوهاً ثلاثة:

(أ) أن يكون متعلقاً بـ(حكىما) ويكون المعنى على ذلك: الله حكيم فعل ما فعل ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.

(ب) أن يكون متعلقاً بقوله: «وَيُتَمِّنْعَمَتُهُ عَلَيْكَ» ويكون المعنى: ويتم نعمته عليك في الدنيا والآخرة، فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى؛ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٨٢)

(ت) أن يكون متعلقاً بقوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ» ووجهه: أنه روي أن المؤمنين قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - هنيئاً لك إن الله غفر لك، فماذا لنا؟ فنزلت هذه الآية، ويكون المعنى على ذلك: إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات.

- وقد رأى الطبرى هذا الرأى، استناداً إلى السياق الخارجى المتمثل في سبب النزول قائلاً: ((وقد تقدم ذكر الرواية أن هذه الآية نزلت لما قال المؤمنون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو تلا عليهم قول الله - عز وجل -: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتَحًا مُّبِينًا لَّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» هذا لك يا رسول فماذا لنا؟ تبيينا من الله لهم ما هو فاعل بهم.. فأعلم الله سبحانه نبأه - عالياً - السلام - قوله: «لَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتَ»^٤ لم يقل له: «لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» بتأنٍ يل تكرير الكلام: إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله، إننا فتحنا لك ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهر؛ ولذلك لم تدخل الواو التي تدخل في الكلام للعطف، فلم يقل: وليدخل....)) وبهذا يكون الطبرى قد وظف السياقين الداخلى والخارجى في إثبات وجهة نظره.

(٣) وإنما أن يكون التعلق بالقرينة الحالية لا قرينة مقالية، ويكون الأمر بالقتال هو القرينة الحالية، لأن ذكر الفتح والنصر من مقتضياته القتال، ويكون المعنى على ذلك: إن الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، أو عرف من قرينة الحال أن الله اختار أهل الإيمان ليدخلهم الجنة.^(٢)

(١) جامع البيان (٦/١١)

(٢) ينظر: تفصيل هذه الآراء (مفاتيح الغيب ٨١/٢٧ وما بعدها)



- وكل هذه الوجوه مقبولة لا تعارض بينها ولكن ما ينبغي التأكيد عليه أن كل وجه له أثر في توجيه المعنى، وإن كان القول القائل بتعلق (اليدخل) بـ «إِنَّا فَتَحْنَالَكَ» أقرب، لاعتماده على السياق الداخلي والخارجي المتمثل في سبب النزول.
- علی أن هـ نـ لـ طـيـ فـةـ نـوـهـ إـلـيـ هـاـ لـرـازـيـ قـائـلاـ: ((قال هـ هـ نـ وـ فـيـ بـ عـضـ المـوـاضـعـ (المـؤـمـنـيـنـ وـالمـؤـمـنـاتـ) فـمـاـ الحـكـمـةـ فـيـهـ؟ـ نـقـولـ:ـ فـيـ المـوـاضـعـ الـتـيـ فـيـهـاـمـاـيـهـمـ اـخـتـصـاصـ الـمـؤـمـنـيـنـ بـالـجـزـاءـ الـمـوـعـودـ بـهـ مـعـ كـوـنـ الـمـؤـمـنـاتـ يـشـتـرـكـنـ مـعـهـمـ ذـكـرـهـنـ اللـهـ صـرـيـحاـ...ـ فـلـمـ كـانـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ (لـيـدـخـلـ آـلـمـؤـمـنـيـنـ وـآـلـمـؤـمـنـاتـ)ـ لـفـعـلـ سـابـقـ وـهـوـ إـمـاـ الـأـمـرـ بـالـقـتـالـ أـوـ الصـبـرـ فـيـهـ أـوـ النـصـرـ لـلـمـؤـمـنـيـنـ أـوـ الـفـتـحـ بـأـيـدـيـهـمـ عـلـىـ مـاـ كـانـ يـتـوهـمـ،ـ لـأـنـ إـدـخـالـ الـمـؤـمـنـيـنـ كـانـ لـلـقـتـالـ،ـ وـالـمـرـأـةـ لـاـ تـقـاتـلـ،ـ فـلـاـ تـدـخـلـ الـجـنـةـ الـمـوـعـودـ بـهـاـ صـرـحـ اللـهـ بـذـكـرـهـنـ،ـ وـكـذـلـكـ فـيـ الـمـنـافـقـاتـ وـالـمـشـرـكـاتـ....ـ))ـ
- المـوـضـعـ الثـالـثـ:ـ الـلـامـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ (لـتـؤـمـنـوـاـ بـالـلـهـ وـرـسـوـلـهـ وـتـعـزـرـوـهـ وـتـوـقـرـوـهـ وـتـسـبـحـوـ بـكـرـةـ وـأـصـبـلـاـ)ـ حـيـثـ جـوـزـ بـعـضـ أـهـلـ التـأـوـيلـ أـنـ تـكـوـنـ الـلـامـ لـلـتـعـلـيلـ،ـ أـوـ تـكـوـنـ لـامـ الـأـمـرـ:ـ قـالـ اـبـنـ عـاشـورـ:ـ ((فـيـجـوـزـ أـنـ تـكـوـنـ الـلـامـ فـيـ (لـتـؤـمـنـوـاـ)ـ لـامـ كـيـ مـفـيـدـةـ لـلـتـعـلـيلـ وـمـتـعـلـقـةـ بـفـعـلـ (أـرـسـلـنـاـكـ)ـ....ـ وـيـجـوـزـ أـنـ يـكـوـنـ الـكـلـامـ قـدـ اـنـتـهـيـ عـنـ (نـذـيرـاـ)ـ وـتـكـوـنـ جـمـلـةـ (لـتـؤـمـنـوـاـ بـالـلـهـ)ـ جـمـلـةـ مـعـتـرـضـةـ،ـ وـيـكـوـنـ الـلـامـ فـيـ قـوـلـهـ:ـ (لـتـؤـمـنـوـاـ)ـ لـامـ الـأـمـرـ وـتـكـوـنـ الجـمـلـةـ اـسـتـنـافـاـ لـلـأـمـرـ...)ـ)ـ(٢ـ)ـ وـعـلـىـ هـذـاـ فـالـجـمـلـةـ إـمـاـ أـنـ تـكـوـنـ مـوـصـلـةـ بـمـاـ قـبـلـهـاـ وـذـلـكـ عـلـىـ كـوـنـ الـلـامـ تـعـلـيلـيـةـ،ـ إـمـاـ أـنـ تـكـوـنـ اـسـتـنـافـيـةـ عـلـىـ جـعـلـ الـلـامـ لـلـأـمـرـ وـبـالـرـجـوعـ إـلـىـ كـتـبـ الـوـقـفـ وـالـابـتـداءـ نـجـدـ إـجـمـاعـاـ عـلـىـ أـنـ الـوـقـفـ عـلـىـ (نـذـيرـاـ)ـ غـيـرـهـ،ـ يـقـوـلـ النـحـلـسـ:

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٢٨)

(٢) التحرير والتبيير (٢٥/١٥٥ وما بعدها)

((إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَيِّنًا وَنَذِيرًا)) ليس بتمام، لأن بعده لام كي ووافق أبو حاتم

الجماعة في هذا....)) (١)

- دلالة الشرط:

- تعدد الجمل الشرطية في السورة الكريمة، فقد وصلت إلى ثمانى جمل، ونسبة الورود كانت شبه مناصفة بين سياق الوعد والوعيد، وهو ما يمكن بيانه على النحو الآتي:

- الجمل الشرطية في سياق الوعد:

- قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتُكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وقو له: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَغْرِبُ﴾ وقو له: ﴿وَأَوْفَىٰ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرَ﴾ وقو له: ﴿وَأَوْلَا رِجَالٍ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمَّا تَعَلَّمُوْهُمْ أَنْ تَطْغُوْهُمْ فَتُصْبِيْكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

- الجمل الشرطية في سياق الوعيد:

- قو له: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وقو له: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ لَمْ يَأْلِمْ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَفَرِينَ سَعِيرًا﴾ وقو له: ﴿لَوْ تَرَيَوْ لَعْدَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَدَابًا إِلَيْمًا﴾

- فأسلوب الشرط من الأساليب الخاصة بالأفعال، وهذا يعني أنه يقوم بالأساس على الحديث، كما أن الشرط يقتضي فعلا وجوابا، ففعل الشرط بمثابة السبب وجوابه بمثابة المسبب، ومن ثم نلاحظ أنه في سياق الوعد قدم أسبابا ومسببات، فالوفاء بالعهد ثمرته الأجر العظيم، والطاعة لله ورسوله ثمرتها الأجر الحسن والجنة، وقتل الكفار ثمرته توليهم الأدباء، وعدم دخول المؤمنين مكة عام الحديبية ثمرته تجنب

(١) القطع والاتفاق (٤٨٧) وينظر: بياض الحوق وابتداء (٩٠٠/٢) والمكتفى في الوقف والابدا (٥٢٨)



المؤمنين المعتبرة. ونلاحظ أن هناك وعداً عاجلة وأخرى آجلة، وهو ما يعكس تجدد نفحات الله وحدوثها واستمرارها.

- وكذلك في سياق الوعيد نكث العهد وبلاه على صاحبه، وعدم الإيمان بالله ورسوله عاقبته العذاب الأليم، والتزيل عاقبته العذاب الأليم.

- فأسلوب الشرط أسلوب صفتات، فمن قدم خيراً جني خيراً ومن قدم سوءاً جنى سوءاً، والجني الأول فيه فضل وسعة، والثاني فيه عدل وقسطاس.

- دلالة الإثبات:

- وتحقيق هذه الدلالة من خلال الجمل الفعلية غير المنافية، وقد لوحظ أن الغالب على الجمل الفعلية في السورة الكريمة الجمل المثبتة، وقد تنوعت هذه الجمل في شكلها التركيبي على النحو الآتي:

(١) جمل منسوبة بفعل ناسخ:

- وقد بلغت (١٥) خمس عشرة جملة، منها (١٢) اثنتاً عشرة جملة بالفعل (كان) بصيغة الماضي، (١) واثنتان بالفعل (ظن) وكلاهما بصيغة الماضي. (٢)

- وهذه الجمل المنسوبة منها (٩) تسع جمل في سياق حديث الله عن نفسه وقد جاءت كلها في تذليل الآيات، ومن ثم فإن الفعل (كان) مجرد من الزمن حالة إسناده إلى الله تعالى.

- والجمل المنسوبة هي في الأصل جملة اسمية، وكما نعلم أن النحوين اختلفوا في كون هذه الأفعال الناسخة عملت في المبتدأ والخبر لم لا (٣) وعلى ضوء ذلك نستطيع القول بأن الجمل المنسوبة التسع التي جاءت في سياق حديث الله عن نفسه

١) هناك جملة تعليلية منسوبة (ولتكون آية للمؤمنين) سبقت معالجتها في الدلالة التعليلية.

٢) وهناك جملة منسوبة بـ(ليس) أي يتم تناولها في دلالة النفي، وهي: (ليس على الأعمى حرج)

٣) فالبصريون يرون أنها تفع المبتدأ وتتصبّ الخير، والكوفيون يرون أنها تفع لها، وإن المبتدأ أمر فوع بالابتداء والخبر نصب على الحالية، تشبيهها بالفعل القاصر. [يُنظر: عدة المسالك إلى تحقيق أو ضح المسالك] (٢٠٩١)

مزدوجة الدلالة، بمعنى: أنها تجمع بين دلالي الجملة الاسمية والجملة الفعلية، فمثلاً جملة: **وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** دلت على ثبوت ذلك لله تعالى ودومته، وكذلك تجدها وحدوثه في كل الأوقات والأزمان حسب الأحداث والمقتضيات.

- أما دلالة الجملة المنسوخة في غير ذلك السياق، فأعتقد أن دلالة الجملة الاسمية قد ذهبت واكتسبت الجملة بدخول الناسخ دلالة التجدد والحدث، ومن الموضع التي كانت مثار جدل بين أهل التأويل في الدلالة جملة **وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا**

فقد حكى أبو حيان هذا الاختلاف قائلاً: ((...) واحتمل وكتتم، أي يكون المعنى: وصرتم بذلك الطن، وأن يكون: وكتتم على بابها، أي: وكتتم في الأصل قوماً فاسدين، أي: الهلاك سابق لكم على ذلك الطن)). وهذا الاختلاف لم يؤثر على الدلالة الزمنية للفعل ويمكن القول بأننا لو قلنا: إن البور بمعنى: الفساد، فالأنسب أن تكون (كتتم) على أصلها، وإن قلنا: البور بمعنى: الهلاك، فالأنسب أن تكون كتم بمعنى صرتم، ويمكن الجمع بين القولين، بأنهم فسدوا فلما فسدوا هلكوا، فالفساد مؤدah الهلاك.

- وأقحمر (قوماً) بين (كان) وخبرها (بوراً) لإفادة أن البوار صار من مقومات قوميthem، لشدة تلبسه بجميع أفرادهم.^(١)

- والجملتان المنسوختان بالفعل (طن) وهما اجتمعتا في قوله: **بَلْ ظَنَّتُمْ أَنَّ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبْدًا وَرَبِّكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ طَرَّ السَّوَاءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا**^(٢) قد جاءتا في سياق الوعيد للأعراب الذين تخلفو عن رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - في الحديبية، كما شفتين عن النوايا الخبيثة التي كانت في معنقدتهم الزائف، وهذا الفعل كما هو معلوم من أفعال القلوب التي تفيد الرجحان^(٣)

(١) البحر المحيط (٤٨٩/٩)

(٢) التحرير والتوير (١٦٥/٢٥) بتصرف

(٣) ينظر: أوضحت المسالك إلى ألفية ابن مالك (٣٩/٢)



ولكنها في هذا السياق تفيد اليقين لا الرجحان، لأن مصدر الخبر هو الله تبارك وتعالى وأخبار الله لا تحتمل شكًا ولا صدقاً ولا كذباً.

(٢) جمل مصدرة بالفعل الماضي:

- وجملة هذه الجمل (٢٥) خمس وعشرون؛ منها (٧) سبع في سياق الوعيد والبقية في سياق الوعد.

- تأمل ما جاء من جمل ما ضوبيه متتالية في قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا ابن عاشور يعقد مقارنة بين الجملة الاسمية الواردة قبل هذه الجمل المتتالية ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوءِ﴾ في الدلالة قائلاً: ((وجملة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوءِ﴾ دعاء أو وعيد، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيتها لذلك بخلاف جملة (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ) فإذاً لها إخبار عما جنوه من سوء فعلاً هم فالتعبير بالماضي منه أظهر.))

- وإذا ما تأملنا عدداً من الجمل التي جاءت في سياق الوعيد، نلاحظ أن بعضها جاء مصدراً بـ(قد) ومن المعلوم أن (قد) إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد التحقيق والتوكيد، فأنا مل هذه الجمل ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الْشَّجَرَةِ﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهِنَا﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّبَّيَا بِالْحَقِّ﴾

- بتأمل الجملة الأولى التي جاءت في حدث بيعة الرضوان، نلاحظ أنها استهلت بلام القسم التي تفيد أيضاً معنى التوكيد، وأتبعت بـ(قد) التي تفيد التحقيق كل ذلك من شأنه ما يجعل لهذا الحدث من الجلال ماله، ثم تأمل جملة (إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الْشَّجَرَةِ) يقول ابن عاشور: ((إِذْ يُبَايِعُونَكَ) ظرف متعلق بـ(رضي) وفي تعليق الظرف بفعل الرضا ما يفهم أن الرضا مسبب عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف هو إليه، مع ما يعطيه

(١) التحرير والتبيير (٢٥/١٥٤)

توقيت الرضا بالظرف المذكور من تعجيل حصول الرضا بعدها ذلك الوقت ومع ما في جعل الجملة المضاف إليها الظرف ففعالية مضارعية من حصول الرضا قبل انقضاء الفعل بل في حال تجدهه)).^(١)

- بينما جاء الغرض من التوكيد في جملة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الْرِّءَيَا بِالْحَقِّ﴾

مختلفاً، فاستهلال الجملة بلام القسم المتبقعة بـ (قد) ثم بمدلول المتعلق (بالحق) ليؤكد للمترددين والمتشككين في فتح مكة أنه واقع لا محالة ومحقق يقيناً لا ريبة في ذلك، وقد نوه ابن عاشور إلى ذلك قائلاً: ((وتوكيد الخبر بحرف (قد) لإبطال شبهة المنافقين الذين قالوا: فأين الرؤيا؟))^(٢)

(٣) جمل مصدرة بفعل مضارع مثبت:

- وقد بلغت هذه الجمل (١٢) اثنتي عشرة جملة، منها سبع في سياق بعيد وقد وردت جميعها في الحديث عن موقف الأعراب، والبقية في سياق الوعود وردت جميعها في الآية الأخيرة.

- ومن المعلوم أن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال، والاستقبال في المضارع المثبت يتحقق من خلال سبقه بالسين أو سوف، وقالوا: إن السين تدل على المستقبل القريب، وسوف تدل على المستقبل البعيد.

- ولم يأت الفعل المضارع دالاً على الاستقبال إلا في الجمل الآتية: ﴿سَيُوْلُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وقو له: ﴿سَيُوْلُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا تَنْبَغِّمُ﴾ وقو له: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا﴾ وقوله: ﴿سَتُدْعَونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأَسِّ شَدِيدٍ﴾

- ونلاحظ على هذه الجمل الآتي:

(١) السابق (١٧٣/٢٥)

(٢) التحرير والتبيير (١٨٩/٢٥)



(أ) أنها وردت في سياق الحديث عن موقف الأعراب.

(ب) أنها صدرت جميعها بالسين الدالة على المستقبل القريب.

- إن موقف الأعراب في هذا الحدث كان موقعاً متخاذلاً لأنهم لم يخرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديبية، ظناً منهم أن رسول الله ومن خرج معه من المؤمنين لن يرجعوا، وأنهم سيلقون حتفهم على يد الكفار، فلما أخزهم الله عباد رسول الله وأصحابه كان يتحتم عليهم أن يخرجوا من هذا المأزق بعذر، فقرروا ركوب مطية الكذب، فأخبر الله نبيه بما سيتعللون به بصيغة المستقبل؛ تأييداً لحبيبه ومصطفاه، وهو ما تعبّر عنه الجملة الأولى، وقد تعللوا بما أخبر الله به نبيه، وتأمل هذه العلة (شَغَلْتَنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُنَا) قال الرازى: ((قولهم (أموالنا) ولم يقولوا الأموال وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذراً، لأنه لا نهاية له، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحصول من الأفوات يصلح عذراً، فقالوا: (شَغَلْتَنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُنَا) أي: ما صار مالنا لا مطر لـ

الأموال)).

- ثُم بالمقارنة بين مقولتهم هذه وقولهم: (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَّلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا) نلاحظ فرقين:

- الأول: ذكر الأعراب في الأولى وعدم ذكرها في الثانية. الثاني: ورود(ك) في الأولى دون الثانية.

- وقد علل ابن عاشور هذين الفرقين قائلاً: ((ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة، لم يؤت معها بمجرور(ك) كما أتى به في قوله: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ) آنفاً، لأن هذا قول راغب صادق غير مزور لأجل الترويج على النبي - صلى الله

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٨٨)

عليه وسلم ... واستغنى عن وصفهم بأنهم من الأعراب؛ لأن تعريف المخلفون تعريف العهد، أي: المخلفون المذكورون.(١)

- ثم إذا عرجنا على الجمل الواردة في الوعد التي منها قوله: (تَرَبُّعُهُمْ رَكْعًا سجدةً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَّا) قال الألوسي: ((والتعبير بالمضارع للاستمرار وهو مستمرار عرفي.))(٢) ويضيف ابن عاشور قائلاً: ((ويثير صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك أي: تراهم كلما شئت أن تراهم ركعاً سجداً، وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضا الله ورضوانه، وفي سوق هذا مساق الثناء، إيماء إلى أن الله حق لهم ما يتغونه.))(٣)

- دلالة النفي:

- تنوّع الجمل الفعلية المنفيّة في السورة الكريمة. وقد جاء هذا التنوّع تبعاً لتنوع أداة النفي.

- فقد جاء النفي بـ(ليس) في موضعين، وهما: (مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) و (الَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ).

- وجاء النفي بـ(لن) في موضعين، هما: (أَنْ تَتَّسِعُونَا) و (أَوْلَنَ تَحْدِيدَ لِسْنَةَ اللَّهِ تَبَدِيلًا).

- وجاء النفي بـ(لا) النافية في ثلاثة مواضع، هي: (لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) و (لَا تَجْدُورَكَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) و (لَا تَخَافُونَ).

- وجاء النفي بـ(لم) في ثلاثة مواضع، هي: (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) و (لَمْ تَعْلَمُوهُمْ) و (مَا لَمْ تَعْلَمُوا).

(١) التحرير والتنوير (٢٥/٦٧).

(٢) روح المعانى (٢٥/٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/٢٠).



- والفرق بين أدوات النفي السالفة الذكر يوضحه المالقي في عدة نصوص إذ يقول في (لم): ((اعلم أن (لم) حرف يجزم الأفعال المضارعة على اختلاف أنواع الجزم، وينفيها، إلا أنها تخلص معنى المضارع إلى الماضي؛ لأنها جواب من قال: فعل، إذ هي نظيرها، فكأنك قلت مجاوباً فلما يفعل ما فعل، فهي من القرائن الطارفة للأفعال المضارعة إلى الماضي، وإن كان لفظها يصلح للحال والاستقبال.....)) (١) وقال في (لن): ((اعلم أن (لن) حرف ينفي الأفعال المضارعة ويخلصها للاستقبال معنى وإن كان في اللفظ باقياً على احتماله للحال أو الاستقبال؛ وإنما كان ذلك لأنها كالجواب لمن قال: سيفعل، ولا تجتمع مع السين؛ لأنها مختصة بالإيجاب، كما أن (لن) مختصة بالنفي؛ فتناقضنا)). (٢) وقال في (لا) المختصة بنفي المضارع: ((فأما القسم الداخل على الأفعال فلا تدخل عليها غالباً إلا مضارعة، فتخلصها للاستقبال، نحو قوله: لا يقوم زيد ولا يقوم عمرو، وكأنها جواب سيقوم أو سوف يقوم.....)) (٣) أما النفي بـ(ليس) فقياساً على (ما) النافية التي تدخل على الأسماء فهي تكون نافية للحال، يقول المالقي: ((فالقسم الذي يدخل على المبتدأ والخبر للعرب فيها مذهبان، مذهب أهل الحجاز، ونجد أنهم يجرونها مجرى ليس؛ فيرجعون بها المبتدأ اسمها لها وينصبون خبراً لها، فيقولون: ما زيد قائمٌ وذلك تشبيهاً لها بـ(ليس) إذ هي للنفي مثلها، وداخلة على المبتدأ والخبر مثلها، ونفي الحال....)). (٤)

- من خلال هذه النصوص نستطيع القول بأننا أمام ثلاثة أنماط من أساليب النفي نمط لنفي الماضي في الجمل المنافية بـ(لم) والنمط الثاني لنفي للمستقبل في الجمل المنافية بـ(لن، ولا) والنمط الثالث لنفي الحال في الجمل المنافية بـ(ليس).

(١) رصف المبني في شرح حروف المعاني (٢٨٠)

(٢) السابق (٢٨٥)

(٣) السابق (٢٥٨)

(٤) السابق (٣٠)

- وقد توقف بعض أهل التأويل عند بعض هذه الجمل، فمثلاً جملة: ((لَن تَتَّبِعُونَا)) قال الرازى: ((...لَن تَتَّبِعُونَا)) على صيغة النفي بدلاً من من قوله: لا تتبعونا على صيغة النهي معنى لطيف، هو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثقه وقطعه بصدقه، فجزم وقال: ((لَن تَتَّبِعُونَا)) يعني: لو أدنت لكم ولو أردتموا خترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى.)^(١)

- وقال في جملة ((لَا تَخَافُوْنَ)): ((قوله تعالى: لَا تَخَافُوْنَ)) أيضاً حال معناه: غير خائفين، وذلك حصل بقوله تعالى (آمنين) فما الفائدة في إعادتها؟ نقول: فيه بيان كمال الإيمان، وذلك بعد الخلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحمر ومن دخل الحرم، فقال: تدخلون آمنين، وتحلرون ويبيقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام...)^(٢)

- وقال ابن عاشور في جملة ((لَا يَفْقَهُوْنَ إِلَّا قَلِيلًا)): ((وأفاد قوله: لَا يَفْقَهُوْنَ انتفاء الفهم عنهم لأن الفعل في سياق النفي كالنكرة في سياق النفي يعم، فذلك استثنى بقوله: (إِلَّا قَلِيلًا) أي إلا فهما قليلاً.....))^(٣) وأعتقد أن النفي بـ (لا) في هذا الموضع ليس على أصله في النفي المستقبل، وإنما النفي للماضي بدلالة (كانوا) قبلها وأن يكون النفي هنا نفياً عاماً يشمل الماضي والحال والمستقبل وفقاً لما ذكره ابن عاشور وهذا يؤثر السياق الداخلي في تغيير دلالة الأسلوب.

١) مفاتيح الغيب (٩١/٢٧) وينظر: إبراهيم شاد العـ قـلـا لـسـليمـ (١٠٨/٧) الـ جـرـالـهـ جـيـطـ (٤٨٩/٩) وروحـالـهـ عـانـيـ (١٦٩/٢٥) والـ تـحـرـيرـ وـالـتـوـبـيرـ

٢) مفاتيح الغيب (١٠٥)

٣) التـحـرـيرـ وـالـتـوـبـيرـ (١٧٠/٢٥)

المحور الثاني

من مظاهر الترابط الدلالي والتركيبي في السورة الكريمة

- ويمكنا تناول هذا المحور من خلال العناصر الآتية:

- أولاً: من دلالة الأدوات في السورة الكريمة.

- ثانياً: من دلالة الإحالة في السورة الكريمة.

- ثالثاً: من دلالة الوصف في السورة الكريمة.

- رابعاً: من دلالة التذليل في السورة الكريمة.

- خامساً: من دلالة الترتيب في السورة الكريمة.

- وتناول هذه العناصر سيكون مبنياً على منهج الانتقاء لا الاستقراء التلقائي حتى لا

يطول البحث.

- أولاً: من دلالة الأدوات في السورة الكريمة:

- وقد تنوّعت الأدوات في السورة الكريمة ولكن تناولنا لهذا العنصر سيتم من

خلال النقاط الآتية:

(٤) دلالة العطف:

- وحروف العطف من مظاهر ترابط النص وتماسكه، وقد لوحظ أن السورة

الكريمة قد شاعت حروف العطف فيها، فمن خلال إحصاء حروف العطف الواردة في

السورة الكريمة تبين الآتي:

- تكرر العطف بالواو في (٤) أربعة وثمانين موضعاً، بينما جاء العطف بالفاء في

(١٨) ثمانية عشر موضعاً، وجاء العطف بـ(بل) في أربعة مواضع، وجاءت (أو) في موضعين

اثنين، بينما جاء العطف بـ(ثم) في موضع واحد.

- ولعل غلبة العطف بالواو في السورة الكريمة راجع إلى أنها أمر الباب، وأن

العطف بالواو يتtagم مع الأسلوب السردي للأحداث، ويمكن الوقوف عند بعض الأمور

التي توقف عندها بعض المفسرين بخصوص حروف العطف، وهو ما يمكن عرضه على النحو الآتي:

- دلالة العطف بالواو: ويمكن أن نلخص دلالة الواو كوحدة صوتية صرفية نحوية فهي وحدة صوتية على اعتبار أنها تقوم على صوت واحد أو فونيم واحد، وهي وحدة صرفية على اعتبار ما تؤديه من دلالة الجمع أحياناً، ووحدة نحوية على اعتبار ما تؤديه من وظائف نحوية تركيبية كالعطف بين المفردات والجمل، وعطف القصة على القصة وما يعنينا في هذا البحث هو اعتبارها وحدة نحوية من وحدات تمسك النص وترابطه، وكلام علماء المبني في هذا الصدد ملخصه أن الواو إما أن تكون عاطفة أو ابتدائية وإذا جاءت عاطفة فإنها تدل على الجمع والتشرييك، والمراد بالتشرييك أنها تشرك المعطوفين في اللفظ والمعنى، وقد اختلف التحويون في إفادتها معنى الترتيب، فالبعضرون يرون عدم إفادتها الترتيب والковيرون على العكس منهم، وكونها ابتدائية أنها تكون لابتداء الكلام واستئنافه ومعنى ذلك: أن ما بعدها لا يرتبط بما قبلها لفظاً ولا معنى.(١)

- ونأخذ بعض الأمثلة التي جاء العطف فيها بالواو، والتي منها ما جاء في قوله:
﴿لَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا آلَهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيَّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وَيُعَذَّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِيْنَ بِاللَّهِ ظَرَفَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَأْبَرَ السَّوْءَ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ فقد وردت الواو في الآيتين (١١) إحدى عشرة مرة وتتنوع العطف فيها بين المفردات والجمل، فقد جاءت عاطفة للمفردات في ثلاثة مواضع (المؤمنين والمؤمنات) (المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) بينما جاءت في بقية الموضع عاطفة للجمل

(١) ينظر: رصف المبني (٤٠) وما بعدها بصفحات



- وقد ذهب بعض أهل التأويل إفادتها معنى الترتيب في (الْمُنَفِّقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) إذ نوه الرازي إلى ذلك بقوله: ((واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من الموضع لأمور، أحدها: أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر؛ لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر، وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره.... ولأن المنافق كان يظن أن يخلص للمخلاعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه...))^(١) وكلامه هذا مفاده أنها تفيد معنى الترتيب، ولا مشاحة في ذلك لأن حروف العطف تتقارب في معانيها، وهو ما يظهر فيما بعد.

- أما عن عطف الجمل في الآيتين المذكورتين، فقد جاء العطف بالواو بين جملة تي ﴿لَيْدَ خَلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ حَلِيلِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ مثيراً جدلاً بين أهل التأويل، فقد ذهب ابن عطية إلى أن الواو تفيد ترتيباً لكن من جهة أخرى يقول: ((وَقُولِهِ تَعَالَى: وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) فيه ترتيب الجمل في السرد لا ترتيب وقوع معانيها، لأن تكفير السيئات قبل إدخالهم الجنة).^(٢) واتفق معه أبو السعود ولكنه برر التقديم بقوله: ((وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أن الترتيب في الوجود على العكس، للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى)).^(٣) وعلى هذا فالواو هنا لمطلق الجمع لا للترتيب.

- وقد أضاف الرازي رأياً آخر إضافة إلى الرأي السابق قائلاً: ((قال الله تعالى: وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال؟ نقول: الجواب عنه من وجهين، أحدهما: الواو لا تقتضي الترتيب. الثاني: تكفير السيئات

١) مفاتيح الغيب (٨٤/٢٧)

٢) المحرر الوجيز (٦٦٨/٧)

٣) إرشاد العقل السليم (١٠٥/٧)

٤) ولكنه ذكر ثلاثة أوجه.

والمحفورة من توابع كون المكلف من أهل الجنة، فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة. والثالث: وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهي في الجنة، و كان الإنسان في الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات والمعنوية كالغضب والشهوة، وهو التكفير، وتثبت فيه الصفات الملكية، وهي أشرف أنواع الخلال^(١) بينما توجه الألوسي توجها آخر انطلاقا من الدالة المعجمية للكفر والذي يدل على معنى الستر قائلا: ((ويجوز عندي أن يكون التكفير في الجنة على أن المعنى يدخلهم الجنة ويغطي سيناتهم ويستترها عنهم، فلا تمر لهم ببال ولا يذكرونها أصلا، لثلا يخرجلوا فيتقدر صفو عيشهم)).^(٢) وهذا أسهمت الواو في ثراء المعنى فكل ما نكره العلم يحتمله النص الكريم.

- وإذا انتقلنا إلى العطف في قوله: (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) فالعاطف بالواو قبل (غضب) على أصله وكذلك الواو قبل (ساعت) أما قبل (عن) و (أعد) فقد ذهب بعض أهل التأويل إلى أن الواو هنا تقارضت مع الفاء في المعنى، وقد بينوا علة هذا التعارض فقال أبو السعود: ((...وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ) عطف على ما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا، والواو الآخرين مع أن حقهما الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها، للإيدان باستقلال كل منهما في الوعيد وأصالته من غير اعتبار استبعاد بعضها لبعض).^(٣)

- وقد اختلف بعض أهل التأويل في كنه الواو في قوله: (ذَلِكَ مَثُلُّهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثُلُّهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَرَزَعٌ أَخْرَجَ شَطَئَهُ،) هل هي عاطفة أو استثنافية؟ وقد حكى الطبراني هذين القولين مرجحا أحدهما على الآخر قائلا: ((... عن الضحاك..... قال: هذا مثلهم في

١) مفاتيح الغيب (٨٣/٢٧)

٢) روح المعانى (٩٤/٢٥)

٣) إرشاد العقل السليم (١٠٥/٧) وينظر: روح المعانى (٩٥/٢٥)



التوراة، ومثل آخر في الإنجيل (كَرَعَ أُخْرَجَ شَطْكُهُ)، وقال آخرون: هذان المثلان في التوراة والإنجيل مثلهم..... وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: مثلهم في التوراة غير مثلهم في الإنجيل، وأن الخبر عند مثلهم في التوراة تناهى عنده قوله: (أَدَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ) وذلك أن القول لو كان كما قال مجاهد من أن مثلهم في التوراة والإنجيل واحد لكن التنزيل: ومثلهم في الإنجيل وكزرع أخرج شطاك، وكان تمثيلهم بالزرع معطوفا على قوله: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ) حتى يكون ذلك خبراً عن أن ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلام بغير واو في قوله: (كزرع) دليل بين على صحة ما قلنا، وأن قوله: (وَمَتَهُمْ فِي إِنْجِيلٍ) خبر مبتدأ عن صفتهم التي في الإنجيل دون ما في التوراة منها...) (١) وما يلفت النظر في هذا النص البديع هو البراعة في توظيف السياق اللغوي (الداخلي) في الترجيح بين الآراء.

- دلالة العطف بالفاء: والفاء تأتي على ثلاثة مواضع: الأول: تكون عاطفة في المفردات والجمل، وتفيض معنى الترتيب لفظاً ومعنى، أو لفظاً دون معنى، وتفيض معنى التعقيب، وقد يأتي مع الترتيب والتعليق معنى السبيبية، وقد ذهب الكوفيون إلى أنه لا يلزم إفادتها معنى الترتيب، ويمكن أن يقال: إنها تدل أصلاً على معنى الترتيب وقد لا تدل عليه أحياناً ويكون خروجاً لها عن مقتضى أصلها ولا غرو في ذلك فالتضارض بين حروف العطف واقع، والثاني: أن تقع في جواب الشرط وحينئذ تكون ملزمة لمعنى السبيبية مع إفادتها العطف والترتيب، والثالث: أن تكون زائدة دخولها كخروجها. (٢) وقد تنوّعت دلالة الفاء في السورة الكريمة، ووفقاً لما ذكره علماء المبني فإنها جاءت في كل الموضع دالة على الترتيب والتعليق باعتبار هذين المعنيين ملازمتين لها على الدوام حال

(١) جامع البيان (٧١/١١) وما بعدها

(٢) ينظر: رصف المبني (٣٦٧) وما بعدها

كونها عاطفة، وجاءت دالة على السبيبة إضافة إلى المعنيين الأصيلين في موضع بعض جمل الشرط.

- ولكن هناك بعض المواضع استدعت وقوف بعض أهل التأويل عندها ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ كَيْنَةً عَلَيْهِمْ وَأَثْبَمْهُمْ فَتَحَكَّمَ قَرِيبًا﴾^(١) فابن عاشور يرى أن الفاء في قوله: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) ليست للتعليق معللاً ذلك بقوله: ((لأن علم الله بما في قلوبهم ليس عقب رضاه عنهم ولا عقب وقوع بيعتهم؛ فتعين أن تكون فاء فصيحة تفصح عن كلام يقدر بعدها، والتقدير: فلما بايعوك علم ما في قلوبهم من الكآبة، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الأخبار بأن الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برهاظ الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنایته بهم...))

- ولكن الرازي رأى أن الفاء على أصلها في إفاده معنى التعقيب مبرراً ذلك بقوله ((والفاء للتعليق، وعلم الله قبل الرضا، لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق، فرضي عنهم، فكيف يفهم التعقيب في العلم؟ نقول: قوله: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) متعلق بقوله: (إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) كما يقول القائل: فرحت أمس إذ كلمت زيداً فقام إلي... فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً كذلك... والفاء في قوله: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ كَيْنَةً عَلَيْهِمْ) للتعليق الذي ذكرته)).^(٢) والقول ما قال الرازي جرياً للكلام على أصله وعدم تعارضه مع المعنى المراد.

- دالة العطف بـ(بل): وهي تأتي في كلام العرب على نمطين، الأول: أن تكون حرف عطف مشركاً ما بعده مع ما قبله في اللفظ لا المعنى، الثاني: أن تكون حرف

(١) التحرير والتبيير (٢٥/١٧٥)

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/٩٥ وما بعدها)

ابتداء، وذلك إذا لم يقع تشيريك بين ما بعدها وما قبلها، وهي في كلتا الحالتين تفيد معنى الإضراب.^(١)

- وقد ورد العطف بـ(بـ) في السورة الكريمة في أربعة مواضع كلها في سياق الحديث عن موقف الأعراب، وهو مناسب للحالة التي كانوا عليها من الاضطراب والقلق، ومن المواقع التي علق عليها الرزمخشيри ما ورد في قوله تعالى: ﴿سَيُقُولُ الْمُخْلَفُونَ إِذَا آنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِمِ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) حيث قال: (إإن قلت: ما الفرق بين حرف الإضراب؟ قلت: الأول إضراب معناه: رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد. والثاني: إضراب عن وصفهم بالإضافة إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعلم منه، وهو الجهل وقلة الفقه...))

- دلالة العطف بـ(أوـ): وهي تأتي عاطفة مفردا على مفرد أو جملة على جملة، وتدل على معانٍ أبرزها: التخيير والإباحة ولا يتحقق قان إلا بعد الطلب، وتأتي للشك والإبهام ولا يتحقق قان إلا بعد الخبر.^(٣)

- وقد وردت (أوـ) في موضعين، الأول: في قوله: (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا) والثاني في قوله: (قُلْ لِلْمُحَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتَلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) لا خلاف بين أهل التأويل في أن (أوـ) في الموضع الأول تفيد معنى الإباحة، ولكن اختلفوا في الموضع الثاني؛ فبعضهم جعل (أوـ) عاطفة تفيد معنى التخيير، وبعضهم جعلها استثنافية، وعلى هذا تكون متقاربة مع الواو يقول النحاس: ((قال الكسائي: (تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) على النسق، وقال أبو إسحاق: (أوـ

١) ينظر: رصف المبني (١٥٢ وما بعدها)

٢) الكثاف (٢٥٧/٢) وينظر: البحر المحيط (٤٩٠/٩)

٣) ينظر: رصف المبني (١٣٦ وما بعدها)

يسلمون) مستأنف، والمعنى: أو هم يسلمون ((١)) بينما قطع جمهرة المفسرين بأنها تفيد معنى التخيير؛ قال الزمخشري: ((أو يُسْلِمُونَ) معطوف على (تُقْتَلُوهُمْ) أي: يكون أحد الأمرين، إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما.....)) (٢) وقد احتاج الألوسي لذلك بقراءة أبي وزيد بن علي (أو يسلموا) قائلًا: ((تُقْتَلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) على معنى يكون أحد الأمرين، إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما، ف((أو) للتنوع والحصر لا للشك وهو كثير ويدل لذلك قراءة أبي وزيد بن علي (أو يسلموا) بحذف النون: لأن ذلك للناصب وهو يقتضي (أن) أو بمعنى (إلا) أي: إلا أن يسلموا، فيفيد الحصر، أو بمعنى (إلى) أي: إلى أن يسلموا، والغاية تقتضي أنه لا ينقطع القتال بغير الإسلام، فيفيده - أيضًا -...)) (٣)

- دلالة العطف بـ(ثـمـ): وقد اتفق النحويون على أنها عاطفة بين المفردات والجمل وأنها كالواو، إلا أن البصريين والковيين اختلفوا في دلالتها على الترتيب، فذهب الأولون إلى أن إفادتها الترتيب ملزمة لها لا تنفك عنها، في حين يرى الكوفيون غير ذلك والراجع قول البصريين: لموافقته كلام العرب. (٤) وقد وردت في السورة الكريمة في موضع واحد وهو قوله: ﴿ وَلَوْ قَتَلْكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّا أَلَّا دَبَرَتُمْ لَا يَجِدُونَ رَبَّهُمْ وَلَيَأْنِسُوا بِمَا هُنَّا فِي هُنَّا ﴾ (٥) وقد بين ابن عاشور القيمة الدلالية للعطف بـ(ثـمـ) في هذا الموضع قليلاً: ((ولـثـمـ))

للترادي الرتبـيـ، فإن عدم وجـدانـ الـوليـ والنـصرـ أـشدـ علىـ المـنهـزمـ منـ انـهزـامـهـ لأنـهـ حينـ يـنهـزمـ قدـ يـكونـ لهـ أـمـلـ بـأنـ يـسـتـنـصـرـ مـنـ يـنـجـدـهـ، فـيـكـرـ بهـ عـلـىـ الـذـينـ هـزـموـهـ، فـإـذـ المـريـجـ دـلـالـةـ حـرـوفـ الـجـرـ: (٦)

(١) إعراب القرآن (١٩١/٢)

(٢) الصناف (٢٥٧/٣) وينظر: إرشاد العقل السليم (١٠٩/٧) ونظم الدرر (٢٠٧/٧)

(٣) روح المعانـي (١٠٤/٢٥)

(٤) رصف المـبـانـيـ (١٧٥ـ وـمـاـ بـعـدـهـ)

(٥) التحرير والتبيـرـ (١٨٢/٢٥)

- لا شك أن حروف الجر لها أثر واضح في تنوع دلالة الأفعال، ونضرب أمثلة على سبيل المثال لا الحصر من خلال السورة الكريمة موضوع الدراسة على النحو الآتي:
- فجملة: (سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِكَ بَاسِ شَدِيدٍ) فيها ملمع المعه إليه ابن عاشور؛ إذ يقول: ((وعدى فعل (ستدعون) بحرف إلى؛ لإفادة أنها مضمنة معنى المشي وهذا فرق دقيق بين تعديبة فعل الدعوة بحرف إلى وبين تعديته بـ(اللام)..))^(١)
 - ويكتشف الألوسي عن سر تعديبة (رضي) بحرف الجر (عن) دون (الباء) في جملة (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) – فائلاً: ((والرضا يقابل السخط، وقد يستعمل بـ(عن) وـ(الباء) ويعدى بنفسه، وهو مع (عن) إنما يدخل على العين لا المعنى، ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا، وما في الآية من هذا القسم، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المبایعة....)).^(٢)
 - وفي قوله: (وَهُوَ الَّذِي كَفَأَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيْكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مِنْ مَكَّةَ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرْكُمْ عَلَيْهِمَا) يقول ابن عاشور: ((فعدى (أظفركم) بـ(على) لتضمينه معنى (أليكم) ولا فحقه أن يعود بالباء...)).^(٣)
 - ومن المعلوم أيضاً أن حروف الجر تختلف دلالاتها وفقاً لموقعها في التركيب وما يحدده السياق، ونعرض أنموذجاً واحداً يعكس هذه الروية من خلال السورة الكريمة، فحرف الجر (من) الوارد في قوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) حيث قال النحاس: ((يجوز أن تكون (من) ههنا لبيان الجنس... ويجوز أن تكون للتبعيض، أي: وعد الله الذين ثبتوا على الإيمان منهم مغفرة وأجرا عظيماً...)).^(٤) في حين رجح كونها للجنس في كتاب آخر، إذ يقول: ((تكون (منهم
-
- ١) السابق (٢٥/١٧١)
 ٢) روح المعاني (٢٥/١٠٧)
 ٣) التحرير والتبيير (٢٥/١٨٦)
 ٤) معانٰ القرآن (١٥/٥١٨) وينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٩٥)

بيان الجنس أولى؛ لأنها إذا جعلت للتبعيض - كان معنى آمنوا ثبتو، وذلك مجاز، ولا يحمل الشيء على المجاز، ومعناه: صحيح على الحقيقة...))^(١) وقد قال بالأول ابن عطية معللاً لذلك بقوله: ((... هي بيان الجنس وليس للتبعيض، لأنه وعد مرج للجميع)).^(٢)

ثانياً: من دلالة الإحالـة في السورة الكريمة:

- وتحقق هذه الإحالـة بأكثر من وسيلة، منها: الضمائر وأسماء الإشارة وأسماء الموصولة، وهذه العناصر من أهم ما يساعد على ترابط النص وتماسكه.

- يكـنـى بالضمير عن الاسم الظاهر، ومن ثمـ كانـ الـرـيـطـ بالـضـمـيـرـ بـدـيـلاـ لـإـعـادـةـ الذـكـرـ أـيـسـرـ فـيـ الاستـعـمالـ وـأـدـعـيـ إـلـىـ الـخـفـةـ وـالـاـخـتـصـارـ ثـالـثـاـ هـوـ الـاقـتـصـارـ، وـهـذـهـ العـنـاـصـرـ الـثـلـاثـةـ مـنـ مـطـالـبـ الاستـعـمالـ الـلـغـوـيـ).^(٣) والضمير في ذاته كلمة مجهمولة الهوية، تثير في ذهن المستقبل الرغبة في تذكر ما سبقها في النص، ليقوم بسد الفراغ الدلالي الذي تحدثـهـ هذهـ الكلمةـ المجهولةـ وهوـ ماـ يـعـرـفـ بـعـودـ الضـمـيـرـ، فـلـابـدـ لـلـضـمـيـرـ مـنـ عـائـدـ يـتـعـلـقـ بـهـ وـهـوـ يـعـودـ عـلـيـهـ، وـبـذـلـكـ يـجـدـ مـسـتـقـبـلـ النـصـ نـفـسـهـ يـتـحـركـ دـاـخـلـ النـصـ لـلـأـمـامـ وـلـلـخـلـفـ، ليـرـيـطـ الضـمـيـرـ بـمـاـ يـعـودـ عـلـيـهـ، وـمـنـ ثـمـ يـتـحـقـقـ الـرـيـطـ بـيـنـ عـنـاـصـرـ النـصـ وـوـحدـاتـهـ).^(٤) وـكـذـلـكـ الـحـالـ فـيـ أـسـمـاءـ الإـشـارـةـ وـأـسـمـاءـ المـوـصـولـةـ، فـهـيـ أـدـوـاتـ تـحـثـ السـامـعـ أـوـ القـارـئـ بـلـ وـتـجـبـرـهـماـ عـلـىـ الـبـحـثـ عـنـ مـعـنـاهـاـ دـاـخـلـ النـصـ.

- والضمائر بشـتـىـ أـنـوـاعـهـ شـائـعـةـ فـيـ السـورـةـ الـكـرـيمـةـ، حيثـ بلـغـتـ نـسـبـةـ وـرـوـدـهـاـ فـيـ السـورـةـ الـكـرـيمـةـ مـاـ يـقـرـبـ مـنـ (١٥٤ـ) مـائـةـ وـأـرـبـعـ وـخـمـسـيـنـ مـرـةـ، وـلـكـنـ ضـمـائـرـ الـغـيـةـ تـعـدـتـ (٩٠ـ) التـسـعـينـ مـرـةـ، بـيـنـماـ جـاءـتـ ضـمـائـرـ الـخـطـابـ (٣٣ـ) ثـلـاثـاـ وـثـلـاثـيـنـ مـرـةـ، وـضـمـائـرـ

١) إعراب القرآن (١٩٧/٢)

٢) المحرر الوجيز (٦٩٣/٧) وينظر: مفاتيح الغيب (١٠٩/٢٧)

٣) البيان في روايـةـ القرآنـ (١٣٧/١)

٤) درـوـنـجـوـ الـجـملـةـ فـيـ تـفـسـيـرـاـ لـنـصـ منـهـجـ وـتـطـبـيقـ (٢٥٨ـ) بـحـثـ مـشـهـورـ فـيـ كـتابـ المؤـتمرـ الثـالـثـ للـعـرـبـيـةـ وـالـدـرـاسـاتـ النـحـوـيـةـ كـلـيـةـ دـارـ الـعـلـمـ جـامـعـةـ الـقـاهـرـةـ لـدـكـتـورـةـ /ـلـيلـيـ يـوسـفـ حـمـيدـ



التكلم بلغت (١٤) أربع عشرة مرة، وجاء من الأسماء الموصولة (ما) جاءت ثلاث مرات و(الذى) ثلاث مرات، و(التي) مرة واحدة، و(الذين) سبعة مرات. وجاء من أسماء الإشارة (هذه)مرة واحدة، و(ذلك) خمس مرات.

- ويمكن الاقتصار على نماذج من ذلك على النحو الآتي:

- (١) ففي الآيات الأربع الأولى نلاحظ تكرر ضمير الخطاب الموجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويكشف أبو حيyan عن هذه الدلالة بقوله: ((واشتراك الخمسة في الخطاب له - صلى الله عليه وسلم - تأييسا له وتعظيمها ل شأنه، ولم يأت بالاسم الظاهر؛ لأن في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر.))^(١)
- (٢) ثم التنويع الذي بدا في مطلع السورة أيضاً حيث عبر بضمير (نا) الدالة على العظمة في (إِنَّا فَتَحْنَا) ثم العدول عنه إلى ضمير الغيبة في قوله (يغْفِرُ) وقد كشف الرازى عن تلك الدلالة بقوله: ((وهنها مسألة أخرى، وهو أن الله تعالى قال: (إننا فتحنا) ثم قال: (ليغفر لك الله) ولم يقل: إننا فتحنا لنغفر لك، تعظيمها لأمر الفتح، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة، لكنها عامة، لقوله: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ... ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة في حق النبي - صلى الله عليه وسلم - العصمة، فذلك لم يختص ببني إسرائيل غيره من الرسل كان معصوماً، وإتمام النعمة كذلك، قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي)... وكذلك الهدایة قال الله تعالى: (يهدي إلينه من يشاء) فعمم، كذلك النصر، قال الله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصوروون) وأما الفتح: فلم يكن لأحد غير النبي - صلى الله عليه وسلم - فعظمته بقوله: (إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً) وفيه التعظيم من وجهين: أحدهما: (إننا)، وثانيهما: (لك) أي: (لأجلك على وجه المنة).^(٢)

١) البحر المحيط (٤٨٤/٩)

٢) مفاتيح الغيب (٧٩،٨٠/٢٧)

(٢) وثمة جدل دار بين أهل التأويل في عود الضمائر في قوله تعالى: «إِنَّمَا يُمْنُو أَبِيلَهُ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِزُوهُ وَتُؤْقِرُوهُ وَتُسَيِّحُوهُ بُكَرَةً وَأَصْبَلًا» ﴿١﴾ فما يفهم من كلام الطبرى أن الضميرين في (تَعْزِزُوهُ وَتُؤْقِرُوهُ) يعودان على الرسول، والضمير في (تُسَيِّحُوهُ) يعود على الله (١) وعليه فهو يرى تنوع عود الضمائر، في حين رأى غيره عودة الضمائر الثلاثة إلى الله تعالى ومنهم الزمخشري؛ وقد علق قائلاً: ((والضمائر لله عز وجل... ومن فرق الضمائر فقد أبعد)). (٢) وقد علق ابن عطية على الرأيين قائلاً: ((وقال بعض المتأولين: الضمائر في قوله تعالى: (تَعْزِزُوهُ وَتُؤْقِرُوهُ وَتُسَيِّحُوهُ) هي كلها لله تعالى. وقال الجم هور: (تَعْزِزُوهُ وَتُؤْقِرُوهُ) هما للنبي - صلى الله عليه وسلم - (وَتُسَيِّحُوهُ) هي لله تعالى....))). (٣) وذكر الرازي

الرأيين مرجحاً عود الضمائر كلها لله تعالى. (٤) وهو أيضاً ما أيده ابن عاشور مدللاً على ذلك بقوله: ((وضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة لأن إفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين دليل على أن المراد أحدهما، والقرينة على تعيين المراد ذكر (تُسَيِّحُوهُ) ولأن عطف ورسوله على لفظ الجلالة اعتداد بأن الإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم - إيمان بالله، فالمقصود هو الإيمان بالله....)). (٥) بينما رأى الخطيب تنوع عود الضمائر معللاً لذلك بقوله: ((على أننا نخالف هذا الرأي، ونرى - والله أعلم - أن الضمائر بعضها عائد إلى الله - سبحانه وتعالى - وبعضها عائد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالتعزير للرسول، وهو في الوقت نفسه تعزير لله، ونصر لرسول الله وتثبيده لدینه، ولكن إضافة هذا التعزير للرسول تكريمه له، لأنه القائم على دين الله، وحامل راية الجهاد في سبيل الله ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾

(١) جامع البيان (٤٧/١١)

(٢) الصناف (٢٥٤/٣)

(٣) المحرر الوجيز (٦٧١/٧)

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب (٧٦/٢٧)

(٥) التحرير والتواتر (١٥٦/٢٥)

وَاتَّقِعُوا أَنُورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧] فالضمائر هنا كلها عائدة إلى الرسول الكريم من غير شك، والقرآن الكريم يفسر بعضه ببعض وأما التوقيير فهو للله وللرسول، وأما التسبيح بكرة وأصيلا فهو خالص لله وحده. (١) وهذا هو الرأي الأقرب لأنه يمثل وجهة نظر جمهرة المفسرين كما صرخ بذلك ابن عطية ولأنه مؤيد بنص آخر من القرآن.

(٤) كما كانت الإشارة في قوله: (فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ) مختلف في إحالتها فقد رأى الألوسي أنها إشارة إلى مغانم خير. (٢) في حين قال أبو حيان: ((الإشارة بهذه إلى البيعة والخلص من أمر قريش بالصلح، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم وابنه. وقال مجاهد: مغانم خير.)) (٣) والرأيان محتملان ولا تعارض بينهما، فقد عجل الله لرسوله بالصلح المرشح للفتح، وعجل له فتح خير.

- ثالثاً: من دلالة الوصف في السورة الكريمة:
- تعدد الأوصاف في السورة الكريمة، وتعددت في أشكالها بين وصف بالمفرد ووصف بالجملة، ويمكن الاكتفاء بذكر نماذج من هذين الشكليين:
- من دلالة الوصف بالمفرد: نجد وصف الفتح في الآية الأولى بـ(أمبينا) له دلائله إذ كان يمكن الاقتصار على (فتحاً) ولكن قيمة هذا الوصف تتضح في مناغمتها السياق الخارجي، المتمثل في الحالة التي كان عليها كثير من صحابة رسول الله بعد إبرامه صلح الحديبية مع مشركي مكة، وهي حالة عدم وضوح الحكم من هذا الصلح الذي سماه الله فتحاً، ومن ثم جاء الوصف (أمبينا) ليمحوه هذا التردد ويزيل عدم الوضوح.
- وكذلك وصف النصر بـ(عزيزنا) وصف له قيمته الدلالية، ويظهر ذلك من خلال التفريق بين النصر العزيز وغيره، وقد وضح هذا الفرق ابن عطية، حيث قال: ((والنصر

(١) التفسير القرآني للقرآن (٤٠٥/٧)

(٢) روح المعانى (١٠٩/٢٥)

(٣) البحر المحيط (٤٩٣/٩)

العزيز هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه، والنصر غير العزيز هو الذي مُضْمَنَه العملية ودفع العدو فقط).^(١) و قال القرطبي: ((غالباً من يعا لا يتبعه ذل))^(٢) و قال الآلوسي: ((والمعنى: ينصرك الله نصراً يقل وجوده ويصعب مثاله))^(٣) وكلها معانٌ تتناغم مع الحدث، ففتح مكة كانت فيه الغلبة والظهور على العدو، وهو نصر أعقبه عزلانل وهو نصر قل وجوده وصعب مثاله.

- وكذلك إجراء وصف الإيمان على الرجال والنساء في قوله: (ولألا رجال
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنَّ تَطْعُمُهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) له دلالته

التي يكشف عنها ابن عاشور بقوله: ((وإجراء الوصف على الرجال والنساء بالإيمان يشير إلى أن وجودهم المانع من حصول مضمون الجواب هو الوجود الموصوف بـيمان أصحابه، ولكن الامتناع ليس معلقاً على وجود الإيمان بل على وجود ذات المؤمنين والمؤمنات بينهم..)).^(٤)

- من دلالة الوصف بالجملة: وقد برزت هذه الدلالة في غير موضع من مواضع السورة الكريمة، فعلى سبيل المثال وصفت المغافنـ بحملتين في موضعين متتاليين، يـ تمثـلانـ في قوله تعالى: ﴿ وَمَغَافِنَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَافِنَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ فقد وصفت المغافنـ الأولى بحملة (يأخذونها) والثانية بحملة (تأخذونها) وهذا الوصف له دلالة التي أبرزها ابن عاشور بقوله: ((وفائدة وصف المعلم بحملة (يأخذونها) تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريباً، وبشارة لهم بأنهم لا يهلكـ منهم أحد قبل رؤية

١) المحرر الوجيز (٦٦٧/٧)

٢) الجامع (٩٢/١٥)

٣) روح المعانـي (٩٢/٢٥)

٤) التحرير والتبيـر (١٨٩/٢٥)

هذا الفتح...)) وقال - في الموضع الثاني :- ((ووصف المفانم بجملة (لأخذونها) لتحقق الوعد.))^(٢)

- رابعاً: من دلالة التذليل في السورة الكريمة:
- تذليل آيات السورة الكريمة من العناصر التي يجب الوقوف عندها، لأن مطلع السورة يتضمن مقصودها الأعظم، فالسورة استهلت بالفتح، وكل ما جاء من أحداث يحمل هذا المعنى العظيم، ومطلع كل آية بمثابة باب مفتوح وتذليل كل آية بمثابة غلق لهذا الباب، وهذا لا يعني انفصالاً بين الآية وما قبلها وما بعدها، وإنما يعني إحكام التواصل بين غرف البيت الواحد الذي له باب رئيس يمثل مطلع السورة، وتواصل جميع عناصر البيت ونواحيه من الداخل.
- ولإبراز القيمة الدلالية لتذليل آيات السورة الكريمة، يمكن أن نقف عند أنموذجين، يتضح من خلالهما مدى اهتمام أهل التأويل بهذا الجانب.
- الأول: ما عقده أهل التأويل من مقارنة بين تذليل قوله تعالى: ﴿وَلَلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيِّمًا حَكِيمًا﴾ وقوله: ﴿وَلَلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَرَبِيًّا حَكِيمًا﴾ فقد قال ابن عطية: ((وقال تعالى في هذا: (علِيمًا حَكِيمًا فذكر صفة العزة من حيث تقديم الانتقام من الكفار، وفي التي قبل قرن بالحكمة والعلم من حيث وعد بمغيبات، وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة، ومنها نقمته من المنافقين والمشركيين، فلكل لفظ وجهه من المعنى))^(٣) وقال الكرماني: ((قوله - عز وجل -: ﴿وَلَلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وبعده (عَرَبِيًّا حَكِيمًا) لأن الأول متصل بإنزال السكينة واخذ ياد إيه مان

(١) التحرير والتبيير (٢٥/٦٧)

(٢) السابق (٢٥/٦٧)

(٣) المحرر الوجيز (٧/٠٦)

المؤمنين: فكان الموضع موضع علم وحكمة..... وأما الثاني الذي بعده، فمتصل بالعذاب والغضب... فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة.)^(١) وقد كان اهتمام الزمخشري بالموضع الأول فأضاف إلى ما قيل ((أثبت العلم إشارة إلى أنه لا يعزّب عنَه مِنْقَالُ دُرْقِي السَّمَوَاتِ وَلَا في الْأَرْضِ)) وأيضاً لما ذكر أمر القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى، قوله (حكيما) بعد قوله: (عليما) إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم؛ فإن الحكيم من يعمل شيئاً متقدناً ويعلمه، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقاً لا يقال له: حكيم، ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له: حكيم...)^(٢) وكل ما ذكره العلماء يتعاضد في إظهار إحكام النص القرآني البديع.

- الثاني: التذليل في قوله تعالى: ﴿وَلَلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال ابن عاشور: ((والتأذليل بكل منه تعالى (غفوراً) صيغة المبالغة، وضم (رحيم) إليه الدال على المبالغة دون التذليل بما يفيد كونه سبحانه معدباً مما يدل على سبق الرحمة ما فيه...))^(٣)

- وكذلك لو تبعنا تذليل كل آية من آيات السورة الكريمة لشاعت منه أنوار دلالية وإشارات ومنح إلهية، ولو لا خشية الإطالة لحاول العبد المسكين.

- خامساً: من دلالة الترتيب والتركيب في السورة الكريمة:

- اهتم أسلافنا الأولون بما لترتيب الكلمات داخل الجملة والجمل داخل النص من أثر واضح في الدلالة، إذ يقول الجرجاني - معلقاً على أبيات للبحتري - ((إذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازاً في نفسك، فعد فلتظرك في السبب واستقص في النظر؛ فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وعاد وكسر، وتوكى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو؛ فأطاب في

١) أسرار التكرار في القرآن (١٩٤)

٢) الكثاف (٨٧٣)

٣) التحرير والتبيير (١٠٠/٢٥)



ذلك كله...) (١) ويزيد الرمانى هذه الرؤية وضوحاً عندما يقول -موضحاً مفهوم الفصاحة- : ((...لا تظهر في إفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له دخل فيه، وقد تكون بالموضع... ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها...)) (٢) لعل هذين النصين من نصوص عديدة منتشرة في تصاعيف كتبتراثنا فيهما كافية للكشف عن القيمة الدلالية للترتيب بكل أشكاله وأنماطه سواء أكان على مستوى الكلمات أو الجمل، ونحاول تطبيق هذا العنصر من خلال النماذج الآتية:

- تأمل دلالة موقع الجملة بين الجمل من خلال النموذج الآتي: قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيمَانَنَا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْمًا حَكِيمًا لَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِنِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَئْنَبُرُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّاهِرَاتِ بِاللَّهِ ظَرَّ الْسَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنُهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

- وكان اهتمام بعض المفسرين بموقع الجملة المكررة في هذا النص ﴿وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حيث قال الرازى: ((ذكر جنود السماوات والأرض قبل إدخال

(١) دلائل الإعجاز (٦٧) وما بعدها

(٢) النكت في إعجاز القرآن (١٠٧) والكلام في كتب العلماء لا سيما البلاغيين في هذا الصدد كثيراً له ثراء وفائدة.

المؤمنين الجنة، وذكر هنـا تعذيب الكـافـار وإعداد جـهـنـم، نـقـول: فـيـه تـرـتـيـب حـسـن لـأـن الله تعالى يـنـزـل جـنـود الرـحـمـة، فـيـدـخـل الـمـؤـمـنـين مـكـرـمـين مـعـظـمـين الـجـنـة، ثـم يـلـبـسـهـم خـلـع الـكـرـامـة بـقـوـلـه: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ... ثـم تكون لـهـم الـقـرـبـى والـزـلـفـى بـقـوـلـه ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وـبـعـد حـصـول الـقـرـبـى والـعـنـدـيـة لا تـبـقـى وـاسـطـةـ الـجـنـود فالـجـنـود فيـالـرـحـمـة أـوـلا يـنـزـلـون وـيـقـرـبـون آـخـرـاـ. وـأـمـا فـي الـكـافـرـ، فـيـغـضـبـ عـلـيـهـ أـوـلا فـيـعـدـ ويـطـرـدـ إـلـى الـبـلـادـ النـاـئـيـةـ عنـ نـاـحـيـةـ الرـحـمـةـ. وـهـيـ جـهـنـمـ وـيـسـلـطـ عـلـيـهـمـ مـلـائـكـةـ الـعـذـابـ وـهـمـ جـنـودـ اللـهـ كـ ماـ قـالـ تـهـالـيـ: ﴿ عَيْنَاهَا مَلَائِكَةٌ غَلَاظٌ شَدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرْتُمْ ﴾ ولـذـكـرـ ذـكـرـ جـنـودـ الرـحـمـةـ أـوـلاـ وـالـقـرـبـةـ بـقـوـلـهـ: ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ آـخـرـاـ، وـقـالـهـهـنـاـ: ﴿ وَغَضـبـ اللـهـ عـلـيـهـمـ وـلـعـنـهـمـ ﴾ وـهـوـ إـبـعـادـ أـوـلاـ وـجـنـودـ السـمـاـواتـ وـالـأـرـضـ آـخـرـاـ.) (١)

- ثـمـ تـأـمـلـ دـلـالـةـ التـرـقـيـ النـاتـجـةـ عـنـ التـفـكـيرـ الـخـالـيـ منـ الـغـيـرـةـ وـالـنـخـوـةـ فـيـ قـوـلـهـ تعالىـ: (سـيـقـوـلـ لـكـ الـمـحـلـفـوـتـ مـنـ الـأـعـرـابـ شـغـلـتـنـاـ أـمـوـلـنـاـ وـأـهـلـنـاـ فـاـسـتـغـفـرـلـنـاـ) يـقـولـ الـأـلـوـسـيـ: ((وـلـعـلـ ذـكـرـ الـأـهـلـ بـعـدـ الـأـمـوـالـ مـنـ بـابـ التـرـقـيـ؛ لـأـنـ حـفـظـ الـأـهـلـ عـنـ ذـوـيـ الـغـيـرـةـ أـهـمـ مـنـ حـفـظـ الـأـمـوـالـ)). (٢) وـيـؤـيدـهـ مـاـ ظـهـرـ مـنـهـمـ بـعـدـ عـلـمـهـمـ بـأـنـ رـسـوـلـ اللـهـ وـأـصـحـابـهـ سـيـحـوـزـوـنـ مـغـانـمـ خـيـرـ فـقـالـوـاـ: (إـذـا أـنـطـلـقـتـمـ إـلـىـ مـغـانـمـ لـتـأـخـذـوـهـاـ ذـرـوـنـاـ تـنـتـيـعـكـمـ)

- وـ فـيـ قـوـلـهـ تـهـالـيـ: (لـيـسـ عـلـىـ الـأـعـمـىـ حـرـجـ) وـلـاـ عـلـىـ الـأـعـرـاجـ حـرـجـ وـلـاـ عـلـىـ الـمـرـيضـ حـرـجـ) لـطـائـفـ وـنـفـحـاتـ أـشـارـ إـلـيـهـاـ الرـازـيـ حـيـثـ قـالـ: ((اقـتـصـرـ مـنـهـاـ عـلـىـ الـأـصـافـ الـثـلـاثـةـ، لـأـنـ الـعـذـرـ إـمـاـ أـنـ يـكـونـ بـإـخـلـالـ فـيـ عـضـوـ أـوـ بـإـخـتـلـالـ فـيـ الـقـوـةـ وـالـذـيـ بـسـبـبـ إـخـلـالـ الـعـضـوـ، فـإـمـاـ أـنـ يـكـونـ بـسـبـبـ اـخـتـلـالـ فـيـ الـعـضـوـ الـذـيـ بـهـ الـوـصـولـ إـلـىـ الـعـدـوـ وـالـاـتـقـالـ فـيـ مـوـاضـعـ الـقـتـالـ، أـوـ فـيـ الـعـضـوـ الـذـيـ تـتـمـ بـهـ فـائـدـةـ الـحـصـولـ فـيـ الـمـعـرـكـةـ وـالـوـصـولـ وـالـأـوـلـ هـوـ الـرـجـلـ، وـالـثـانـيـ هـوـ الـعـيـنـ؛ لـأـنـ بـالـرـجـلـ يـحـصـلـ الـاـنـتـقـالـ، وـبـالـعـيـنـ يـحـصـلـ الـاـنـتـفـاعـ فـيـ الـطـلـبـ

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٨٥)

(٢) روح المعانى (٢٥/٩٨)



والهرب... قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة، لأن الآفة في القوة تزول وتطرأً، والآفة في الآلة إذا طرأت لا تزول؛ فإن الأعمى لا يعود بصيراً، فالعذر في محل الآلة أتم.. قنطرة الأعمى على الأعرج، لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال، والأعرج إن حضر راكباً أو بطرق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيرها..)) (١) وكلام الشيخ غني عن التعليق أو التوضيح والتفصيل.

- وقد عقد الرازي مقارنة دلالية في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ اللَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُوَّبِمُ الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ الْتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ حيث قال: ((وفي لطائف

معنوية ولفظية: الأولى: هو أن الله تعالى أبان غاية البوء بين الكافر والمؤمن فأشار إلى ثلاثة أشياء، أحدها: جعل ما للكافرين بجعلهم، فقال: (إِذْ جَعَلَ اللَّذِينَ كَفَرُوا) وجعل ما لا مؤمنين بجعل الله، فقال: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ) وبين الفاعلين ما لا يخفى. ثانية: جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة، وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره.ثالثها: أضاف الحمية إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى نفسه، حيث قال: (الْحَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةَ) وقال: (سَكِينَتَهُ)، وبين الإضافتين ما لا يذكر. الثانية: زاد المؤمنين خيراً بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة، والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ الْتَّقْوَىٰ)... وأما اللفظية فثلاث لطائف. الأولى: قال في حق الكافر (جعل) وقال في حق المؤمن (أنزل) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته، إشارة إلى أن الحمية كانت مجعلة في الحال في العرض الذي لا يتحقق، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها. الثانية: قال الحمية ثم أضافها بقوله: (الْحَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةَ) لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٩٤)

قبحاً، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضار إلى الجاهلية. وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يقع معه لحسن اعتبار؛ فقال: (سَكِينَتُهُ) اكتفاء بحسن الإضافة. الثالثة: قوله (فَلَذْلِ) بالفعل لا بالواو؛ إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة، تقول: أكرمني فأكرمنته، للمجازاة والمقابلة ولو قلت: أكرمني وأكرمنته لا ينبئ عن ذلك....))^(١)

- ثم هناك دلالات تتفرع عن دلالة الترتيب العامة يمكن جمعها تحت العناصر الآتية:

- من دلالة التقديم في السورة الكريمة:
 - وهذا ملخص ظاهر في السورة الكريمة على مستوى الجملة الاسمية والفعالية ويمكن توضيح ذلك من خلال النماذج الآتية:
 - قوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتَحًا مُبِينًا» وقوله: «وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» في موضعين، قوله: «عَيْمَمْ دَأِرْرَةُ السَّوْءِ» وقوله: «وَلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»
 - فقد تقدم الجار وال مجرور (لك) في الجملة الأولى على المفعول المطلق وقد بين الألوسي سر هذا التقديم بقوله: ((وتقدیم (لك) على المفعول المطلق، أعني قوله (فتاحاً مُبیناً) مع أن الأصل تقديمها على سائر المفاعيل؛ كما صرّح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه - عليه الصلاة والسلام - وقيل: لأنّه مدار الفائدة.))^(٢)
 - وقد تقدم المسند على المسند إليه في المواضع المتبقية والتقييم في جميعها لإفادة الحصر، وقد قال ابن عاشور - في الموضع الأخير -: ((وتقييم المسند على المسند إليه في قوله: «وَلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» لإفادة الحصر، وهو حصر ادعى إزلاعتدال

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/١٠٢)

(٢) روح المعانى (٢٥/٨٩)

بما يجمعه الملوك والفاتحون من الجنود، لخيبة العدو بالنسبة لما لله من الغلبة لأعدائه
والنصر لأوليائه.)^(١)

- وفي قوله: (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) قال ابن عاشور: ((وَقَدْمَتِ الْمَغْفِرَةِ
هُنَا بِقَوْلِهِ: (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) لِيَتَقْرَرُ مَعْنَى الإِطْمَاعِ فِي نُفُوسِهِمْ؛ فَيَتَدْرِجُوا

إِلَى اسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَهُمْ.)^(٢) فَتَقْدِيمُ الْمَغْفِرَةِ لِلتَّرْغِيبِ، فَرَحْمَةُ اللَّهِ سَابِقَةٌ عَلَى عَذَابِهِ
- وَ فِي جَمِيلَةِ (بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا) وَجَمِيلَةِ (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

تَقْدِمُ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ (بِمَا تَعْمَلُونَ) عَلَى مَتَعْلِقِهِ، لِقَصْدِ الْاِهْتِمَامِ بِذَكْرِ عَمَلِهِمْ هَذَا.^(٣)
- وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَمَتْ مَعَالِجَتِهَا فِي تَناولِنَا لِدَلَالَةِ الْعَطْفِ بِالْوَاوِ.

- مِنْ دَلَالَةِ الإِظْهَارِ وَالْإِضْمَارِ فِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ:

- أَحْيَانَا يَعْبُرُ بِالظَّاهِرِ دُونَ الْمَضْمُرِ وَالْعَكْسِ؛ وَلِهَذَا النَّمْطُ التَّرْكِيَّيِّ أَثْرٌ فِي
الدَّلَالَةِ، وَقَدْ أَشَارَ عُلَمَاءُ التَّأْوِيلِ إِلَى بَعْضِ مِنْ ذَلِكَ، وَيُمْكِنُ ذَكْرُ بَعْضِ النَّمَاذِجِ عَلَى الْجَوَافِيدِ
الآتِيَّةِ:

- جَاءَ الْفَاعِلُ ضَمِيرًا ظَاهِرًا فِي (فَتَحْنَا) بَيْنَمَا جَاءَ مَضْمُرًا فِي (تَقْدِمَ - تَأْخِرَ - يَتَمَّ
- يَهْدِيَ) وَجَاءَ اسْمًا ظَاهِرًا (لِفَظِ الْجَالِلةِ) فِي (يَغْفِرُ - يَنْصُرُ) وَالْفَاعِلُ فِي كُلِّ هَذِهِ
الْأَفْعَالِ هُوَ (اللَّهُ) وَقَدْ بَيَّنَ الرَّازِيُّ سَرَّ ذَلِكَ التَّنْوِيعَ بِقَوْلِهِ: ((أَمَا الْمَسْأَلَةُ الْمَعْنُوَةُ؛ وَهِيَ أَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى لَمَا قَالَ: (يَغْفِرُ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ) أَبْرَزَ الْفَاعِلَ وَهُوَ (اللَّهُ) ثُمَّ عَطَافٌ
عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (وَيَتَمَّ) وَبِقَوْلِهِ: (وَيَهْدِيَ) وَلَمْ يَذْكُرْ لِفَظَ اللَّهِ عَلَى الْوِجْهِ الْحَسَنِ فِي الْكَلَامِ،
وَهُوَ أَنَّ الْأَفْعَالَ الْكَثِيرَةَ إِذَا صَدَرَتْ مِنْ فَاعِلٍ يَظْهِرُ اسْمُهُ فِي الْفَعْلِ الْأَوَّلِ وَلَا يَظْهُرُ فِيمَا
بَعْدِهِ... اخْتِصارًا لِلْكَلَامِ بِالْاِقْتِصَارِ عَلَى الْأَوَّلِ. هُنَّا لَمْ يَقُلْ وَيَنْصُرَ نَصْرًا، بَلْ أَعْلَمَ لِفَظَ
اللَّهِ، فَنَقُولُ: هَذَا إِرْشَادٌ إِلَى طَرِيقِ النَّصْرِ؛ وَلَهُذَا قَلَمًا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ... فَلَمَّا قَالَ

(١) التحرير والتبيير (١٥١/٢٥)

(٢) السابق (١٦٦/٢٥)

(٣) السابق (١٦٤/٢٥) بتصرف

ههنا: (وينصرك الله) أظهر لفظ الله ذكره للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب وبه يحصل الصبر، وبه يتحقق النصر...))^(١) وقد علل الألوسي لذلك أيضاً بقوله: (يمكن ن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة، إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه ذاته، وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائل، وقد صرخ بعضهم بأن عادة العظام أن يعبروا عن أنفسهم بصيغة المتكلم مع الغير؛ لأن ما يصدر عنهم في الأكثر باستخدامر توابعهم، ولا يعترض بأن النصر كالفتح وقد أُسند إلى الاسم الجليل لما لا يخفى عليك..... (وينصرك الله) إظهار الاسم الجليل مع النصر قيل: لكونه خاتمة العلل أو الغايات وإظهار كمال العناية بشأنه..... وقال الصدر: أظهر الاسم في الصدر وهنا، لأن المغفرة تتعلق بالآخرة، والنصر يتعلق بالدنيا، فكانه أشير بإسناد المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أن الله عزوجل - هو الذي يتولى أمرك في الدنيا والآخرة....))^(٢) وقد علل ابن عاشور إظهار اسم الله في المغفرة والنصر، قصداً للتنويه بهذه المغفرة وهذا النصر، لأن الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتبيه.)^(٣) والعلل التي ذكرها العلماء مقبولة تتعاضد ولا تتناقض.

- وهناك ملمح ألمح إليه ابن عاشور يتعلق بقوله: «وَمَنْ يُؤْمِنُ لَمْ يَا لَهُ وَرَسُولِهِ» فـ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا** ﴿٢٦﴾ حيث قال: ((وإظهار لفظ الكافرين في مقام أن يقال:

أعدنا لهم سعيراً، لزيادة تقرير معنى: (وَمَنْ يُؤْمِنُ لَمْ يَا لَهُ وَرَسُولِهِ...)))^(٤)

- وفي جملة «وَلَوْ قَاتَلُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَأَ أَلَّا دَبَرَ» ملمح نوه إليه ابن عاشور

بقوله: ((وكان مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الناس بأن يقال: ولو قاتلوكم، فعدل عنه

١) السابق (٧٩/٢٧)

٢) روح المعاني (٩١/٢٥)

٣) ينظر: التحرير والتتوير (١٤٩.١٤٧/٢٥)

٤) السابق (١٦٥/٢٥)

الاسم الظاهر لما في الصلة من الإيماء إلى وجہ بناء الخبر، وهو ان الكفر هو سبب تولية الأدبار في قتالهم للمسلمين...))^(١)

- من دلالة التكرار في السورة الكريمة:

- تكررت جملة ﴿وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مرتين في موضعين متقاربين

في السورة الكريمة، وقد بين غير واحد من المفسرين علة التكرار، فقد قال الرازى: ((ما الفائدة في الإعادة؟ نقول: لله جنود الرحمة وجنود العذاب، أو جنود الله إبْرَاهِيمَ قديكون للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين... وثانياً: لبيان إزال العذاب على الكافرين...))^(٢) وعلى هذا تكون الجملة الأولى في سياق الوعد والتهديد، فقال: ((وأعاد: لأن الذي سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائل المشركين، والمراد في الوضعين التخويف والتهديد، فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى)).^(٣) ولكن أبا السعدي يقول ما رأى الرازى، محتاجاً بتذليل الجملة الثانية بوصف العزة، فقال: ((.. فائدتها: التبيه على أن الله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب، وأن المراد ههنا: جنود العذاب، كما يتبين عنه التعرض لوصف العزة)).^(٤)

- هذا ما حاولت استنباطه واستنتاجه من كتب أسلافنا، مما له صلة بالدلالة النحوية التركيبية، ولا أزعم أن نفحات الله تقف عند هذا الحد، وإنما القرآن معطاء على درجة الإخلاص؛ ولا أدعى تمام الإخلاص ولكن حسبي أنني بذلك وسعي واجتهدت طاقتى.

١) التحرير والتنوير (١٨١/٢٥)

٢) مفاتيح الغيب (٨٤/٢٧) وما بعده

٣) الجامع (٢٦٦/١٥)

٤) إرشاد العقل السليم (١٠٦/٧)

من نتائج الدراسة

- اشتملت السورة الكريمة على أكثر من مائة جملة، منها (٢١) إحدى وعشرون جملة اسمية، والباقية جمل فعلية، وغلبة الجمل الفعلية تتناغم مع ما قامت عليه السورة الكريمة من سرد الأحداث.

- وقد تنوّعت الدلالات الناجمة عن البنية النحوية التركيبية في السورة الكريمة وهو ما يمكن سرده على النحو الآتي:

(١) الدلالات الناجمة عن الجمل الاسمية في السورة:

(أ) دلالة الثبوت والدّوام، وقد تلاحظ أن الجمل الاسمية قد وردت في سياقات تتحمّل تحقق هذه الدلالة.

(ب) دلالة التوكيد: وقد بُرِزَت في أربع جمل، كلها مؤكدة بالحرف اللطيف (إن) وقد تنوّع الغرض من التوكيد في هذه المواقع بين: الاهتمام، والتعرّيف، والتهديد والوعيد
(ت) دلالة التقديم: وقد تنوّع الغرض من التقديم بين: إفادة الحصر، والاهتمام والاعتناء.

(ث) دلالة التكرار: وقد ظهرت في تكرار جملة (ولله جنود السماوات والأرض) وكان الغرض من التكرار تنوّع السياق، فالأولى: جاءت في سياق الوعيد، والثانية وردت في سياق الوعيد.

(ج) دلالة النفي: ولم ترد إلا في موضعين، وقد جاءت بـ(لا) العاملة عمل ليس، والنفي بها خاص لا عام.

(٢) الدلالات الناجمة عن الجمل الفعلية في السورة:

(أ) دلالة الطلب: وقد بدت في الجمل الطلبية المبدوءة بفعل الأمر، وجملتها خمس جمل لم ترد إلا في سياق الحديث عن موقف الأعراب، وقد تنوّعت دلالة الطلب بين الحقيقة والمجاز، فالأمر الصادر عن الله على حقيقته بينما الأوامر الصادرة عن الأعراب فيها انكسار وذلة.



(ب) دلالة التعليل: وقد وردت الجمل التي تفيد معنى التعليل سبع عشرة مرة منها ستة عشر جملة في سياق الوعد والبشرارة، ولعل ذلك راجع إلى أن أسلوب التعليل من الأساليب التي تحقق اليقين بموعد الله، كما أنه وسيلة لجذب أولي الألباب إلى الحرص على الإقبال على عطاءات الله بمرادات الله.

(ت) دلالة الشرط: وقد وردت الجمل الشرطية ثمانية مرات في السورة موزعة بين سياقي الوعد والوعيد، وأسلوب الشرط من الأساليب المحفزة في سياق الوعد، للترغيب، ومن الأساليب المرهبة في سياق الوعيد والتهديد، لأنه قائم على فعل وجواب، فالفعل بمثابة تقديم الشيء والجواب بمثابة الثمن لتقديمه.

(ث) دلالة الإثبات: وقد غلت على الجمل الفعلية في السورة الكريمة وهو يتسلب مع ما قامت عليه السورة من تقرير أحاديث وإثباتها.

(ج) دلالة النفي: وقد تنوّعت أدوات النفي المستعملة في الجمل الفعلية المنفية في السورة على النحو الآتي:

- النفي بـ(ليس) وقد جاء في موضع واحد، والنفي بها نفي للحال.

- النفي بـ(لن) وقد جاء في موضعين، والنفي بها نفي للمستقبل وكذلك النفي بـ

(لا) المختصة بالدخول على الأفعال، وقد جاء النفي بها في ثلاثة مواضع وقد كان للسياق أثر في تغيير دلالة النفي بـ(لا) في موضع (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) فالنفي بها نفي للماضي بقرينة (كانوا).

- النفي بـ(لم) وقد جاء في ثلاثة مواضع، والنفي بها نفي للماضي.

(ح) دلالة التوكيد: فقد جاء الفعل الماضي مؤكداً بـ(قد) في موضع ثلاثة، منها موضعان سُيَّقت (قد) فيهما بلام القسم التي تفيد التوكيد أيضاً، وكلها جاءت في سياق الوعد.

(خ) دلالة التقديم: وقد تنوّع الغرض من التقديم في بعض الجمل الفعلية بين الترغيب والاهتمام.

(٣) الدلالات الناجمة عن الأدوات في السورة الكريمة:

(أ) دلالة العطف: وقد ورد من أدوات العطف في السورة الكريمة: (الواو) وقد وردت ثمانين وأربعين مرة، و(الفاء) وقد وردت ثمانين عشرة مرة، (بل) في أربعة مواضع وأ(أو) في مواضعين، (ثـمـا) في موضع واحد.

- وكثرة العطف بالواو وتناسب مع الأسلوب السردي للأحداث وهو ما قامت عليه السورة الكريمة.

- كما أن العطف بالواو وأفاد الترتيب في مواضع من السورة على خلاف بين المفسرين، كما أنها تقارضت مع (الفاء) في مواضع أخرى، كما أنها جاءت عاطفة في مواضع واستثنافية في مواضع أخرى.

- أما الفاء، فقد جاءت دالة على التعقيب والترتيب والسببية في كل المواضع ولم يختلف العلماء في دلالتها إلا في موضع واحد.

- أما دلالة العطف بـ(بل) فقد جاءت في مواضع الأربع دالة على الإضراب.

- وجاءت (أو) دالة على معنى الإباحة في الموضع الأول، واختلف المفسرون في الموضع الثاني بين دلالتها على التخيير، أو اعتبارها استثنافية بيانية.

- بينما جاءت (ثـمـا) في موضع واحد دالة على التراخي الربطي.

(ب) دلالة حروف الجر: وقد توقفت الدراسة عند مواضع التي أثارت خلافاً بين أهل التأويل، كما أنها ركزت على الأثر الدلالي الناتج عن تعديبة الفعل بحرف دون آخر.

(٤) الدلالات الناجمة عن التراكيب:

(أ) دلالة الإحالـة: وتحقيقـه من خلال الضمائر وأسماء الإشارة وأسماء الموصولة وقد تلاحظ شيـوعـ الضمائر لا سيما الدالة على الغيبة في السورة الكريمة وهو ما يعكس ترابطـ النصـ وتماسـكهـ، وقد تعرـضـ الـ درـاسـةـ لـبعـضـ المـواـضـعـ التي اـخـتـلـفـ أـهـلـ التـأـوـيلـ فـيـهاـ.



(ب) دلالة الوصف: وقد تكرر الوصف في السورة الكريمة بين وصف بالمفرد ووصف بالجملة، وقد تعرضت الدراسة لبعض النماذج من هذا القبيل.

(ت) دلالة التنليل: حيث حاولت الدراسة الكشف عن القيمة الدلالية لتنليل بعض آيات السورة الكريمة.

(ث) دلالة الترتيب التركيبي، وقد توقفت الدراسة عند بعض المواضع التي تعكس موقع الجملة بين الجمل.

وبعد: فالله أَسْأَلَ أَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ، إِنْ كَانَ فِيهِ مِنْ تَوْفِيقٍ فَمِنَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ الْأُخْرَى فَمِنِي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَحَسْبِي أَنِّي بَذَلْتُ الْوَسْعَ وَاجْتَهَدْتُ الطَّاقَةَ. وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ.

* * *

من المصادر والمراجع

- *القرآن العظيم.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود، الناشر/دار المصحف بالقاهرة.
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تصحيح ألباني/محمد رشيد رضا، ط. دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.
- أسرار التكرار في القرآن. لاتاج القراء محمد بن حمزة الكرمانى تحقق يق/عبد القادر أحmed طا، ط. دار الاعتصم - الثالثة ١٩٧٨م.
- إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق/د. زهير غازى زاهد مطبعة العانى - بغداد.
- أوّل مسالك إلى ألفية بن ماكلا بن هشيم الأنصاري تحقق يق/الشيخ/محمد مدحت بيالدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ١٩٩٤م.
- إيضاح الوقف والابتداء لابن الأثري
- التحرير والتقوير للطاهر بن عاشور طبعة الدار التونسية سنة ١٩٨٤م.
- الـ فسیر المنیر فی العقیدة والشرعیة والمنهج - لـ وهبة بن مصطفی الرجیلی، ط. دار الفکر المعاصر بدمشق. الثانية ١٤١٨هـ.
- التفسیر القرآني لـ الشیخ / عبد الكریم الخطیب ط. دار الفکر العربی - بيروت.
- الـ فسیر الکبیر للإمام محمد بن عاصم بن الحسن بن علي التیمی البکری
- الرازی الشافعی - طبعة دار الفکر للطباعة والنشر والتوزیع. الأولى ١٩٨١م.
- جامع البیان فی تفسیر القرآن لـ الشیخ /أبی جعفر محمد بن جریر الطبری طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
- الـ جامع لأحكام القرآن لأبی عبد الله محمد بن أبی حمزة الأنصاري القرطبي عنایة و تصحیح /الـ الشیخ: هـ مـ سـ مـ بـ الـ بـ خـ اـ رـ طـ دـ اـ رـ عـ اـ لـ مـ الـ کـ تـ بـ ٢٠٠٣مـ.
- الـ حـ صـائـصـ لأـ بـ اـ لـ فـ تـ حـ عـ ثـ مـ اـ نـ بـ جـ نـ بـ تـ حـ قـ يـ قـ /مـ حـ مـ دـ عـ لـ لـ اـ نـ جـ اـ رـ طـ بـ عـ اـ لـ هـ يـ ئـ ةـ الـ عـ اـ مـ قـ صـورـ ٢٠٠٦ـ الـ ثـ قـ اـ فـ اـ ةـ الـ قـ اـ لـ هـ رـ.
- دـ لـ اـ لـ اـ جـ اـ زـ لـ اـ مـ لـ دـ عـ بـ الـ قـ اـ لـ هـ رـ الـ جـ اـ رـ جـ اـ نـيـ تـ حـ قـ يـ قـ /مـ حـ مـ دـ عـ شـ لـ كـ رـ طـ مـ كـ تـ بـ الـ خـ اـ لـ جـ يـ - الـ قـ اـ لـ هـ رـ ١٩٢٠ـ.
- دـ لـ لـ اـ لـ سـ بـ اـ قـ يـ بـ يـنـ الـ تـ رـاثـ وـ عـ لـ مـ الـ لـغـةـ الـ حـدـیـثـ دـ عـ بـ الـ فـ تـ اـ حـ عـ بـ الـ عـ رـ بـ کـ اـ وـیـ نـ شـرـ المـؤـلـفـ.



- دورة حوالجنة في تفسيرا لنص منهج وتطبيقه/ يحيى يوسف حميد، بحث منشور في كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.
- رصف المعاني في شرح حروف المعاني لـ مفر أحد بن عبد النور المالقي تحقق يقـ / أحد مدمج مد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبعين المثانى لأبي الفضل شهاب الدين محمد محمود الألوسي البغدادي طـ دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان
- عدة اسالاك إلى تحقق يقـ أو ضـحـ الـمسـالـاكـ لـ الشـيخـ / محـ مدـمـحـ يـيـ اـ دـينـ عـبـدـ حـمـيدـ طـ المـكـةـ بـةـ العـصـرـيةـ ١٩٩٤ـ مـ.
- القطع والتنافل لأبي جعفر النجاشي تتحقق يقـ / أحد فريـدـ المـزـيدـيـ طـ دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ -ـ الـأـلـوـسـيـ لـ لـ جـارـ اللهـ ٢٠٠٢ـ مـ
- الاكتشاف عن حـ قـلـاقـ غـواـمضـ التـنـزـيلـ وـ يـونـ الأـقاـوـ يـلـ فـيـ وـ جـوهـ التـأـوـ يـلـ لـ مـلـ / جـارـ اللهـ الزـمخـشـريـ، تـحـقـيقـ / أـبـوـ عـبـدـ اللهـ آلـ زـهـويـ طـ دـارـ الـكـتابـ الـعـرـبـيـ -ـ بـيـرـ وـتـ لـبـانـ
- المـحرـرـ الـوجـيزـ فيـ تـفـسـيرـ الـكـتابـ الـعـزـيزـ، لأـبـيـ مـحـمـدـ بـدـالـحـقـ بـنـ عـطـيـهـ الـأـلـدـ لـسـيـ، مـطـبـوـعـاتـ وزـارـةـ الـأـوـقـافـ وـالـشـيـوخـ الـإـسـلـامـيـةـ بـقـطـرـ الـثـانـيـةـ ٢٠٠٧ـ مـ
- معـانـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ لـ مـلـأـبـيـ جـعـفـرـ الـجـلـسـ تـحـقـيقـ / اـ الشـيـخـ مـحـمـدـ مـدـعـيـ الـصـابـونـيـ طـ جـامـعـةـ لـمـ القـرـىـ بـالـمـمـلـكـةـ الـعـرـبـيـةـ السـعـوـدـيـةـ
- المـكـتـبـ فـيـ الـوـقـفـ وـالـابـداـ فـيـ كـتـابـ الـلـهـ عـزـ وـجـلـ لـأـبـيـ مـرـواـدـ الـأـدـيـ تـحـقـيقـ اـ لـكـتـورـ يـوـسـفـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـمـرـعـشـليـ طـ مـؤـسـسـةـ الرـسـالـةـ
- نـظـمـ اـلـدـرـرـ فـيـ تـنـاسـبـ الـآـيـاتـ وـاـسـوـرـ لـرـهـانـ الـدـيـنـ أـبـيـ الـجـسـنـ إـ بـرـلـهـيمـ بـنـ عـمـرـ الـبـلـقـاعـيـ، تـحـقـيقـ / عـبـدـ الـرـازـقـ غـالـبـ الـمـهـدـيـ طـبـعـةـ دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ (ـ بـيـرـ وـتـ لـبـانـ)ـ الـأـولـىـ سـنـةـ ١٤١٥ـ هـ ١٩٩٥ـ مـ
- النـكـتـ فـيـ إـعـجـازـ الـقـرـآنـ الـلـرـمـانـيـ ضـمـنـ ثـلـاثـ رـسـائـلـ فـيـ إـلـاعـجـازـ تـحـقـيقـ / خـلـفـ اللـهـ وـمـحـمـدـ زـغـلـلـ، دـارـ الـمـعـارـفـ الـقـلـاهـرـىـ ١٩٧٦ـ مـ.

* * *



الضوابط اللغوية للصياغة القانونية

د. سليمان بن عبدالعزيز العيوني
قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



الضوابط اللغوية للصياغة القانونية

د. سليمان بن عبد العزيز العيوني

قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

إنَّ الصياغة القانونية للأنظمة واللوائح والقرارات الإدارية والقواعد القانونية صارت اليوم مهمةً جدًا، لعظيمُ أثرها في تنظيم الدول وجميع مفاصلها. ومن أهم جوانب الصياغة القانونية الصياغة اللغوية، فدرستها من جوانبها المختلفة، وخرجت في هذا البحث بضوابط محددة.

وقد حاولت أنْ قدمَ بهذا الدُّرُسِ مبشرةً من خلال دراسةٍ لغويةٍ لما يلي:

١- النظرُ الأساسيُّ للحكمِ، الصادر سنة اثنى عشرَ وأربعينَ ألف.

٢- ظلمٌ المرور، الصادر سنة ثمانٍ وعشرينَ وأربعينَ ألف، واللاجنة التنفيذية له، الصادرة سنة تسْعَ وعشرينَ.

٣- نظرُ مراقبةِ البنوكِ، الصادر سنة ستٌّ وثمانينَ وثلاثينَ وألف.

وقد خرجت بضوابطًا متعددة، تعودُ إلى أربع مجموعاتٍ: ضوابطَ معنويةٍ، وضوابطَ لفظيةٍ، وضوابطَ تركيبةٍ أسلوبيةٍ، وضوابطَ في الإملاء والتقويم، وهي مختلفةٌ من حيثُ أهميتها وكثرة الخطأ فيها.



The Linguistic Constraints of Legal Drafting

Dr. Soliman Abdulazeez Alouny

Abstract

The legal drafting of the administrative regulations, charters, decisions, and rules has became very crucial for its great impact on the regulations of states' and their bodies.

One of the most important components of the legal drafting is the language structure; therefore, I have studied it from all its perspectives, and have come up with specific controls.

I have attempted to proceed with this study by conducting a linguistic investigation of the following:

1. The Basic Law of Governance, issued in 1412AH.
2. The Traffic Law, issued in 1428AH, and its executive regulation, issued in 1429AH.
3. Banking Control Law, issued in 1386AH.

I have concluded that there are several constraints which can be classified into four categories: moral constraints, verbal constraints, structural-stylistic constraints, and spelling and punctuation constraints. These constraints are different in terms of their importance and the number of mistakes made in their category.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ الصياغة القانونية للأنظمة واللوائح والقرارات الإدارية والقواعد القانونية صارت اليوم مهمةً جدًا، لعظيم أثرها في تنظيم الدول وجميع مفاصلها. وقد كان سبب اهتمامي بهذا الموضوع أنني ذهبتُ صبيحةً يومٍ إلى كتابة عدلٍ في مدينة الرياض لكتابه وكالة، وهالني ما رأيتُ في صياغة الوكالة، لأنها صياغةً أقربُ إلى الأعجمية منها إلى العربية.

فراجعتُ كاتبَ العدل في ذلك، فاشتكى إليَّ ما شكرته إليه، وذكرَ أنَّ وزارة العدل بَدَأتُ تُطِّلِقُ مشروعًا جديًّا لتوحيدِ صيغِ الصكوك الصادرة عنها، وأنه لا حيلة له سوى الاختيار من جملِ ثابتةٍ في برنامج الوزارة، وأحالني إلى آخر مسؤولٍ عن البرنامج مشارِكٍ في المشروع.

فراجعته وناقشه في الأمر، وسألته عن المشروع، فذكر لي أن القائمين على المشروع هم القائمون على البرنامج الحاسوبي، فهم علماءٌ في الحاسوب وليسوا متخصصين في اللغة العربية، ولذا طَفَحَتِ الصياغةُ التي نَقَدَها عامَةُ الناس قبلَ متعلِّمِيهِم وعلمائهم.

فذكرتُ له أنَّ اللغة العربية واسعة، وَيُمْكِنُ للقائمين على المشروع لو استعملوا بمتخصصين لغوين أنْ يجدوا من الأساليب اللغوية والبدائل اللفظية ما يُحَقِّقُ لهم طَلَبَهم القائمَ على توحيدِ الصيغ.

وكنتُ أَهْمَرُ أنْ أتكلَّمَ على هذا المشروع في هذا البحث، وأنْ أذكُرَ نماذجَ غيرَ مُشَرَّفةٍ لهذه الصيغ، بيدَ أنِّي وجَدْتُ القائمين على المشروع معَ تمايزِ الوقتِ قد اجتهدوا في تحسينه وتنقيتها من كثيرٍ من شوابه، حتى تَطَهَّرَتِ الصيغ وتحسَّنَتْ كثيرًا. فللهذا أَكَّتُ في تقديمِ الشكِّرِ الجزيَلِ، والثناءِ الصادقِ لِلوزارةِ والقائمين على المشروع، لما بذلوه في سبيلِ صياغةٍ قانونيةٍ نقيةٍ سليمة، وأدعوهُم إلى بذل المزيد حتى

تَصِيلَ الصياغة إِلَى أَجْمَلِ صُورَةٍ، وَأَبْهِي حُلْلَةً، وَأَنْقَى عَبَارَةً، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ
ثُمَّ جَعَلَتِ الْبَحْثُ يَعْمَلُ الصياغة القانونية بمختلف صورها.
وَأَحَبُّ أَنْ أَذْكُرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ إِلَّا دراساتٍ قَلِيلَةً فِي هَذَا المَوْضِعُ وَهِيَ عَلَى قَلْئِهَا كَلَّاتٍ
فِي الصياغة القانونية في غير المملكة العربية السعودية.

ولذا حاولتُ أَنْ أَقُومَ بِهَذَا الدَّرْسِ مِباشِرَةً، مِنْ خِلَالِ دراسةٍ لِغُوَيْهِ لِمَا يَلِيهِ:
١- النَّظَامُ الْأَسَاسِيُّ لِلْحُكْمِ، الصَّادِرُ سَنَةً اثْنَتِي عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةِ وَأَلْفٍ.
٢- نَظَامُ الْمَرْرَوِيِّ، الصَّادِرُ سَنَةً ثَمَانِيْنِ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةِ وَأَلْفٍ، وَاللَّائِحةُ التَّنْفِيذِيَّةُ لَهُ
الصَّادِرَةُ سَنَةَ تِسْعَ وَعِشْرِينَ.

٣- نَظَامُ مِراقبَةِ الْبُنُوكِ، الصَّادِرُ سَنَةَ سِتٌّ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةِ وَأَلْفٍ.
وَقَدْ خَرَجَتْ بِضَوَابِطٍ مُتَعَدِّدة، تَعُودُ إِلَى أَرْبَعِ مَجَمُوعَاتٍ: ضَوَابِطٍ مَعْنَوِيَّةٍ، ضَوَابِطٍ
لِفَظِيَّةٍ، ضَوَابِطٍ تَرْكِيَّيَّةٍ أَسْلَوِيَّةٍ، ضَوَابِطٍ فِي الإِمَلَاءِ وَالتَّرْقِيمِ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ حِيثِ
أَهْمِيَّتِهَا وَكَثْرَةُ الْخَطِّ فِيهَا.

وَيَتَكَوَّنُ الْبَحْثُ مِنْ:

-مقدمة.

-أَهْمَى الْلُّغَةِ فِي الصياغة القانونية.

-الضوابط اللغوية للصياغة القانونية، وذكرت منها أحد عشر ضابطاً لغويًّا موضحة
بَعْدَ كَافِي مِنَ الْأَمْثَلَةِ وَالنَّمَاذِجِ الْحَيَّةِ مِنْ أَنْظَمَةِ وَلَوَائِحَ سَعُودِيَّةٍ.

-الخاتمة، وذكرتُ فِيهَا أَهْمَى نَتَائِجِ الْبَحْثِ، وَتَوْصِيَاتِهِ.

أهمية اللغة في الصياغة القانونية

يجب على صائغ النظام أن يكون أول ملتزم به، فيجب على صائغ النظام أن يلتزم بالنظام، ومن النظام الالتزام بلغته الرسمية التي تذكر في أوائل مواد النظم الأساسي للحكم.

وقد نصت المادة الأولى من النظام الأساسي للحكم على أن المملكة العربية السعودية "لغتها هي اللغة العربية". فيجب على الصائغ أن تكون صياغته موافقة لغة العربية في معانيها وألفاظها وتراتيبها ونحوها وتصريفها.

ولا شك أن صياغة الأنظمة واللوائح والقرارات الإدارية في هذا الزمن صارت علمًا وفنًا وحرة، لها منهجية ومعايير وأساليب، من دونها لا يمكن للصائغ أن يقوم بمهمته وهذا العلم يقوم على قواعد تضيّط آلية الصياغة، وتُسهّل إدراك الغرض من النظم إدراكاً كلياً إجمالياً، وإدراكاً تفصيلياً تحليلياً، لأن إدراك هذه القواعد جزء لا يتجزأ من تطبيقها.

ويقسم علماء القانون القواعد التي تنظم صياغة الأنظمة واللوائح والقرارات الإدارية إلى قسمين رئيسين لا يستغني أحدهما عن الآخر، القسم الأول هو القسم الموضوعي والقسم الثاني الشكلي الذي يقوم على موافقة الصياغة لغة، وموافقة الصياغة للقواعد القانونية، وموافقة الصياغة ل استراتيجية الجهة صاحبة التشريع، ومراعاة المؤشرات العامة والخاصة^(١).

فمما يتحقق من قواعد القسم الشكلي للقانون.

والقانون كغيره من العلوم والتخصصات له لغته الخاصة ذات الألفاظ والمصطلحات والأساليب والأعراف التي تُشَيَّعُ فيه، وربما تختص به.

وهو كغيره من العلوم والتخصصات لا بد أن يكون موافقاً لغة العربية في جميع أجزاءه، وهذا هو مجال هذه المحاضرة.

(١) انظر: مبادئ الصياغة القانونية، لجعفر سعد ون المؤمن ص ٦.

ولذا يجب فيمن يصوغ القانون أن يكون ملماً بلغته الخاصة، وملماً باللغة العربية عموماً.

ومع ذلك تختلف مستويات اللغة العربية، فلغة المصطلحات والتعريفات تختلف عن لغة الشرح والحواشى، ولغة العلوم النظرية تختلف عن لغة العلوم التجريبية، ومستوى اللغة الذي يناسب القانون يختلف عن لغة الأدب مثلًا، فالأدب يقوم على الإيحاء والخيال، ولغة القانون تقوم على المباشرة والوضوح والإلزام بلا حشو ولا استطراد حتى تكون لغة منضبطة محددة، لا تنزلق إلى توسعات اللغة وتجاوزاتها ومجازاتها، التي قد تدل على أكثر من معنى، أو تجعل المعنى مضطرباً أو محتملاً، مما يُضفي على لغة القانون احتراماً وهيبةً والتزاماً.

ومع ذلك قد تختلف لغة الصياغة القانونية بين ثلاثة أنواع: الأكاديمية التي في البحوث والدراسات، والقضائية التي في الأحكام والتقارير، والتشريعية التي في الأنظمة واللوائح والقرارات الإدارية والقواعد القانونية.

أما علوم العربية فمتعددة، والذي يهم الصائغ القانوني منها ما يضبط المفردات والتركيب اللغوية من حيث تصريفها واستراقها ومعناها، فيلزمه ضبط آخر الكلم في السياق القانوني؛ لما لها من علاقة في توجيه المعاني وتحديد الدلالات فضلاً عن تصريف المفردات وفق الأصول اللغوية، والتمييز الدقيق بين الدلالات التي تُوحِي بها هذه الألفاظ أي: يهمه منها ثلاثة علوم، وهي علم الدلالة الذي يتصل بمعاني الكلمات والتركيب وعلم النحو وعلم التصريف أو الصرف.

ومن أهم أوجه أهمية الصياغة اللغوية المتينة السليمة للأنظمة واللوائح والقرارات أنه كُلَّما كانت الصياغة متينةً سليمةً من الجهات كلها ومنها الناحية اللغوية كان ذلك أبعد لاجتهادات المجندين وتأولات المتأولين؛ إذ لا يكُثُر الاجتهد والتأنُّل لنصوص القانون إلا حين تكون الصياغة ضعيفةً، أو محتملة، أو غير محدودة الدلالة. وتبرز الأهمية الكبرى للصياغة القانونية حين يكون القانون دستور المختلفين

الفُرَقَاءِ، بِحِيثُ لَا يُسْتَطِعُ كُلُّ فَرِيقٍ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِي تَفْسِيرِهِ أَوْ تَنْفِيذِهِ أَوْ تَغْيِيرِهِ كَمَا يَشَاءُ، فَهُؤُلَاءِ يُدْرِكُونَ هَذِهِ الْأَهْمِيَّةَ، وَيَبْذُلُونَ لَهَا الْغَالِيَّ وَالنَّفِيسَ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَالْجَهْدِ وَالْأَمْوَالِ.

أَمَّا حِينَ يَكُونُ طَالِبُ الْقَانُونِ وَمُفَسِّرُهُ وَمُنْفِذُهُ وَالْمُتَحَكِّمُ فِي تَغْيِيرِهِ جَهَّةً وَاحِدَةً فَلَا يُدْرِكُ الْمُتَحَاكِمُونَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْقَانُونِ أَهْمِيَّةِ الصِّياغَةِ الْقَانُونِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ هُمْ وَإِلَيْهِمْ بَدِئَ وَأَنْتَهَ، فَمَهْمَاهَا خَالِفُهُمْ فِي فَهْمِ الْقَانُونِ وَتَفْسِيرِهِ مُخَالِفٌ اعْتَدَّا عَلَى صِياغَتِهِ رَدْوا ذَلِكَ إِلَى أَفْهَامِهِمْ وَالْزَّمُوْرُ بِهِ غَيْرِهِمْ، وَتَغَاضَوْا عَمَّا فِي الصِّياغَةِ مِنْ خَطْلٍ.

وَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أُمَّلَّةٍ تَطْبِيقِيَّةٍ تَظَاهِرُ هَذِهِ الْأَهْمِيَّةَ:

المثال الأول:

لَوْ كَانَ نَصُّ النَّظَامِ: "لِلْقَاضِي أَنْ يَعْاقِبَ بِالسِّجْنِ كُلَّ مُتَخَاصِّمٍ أَهَانَ الْقَاضِيَّ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ".

لَكَانَ مَعْنَى النَّصِّ أَنَّهُ لِلْقَاضِي أَنْ يَعْاقِبَ هَذَا الَّذِي أَهَانَهُ فِي السِّجْنِ بِأَنْ يَسْجُنَهُ أَوْ يَحْلِدَهُ، أَوْ يَكْلِفَهُ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ فِيهِ، لِأَنَّ كَلِمَةَ (السِّجْن) بِكَسْرِ الْجِيمِ هُوَ الْمَكَانُ الْمَسُورُ الْمَعْدُ لِلْحَبْسِ، وَعَلَيْهِ تَكُونُ الْبَاءُ قَبْلَهُ بِمَعْنَى (فِي) لِدُخُولِهِ عَلَى مَكَانٍ وَكَوْنُ مَعْنَى النَّصِّ: (لِلْقَاضِي أَنْ يَعْاقِبَ هَذَا الْمُتَخَاصِّمَ فِي الْمَكَانِ الْمَعْدِ لِلْحَبْسِ). فَيَكُونُ فِي النَّصِّ بِيَانُ مَكَانِ الْعَقَابِ، دُونَ بِيَانِ الْعَقُوبَةِ نَفْسَهَا.

وَلَوْ كَانَ الْذِي فِي النَّظَامِ (بِالسِّجْنِ) بِفَتْحِ السِّينِ، لَمْ يَكُنْ لِلْقَاضِي أَنْ يَعْاقِبَ هَذَا الَّذِي أَهَانَهُ بِغَيْرِ أَنْ يَسْجُنَهُ، لِأَنَّ (السِّجْنَ) مَصْدِرُ (سَجَنَ يَسْجُنَ)، فَهُوَ بِمَعْنَى فَعْلَهُ أَيِّ: لِلْقَاضِي أَنْ يَعْاقِبَهُ بِأَنْ يَسْجُنَهُ.

وَبِالْوَجْهِيْنِ قَرِئَ قَوْلُهُ: «قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبَّ إِلَيِّي مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ»، فِي الْفَتْحِ: أَنْ يَسْجُنُونِي أَحَبُّ إِلَيِّي مِنَ الرِّزْنِ، وَبِالْكَسْرِ: هَذَا الْمَكَانُ وَهُوَ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيِّي مِنَ الرِّزْنِ وَهُنَا أَحَبُّ التَّأكِيدَ عَلَى وَجْوبِ ضَبْطِ كُلِّ كَلِمَةٍ مُحْتمِلَةٍ فِي الْأَنْظَمَةِ وَالْمَوَاعِدِ وَالْقَرَارَاتِ، وَقَلَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ.

المثال الثاني:

جاء في أحد القرارات: "سيحكم القاضي في القضية في الجلسة القادمة وكون الحكم نافذاً وملزاً، إلا إن رفض الحكم المدعين".

فعلى هذا النص ليس للمدعين ولا المدعى عليهم أن يرفضوا الحكم لأن المدعين في النص منصوبة بالياء، فمعنى النص: إلا إن كان في الحكم شيء يرفضه والمدعين ولا شك أن هذا خلاف ما أراده صاحب القرار.

المثال الثالث:

لو أنك عرضت سيارة على زيد فاشتراها، ثم عرضت عليه بيته فلم يشتريه، ثم تنازعتما في الثمن، فحكم القاضي عليك بتسليمه المباع، للزمك أن تسلمه البيت لأن السيارة، لأن السيارة مبيعة، والبيت هو المباع.

يقال: باع الشيء بيعه فهو مبيع، وبعض العرب يقول: مبيع، بمعنى أنه باعه لغيره ويقال: أباع الشيء بيعه فهو مباع، إذا عرضه للبيع، قال الشاعر الجاهلي:
فرسًا فليس جوادنا بمباع
ورضيت آلة الكميت فمَنْ بيع
فالمباع هو المعروض للبيع، والمبيوع هو الذي يبيع.

ونحو ذلك لو اختلف زيد وعمرو في اسم تجاري نحو (ميار) أطلاقاه على محليهما ثم إن القاضي حكم لزيد بالاسم، ولكنه قال في الحكم: (يلزمه عمرو برد المسئى إلى زيد) لكان لازم الحكم أن يرد عمرو إلى زيد المحل، لأنه المسئى بميار، وكان الصواب أن يقال: (يلزمه عمرو برد الاسم إلى زيد)، لأن الاسم المختلف عليه هو لفظ (اميار).

المثال الرابع:

ما جاء في نظام مراقبة البنوك في المادة الثانية عشرة، قال: "لا يجوز أن يكون الشخص عضوا في مجلس إدارة أكثر من بنك واحد"، والمراد منع الشخص أن يكون في أكثر من مجلس من مجالس إدارة البنوك، ولكن عبارة النظام تقتصر عن ذلك بل تحالف هذا المعنى.

كلمة (ادارة) هنا مصدرٌ بمعنى فعله (يُدير)، سواءً نوناه وأعملناه في مفعوله (في مجلس إدارة أكثر من بنكٍ واحد)، أو أضفناه إلى مفعوله: (في مجلس إدارة أكثر من)، ومعنى العبارة لغويًا: (لا يجوز أن يكون الشخص عضواً في مجلس يدير أكثر من بنكٍ واحد)، وعليه لو كان الشخص في مجلس يدير بنكًا، وكان أيضًا في مجلس آخر يدير بنكًا آخر فلامانع من ذلك؛ لأنَّه لا يدخل تحت هذه العبارة؛ لأنَّه ليس في مجلس يدير أكثر من بنك، وعليه يكون صوابُ العبارة: (لا يجوز أن يكون الشخص عضواً في أكثر من مجلس إدارة بنكٍ).

فهذه أمثلة قليلة، وغيرها كثير، الأولُ في معاني الكلمات، والثاني في النحو والثالثُ في التصريف، والرابعُ في الأساليب.
قدَّمتها بين يدي البحث لتبيينَ أهميةُ الضوابط اللغوية في صياغة الأنظمة واللوائح والقرارات الإدارية.

من السمات اللغوية للجملة القانونية

هناك سمات لغوية غالبة لا لازمة للجملة القانونية، من أهمها^(١):

- ١- طولُ الجملة، واعتمادُها كثيراً على التراكيب المتداخلة.
- ٢- التباعدُ بين أجزاءِ الجملة، كال فعلُ وفاعلُه ومفعوله، والصفة والموصوف، والمبدأ وخبره.
- ٣- كثرةُ الألفاظِ المقيدةُ في الجملة، وكثيراً ما يكونُ هذا بشكلٍ مُفرطٍ، لتكونَ الجملةُ محددةً المعنى، غيرَ قابلةٍ للتأويل على غير معناها.
- ٤- ازدحامُ الجملةِ بتفاصيلٍ تجعلُ من الصعبِ اختراقُها، وهذا قد يُؤدي إلى صعوبة التمييز بين أجزائها (المسنن والمسنن إليه، المعنطوف والمعنطوف عليه).

(١) انظر: مبادئ الصياغة القانونية، لجيد رسعد ون المؤمن ص٣.

الضوابط اللغوية لصياغة الأنظمة

واللوائح والقرارات الإدارية

تعود هذه الضوابط مهما تَوَسَّعَتْ وَتَعَدَّدتْ إِلَى وجوب موافقة الصياغة لِلُّغَةِ الرسمية لِلَّنْظَمَ، ولُغَتُنا فِي هَذَا الْبَلَدِ الْمَبَارَكِ الْمُمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ هِي الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ. فَيُجَبُ أَنْ تُوَافِقَ الصياغةُ أَحْكَامَ هَذِهِ الْلُّغَةِ، مِنْ جَهَةِ الْأَفْظُرِ وَالْتَّرْكِيبِ وَالْمَعْنَى مِنْ جَهَةِ الْأَفْظُرِ، فَتَكُونُ الْفَاظُ الصياغةُ عَرَبِيَّةً التِّجَارِ أو مُعَرَّبَةً قَدِيمَةً، أَو مُعَرَّبَةً مِنْ جَهَةِ مُعَتمَدَةٍ، أَو دَخِيلَةً وَافَقَتْ جِهَةً مُعَتمَدَةً عَلَى دُخُولِهَا إِلَى الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْأَفْظُرِهَا الْأَعْجمِيِّ.

وَمِنْ جَهَةِ التَّرْكِيبِ، فَلَا يَكُونُ فِي الصياغةِ أَسَالِيبٌ مُوَلَّدةٌ أَو مُتَرْجَمَةٌ تُخَالِفُ التَّرْكِيبَ الْعَرَبِيَّ، فَلَيْسَ كُلُّ صَفٌ لِلْأَفْاظِ الْعَرَبِيَّةِ يَكُونُ أَسْلُوبًا عَرَبِيًّا.

وَمِنْ جَهَةِ الْمَعْنَى، فَلَا يُسْتَعْمَلُ الْأَفْظُرُ أَو التَّرْكِيبُ فِي غَيْرِ مَعْنَاهِ الْعَرَبِيِّ، فَبَعْضُ الْأَفْاظِ وَالْأَسَالِيبِ يَكُونُ لَهَا مَعَانٍ عَامِيَّةً أَو مُوَلَّدةً تُخَالِفُ مَعْنَاهَا الْلُّغَوِيِّ.

وَهَذِهِ الضَّوَابِطُ تَعُودُ إِلَى أَرْبَعِ مَجَمُوعَاتٍ: ضَوَابِطُ مَعْنَوِيَّةٍ، وَضَوَابِطُ لَفْظِيَّةٍ، وَضَوَابِطُ تَرْكِيبِيَّةٍ، وَضَوَابِطُ إِلْمَاءٍ وَالتَّرْقِيمِ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ حِيثُ أَهْمِيَّتِهَا وَكُثْرَتِهَا فِيهَا.

وَهَذَا إِجْمَالٌ بِهَا، فَالضَّوَابِطُ الْمَعْنَوِيَّةُ ضَابِطَانَ:

١- موافقة العبارة للمعنى.

٢- الدقة والوضوح.

وَالضَّوَابِطُ الْلَّفْظِيَّةُ أَرْبَعَةُ ضَوَابِطٍ:

٣- الطهارة من الأخطاء النحوية والتصريفية.

٤- عدم استعمال الألفاظ العامية غير السليمة لغويًا.

٥- عدم الحشو والاستطراد.

٦- استعمال الأفصح والمتفق عليه أولى من الفصيح والمختلف في صحته والضعف.

والضوابط التركيبية الأسلوبية دلالةً ضوابط:

٧- صحةُ الأسلوب.

٨- عربيةُ الأسلوب.

٩- عدمُ اختلافِ الأسلوب بلا داعٍ أو حاجة.

وضوابطُ الإملاء والترقيمِ ضابطان:

١٠- مراعاةُ قواعدِ الإملاء، واتفاقُها في المسألة الواحدة.

١١- مراعاةُ علاماتِ الترقيم.

وهناك ضوابطٌ لغويةٌ في عُرُوفِ القانونيين، لا تدخلُ في صُلبِ البحث، منها كونُ المخاطبِ بالمفرد لا بالجمع، ومنها أنَّ كثيراً من الصائغين القانونيين يُحِبُّونَ أن تكونَ الصياغةُ بالفعل المضارع المبنيِ للمعلوم^(١).

فهذه الضوابطُ إجمالاً وهذا أوانُ الكلامِ على هذه الضوابطِ بالتفصيل والأمثلة.

الضابطُ الأولُ: موافقةُ العبارةِ للمعنى.

هذا الضابط من الضوابط المعنوية، وهو من أهمِ الضوابط، ويحتاج إلى أمثلة كثيرة لبيانه.

فهناك في اللغة ألفاظٌ مختلفةٌ وتركيبٌ متنوعٌ تدلُّ في الإجمال والعموم على معنٍ واحد، ولكنها في الخصوص والدقة تختلفُ معانيها.

فمما وفقةُ العبارةِ للمعنى أن تكونَ بمقداره، لا تزيدُ عليه فتشملَ غيره ولا تقصُّ عنه فتقصرُ عن جميع معناه، وأشدَّ من ذلك أن يكونَ معناها في اللغة غيرَ ما أرادَ الصائغ. فعند التخصيص لا يصحُّ التعميم، وعند التقييد لا يصحُّ الإطلاق، وعند إرادَةِ إثباتِ الحكمِ دونَ النَّظرِ إلى تَجَددِ واستمرارِ نَسْتَعملُ الاسمَ والجملَ الاسمية، وعند إرادةِ التَّجَددِ والاستمرارِ نَسْتَعملُ الفِعلَ والجملَ الفعلية، وعند استعمالِ الجملةِ الاسمية تَجْعَلُ المعلومَ هو المبتدأ والمجهولَ هو الخبر؛ لأنَّ مَحَلَّ الفائدةِ، إلى آخره ...

(١) انظر: مبادئ الصياغة القانونية، لجعفر سعد ون المؤمن ص٢.

ويمكن أن نقسم هذا الضابط إلى قسمين، وهما:

أ- موافقة اللفظة لمعنى.

ب- موافقة الجملة لمعنى.

القسم الأول: موافقة اللفظة لمعنى:

ذكرت في أول البحث مثالاً (السِّجن والسَّجن)، وموافقة كلٍ واحد منها لمعناه. وجاء في المادة الثالثة من النظام الأساسي للحكم مانصه: "ولَا يُنَكِّسُ الْعَلَمُ أَبَدًا" فإن كان المراد: لا يُقلب رأساً على عقب، فإن هذا هو معنى التنكيس وإن كان المراد: لا ينزل لسببٍ من الأسباب كهزيمةٍ أو كارثةٍ كما تفعلُ بعضُ الدُّول، فإن (التنكيس) في اللغة لا يدخل على هذا المعنى، فأصل التنكيس في المعاجم قلبُ الشيءٍ على رأسه بجعلِ أعلاهُ أسفلاً، وأولهُ آخره، وإن كان المراد: لا يمال بحيث يكون أعلاه مائلاً إلى الأرض للأسباب المذكورة آنفًا، فإن هذا المعنى مقبول للتنكيس؛ فقد جله في المعاجم: (نكَسَ رأسه تنكيساً: أماله). وإن كان المراد جميع ذلك فإن العبارة تقصر عن هذا المعنى، والأولى أن يقال مثلاً: "ولَا تجوز إهانة العلم أبداً، كإنزاله وإمالته وتنكيسه".^(١)

وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور في جدول النقاط للمخالفات المرورية: عبارة "مسَمَى المخالفات"، يعني اسم المخالفة، وفرقٌ بين اسم المخالفة ومسماها. فلفظ (قطع الإشارة) اسم المخالفة، وأما مسمى المخالفات فما يفعلهُ قاطع الإشارة.

والقسم الثاني من موافقة العبارة لمعنى: موافقة الجملة لمعنى:

فقولنا (دينُ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامُ) و(الإِسْلَامُ دِينُ الدُّولَةِ)، كلها جملةً اسمية وهي ميدلان على معنى إجماليٍ واحد، ومع ذلك يختلفان في المعنى الخاصِّ الدقيق، لأنَّ الأصل في المبتدأ أنْ يكونَ الشيءَ المعلوم، وأنْ يكونَ الخبرُ الشيءَ المجهول، وقولنا المجهول أي: الشيءُ الذي يُؤْتى به للإخبار به عن المبتدأ.^(٢)

(١) انظر: الصاحب (نكـس) ٩٨٦/٣ - والقاموس (نكـس) ٧٤٦ - والمـعجم الوسيط (نكـس) ٩٥٢.

(٢) انظر: مغني الليب لابن هشـلة ٣٥٨/٥ - والمساعدـ ابن عـقـيل ٢٢٠/١ - والهمـع لـسيـوطـي ٢٨٢.

فالشيء المعلوم في الأنظمة والدستير أنها تُبيّن دين الدولة، فلذا يقال: ما دين الدولة في السعودية؟ ما دين الدولة في فرنسا؟ وهكذا، فإذا قيل: ما دين الدولة، لا يقال: ما الإسلام في السعودية؟ ليقال: الإسلام هو دين الدولة. وعليه ينبغي أن يكون الدين هو المبتدأ، والإسلام هو الخبر. وكذا يقال في: (اللغة الدُّولَةُ الْعَرَبِيَّةُ).

ولذا أحسن صائغ النظام الأساسي للحكم في قوله في المادة الأولى: "يَبْيَهَا إِسْلَامُهُ وَدِسْتُورُهَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنْنَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَغْتَهَا هِيَ الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَعَاصِمَتُهَا مَدِينَةُ الرِّيَاضِ".

وفات هذا الإحسان صائغ نظام آخر، قال فيه: "الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغة الدولة الرسمية".

وقولنا (يَعْلَمُ الْمَلِكُ حَالَةُ الطَّوَارِيِّ) (والملك يعلّم حالة الطوارئ) (والملك هو الذي يعلّم حالة الطوارئ) (حالة الطوارئ يعلّمها الملك)، (حالة الطوارئ لا يعلّمها إلا الملك) كل هذه الجمل والتركيب تدل في الإجمال على معنى واحد، ولكنها تختلف في المعنى الخاص الدقيق.

فالجمل الثلاث الأخيرة نص على أن حالة الطوارئ من خصائص الملك، لا يعلّمها إلا هو، والجملتان الأولىان ليستانصا في ذلك، بل فيهما إسناد إعلان الطوارئ إلى الملك دون تحصيشه به، وإن كان تحصيشه سيفهم من قوّة النظام القائم على الجبر والإلزام، ولا يفهم من الجملة اللغوية.

وأنسب هذه الجمل (حالة الطوارئ يعلّمها الملك)، لأن فيها أمرين: البداء ببيان حكم حالة الطوارئ التي من أجلها وضعَت هذه المادة، وتحصيص ذلك بالملك.

وإذا كان المقصود الأول تحصيص ذلك بالملك، ولم يرد الصائغ الجملة الثلاث الأخيرة لطولها، فالمناسب من الجملتين الأولىين هي الجملة الاسمية (الملك يعلّم حالة الطوارئ)، لأن التعبير بالاسم يدل على ثبوت الحكم ودواجه دون نظر إلى زمان أو تجديف.

واستمرار، أ ما التعبير بالفعل فيدل على تقييد الحكم بزمن معه فادة التجدد والاستمرار^{١١}.

وعليه يفوت الإحسان صانع النظام الأساسي للحكم في قوله في المادة الحادية والستين: "يُعَيْنُ الْمَلِكُ حَالَةَ الطَّوَارِئِ". وفي المادة السابعة والخمسين: "يُعَيْنُ الْمَلِكُ نُوَّابَ رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ ...". وفي المادة الثامنة والخمسين: "يُعَيْنُ الْمَلِكُ مَنْ فِي مَرْتَبَةِ الْوُزَرَاءِ". وفي المادة الثالثة والستين: "يَسْتَقْبِلُ الْمَلِكُ مُلُوكَ الدُّولِ وَرُؤْسَاعَهَا". وفي المادة الرابعة والستين: "يَمْنَحُ الْمَلِكُ الْأَوْسِمةَ".

وهذه الجمل بهذا التركيب تدل على أنه على الملك أن يعمّل بهذه الأعمال، على معنى: على الملك أن يعيّن الوزراء ... وعليه أن يستقبل ملوك الدول ... وعليه أن يمنح الأوسمة.

إذ كان المعنى على ذلك فاللفظ موافق للمعنى، ويكون كمعنى قول الصائغ في المادة الخامسة والخمسين: "يَقُومُ الْمَلِكُ بِسِيَاسَةِ الْأَمْمَةِ سِيَاسَةً شَرِيعَةً طِبْقًا لِحَكْمِ الْإِسْلَامِ". فهذه العبارة تبين ما يجب على الملك أن يعمّله، فناسب أن يعبر بالجملة الفعلية الدالة على التجدد والاستمرار.

وعلى ذلك يكون من المناسب أن يغير الصائغ بالجمل الفعلية لما فيه من تجدد واستمرار، وليس مقصوده مجرد إثبات الحكم، ومن ذلك قول الصائغ في المادة العاشرة: "يَقُومُ الْحَكْمُ فِي الْمُمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ". وقوله في المادة العاشرة: "تَحْرُصُ الدَّوْلَةُ عَلَى تَوْثِيقِ أَوَّاصِرِ الْأَسْرَةِ". وقوله في المادة الثالثة عشرة: "يَهْدِيُ التَّعْلِيمُ إِلَى غَرْسِ الْعِقِيدَةِ إِلَيْهَا كَثِيرَةً".

ولم يكن مناسباً أن يغير بالجملة الاسمية عمما فيه تجدد واستمرار، كقول الصائغ

(١١) انظر: الكتاب المسيحي رقم ٢٩٣/٣ - والمقدمة تكتب باسم برد للمترجم ولد العزيز الجندي ص ١٢٤ - والتلخيص للقرآن مع شرحه المطول للتلخ تازاني ٢١٣ - والإشارات والتبيين لهات لمح مد الجرجاني ٦٧ - ومن نحو المباني إلى نحو المعاني لمحمد الحمسي ٤٥٥،٣٤.

في المادة الثانية عشرة: ”تعزيز الوحدة الوطنية واجب، وتمتنع الدولة كل ما يؤدي للفرقه“، وكان الأنصب الجملة الفعلية، لأنَّ التَّعْزِيزَ متجددٌ ومستمرٌ وبأشكال مختلفة (يجب تعزيز الوحدة الوطنية)، فتكون جملة فعلية كالجملة التي تليها ”وَتَمْنَعُ الدُّولَةُ كُلَّ مَا يُؤَدِّي لِلْفَرْقَةِ“.

وعكس ذلك قول الصائغ في المادة الثامنة عشرة: ”تَكْفُلُ الدُّولَةُ حُرْيَةُ الْمِلْكِيَّةِ الخاصة وحُرمتها، ولا يُنْزَعُ مِنْ أَحَدٍ مِلْكُهُ إِلَّا لِلْمَصْلَحةِ العَامَّةِ“. فعبر بالجملة الفعلية في الموضعين، أما في الموضع الثاني فتبين حسنَه ولا يُنْزَعُ مِنْ أَحَدٍ مِلْكُهُ إِلَّا لِلْمَصْلَحةِ العَامَّةِ؛ لأنَّ الحكمَ خاصٌ بفعلٍ إذا وقع، ولكنَّ الموضع الأول يناسبُ الجملة الاسمية فيقول: ”حُرْيَةُ الْمِلْكِيَّةِ الخاصة مكفولة“؛ لأنَّه أراد بيان ثباتِ هذا الحكم، سواءً مارسَه المواطنُ أم لا، وليس المراد تكرر وتجدد تكفل الدولة بهذا الأمر، ولذا أحسن الصائغ في المادة السابعة والأربعين في قوله: ”حق التقاضي مكفول بالتساوي للمواطنين“، فعبر بالجملة الاسمية.

وانظر لحسن الجملة الاسمية في المادة الستين: ”الملك هو القائد الأعلى لكافَّةِ القُوَّاتِ العسكريَّةِ“، ولا يناسبُ هنا التعبير بالجملة الفعلية: ”يَقُودُ الملك كافَّةَ القُوَّاتِ العسكريَّةِ“؛ لعدم دلالتها على ثبات الحكم، واحتياطه بالملك، ونحوها في السُّوءِ: ”الملك يَقُودُ كافَّةَ القُوَّاتِ العسكريَّةِ“.

قال إمام العربية والمعاني عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز: ”ولا ينبغي أن يُغَرِّكَ أنا إذا تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر قدَرْنا الفعلَ في هذا النحو تقديرَ الاسمِ كما نقولُ في (زيد يَقُومُ): إنه في موضع (زيد قائم)، فإنَّ ذلك لا يقتضي أنْ يستويَ المعنى فيهما استواءً لا يكونُ من بعده افتراق، فإنهما لو استويَا هذا الاستواء لم يكن أحدهما فِعْلًا والآخرُ اسمًا، بل كان ينبغي أنْ يكونَا جميًعاً فِعْلِين، أو يكُونَا اسْمَيْن“^(١). فإن قولك: (زيد منطلق) وقولك: (زيد ينطلق) لا يستويان، فالجملة الأولى إخبارٌ عن

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ١٢٤.

ثباتٍ زيدٍ على حالةِ الانطلاق، والجملةُ الثانيةُ إخبارٌ عن استمرارِ انطلاقٍ زيدٍ وتجددِه^٣!

الضابط الثاني: الدقة والوضوح.

وهذا من أهم الضوابط اللغوية. فالدقة والوضوح في التعبير يُضفيان على الصياغة المعنى المراد المقصود.

فعدم الدقة يقود إلى جعل النص مشوشًا محتملًا لغير المعنى المراد.

وعدم الوضوح يقود إلى الغموض والتrepid في فهم النص.

وللدقة والوضوح أوجه، منها:

الوجه الأول: كفاية النص و مباشرته.

ينبغي أن يكون النص وحده كافيًّا للدلالة على معناه دلالةً مباشرةً، دون الاستعلة

بخارجه:

فبعض النصوص يقصر عmomها على معانٍ خاصةً دون مخصوصٍ مقبول.

وبعض النصوص يعتمد في فهمه على ما خصَّه استعمال الناس في زمان أو مكان معين.

وبعض النصوص يكون قاصرًا عن إدراك مدلوله بسبب سقوط لفظة أو عبارة وهذا السقوط قد يجوز في الأساليب الأدبية الخيالية القائمة على الحذف والتقدير، ولكن لا يحسن هنا.

جاء في أحد القرارات: ”عن السبب الثالث أيضًا فإنه طعونٌ موضوعيةٌ في الحكمِ البدائي، ومجالُ إثارتها الدعوى الأصلية.“.

وكانت كفاية النص أن يقول: ”عن السبب الثالث أيضًا فإنه يتكونُ من طعون موضوعية في الحكم البدائي“، وأن يقول: ”ومجالُ إثارتها يجب أن يكونَ في الدعوى الأصلية“.

وجاء في قرار آخر: ”إن الأكثريَّة والأقلية في الأحكام لا تكونُ بجمعِ أصواتِ القضاة

(٤) من نحو المباني إلى نحو المعاني لمحمد الحمصي ٤٤٥.

في المحكمتين محكمة التمييز والمحكمة المنقوض حُكْمُها، إنما الأغلبية هي أغلية محكمة التمييز^{١٠}.

وكفاية النص أن يقال: إنما الأغلبية هي أغلبية أصوات أعضاء محكمة التمييز، وقد يقال: إن الإضافة هنا لأدنى ملابسة كما يقول النحويون والأدباء، ويقال: هذا في النصوص التي لا تشترط فيها المباشرة والكافية^{١١}.

وجاء في المادة الأولى في النظام الأساسي للحكم: "وَسْتُورُهَا كِتابُ اللَّهِ تَعَالَى وَسَنَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْ أَنَّهُ سَمِّيَ رَسُولَهُ لَكَانَ النَّصُ أَكْثَرَ كَفَايَةً، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي نَظَامِ هِيَةِ الْبَيْعَةِ فِي الْمَادِهِ الْثَالِثَهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَنَّهُ غَيْرَ الْمَذَكُورِ مَعْرُوفٌ مِنْ خَارِجِ النَّصِّ، وَلَوْ أَنَّ الصَّائِغَ قَالَ: "وَسْتُورُهَا كِتابَهُ تَعَالَى" لَكَانَ غَيْرَ الْمَذَكُورِ مَعْرُوفًا فَأَيْطَأَ مِنْ خَارِجِ النَّصِّ، وَلَفَقَدَ النَّصُ كَفَايَتَهُ.

جاء في المادة الثالثة النظام الأساسي للحكم عن العَلَمِ: "لَوْنَهُ أَخْضَرُ ... تَتَوَسَّطُهُ كَلِمَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)، تَحْتَهَا سَيْفٌ مَسْلُولٌ"، وعدم الكافية في هذا النص أنه لم يبيّن لون كتابة الشهادة، وهو الأبيض، ولم يبيّن اتجاهات السيف.

وجاء في نظام المرور في المادة الرابعة: "يُحِبُّ أَنْ تَحْمِلَ كُلُّ مَرْكَبَهُ ... لَوْحَتَينْ ظَاهِرَتِينْ مَقْرُوعَتِينْ". ثُمَّ جاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ٤/٢: "تَثَبَّتْ إِحدَى الْلَّوْحَاتِ فِي مُقْدَمَةِ الْمَرْكَبَهُ، وَأَخْرَى فِي مُؤَخَّرَتِهَا". فقال الصائغ (لوحات)، وكان ينبغي أن يقول: (إحدى اللوحتين) كما في النظام، ثم يقول: (والآخر) بـ(أـلـ)، أي: اللوحة الأخرى، أما تنكيرها (وأخرى) فلا يدل على أنها يجب أن تكون اللوحة الأخرى للوحة التي في مقدمة المركبة، بل يصح أن تكون أي لوحة.

وعكس ذلك أنه في نظام المرور في المادة السادسة: "لَا يَجُوزُ لِأَيِّ مَرْكَبَهِ حَمْلُ لَوْحَاتٍ غَيْرِ الَّتِي تَصْدُرُ مِنْ الإِدَارَهِ الْمُخْتَصَهُ". فقال الصائغ في اللائحة ٦/١: "لَا يَجُوزُ وَضْعُ

(١٠) انظر المثالين في: اللغة العربية في القضاء الأردني المشكلات والحلول (الصورة الأولى: انعدام الكافية (اللفظية).

غير اللَّوْحَتِينَ: فقال (اللوحتين) والذي في المادة (لوحات)!^{١٠}

الوجه الثاني: أن استعمال الفعل المضارع المبني للمعلوم أولى من المبني للمجهول

وهذا ما ينصُّ كثير من القانونيين على استحبابه في الصياغة القانونية.^{١١}

فال فعل المبني للمجهول قد يُسَبِّبُ الغموض حين يكون بيان الفاعل مطلوباً.

جاء في المادة الخامسة من النظام الأساسي للحكم: **“يَكُونُ الْحُكْمُ فِي أَبْنَاءِ**

الْمَلَكِ الْمُؤَسِّسِ ... وَيُبَيَّنُ الْأَصْلُحُ مِنْهُمْ لِلْحُكْمِ”, ثم قال في المادة التي بعدها: **“يُبَيَّنُ**

الْمُوَاطِنُونَ الْمَلَكَ”, فهل الفاعل في هذين النصين واحد أم مختلف بين نظام آخر، فهذا مما

سببه بناء الفعل الأول للمجهول، ولو نص عليه لزالت الغموض.

وجاء في المادة التاسعة عشرة من النظام الأساسي للحكم: **“تُحُظَرُ الْمَصَادِرَةُ**

الْعَامَّةُ لِلأَمْوَالِ”, مع أنه جاء في المادة قبلها: **“تَكُفُّلُ الدُّولَةُ حُرْيَةُ الْمُلْكِيَّةِ الْخَاصَّةِ”**, فلم

لم يقل الصاغ: **“تُحُظَرُ الدُّولَةُ الْمَصَادِرَةُ الْعَامَّةُ لِلأَمْوَالِ”**, وهل هناك حاضر غيرها؟!

الوجه الثالث: أن يُسْتَعْمَلَ في كل معنى ما هو أصل فيه.

ففي اللغة ألفاظ كثيرة هي أصل في الدلالة على معنى معين، ثم تجد ألفاظاً أخرى

تدل على هذا المعنى أيضاً، ولكن على قلة، أو على غير أصالة في الاستعمال، أومجازاً أو

توسيعاً، وهذا من سعة العربية وتفننها.

والذي يحسن في الصياغة القانونية أن يُسْتَعْمَلَ الأصل في كل أسلوب، وفي كل

معنى؛ لأنها تقوم على المباشرة وشدة الوضوح، لا على سعة اللغة وتفننها.

جاء في المادة الخامسة من النظام الأساسي للحكم: **“يَتَوَلَّ وَلِيُّ الْعَهْدِ سُلْطَانِ**

الْمَلَكِ عِنْدَ وَفَاتِهِ حَتَّى تَتَمَّ الْبَيْعَةُ”, والأصل في الدلالة على بداية الزمن (منذ)، فيقال: (منذ

وفاته)، واستعمال (عند) ظرف زمان كما في النص قليل في اللغة، ولكنه وارد وإن أردت

أن توقف على ضعف هذا النص فقس عليه قوله: (سانظرك عند آذان الفجر حتى تطلع

الشمس)، وأنت تريده: (سانظرك منذ آذان الفجر حتى تطلع الشمس).

(١٠) انظر: مبادي الصياغة القانونية، حيدر سعد ون المؤمن ص ٣.

وجاء في المادة الثانية عشرة من النظام الأساسي للحكم: "وَتَمْنَعُ الدَّوْلَةُ كُلًّا مَا يُؤَدِّي لِلْفُرَقَةِ، وَالْأَصْلُ فِي الدِّلَالَةِ عَلَى الْغَايَا (إِلَى) لَا (اللام). فَيَقُولُ: "وَتَمْنَعُ الدَّوْلَةُ كُلًّا مَا يُؤَدِّي إِلَى الْفُرَقَةِ".

ونحوه ما جاء في المادة التاسعة والستين من النظام الأساسي للحكم: "وَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ مَنْ يَرَاهُ لِحُضُورِ هَذَا الْاجْتِمَاعِ، لِمَنَا قَشَّةٌ مَا يَرَاهُ مِنْ أَمْوَارٍ". أما اللام الأولى في (الحضر) فالحسن فيها أن تكون (إلى)، لأنَّ المراد منها الغاية، وأمَّا اللام الأخرى في (المناقشة) فحسنة، لأنَّ المراد منها التعليل، واللام أصلٌ في التعليل.

وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ١٥: "تُثَبِّتُ بِمَكَانٍ وَاضْعَفُ فِي مَكَانٍ وَاضْعَفْ" لأنَّ الأصل في الظرفية (في).

وأشدَّ منه ما جاء في المادة الخامسة والستين من النظام الأساسي للحكم: "لِلْمَلِكِ تَفْوِيضُ بَعْضِ الصَّالِحَيَاتِ لَوْلَيِّ الْعَهْدِ بِأَمْرِ مَلَكِيٍّ" ، والذي في المعاجم أنه قال: "فَوْضَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ"١٠. لا: له، فيقال: (تفويض الصالحيات إلى ولبي العهد).

وجاء في نظام مراقبة البنوك في المادة السابعة: "وَعَلَى كُلِّ بَنْكٍ كَذَلِكَ أَنْ يَحْفَظَ ... بِاحْتِيَاطِيٍّ سَيُولَةً لَا تَقْلِيلًا عَنْ خَمْسَةِ عَشَرَ فِي المائة" ، والأصل: (لا يقل) لأنَّ المراد: (لا يقل الاحتياطي)، وقوله (لا تقل) تجُوزُ على أنَّ المضاف (احتياطي) اكتسبَ التأثيرَ من المضاف إليه (سيولة)١١.

الوجه الرابع: الآ يكون الأسلوب من الأساليب المحتملة أكثرَ من معنى.

ففي اللغة أساليب هي في طبيعتها تحتمل أكثرَ من معنى.

نحو: (عليك كذا). فهو يستعمل في الواجب، نحو: عليك البر بوالديك، وفي غير

(١) انظر: القاموس (فوض) ٨٣٩ - والعجم الوسيط (فوض) ٧٠٦.

(٢) اد طراك تساب المضاف إلى مضاد إله التأثير في: الكتاب لسيوطه ٥١٧ - والمقدمة تضيّب للمفرد ٤٧٦ - والأصول لابن لسراج ٢٤٧٦ - ولا تسهيل لابن ما لك ١٥٦ - ومحنة الله ييب لابن هشيم ٦٤٥/٥.



الواجب، نحو: **عليك النوم مبكراً**.

واستعمالها في الأنظمة يُخصّها بالواجب، لأن الأنظمة تقوم على الجبر والإلزام، ولكن بعض الأنظمة قد تقابل بينها وبين الواجب، فتُوهم أنها إرادة غير الواجب، نحو ما جاء في المادة الحادية والأربعين من النظام الأساسي للحكم "يلتزم المقيمون في المملكة العربية السعودية بانظامتها، وعليهم مراعاة قيم المجتمع السعودي"؛ فإن أراد الصائغ بقوله: "وعليهم مراعاة قيم المجتمع السعودي" الوجوب فلم يقل: (يلتزم المقيمون بانظمة لها وبمراعاة قيم المجتمع)، وإن أراد مجرد الحديث فقد استعمل الأسلوب في معناه المحتمل، مما سبب الغموض.

الوجه الخامس: عدم الفصل بين الكلمات المتعلقة ببعضها.

قد تتعلق كلمات بكلمات، وقد تحيّز اللغة العربية الواسعة الفصل بينها، ولكن الأحسن في الصياغة القانونية القائمة على المباشرة والوضوح وصل هذه الكلمات ببعض، والابتعاد عما تحيّزه اللغة من الفصل؛ لأننا في صياغة قانونية، لا في درس لغة أو نحو.

جاء في المادة السابعة والأربعين من النظام الأساسي للحكم: "حق التقاضي مكفول بالتساوي لمواطني والمقيمين في المملكة"، فقوله (بالتساوي) متعلق بـ(التقاضي)، أي: (التقاضي بالتساوي مكفول)، وقوله (للمواطنين) متعلق بـ(قوله مكفول)، أي: (مكفول للمواطنين)، ولكن الصائغ فصل (بامكفول) بين (التقاضي بالتساوي) وفصل (بالتساوي) بين (مكفول للمواطنين)، وإن كان هذا الفصل مما تتّسع له العربية الواسعة، ولكن العربية المباشرة أن يقال: (حق التقاضي بالتساوي مكفول للمواطنين والمقيمين).

الوجه السادس: الآ يكون النص أقصر من المراد.

قد يدل النص على أهم المراد أو على أكثره أو على أوله، أو على بعضه ولكنه يجر لغوياً عن أن يدل عليه كله، وهذا يجعله غير دقيق ولا واضح.

وهذا الوجه يدخل في الضابط الأول، وهو موافقة اللفظ للمعنى، ولكنني أفردها لكي أثره في الدقة والوضوح.

جاء في المادة الثانية والستين من النظام الأساسي للحكم: "للملك إذا نشأ خطراً يهدد سلامة المملكة ... أن يتخذ من الإجراءات السريعة ما يكفل مواجهة هذا الخطأ" (المواجهة) هنا أقصر من المعنى المراد، فالمواجهة من (واجهه يوماً مواجهة) إذا: قال له بوجهه، وإذا استقبله بكلام أو وجهه^١. وليس في ذلك أكثر من المقابلة والاستقبال وليس فيها معنى الدفع الذي يريد الصائغ من هذه الكلمة، فكان الصواب أن يقول: "أن يتتخذ من الإجراءات السريعة ما يكفل دفع هذا الخطأ".

و جاء في المادة السادسة والستين من النظام الأساسي للحكم: "يصدر الملك في حالة سفره إلى خارج المملكة أمراً ملكياً بإذابة ولي العهد". وهذا النص يدل على أن الملك لا يصدر هذا الأمر إلا في حالة سفره، مع أن المعمول به أن الأمر يصدر قبل السفر فصار النص أقصر من المراد منه، ويستقيم النص بنحو: (يصدر الملك إذا أراد السفر).

و جاء في المادة السبعين من النظام الأساسي للحكم: "تصدر الأنظمة والمعاهدات والاتفاقيات الدولية والامتيازات، و يتم تعديلاً بها بموجب مراسيم ملكية" فالتعبير هنا (تصدر) أقصر من المعنى المراد، لدلالتها على الصدور من جهة واحدة، فالأنظمة تصدر والامتيازات يصح أن يقال فيها (تصدر)، والمعتارف عليه أن يقال: (تمنح) لكن المعاهدات والاتفاقيات الدولية لا يصح فيها أن يقال (تصدر)، بل هي توقع، لأنها تكون من أكثر من جهة، فليست جهة تصدرها.

وقد يقال: إن المراد (تصدر) الموافقة على الأنظمة وغيرها بموجب مراسيم ملكية، فيكون في النص عدم كفاية.

وقد يقال: إن (تصدر) هنا بمعنى العام لا العرفي، أي: (تفذ وتعمل)، وهذا غموض شديد، لاستعمال لفظ مشهور عرفي في معنى لغوی عام.

(١) انظر: القاموس (وجه) ١٦٢٠ - والمجمع الوسيط (وجه) ١٥١٠



وعكس ذلك أن يكون النص أطول من المراد، ومثاله ما جاء في المادة الخامسة والستين من النظام الأساسي للحكم: **"لِلْمَلِكِ تَفْوِيضُ بَعْضِ الصَّلاحيَاتِ لَوْلَى الْعَهْدِ بِلِمَكِيٍّ"**، فقول الصانع (الصلاحيات) إن كان المراد منه أن الملك يفوض بعض صلاحياته وبعض صلاحيات غيره من الوزراء وغيرهم فالعبارة مستقيمة، وإن كان الملك تفويض صلاحيات الملك وهذا الظاهر - فالعبارة أطول من المراد منها.

الاطباق الثالث: الطهارة من الأخطاء النحوية والتصريفية.

وهو من الضوابط اللفظية.

ولأنه من الضوابط البدهية **كِدْتُ أَلَا أَذْكُرُه**، حتى فوجئت بأخطاء نحوية وتصريفية في صياغة بعض الأنظمة واللوائح والقرارات عندنا.

وهذه الأخطاء خطايا لا تغافر، لأن السلامة منها سهلة جداً، فإن كان طلغ القلوب لا يستطيع تطهير صياغته من ذلك **فِيمَكِنَهُ بِكُلِّ سُهُولَةٍ** الاستعانة بمختص يطهير له عمله من هذه الأخطاء، وهذا من الواجبات المتحتمة.

جاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ٧/٨: "مع مراعاة ما ورد في المادة الخامسة والستون، وصوابه: (والستين): لأنه معطوف على صفة مجرورة.

وفيها أيضاً ١٠/٨: "ما لم يكن مُؤمَّنَ عليهها"، وفيها أيضاً ٦/٢/١٤: "أن تكون المركبة مُؤمَّنَ عليها"، وفيها أيضاً ١٧/١٧: "أن تكون رُخصَة سَيِّر المركبة سارية المفعول ... وَمُؤمَّنَ عليها"، والصواب: (مؤمناً)، لأنها خبر الكون.

وفيها أيضاً ١٥/٨: "ويحمل رخصة قيادة أو تصريح يُؤْهِلُهُ لِقِيَادَةِ تلك المركبة"، والصواب: أو تصريحاً، لأنه معطوف على المفعول به (رخصة).

وفيها ٥/١١٠: "أَلَا يَتَرَبَّ عَلَى إِجْرَاءِ التَّعْدِيلِ خَطَرًا عَلَى السَّلَامَةِ الْعَامَّةِ". وصوابه (خطراً)، لأنه فاعل.

وفيها ٣/٢/١٣: "يَجِبُ نَقْلُ مُلْكِيَّةِ المركبة المباعة"، و(المباعة) من (أباعه) إذا عرضه

للبيع، فالمباعدة المعروضة للبيع، هذا المعروف في اللغة^١، قال الشاعر الجاهلي:

فَرَسًا فَلِيُّسَ جَوَادُنَا بِمَبَاعٍ^٢

وعليه يفسد معنى اللائحة، لأنها تريد المركبة المبيعة لا المباعدة.

الظابط الرابع: عدم استعمال الألفاظ العامة غير السليمة لغويًا.

يجب على الصانع القانوني تطهير صياغته من الألفاظ العامة غير السليمة لغويًا مما

الكلمات العامة السليمة لغويًا فلا أرى حرجًا من استعمالها.

جاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور: "عدم تسجيل سيارت الأجرة، أو

الحافلة عامة، أو النقل عام ... إلأى بموافقة وزارة النقل"، فـ(الحافلة عامة) وـ(النقل عملاً

الألفاظ العامة تركيبها غير سليم؛ لأن الصفة نكرة والموصوف معرفة، وصوابها أن يقال:

(الحافلة العامة أو النقل العام)، كما جاء في نظام المرور في المادة السابعة.

وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور^٣: "يجوز لغير السعوديين امتلاك

المركبات الخصوصي، فوَصَفَ المؤنث (المركبات) بالذكر (الخصوصي)، وصوابه:

(المركبات الخاصة)، وكذا وردت في نظام المرور في المادة السابعة.

وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور^٤: "ومن ثم تُستَكمل إجراءات

صرف لوحات بدائل فاقد، والصواب (مفقود) لا (فاقد)، لأن البدائل عن اللوحات المفقودة لا

عن صاحبها الفاقد، وقد جاءت العبارة على الصواب في جداول الرسوم التي في آخر

اللائحة التنفيذية لنظام المرور.

وجاء في نظام مراقبة البنوك في المادة السابعة: "وَفَقًا لمقتضيات الصالح العلْمِ"

ونحوه: "أن يتحمَّل أي التزامٍ ماليٍ آخر لصالح أي شخصٍ، وكلمة (صالح) هنا من

تحريفات العامة، والمراد (مقتضيات المصلحة العامة)، والمصلحة أي شخص)، وأما

(١) انظر: القاموس (بيع) - ٩١١ - والممعجم الوسيط (بيع) - ٧٩ - ومعجم الأخطاء الشائعة للعذاني ٤٦.

(٢) البيت من بحر الكامل، وهو لاأ جدع بن ما لك الهمداني، كما في: جم هرة اللغة ١٢٦٠ - وة هذيب اللغة

٢٤٠/٣ - ولسان العرب (بيع) ٢٥/٨.

(الصالح) فهو اسم لفاعل الصلاح، وليس هو المصطلحة، وقد جاءت الكلمة على الصواب في المادة الثامنة.

الظابط الخامس: عدم الحشو والاستطراد.

لغة الأنظمة مبasherة، وتقوم على الجبر والإلزام بقوة القانون، فلذا ينبغي أن تخلو من الحشو والألفاظ الزائدة، والاستطرادات.

ومن أوجه الحشو والزيادة في الصياغة القانونية:
الوجه الأول: عدم استعمال المؤكّدات.

كالقسم، وإن)، ولامر الابتداء، فيكفي أن يقول الصائغ: "دين الدولة الإسلام"، لا وإن دين الدولة الإسلام.

ومع ذلك يحسن الإitan بضمير الفصل - وإن كان من المؤكّدات - عند الحاجة إليه لأنه يفرق بين الخبر والتابع، كقول الصائغ في المادة الثانية من النظام الأساسي للحكم: "ولغتها هي اللغة العربية... عيدا الدولة عيدا الفطر والأضحى، وتقويمها هو التقويم الهجري"، فالضمير (هو) ضمير فصل زائد، وهو حسن؛ لدلالته على أن ما بعده خبر لتابع
الوجه الثاني: استعمال مشتقات الكون دون حاجة.

أكثر المتأخرن من استعمال مشتقات الكون أفعالاً مساعدةً لا يحتاج المعنى إليها، فاستعمالها حينئذ مضعف للصياغة، وهذا من آثار الترجمة كما سيأتي في الظابط الثامن.

جاء في المادة الثالثة من النظام الأساسي للحكم: " يكون عَلَمُ الدُّولَةِ كَمَا يَلِي: لَوْنَهُ أَخْضَرٌ...." وكان يكفي أن يقال: (علم الدولة: لونه أخضر)، وكلمة (يكون) وبعبارة (كما يلي) زوائد لا حاجة إليها، ولذا لم يذكرها الصائغ في المادة التالية إذ قال: "شعار الدولة سيفان متقاطعان"، ولم يقل: " يكون شعار الدولة كما يلي:".

وجاء في المادة الخامسة من النظام الأساسي للحكم: " يكون الحكم في أبناء الملك المؤسس... يكون ولـي العهد متفرغاً لولاية العهد"، وكان الأحسن حذف

(يكون)، فيقال: (الحكم في أبناء الملك المؤسس... يتفرّغ ولـي العهد لولـيـةـ العـهـدـ) الوجه الثالث: الإتيان بألفاظ زائدة لا تُفيد المعنى.

جاء في المادة التاسعة والعشرين من النظام الأساسي للحكم: "ترعى الدولة العلوم والآداب والثقافة، وتُعنى بتشجيع البحث العلمي، وتصون التراث، فلفظة (تعنى) زائدة لا حاجة إليها، حشرها الصائغ في هذا الجملة دون الجملتين قبلها وبعدها وكان يكفي أن يقول: (وتُشجع البحث العلمي).

و جاء في نظام مراقبة البنوك في المادة العاشرة: "يُحظر على أيٍّ بنكٍ أنْ يزاول الأعمال الآتية: ١- الاشتغال لحسابه ... ٢- أنْ تكون له مصلحة مباشـرةـ، فعبارة (أنْ يُـزاـولـ الأـعـمـالـ الآـتـيـةـ) زائدة لا حاجة إليها، فيقال: (يُـحـظـرـ علىـ أيـ بـنـكـ: الاـ شـتـغالـ لـحـسـابـهـ)، كما أنَّ هذه الزيادة سببـتـ خلـلاـ فيـ التـرـكـيـبـ معـ قولـهـ: (أـنـ تـكـونـ لهـ مـصـلـحةـ مـباـشـرةـ)، لأنَّ تقدير الأسلوب نحوـاـ يـعـودـ إـلـيـ (يـحـظـرـ علىـ أيـ بـنـكـ أنـ يـزاـولـ أـنـ تـكـونـ لهـ مـصـلـحةـ مـباـشـرةـ)، وهذا أسلوب ركيـكـ.

الضابط السادس: استعمال الصواب المتفق عليه أولى من المختلف في صحته والضعف.

في اللغة ألفاظ وتركيب واختلافات كثيرة، فالذى يجب على الصائغ أن يأخذ من اللغة المتفق على صحته، وإن كان فيه خلاف فعليه أن يأخذ بالأصول والأحسن والأكثر وألا يأخذ بما كان ضعيفاً أو مختلفاً فيه اختلافاً قوياً.

والكلام هنا مع الصائغ الذي يريد أن يصوغ صياغة حسنة، أما لو كنا نتكلـمـ على شيء قـبـيلـ وـكـتـبـ فإنـناـ سـنـحـدـدـ ماـ لـهـ وـجـهـ مـقـبـولـ وـمـاـ لـوـ جـهـ لـهـ وهوـ فيـ ذـلـكـ كالحريرـ الذيـ يـبـيـ بـيـتـاـ، فـيـأـخـذـ لـهـ مـنـ الـأـدـوـاتـ بـالـأـحـسـنـ وـالـأـفـضـلـ، وـلـكـنـ لـوـ جـاءـ وـقـدـ بـنـيـ الـبـيـتـ وـانتـهـىـ، فـإـنـهـ سـيـنـظـرـ إـلـىـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـنـىـ فـيـبـقـيـهـ وـلـوـ كـانـ هـنـاكـ مـاـ هـوـ أـحـسـنـ مـنـهـ وـهـاـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـنـىـ فـيـزـيـلـهـ بـغـيـرـهـ.

وقد ذكرت كتب اللحن والخطاء اللغوية ألفاظاً وأساليب كثيرةً مختلفاً في

منها الكلمة (كافٌة)، فكثير من اللغويين يرى أنها تلزم التنکير والنصب على الحالية وإخراجها عن ذلك خطأ، وهناك من جوَّز تعريفها (الكافٌة) وإضافتها، والخلاف قوي ومشهور^١. وقد جاءت الكلمة مضافةً وهو الوجه المختلف فيه - في النظر الأسلسي للحكم في المادة السادسة والخمسين والمادة الستين، ولو قيل عنها: (جميع) لاتهي الأمر.

ومنها (نفس الشيء) بتقديم لفظ التوكيد على المؤكَد، فيمنعه كثيرون من اللغويين لعدم سمعاه، ويحيى بهم اعتماداً على وروده في كلام بعض العلماء^٢، وقد جاء في المادة الثالثة والثمانين من النظام الأساسي للحكم: "لا يجُري تعديل هذا النظام إلا بنفس الطريقة التي تم بها إصداره"، ولو قيل: "بالطريقة نفسها"، لسَلِمَ من هذا. وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ٨/١٩: "التي يتضُّ منها التلاعب واختلاق المبررات"، ونحوه في نظام مراقبة البنوك في المادة العاشرة مرتين: "لها ما يبررها"، والتبرير بمعنى التسویغ ليس موجوداً في معاجم اللغة، ولذا يخطئه كثيرون، ويكتافُ آخرُون لتصحیحه^٣.

وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ١٢/٢: "لا يجوز لأي شخصٍ طباعي أو اعتباري استلام رخصة السير لارتفاعها"، والاستلام بمعنى التسلُّم ليس في معاجم اللغة، بل فيها أنَّ الاستلام هو اللمس بالقبلة أو باليد، ولذا خطأ كثيرون وتکلف آخرون لتصحیحه^٤.

(١) انظر: معجم الأخطاء الشائعة للعدناني ص ٢١٨ - وتصحیحات لغوية للشوبيرف .٨٠.

(٢) انظر: معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة للعدناني ص ٦٧٥ - وتصحیحات لغوية للشوبيرف ص ٣٥٩.

(٣) اد ظر: القاموس (بررا) ٤٤٤ - وة قويم اللسائين للهلا لي ٧٥ - ومع جم الأغلاط اللغوية المعاصرة للعدناني ٥٢ - وتصحیحات لغوية للشوبيرف .٣٦٦.

(٤) اد ظر: القاموس (سلم) ١٤٤٨ - والمعجم الوسيط (سلم) ٤٤٦ - ومع جم الأخطاء الشائعة للعدناني ٢٠.

وجاء في نظام مراقبة البنوك في المادة الأولى: "البنك الذي يكون مركّزه الرئيسي في المملكة"، والرئيسي يُنكرُها أكثر أهل اللغة، لأنها نسبة إلى صفة (رئيس)، وأنّت لا تقول (شيء كبيرٌ) في النسبة إلى (كبير)، بل تستعمل الصفة مباشرة فتقول: (شيء كبير)، كما أنه خالف المسمى (شيء رئيس)، وقد تكلف بعضهم لتصحّيقها^(١).

ومن ترك الأجدود واستعمال الضعيف ما جاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور^(٢): "لا يجوز وضع غير اللوحتين ... ولا تغيير لونيهما". فثّنَ (لونيهما)، وهو أضعف الأوجه هنا لأن القاعدة تقول: إذا أضيّف جزآن إلى ما يتضمنهما، ولم يفرّق المضاف إليه، جاز في المضاف الجمع، وهو الأجدود، وبعده الإفراد، وبعدهما الثنائي التي لا يعرف له شاهد إلا من الشعر^(٣)، فأجود الأوجه الجمع (ولا تغيير لوازهما)، وبعد الإفراد (ولا تغيير لونيهما) وأضعفها الثنائي التي استعملها الصائغ (ولا تغيير لونيهما).

ومن ترك الأجدود واستعمال القليل الضعيف ما جاء في نظام مراقبة البنوك في المادة الرابعة: "ومع ذلك يجوز للمؤسسة أن تطلب من هؤلاء الأشخاص ليه مستندات"؛ والأجدود الأكثر أن تلزمـ (أي) التذكيرـ (أي مستندات)، وتأتيـها مع المؤوثـ قليلـ ضعيفـ^(٤).
الظابط السابع: صحة الأسلوب.

لا يعني صـفـ الكلمات حـلـفـ بـعـضـها أـنـها تـكـونـ تـركـيـباـ عـربـيـاـ أو أـسـلـوبـاـ سـليمـاـ، فإن التركيب في العربية له أحـكامـه كـمـا أـنـ للـأـفـاظـ وـالـمعـانـيـ أحـڪـامـ، فيـجـبـ عـلـىـ الطـائـعـ أـنـ يـرـاعـيـ أحـڪـامـ التـركـيـبـ وـسـلـامـةـ الأـسـلـوبـ.

جاء في المادة الحادية والخمسين من النظام الأساسي للحكم: "الملك أو من ينيبه معيّنون بتنفيذ الأحكام القضائية"، فجمع الصائغ الخبرـ (معيّنونـ) مع أنـ العطف قبلها

(١) انظر: معجم الأخطاء الشائعة للعناني -٩٨ - ومعجم الأغلاط اللغوية المعاصرة للعناني ٢٤٤.

(٢) اـدـ ظـرـ: شـرـحـ الكـافـيـةـ الـشـافـيـةـ لـابـنـ مـاـ لـكـ ٤ـ /ـ ١٧٨٧ـ -ـ وـارـ شـافـ الضـرـ لأـ بـيـ حـيـانـ ٥ـ٨ـ٣ـ٢ـ /ـ ٢ـ -ـ وـالـ مـسـاعدـ لـابـنـ عـقـيلـ ٧ـ٦ـ /ـ ١ـ -ـ وـالـ دـرـ المـصـونـ لـلسـمـينـ الـحـلـيـ ٥ـ٢ـ٢ـ /ـ ٢ـ .

(٣) اـدـ ظـرـ: تـهـنـيـبـ الـلـاـغـةـ الـأـزـهـريـ ٦ـ٥ـ٥ـ /ـ ١ـ -ـ وـاـدـرـ الـمـصـونـ لـسـمـينـ الـحـبـيـ ٥ـ /ـ ٣ـ٩ـ٢ـ -ـ وـحـاشـيـةـ الـخـضـرـيـ عـلـىـ شـرـحـ اـبـنـ عـقـيلـ ١ـ٤ـ٢ـ /ـ ٢ـ -ـ وـتـقـوـيمـ الـلـسـانـيـ الـهـلـيـ ٢ـ٦ـ -ـ وـمـعـجمـ الـأـغـلـاطـ الـلـغـوـيـةـ الـمـعـاصـرـةـ لـلـعـنـانـيـ ٤ـ٢ـ .

(أو)، والقاعدة أنه "إذا عُطِّفَ بـ(أو) كان الحكمُ في عود الضمير والإخبار وغيرهما أحد الشيئين أو الأشياء، ولا تجوز المطابقة، تقول: (زيدٌ أو عَمْرُوكَ أَكْرَمُهُ)، ولو قلت (أَكْرَمُهُما) لم يجز^(١). وعلى ذلك كان يجب أن يقال: (الملكُ أو من يُنِيبُهُ مَعْنِيًّا). ثم إنَّ الصائغَ عندما خالفَ القاعدة النحوية وطابقَ جَمْعَ الخبرَ (معْنِيُونَ)، مع أنَّ المطابقة تقتضي تثنيةَ الخبرِ (معْنِيَانِ).

ثم إنَّ استعمالَ (أو) هنا غير مناسب، والمَكَانُ للواو، فيقال: (الملكُ ومن يُنِيبُهُ مَعْنِيَانِ)، لأنَّ الملكَ مَعْنِيٌّ بتنفيذ الأحكام القضائية، ومن يُنِيبُهُ مَعْنِيٌّ بذلك، وحيثُديمِكِنْ أنْ يجمعَ (معْنِيُونَ) فيقول: (الملكُ ومن يُنِيبُهُمْ مَعْنِيُونَ).

إذا كان الصائغ أراد بـ(أو) الدلالة على أنَّ نائبَ الملكِ لا يكونُ والملكُ موجودٌ فكان المناسبُ أنْ يستعملَ أحدَ حرفِ الترتيبِ (الفاءِ وثُمَّ)، لا (أو)، فيقولُ: (الملكُ فَمَنْ يُنِيبُهُمْ أو (الملكُ ثُمَّ من يُنِيبُهُ)، فإذا عُطِّفَ بالفاءِ أو (ثُمَّ) جازَ في الخبرِ الإفرادُ (معْنِيٌّ) والمطابقة (معْنِيَانِ)^(٢).

ونحو الخطأ هنا في (أو) الخطأ فيها في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ٨/٤: "يجوزُ للشركاتِ أو للمؤسساتِ الأجنبيةِ المتصحَّح لها بالعملِ بالمملكةِ امتلاكُ سياراتٍ، والموضع هنا للواو؛ لأنَّ الحكمَ يشملُ الشركاتِ الأجنبيةِ والمؤسساتِ الأجنبيةِ وليس خاصًا بأحدِهما.

وجاء في المادة التاسعة والأربعين من النظام الأساسي للحكم: "تَخْتَصُّ المحاكمُ في الفَصْلِ في جميع المنازعاتِ والجرائمِ، والذي في المعاجم^(٣) أنَّ الاختصاص يتعدَّى بالباءِ لا بـ(في)، وعليه يجب أنْ يقال: (تَخْتَصُّ المحاكمُ بالفَصْلِ).

(١) الدرالا مصونٌ في لوم الكتاب المكتوب للسجين الحط بي ٤٤٠/٢، هذا إذا كان المراد أحد المتعاطفين أو المتناهفات، كما في المادة المنقولة، أما إذا جاز في المعنى الجمع بينها فيجوز الإفراد والجمع، انظر: شرح الجمل لابن عصفور ٢٤٨/١ - وارتشاف الضرب لأبي حيان ٢٠٢١/٤.

(٢) انظر: ارشاف الضرب لأبي حيان ٢٠٢١/٤.

(٣) انظر: الصحاح (خصوص) ٣٢٧/٣ - والقاموس (خصوص) ٧٩٦ - والمعلم الوسيط (خصوص) ٢٣٨

وجاء في المادة السابعة والثلاثين من النظام الأساسي للحكم: **”لِمَ سَاكِنٍ حُرْمَتْهَا، وَلَا يَجُوزُ دُخُولُهَا بِغَيْرِ إِذْنِ صَاحِبِهَا“**. ف قال الصائغ (صاحبها) فأفرداً معَ أَنَّ الضمير عائد إلى (المساكن) في الدولة، ومساكنُ الدولة ليست لصاحبِهِ بل لأصحابِهِ ويستقيمُ النصُّ بنحو: **(بِغَيْرِ إِذْنِ أَصْحَابِهَا)، أوَّلَهُا، أوَّلَلْمَسْكَنِ حُرْمَتْهَا، وَلَا يَجُوزُ دُخُولُهُ بِغَيْرِ إِذْنِ صَاحِبِهِ.**

وجاء في المادة الثانية والستين من النظام الأساسي للحكم: **”إِذَا رَأَى الْمَلْكُ أَنْ يَكُونَ لَهُذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ صَفَةُ الْاسْتِمْرَارِ فَيَتَّخِذُ بِشَانِهَا مَا يَلْزَمُ نَظَامًا“**. وهنا ملحوظتان:

- ١- قول الصائغ (فيَتَّخِذُ). إذ قرَنَ جوابَ الشرط بالفاء وهو فعل مضارع، وهو جائز ولكنَّ الأكثر فيه عدمُ الاقتران، كما أنه إذا اقترن بالفاء لزِمَّ أنْ تقدِّرَ ما بعده جملةً اسمية ليَصُحَّ الاقتران^{١٠}. فيكونَ تقديرُ الكلام: **(إِذَا رَأَى الْمَلْكُ ذَلِكَ فَهُوَ يَتَّخِذُ أَوْفِيلَهُ يَتَّخِذُ)**. ولو حَذَفَ الفاءَ على الأكثر لقال: **(إِذَا رَأَى الْمَلْكُ ذَلِكَ يَتَّخِذُ بِشَانِهَا مَا يَلْزَمُ يَتَّخِذُ)**. نظاماً).

- ٢- قول الصائغ (إِذَا رَأَى الْمَلْكُ أَنْ يَكُونَ لَهُذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ صَفَةُ الْاسْتِمْرَارِ) أسلوبٌ متأثرٌ بالترجمةِ كماسيأتي في الضابط القادر، والأسلوب الفصيح أن يقال: **(إِذَا رَأَى الْمَلْكُ اسْتِمْرَارَ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ)، أو (إِذَا رَأَى الْمَلْكُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتُ مُسْتِمَرَّةً).** وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ٣/٣: **”فِي حَالَةِ إِجْرَاءِ تَعْدِيلٍ عَلَى رَقْمِ لَوْحَةِ الْمَرْكَبَةِ إِنَّهُ يَجُبُ تَعْدِيلُ ذَلِكَ فِي رُخْصَةِ السَّيِّرِ، وَالخَلْلُ هُنَا فِي إِقْحَامِ حِرْفِ الْفَاءِ فِي (فِيَنَهُ)، وَلَا مَكَانَ لَهُ فِي التَّرْكِيبِ، إِذْ تَقْدِيرُهُ: (إِنَّهُ يَجُبُ ... فِي حَالَةِ)، ثُمَّ قُنْمِ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ، كَمَا تَقُولُ: (إِنَّ مُحَمَّدًا يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ)، ثُمَّ تَقُولُ: (فِي الْمَسْجِدِ إِنَّ مُحَمَّدًا يُصَلِّي)، وَلَا يَصُحُّ: (فِي الْمَسْجِدِ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُصَلِّي).** ومثله فيها أيضًا ١٦/٢: **”فِي حَالَةِ كَوْنِ رُخْصَةِ السَّيِّرِ مُتَهِيَّةً فَيُمْكِنُ تَجْدِيدُهَا“**. ومثل هذا الخلل كثير جدًا في اللائحة التنفيذية لنظام المرور، وفي غيرها.

^{١٠} انظر: ارشاد الضرب لأبي حيyan ٤/١٧٦.



وجاء في نظام المرور في المادة الرابعة: "يجب أن تحمل كل مركبة -فيما عدا الدراجة الآلية والمقطورة ونصف المقطورة- لوحتين"، والخلل هنا في إقحام (في) في (فيما عدا)، ولاما كان لها هذان لأن الأسلوب أسلوب استثناء، فيقال: (ما عدا الدرجة الآلية)، وإنما يؤتى (في) عند إرادة الظرفية، نحو: ولا يصح فيما عدا ذلك.

وجاء في نظام المرور في المادة الحادية عشرة: "يجب أن تكون رخصة سير المركبة موجودة بها"، وخلل التركيب هنا التصريح بالكون العام (موجودة) وهو خلاف القاعدة النحوية التي تقول: يجب حذف متعلق الجار والمجرور إذا كان كوننا عاماً نحو (زيد في الدار)، ولا يجوز (زيد موجود في الدار)^(١).

وعليه تكون صحة العبارة السابقة (يجب أن تكون رخصة سير المركبة بها). ومن الأمثلة الغريبة لخلل التراكيب ما جاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ٤/١٧: "تكون مدة التفويض من سعودي إلى سعودي لمدة أقصاها ستة أشهر". والخلل هنا إقحام الاسم في خبر الكون، والصواب: (تكون مدة التفويض مدة أقصاها ستة أشهر)، ومع ذلك هو تركيب ركيك، لاتحاد الاسم والخبر، ويستقيم الكلام بنحو: (أقصى مدة لتفويض سعودي إلى سعودي ستة أشهر).

وجاء في نظام مراقبة البنوك في المادة السابعة: "ويجوز للمؤسسة متى رأت ضرورياً أن ترفع هذه النسبة"، والخلل في حذف المفعول الأول (لرأته) والصواب: (ويجوز للمؤسسة أن ترفع هذه النسبة متى رأت ذلك ضرورياً).

وجاء في نظام مراقبة البنوك في المادة الثانية عشرة: "لا يجوز أن يكون الشخص عضواً في مجلس إدارة أكثر من بُنْكٍ واحدٍ"، فإذا (ادارة) هنا مصدر بمعنى فعله (بُنْكٌ) سواء نوناه وأعملناه في مفعوله (في مجلس إدارة أكثر)، أو أضفناه إلى مفعوله: (في مجلس إدارة أكثر)، والمعنى: (لا يجوز أن يكون الشخص عضواً في مجلس يدير أكثر من بُنْكٍ

(١) انظر: شرح المفصل ٩٠ - وشرح التسهيل لابن مالك ٣٧١ - وار شاف الضرب لأبي حيان ٣/١٢٣ - ومعنى الليب لابن هشلم ٥/٢٢٨ - والمعنى للسيوطى ٥/٣٥.

واحد)، وعليه لو كان الشخص في مجلسٍ يدير بنكًا، وكان أيضًا في مجلسٍ آخر يدير بنكًا آخرً فلا مانع من ذلك، لأنَّه لا يدخل تحتَ هذه العبارة.
وهذا خلافُ المراد، فالمرادُ منْعَ أنْ يكونَ الشخصُ في أكثرَ منْ مجلسٍ لإدارةِ بنكٍ
وعليه يكونُ صوابُ العبارة: (لا يجوزُ أنْ يكونَ الشخصُ عُضُوًّا في أكثرَ منْ مجلسٍ لإدارةِ بنكٍ).

وجاء في نظام مراقبة البنوك في المادة الرابعة عشرة: ”في اجتماع الشركاء الذي يجب أن يتم في خلال السنة أشهُر التالية لانقضاء السنة المالية للبنك“، وهنا خللان:
١- قوله: (السنة أشهُر) خطأً، لأنَّ تعريفَ العدد المضافِ يكونُ بتعريفِ الجزءِ الثاني
كغيره من المضافات، تقول: (سنة الأشهُر) كما تقول (أيامُ الأشهُر)، ولا تقول: (الآيَمُ أشهُر)، وأجاز بعضُهم تعريفَ العددِين المتضاديين (السنةُ الأشهُر)، أما تعريفِ الأول
وتنكيرِ الثاني فخطأً.

وجاء في نظام مراقبة البنوك تعديلاً الزِّيادة بـ(عن)، كما في المادة الثالثة والعشرين:
”مدةً لا تزيدُ عن سنتين، وبغرامةٍ لا تزيدُ عن خمسةِ آلافِ ريالٍ سعوديٍّ“، والذي في
المعاجم أنَّ الزيادةَ تتعدَّى بـ(على)^(١)، فالصوابُ: (لا تزيدُ على كذا).

الظابط الثامن: عربية الأسلوب.

لا يعني أنَّ تصفُ كلماتٍ عربيةً خالفةً بعضاًها أنَّ تكونَ تركيَّاً عربياً، فقد استعمل المولدون بعدَ زمانِ العربية الفصحى أساليبَ بعضُها لا يُواافقُ أساليبَ العربية، تسمى (أساليبَ مولَدة)، كما تأثرَ بعضُ المترجمين من اللغات الأعجمية بأساليبَ هذه اللغات فحاولوا صوغها في قوالبٍ عربيةٍ تخالفُ العربية، تسمى (أساليبَ مترجمة)، ويجبُ على الصائغ أن يحذرَ هذه الأساليبَ التي تخالفُ العربية وإنْ كانت ألفاظها عربية.
ومنَ الأساليبِ المولَدة استعمالُ (تفاعلً) و(افتَّعلً) متعديَنْ (بـمع)، مع أنهما في

(١) انظر: المقتضب للمبرد ١٧٥/٢ - والمفصل للزمخشري ١١٤ - وشرح الكافية للرضي ٣٠/٣.

(٢) انظر: الصحاح (زبد) ٤٨٢/٢ - ومعجم الأخطاء الشائعة للعذاني ١١٤.



الفصيح متعديان بأذفسهما، تقول إذا كانا من فاعلين فأكثـر: (تـخاصـم زـيد وـعـمـرو) و(تـعـارـض زـيد وـعـمـرو)، واختـصـر زـيد وـعـمـرو، وأما الأسلوب المولـد فيقول: (تـخاصـم زـيد معـعـمـرو)، و(تـعـارـض زـيد معـعـمـرو).

ومن ذلك ما جاء في المادة الثامنة والأربعين من النظام الأساسي للحكم: "ومـا يـصـدـرهـ وـلـيـ الـأـمـرـ مـنـ أـنـظـمـةـ لـاـتـعـارـضـ مـعـ الـكـاتـبـ وـالـسـنـةـ" والأسلوب الفصيح (التعـارـضـ الـكـاتـبـ وـالـسـنـةـ).

ومن الأساليب المولـدة استعمال الفعل (يعـتـبرـ)، فقد استعمله المولـدون بمعنى (يـعـدـ) وليس هذا المعنى له في المعاجم اللغوية. ثم استعمله صائـغـ النـظـامـ الأسـاسـيـ للـحـكـمـ فيـ المـادـةـ السـابـعـةـ وـالـخـمـسـيـنـ، وـصـائـغـ نـظـامـ مـراـقـبـةـ الـبـنـوـكـ فيـ المـادـةـ التـاسـعـةـ. ومن المـولـدـاتـ كـثـرـةـ الـمـصـادـرـ الصـنـاعـيـةـ بـلـاـ حـاجـةـ، وـهـوـ اـسـمـ مـخـتـوـمـ بـيـاءـ مـشـدـدـةـ وـتـاءـ مـرـبـوـطـةـ، يـكـونـ بـمـعـنـىـ الـمـصـدـرـ.

جـاءـ فـيـ الـلـائـحةـ التـنـفـيـذـيـةـ لـنـظـامـ الـمـرـورـ ٣/١ـ:ـ "بـحـسـبـ نـوـعـيـةـ التـسـجـيلـ"ـ،ـ فـقـالـ الصـائـغـ (نـوـعـيـةـ)ـ مـصـدـرـاـ صـنـاعـيـاـ،ـ وـلـمـ يـقـلـ (نـوـعـ)ـ مـصـدـرـاـ صـرـيـحـاـ،ـ مـعـ أـنـ نـظـامـ الـمـرـورـ سـمـاـهـاـ فـيـ الـمـادـةـ السـابـعـةـ أـنـوـاعـاـ لـاـ نـوـعـيـاتـ.

وـمـنـ الـأـسـالـيـبـ الـمـتـرـجـمـةـ كـثـرـةـ الـفـعـلـ الـمـسـاعـدـ (ـتـمـ)ـ وـمـشـتـقـاتـهـ،ـ وـأـمـثـلـتـهـ كـثـيرـةـ جـداـ لـاـ تـخـطـئـهـ الـعـيـنـ فـيـ الـأـنـظـمـةـ وـالـلـوـاـحـ وـالـقـرـارـاتـ.

جـاءـ فـيـ المـادـةـ الثـانـيـةـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ الـنـظـامـ الأسـاسـيـ للـحـكـمـ:ـ "يـتـمـ تـحـقـيقـ التـنـمـيـةـ"ـ،ـ وـالـأـسـلـوبـ الـفـصـيـحـ:ـ (ـتـتـحـقـقـ قـقـ التـنـمـيـةـ)،ـ أوـ (ـتـحـقـقـ قـقـ التـنـمـيـةـ)،ـ وـ فـيـ الـمـادـةـ الثـانـيـةـ وـالـخـمـسـيـنـ:ـ "يـتـمـ تـعـيـنـ الـقـضـاءـ"ـ،ـ وـالـأـسـلـوبـ الـفـصـيـحـ:ـ (ـيـعـيـنـ الـقـضـاءـ)"ـ،ـ وـ فـيـ الـمـلاـدةـ الـثـلـاثـيـنـ:ـ "ـتـمـ مـرـاقـبـةـ الـأـجـهـزـةـ الـحـكـومـيـةـ"ـ ...ـ وـيـتـمـ التـحـقـيقـ فـيـ الـمـخـالـفـاتـ الـمـالـيـةـ وـالـإـدـارـيـةـ وـيـرـفـعـ تـقـرـيـرـ سـنـوـيـ عنـ ذـلـكـ إـلـىـ رـئـيـسـ مـجـلـسـ الـوزـراءـ"ـ،ـ وـالـأـسـلـوبـ الـفـصـيـحـ:ـ (ـتـرـاقـبـ الـأـجـهـزـةـ الـحـكـومـيـةـ"ـ ...ـ وـيـحـقـقـ فـيـ الـمـخـالـفـاتـ)ـ،ـ وـلـنـحـظـ أـنـ الصـائـغـ أـبـقـىـ عـلـىـ الـأـسـلـوبـ الـفـصـيـحـ فـيـ قـوـلـهـ:ـ (ـوـيـرـفـعـ تـقـرـيـرـ سـنـوـيـ"ـ،ـ وـلـمـ يـقـلـ:ـ (ـوـيـتـمـ رـفـعـ تـقـرـيـرـ سـنـوـيـ)"ـ)،ـ وـ فـيـ الـمـادـةـ الـثـالـثـةـ

والثمانين: ”لَا يَجُرِي تَعْدِيلٌ هَذَا النَّظَامِ إِلَّا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَمَّ بِهَا إِصْدَارُهُ“، والأسلوب الفصيح: (التي أُصدِرَ بها).

و جاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ٤/٧: ”لَا يَتَمَّ تَسْبِيرُ أَيِّ مَرْكَبَةٍ“، أي: لَا تَسْبِيرُ ومن الأمثلة التي تلفت النظر ما جاء في المادة الخامسة من النظام الأساسي للحكم: ”يَتَوَلَّ وَلِيُّ الْعَهْدِ سُلْطَاتِ الْمُلْكِ عَنْدَ وَفَاتِهِ حَتَّى تَتَمَّ الْبِيَعَةُ“، فال فعل (تمهاها يحتمل أمرين:

- أَنْ يكونَ فعَالاً مُساعِداً، وهو الظاهرُ لِكثرةِ استعمالِهِ كذاك، فيكونُ المعنى: (حتى يُبَايِعَ)، وال فعل يقع بِوقوعِ أغلبهِ وأهمِّهِ، فإذا بَايَعَهُ أَهْمَّ النَّاسِ وَكَانَ مِنَ الْبِيَعَةِ أَكْثَرُهَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: تَمَّتْ لَهُ الْبِيَعَةُ وَصَارَ مَلِكًا مُبَايِعًا.

- ويحتملُ أَنْ يكونَ فعَالاً تاماً، يدلُّ عَلَى التَّنَمَّامِ وَالْكَمَالِ، فيكونُ المعنى: (حتى تَكُتُمَ الْبِيَعَةُ)، فَلَا يَكُونُ وَلِيُّ الْعَهْدِ مَلِكًا مُبَايِعًا حَتَّى تَكُمِلَ لَهُ الْبِيَعَةُ مِنْ جَمِيعِ الْمَبَايِعِينَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا!

ومن التأثير بالترجمة كثرةُ استعمالِ مشتقَاتِ (القيام) أفعالاً مُساعِداً، كـ قول الصائغ في المادة الرابعة والعشرين من النظام الأساسي للحكم: ”تَقْوِيمُ الدُّولَةِ يَعْمَلُ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ“، والأسلوب الفصيح: ”تَعْمَلُ الدُّولَةُ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ“، بلا فعل مُساعِداً، و في المادة الخامسة والخمسين: ”يَقُولُ وَلِيُّ الْمُلْكُ بِسِيَاسَةِ الْأَمَّةِ سِيَاسَةً شَرِعِيَّةً“، والأسلوب الفصيح: ”يَسُوسُ الْمُلْكُ الْأَمَّةَ سِيَاسَةً شَرِعِيَّةً“، و جاء في نظام مراقبة البنوك في المادة العاشرة: ”فَيُجَبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ بِتَصْنِيفِهَا تدريجيًّا“، والأسلوب الفصيح: (فَيُجَبُ عَلَيْهِ أَنْ يُصَنِّفَهَا تدريجيًّا).

ومن آثار الترجمة الكاف الدخيل، نحو: (أَنَا كَعَرَبِيٌّ أَرْفُضُ الذَّلَّ)^(١). وقد جاءت هذه الكاف في نظام مراقبة البنوك في المادة الأولى: ”يُؤَصَّدُ بِاصْطِلاحِ (الأَعْمَالِ الْمَصْرِيَّةِ) أَعْمَالُ تَسْلِيمِ النَّقْوَدِ كَوْدَائِعَ جَارِيَّةً أَوْ ثَابِتَةً“، وصوابه: أَعْمَالُ تَسْلِيمِ

(١) انظر: تقويم اللسانين للهلاي -١٠- ومعجم الأغلاط اللغوية المعاصرة للعدناني ٥٦٤.

النقود ودائعاً جاريةً لأنَّ (ودائعاً) حالٌ لا تحتاجُ إلى الكاف، أو (على أنَّها ودائعاً)، أو (بصفتها ودائماً).

و جاء فيه أيضاً في المادة العاشرة: ”أنْ تكونَ له مصلحةٌ مُباشِرَةٌ كمساهمٍ أو كشريكٍ أو كماليٍ أو بأيَّةٍ صِفَةٍ.“

الظابط التاسع: عدم اختلاف الأسلوب بلا داع أو حاجة.

ينبغي أن يتَأثَّرَ الأسلوبُ بالمعنى ويكونَ موافقاً له، ولا ينبغي أن يختلفَ الأسلوب في المتشابهات بلا داع أو حاجة.

جاء في المادة التاسعة والستين من النظام الأساسي للحكم: ”للملكِ أنْ يدعوَ مجلسَ الشورى ومجلسَ الوزراءِ إلى اجتماعِ مشترَكٍ، وله أنْ يدعُو منْ يراهُ لحضورهذا الاجتماع“. فمرةً عَدَّ الصانع الدَّاعُوةَ بـ(إلى) ومرةً عَدَّها باللام بلا داع.

وفي المادة التاسعة والعشرين من النظام الأساسي للحكم: ”ترعى الدولةُ العلمَ والآدَابَ والثقافَةَ، وتُعْنِي بتشجيعِ البحثِ العلميِّ، وتصونُ التراثَ الإسلاميَّ والعربيَّ، وتُسْهِمُ في الحضارةِ“. فعبرَ بالفعلِ المباشِرِ ثلَاثَ مراتٍ (ترعى، تصونُ، تُسْهِمُ)، ولكنه في الموضع الثاني لم يُعِيرْ بالفعلِ المباشِرِ (وتُشَجِّعُ)، وإنما عبرَ بفعلِ مساعدٍ (وتُعْنِي بتشجيعِ).

و جاء في المادة الثامنة عشرة: ”تَكُفُلُ الدولةُ حريةَ المِلكيَّةِ الخاصةِ“، فعبرَ بالجملةِ الفعلية، وفي المادة السابعة والأربعين: ”حقَّ التقاضي مكفول“، فعبرَ بالجملةِ الاسمية مع أنَّ المرادَ في المادتين إثباتُ الحكمِ بغضِّ النظر عن التَّجَددِ والاستمرار.

و جاء في نظام المرور في المادة الرابعة: ”يجبُ أنْ تحملَ كُلُّ مركبةٍ ... لوحَتين ظاهريَّتين مقرَوِعَتين“، وفي المادة الخامسة: ”يجبُ أنْ تحملَ كُلُّ دراجةٍ آليةٍ ... لوحَةً واحدةً واضحةً ومقرَوِعةً“، فمرةً عَدَّ الصفتَين (ظاهريَّتين مقرَوِعَتين) بلا عاطف، ومرةً بعاطفٍ (واضحةً ومقرَوِعةً) بلا داع، والأنسبُ هنا حذفُ الواو، لأنَّ المراد جمعُ الصفتَين معًا في كُلِّ وقت، وهذا ما يقتضيه عَدُّ الصفتَين دون عاطف، أما ذِكرُ الصفتَين بعاطف

فيحتملُ جمعَ الصفات في وقت، وحصولَ كُلِّ صفةٍ في وقت.
ف(واضحةً ومقروءةً) تعني اتصافَ اللوحة بـهاتين الصفتين، إما في كُلِّ وقت، وهذا الذي يعنيه النظام، وإما اتصافَ اللوحة بـأنها واضحةً حيًّا وبـأنها مقروءةً حيًّا.
و(واضحةً مقروءةً) لا تتحتملُ سوى المعنى الأول الذي يعنيه النــظام، لأنَّ كــوتها (مقروءةً) حينئذٍ صفةً (اللوحة الواضحة)، وليس صفةً (اللوحة) فقط.

وجاء في نظام المرور في المادة السابعة: ”لوحاتٌ مركباتٌ النَّقلِ الخاصة—لوحاتٌ مركباتٌ نَّقلٌ عامٌ“، فمرة عرَّفَ (مركباتِ النَّقلِ الخاصة)، ومرة نَكَرَ (مركباتِ نَّقلٍ عاماً).
وجاء نظام مراقبة البنوك عبارةً (في المائة) في كُلِّ النــظام، في أحد عشرَ موضعًا إلا في المادة العاشرة استعملَ (بالمائة).

وجاءت كلمة (أيًّا) مؤثثةً مضافًة إلى مؤنث في نظام مراقبة البنوك عَشْرَ مراتٍ في المــواد: الرابعة، والعــاشرة ثلاــث مرات، والــحادية عشرة، والــثالثة عشرة مــرتين، والــرابعة عشرة، والــسابعة عشرة، والــالتاسعة عشرة، وبــسبــق في الضــابط السادس أنه أسلوب ضعيف، وجاءت (أيًّا) بالــتذكير مضافًة إلى مؤنث، وهو الوجه الفصيح في النــظام نفسه في ثلاثة مواضع، في المــواد: الخامــسة، والتــاسعة عشرة، والــثانية والعــشرين.

الضــابط العــاشر: مراعاة قواعد الإملاء، واتفاقها في المســألة الواحدة.
الــإملاء اصطلاح، ولذا قد يختلفُ من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مــكان والذي يجبُ على الصــائــغ القانوني أن يتلزمَ بأحكــام الإملاء إن كانت جهةً رسمــية في الدولة أصدرــته كــمجموع لغوي، أو مــجمع علمــي، أو جهةً رسمــية تعــنى بالــلغــة العربية.
وإن لم يكن ذلك فعليــه أن يأخذَ بالــمــتعارــف عليه في الجهات العلمــية المــهــتمــة بالــلغــة العربية، كالــجــامــعــات والــمعــاهــد العلمــية.

ومهما يكن من اختلاف في الإملاء فيجبُ على الصــائــغ القانوني أن يتلزمَ بــوجهٍ واحدٍ في المســألة الإــملــائية الواحدة، فلا يــصحُّ بحالٍ أن يأخذَ برأــي في مــوضــع ثم يأخذَ برأــي آخرــ في المســألة نفســها في مــوضــع آخرــ.



ومن ذلك أحكام الهمزة، ومنها الهمزة التي تكتب على واو إذا كان بعدها وامد نحو (شُوُون) (وامسُّوول)، فالمشهور عندنا في الجزيرة العربية أن تكتب على واوأخذًا بالقاعدة العامة، وهناك من يكتبها على نبرة (شُتُّون) (وامسْتُول)، تخلصًا من التقاء واوين.

وقد جاءت هذه الهمزة على نبرة في النظام الأساسي للحكم في المادتين السابعة والخمسين، والثامنة والخمسين، وجاءت على واو فيه في المادتين الثالثة والأربعين والسادسة والستين، فاختللت كتابتها.

وكذلك حدث في نظام المرور، فجاءت الهمزة على نبرة في المادة التاسعة وعلى واو في المادة السادسة عشرة، وتبعها اللائحة الناظمة في ذلك.

وظهر خطاً إملائيًّا في طباعة الأنظمة واللوائح والقرارات خطيرًا؛ لأنَّ علاجها سهل، إما بمراجعة قواعد الإملاء، أو بالاستعانة بمختصٍّ.

جاء في اللائحة التنفيذية لنظام المرور ١٠/١: "في حالة تعديل استعمال المركبة يجب إتباع الشروط الآتية"، وصوابه: (يجب اتباع) بهمزة وصل، وفيها أيضًا ٤/٢١: "بما يُسِّيِّل سمعة المملكة"، وصوابه: (يسِّيِّل)، وفيها أيضًا ٥/١٣: "وجود شيء من ذلك". وصوابه: (شيء).

وجاء في نظام مراقبة البنوك في المادة الثامنة كلمة "رأسُ مالِه" متصلةً مع أنَّ التركيب إضافيًّا لا مرجعيًّا، فالصواب الفضل (رأسُ مالِه)، وقد كُتبت اللفظة على الصواب في المادة السادسة وغيرها.

الضابط الحادي عشر: مراعاة علامات الترقيم.

لا بد من استعمال علامات الترقيم استعمالاً صحيحاً يُسْهِم في إيضاح المعنى، فيربط بين المترابطات، ويُفصِّل بين المنفصلات، ويُوضِّح أجزاء الكلام وآثاره. ولكن علامات الترقيم لم تَحْظَ بمكانتها اللائقة إلى الآن، ولا يراها كثيرون من أجزاء الكتابة، فلذا لا يرون حرجاً في تغييرها عندما ينقلون نصوصاً عن غيرهم.

ولذا تجد نصوص الأنظمة واللوائح والقرارات عند إعادة طبعها، عند نقلها تغير علامات ترقيمها، ولا تُخطئ عينك ذلك وأنت تنظر في طبعات النظام الأساسي للحكم، فمادونه!

وسأقيف عند مثالٍ واحدٍ لافتٍ نظري في المادة الخامسة من النظام الأساسي للحكم في الطبعة التي عُدّت إليها، وفيها هذا النص: "يختار الملك ولـي العهد [فاطمة] ويعفيه بأمر ملكي [نقطة]."، ووضع علامة الترقيم بعد (يختار الملك ولـي العهد) وقبل (ويعفيه بأمر ملكي) يدل على أنَّ الأمر الملكي مشروطٌ للإعفاء دون الاختيار وليس هذا المراد، وقد غير هذا النص كله بعد صدور نظام هيئة البيعة.

* * *

الخاتمة

خرج البحث بأهم الضوابط اللغوية التي أرى أنه يجب أن تلتزم بها الصياغة القانونية لأن صانع القانون يجب أن يتلزم بالقانون.

كما ظهر من البحث أن الصياغة القانونية في المملكة العربية السعودية تحتاج إلى مراجعة لغوية تُطهِّرُ ما فيها من مخالفات لغوية، ولكنها تختلف في مدى المخالفة اللغوية، فبعضها أشد حاجة لهذه المراجعة من بعض، بل إن بعضها لا يخلو من أخطاء نحوية وإملائية يستطيع المراجعُ اللغويُّ - ولو لم يكن متميّزاً - أن يقوم بهذه المهمة ويُوصي البحث بشدة أن يكون هناك لجنة لغوية رسمية تراجع كل القوانين قبل الموافقة عليها وإصدارها، أو على الأقل ألا تخلو لجنة من لجان الصياغات القانونية من متخصص في اللغة العربية.

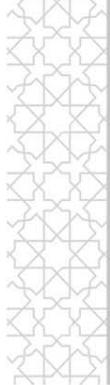
ثبات المصادر والمراجع

- ارشاد لضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. رجب عثمان محمد، مكتبة
الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨.
- الإشارات والتبيهات في علم البلاغة، لمحمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين،
دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣.
- الأصول، لابن السراج، تحقيق: الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥.
- تسهيل الفوائد وتحكم يل المقا صدلا بن ما لك الأندلسى، تحقيق: محمد مدكا مل بر كات، دار
الكاتب العربي، ١٣٨٧.
- تصحيحات لغوية، لعبد اللطيف أحمد الشويرف، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، ١٩٩٧م.
- تقويم اللسانين، لمحمد تقى الدين الهلالى، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الثانية، ٤، ١٤٠٤.
- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق: جماعة من العلماء، لدار المصرية للتأليف والترجمة،
القاهرة.
- جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق: د. رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى،
١٩٨٧م.
- حلقة الخضرى على شرح ابن عقيل، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩.
- الدر المصون في علم الكتاب المكتوب، للسليمان الحطبي، تحقيق: علي محمد عوض وآخرين،
دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤.
- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. رضوان و فليز الداية، دار قتبة، الطبعة الأولى،
١٩٨٣م.
- شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد ود. محمد المختارون، دار هجر، القاهرة.
- شرح الكافية الشافية، لابن ما لك الأندلسى، تحقيق: د. عبد المنعم أحmed heri، مركز البحث
العلمى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى.
- شرح الكافية للرضي، تحقيق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، ليبيا، ١٣٩٨.

- شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت.
- شرح الجمل، ابن عصفور، تحقيق: صاحب أبو جناح.
- الصالح (أنا في اللغة و صحاح العربية)، لاجوهري، تحقيق: أحمد عطاطار، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ١٣٧٦
- القاموس المحيط، لفيريوزا بادي، تحقق يق: مكتبة التحق يق في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧.
- قواعد اللغة وتطبيقاتها في مجال الصياغة القانونية، بحث مششور على الشبكة العالمية.
- الكتاب لسيبوه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- لسان العرب، ابن منظور، مصورة عن الطبعة الأميرية.
- اللغة العربية في القضاء الأردني المشكلات والحلول، للمحامي الأستاذ فاروق الكيلاني، بـ بحث مششور على الشبكة العالمية.
- مبادئ الصياغة القانونية، لجيد رسعد ون المؤمن، بحث مششور على الشبكة العالمية.
- المساعد في تسهيل الفوائد، لا بن عيسى يل، تحقق يق: د. محمد مدكا مل بر كات، مر كز الـ بـ حـ ثـ العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠.
- المطول شرح ظـ خـ يـ خـ مـ فـ تـ اـ حـ العـ لـ مـ، لـ سـ عـ دـ لـ دـ يـ نـ تـ اـ زـ اـ يـ، تـ حـ قـ يـ قـ: دـ عبدـ الحـ مـ يـ دـ هـ نـ دـ وـ يـ، دـارـ الكـ تـ الـ عـ لـ مـ يـ، بـ يـ رـ وـ تـ، الطـ بـ عـ الـ أـ وـ لـ، ١٤٢٢.
- معجم الأخطاء الشائعة، لمحمد العدناني، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩.
- معجم الأغراض اللغوية المعاصرة، لمحمد العدناني، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.
- المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- معنى الله يـ بـ عـ نـ كـ تـ الـ أـعـ اـ رـ بـ، لا بن هـ شـ لـ الـ أـ نـ صـ اـ رـ، تـ حـ قـ يـ قـ: دـ عـ بدـ اللـ طـ لـ يـ فـ مـ حـ مدـ الخطـ يـ بـ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢.
- المفصل في علم العربية، للزم خشرى، تحقيق: د. علي يوما حمـ، مكتبة الـ هـ لـ الـ، بـ يـ رـ وـ تـ، الطـ بـ عـ الـ أـ وـ لـ، ١٩٩٣.

- المقتصب، للمبرد، تحقيق: محمد عصيمة، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٣٩٩.
- من ذِّحْوَ الْمَبْانِيِّ لِنَحْوَ الْمَهْانِيِّ، لمحمد طاهر الحمصي، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤.
- الناظم الأساسي للحكم الصادر بالمرسوم الملكي ذي الرقم ٩٠/أ، وتاريخ ١٤١٢/٨/٢٧.
- ذِّلْمَ الْمَرْوُرَةِ لِصَادْرِ الْمَرْسُومِ الْمَلْكِيِّ ذِي الرَّقْمِ ٨٥، وَتَارِيخ ١٤٢٨/١٠/٢٦، وَاللَّادِ حَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ لِهِ الصَّادِرَةِ بِقَرْرَارِ وزَيْرِ الدَّاخْلِيَّةِ ذِي الرَّقْمِ ٧٠١٩، ١٤٢٩/٧/٣، نَشَرُ وزَارَةِ الدَّاخْلِيَّةِ.
- الأَمْنِ الْعَلْمِ، الإِدَارَةُ الْعَامَّةُ لِلْمَرْوُرِ.
- نَظَمُرُ مَراقبَةِ الْبَنُوكِ، الصَّادُورُ بِالْمَرْسُومِ الْمَلْكِيِّ ذِي الرَّقْمِ ٥، وَتَارِيخ ١٣٨٦/٢/٢٢.
- هَمْعُ الْهَوَامِعِ، لِلْسَّيِّوطِيِّ، تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْعَالِمِ مَكْرُم، مَؤْسِسَةُ الرِّسَالَةِ، ١٤١٣.

* * *





كاتب السلطان "قراءة في أصول الصنعة"

د. سعد بن عبدالرحمن العريفي
كلية الآداب- قسم اللغة العربية وأدابها
جامعة الملك سعود



كاتب السلطان "قراءة في أصول الصنعة"

د. سعد بن عبدالرحمن العريفي

كلية الآداب - قسم اللغة العربية وأدابها - جامعة الملك سعود

ملخص البحث:

يعرض هذا البحث صورةً لإحدى الوظائف المركزية في دار الخلافة، وهي وظيفة الكاتب الذي يتولى صياغة ما يوجه به السلطان من شؤون الدولة والرعاية. ولم يكن من يتولى هذه الوظيفة مجرد ناقل للأفكار فحسب، بل كان ذا منزلة رفيعة لدى السلطان، مختصاً بسره، ومستشاراً لديه، ومطلعًا على ما لا يطلع عليه غيره، وهذه المنزلة الرفيعة جعلتُ كاتب السلطان يدرك ما عليه الالتزام به من آداب صحبة السلطان، والدخول عليه ومجالسته، كما جعلته أيضًا يعلم أن التميز في الكتابة والإحاطة بعلوم العربية والتمكن البياني شرط تعزز بقائه في دار السلطان التي يتنافس على الدخول إليها الكثيرون. وفي هذا البحث عَرْض لكل ما يتصل بكاتب السلطان من الشؤون كمنزلته الاجتماعية، ونفوذه داخل دار السلطان، وحسد الأقران له، وعَرْض مفصل لكل ما يجب عليه تحصيله من الأدوات والسمات لضمان بقائه قريباً ممن يكتب له، بالإضافة إلى طائفة من التوجيهات المعينة له على تجويد صَنعته واتقانها.



The Clerk of the Sultan "A Reading in the Basics of the Career" **Dr. Saad Abdurahman Alarefy**

Abstract

This study presents an example of one of the central careers of the Caliph's House, which is a clerk, who was in charge of writing down what the Sultan asks for regarding the state and people's affairs. The appointed clerk did not just transfer ideas, but he was highly recognized by the Sultan before being appointed in that position; he was his secret keeper and consultant. He was also notified of things that no one would ever get to know about. Such a high position made the clerk aware of the ethics that he should have for the companionship of the Sultan. He also recognized the importance of going to him and keeping company with him. This also made him aware that the excellence of his writing, knowledge and eloquence is a condition for keeping his position in the Sultan's House; a position which too many people aspire after. This study shows all the related topics to the Sultan clerk, such as his social status, his power inside the Sultan House and the envy of his peers.

It also presents a detailed review of what potentials and features he should gain to guarantee being close to the Sultan as well as a number of instructions specified to him to skillfully perform his career.

ورَدَ في مقدمة (أدب الكاتب) لابن قتيبة ما يبيّن مدى استياء مصنفه من ترِّي مستوى الكتاب في زمانه وجهلهم باللغة، وكثرة ما يقعون فيه من مخازي التصحيح والتحريف الأمر الذي يجعل وضع مصنف في هذا الشأن ضرورة ملحة –حسب رأي ابن قتيبة– لإنقاذ لغة العرب، ومساعدة الكتاب على تجاوز أخطائهم، وتحسين لغتهم، يقول: “فإلي رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا، كسائر أهله، قد استطابوا الدعة، واستوططاً مركباً العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر، وقلوبهم من تعب الفكر”^{١١}. ثم أخذ يسوق طافحة من شواهد جهلهم في التصحيح وعدم العلم بمعانٍ الألفاظ، ويقدم لهم من جهة أخرى مادة ثقافية في باب الكتابة تتألف من مسائل لا يسع الكاتب الجهل بها. وما يسْتُوقف المتأمل أن ابن قتيبة، وهو من علماء القرن الثالث الهجري، يعيّب على كتاب زمانه ضعفهم اللغوي والكتابي، برغم أنه يعيش في زمن متقدم كانت اللغة فيه لاتزال طافية ذات بهاء ورونق، إلا أنها مع ذلك لم تكن مرضية بمعاييره، الأمر الذي يوحي أن مستوى بعض كتاب زمانه بلغ حدّاً من التردي لا يمكن قبوله، فباتوا بحاجة ماسة إلى مصنف يعينهم على تجاوز أخطائهم، وتحسين لغتهم، فكانت نتيجة ذلك تأليفه (أدب الكاتب) الذي وضع فيه ما يراه لازماً للكتاب من علوم اللغة ليس تعينوا به على إتقان صنعتهم، والذي يظهر أن تردي مستوى الكتاب في زمان ابن قتيبة لم يكن قد بلغ ذلك الحد الذي يجعلهم أدباء على صنعة الكتابة أو غير مؤهلين لها، يتراجع ذلك بالنظر إلى طبيعة المسائل اللغوية التي عرضها في مصنفه لتكون زاداً للكتاب، إذ يجدون بعضها أنها مسائل متخصصة عميقـة، وهذا يوحي أن التردي الذي يعنيه بعيد كل البعد عما يتصوره الذهن، وأيًّا كان مستوى هذا التردي فإن المؤكد أن الكتاب في زمانه كانوا أحسن حالاً من جاء بعدهم من كتاب العصور اللاحقة، أو هم –تحريراً للدقة– أحسن بمراحل كثيرة أو كثيرة جداً، بدليل أن بعض المصنفين في هذا الباب بعد ابن قتيبة ضمّنوا مصنفاتهم فصولاً تتحدث عن (عي الكتاب) و (مكاسبات الحمقى) كما سيأتي

(١) أدب الكاتب، تحقيق: محمد مجيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار المعرفة، د.ط.د.ت)، ص. ٦.

لاحقاً، الأمر الذي يؤكد أن مستوى التردي الذي يعنيه ابن قتيبة أرفع بكثير مما آل إليه الحال عند كتاب العصور اللاحقة له.

وفي سعي من المصنفين الأولين في باب الكتابة إلى حث الكتاب على العناية بالكتابة وإتقان فنونها فقد توقفوا عند عرض أهميتها، وبيان فضلها، ليكون في ذلك تشجيعاً في تعلمها والإحاطة بفنونها. ولتأكيد فضلها وتعزيز الترغيب فيها فقد مارس بعض المصنفين إلى ربطها بالدين، وجعلها شأنًا إلهياً وصفة لأعلى الخلق منزلة وهم الملائكة وهذا المنحى في بيان فضل الكتابة يعد استثماراً لمنزلة الدين في النفوس، واستغلالاً لأنثر الفاعل في دفعها إلى الأمور المرغوبة، قال الثعالبي: "قال بعضهم في فضل الكتابة: إن الله تعالى أضافها إلى نفسه، وأقسم بالقلم، كما أقسم بالشمس والقمر"!^(١) وقال في مصنف آخر: "قد نوه الله تعالى باسم الكتابة، وعظم من شأنها، ورفع من قدرها إذ أضافها إلى نفسه... فدللنا بها على علو رتبتها وشرف منزلتها فقال تعالى: (وكتبناه في الألواح من كل شيء موعظة)، وجعل من الملائكة كتبةً وهم من أرفع الخلق درجة فقال تعالى: (وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين)"^(٢). وكانت إشارة القلقشندي أكثر جلاءً من غيره في بيان الناحية الدينية في شأن الكتابة في قوله: "أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتبره من وافر كرمه وأفضاله، فقال عز اسمه: (اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم) مع ما يروي من أن هذه الآية والتي قبلها مفتتح الوحي، وفي ذلك من الاهتمام بشأنها ورفع محلها ما لا خفاء فيه"^(٣).

(١) خاص لا خاص، تحقق يق: صادق الذ قوي (ح يدر آ باد: مطبعة مج لس دا ثرة الم عارف العثمانية، ط١، ١٩٨٤/٥٤١٥ـ٢٤٢).

(٢) أدب الملوك، تحقيق: حليل العطية (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٠م)، ص. ١٤٠.

(٣) صبح الأعشى (القلفرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، د.ط.د.ت)، ٢٥١.

وإلى جانب هذا الشرف للكتابة فإننا نجد لها أيضاً في كتب المصنفين ذات منزلة رفيعة تؤهل صاحبها المتمكن منها إلى المنزلة التالية لمنزلة الخلافة، وحسب الكتابة بذلك شرفاً. قال ابن عبد ربه: "والكتاب أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة"^(١). وهي إلى جانب ذلك إحدى المطاييا الموصلة إلى تبوء منصب الخلافة، بدليل أن عدداً من مهرة الكُتاب ارتقاوا بها إلى هذه المنزلة، يُروى عن الشعبي قوله: "أربعة كانوا كتاباً صاروا خلفاء: عثمان وعلي ومعاوية وعبد الملك بن مروان"^(٢). ومن لم تبلغ به الكتابة منزلة الخلافة فإن المؤكّد أنها قد صنعت له شأنًا، وأضفت عليه عزّاً ورفعة. ويتسع سير الكتاب وما سطّره المصنفوون في موضوع الكتابة نعثر على أسماء كثيرة ارتقى أصحابها بالكتاب حتى بلغوا أعلى الدرجات في ديوان الخلافة، ولم يكن لهم تميّز في شيء غير الكتابة، إذ لم يكونوا فرسان حرب، أو من ذوي السلطان وقرابته، وهذا يؤكّد أن الكتابة باب يدخل منه الكاتب المتقن لصناعته في حظوظة السلطان وعزّ الدنيا، وهو ما يؤكّد ابن الأبار بقوله: "وعالَم لا تُحصي أسماؤهم سَمِّوا بالبيان، وبنوا بيوت مجدهم بالأقلام أُوقِّنُ البنيان"^(٣)، وهذه المنزلة التي أعنيها هنا ليست هي مجرد نيل شرف الدخول إلى دار الخلافة فحسب، فالداخلون إليها كثير، ولكن ليس كل من دخلها نال الحظوظة ولا سيما أن بعضهم يتولى أعمالاً هامشية أو وضيعة كالخدم وغيرهم، وإنما المعنى هنا هو تبوؤ الكاتب بصنعة الكتابة منزلة عالية في دار الخلافة تبلغ به منزلة الوزارة كما نص على ذلك ابن سنان الخفاجي بقوله: "والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فمادونها من رتب السياسة"^(٤). وكان عدد من فازوا بهذه المنزلة كثيراً جداً، وقد ساق القلقشندي طائفة

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين ورفاقه (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ط. د. ت.)، ١٧٠ / ٤.

(٢) بن الأبار، إعْتَاب الْكُتُب، تحقق يق: صالح الأشتر، مترجم: مج مع اللغة العربية، ط١٠، ٥١٩٦ / ٥١٨٠، ص٤٤. وينظر بتفصيل أكثر: القلقشندي، صحيح الأعشى، ٤٠ / ١.

(٣) إعْتَاب الْكُتُب، ص٤٥.

(٤) سر الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي (القاهرة: مطبعة ومكتبة محمد علي، صحيح، د. ط. ٢٨٠، ١٤٣٨ / ٥١٩٦)، ص٢٨٩.

كبيرة منهم، ثم قال: ”ولو اعتبر من شَرُفَ بالكتابة وارتفع قدره بها لفاتها الحصر وخرجوا عن الحد“^(١).

وللكتابة دور جليل في إدارة المملكة وتنظيم شؤونها، حتى إن بعض من صنف في الكتابة قد وصفها بأنها ”أَسْ الْمُلْكِ وَعَمَادِ الْمُمْلَكَةِ“^(٢). وذلك لأن شؤون الخلافة لا تستقيم إلا بها، وتدير أمور الدولة والرعاية يستحيل بدونها ”فهي من ضروريات الأمور التي لا يمكن الاستغناء عنها“^(٣). وبها ”قامت السياسة والرياسة، وإليها صَغَرتُ الملوك بالفacaة والحاجة، وإليها ألقـت الأعنة والأرمـة، وبها اعتمدـوا بالنـازلة والنـكبة“^(٤). وكل ذلك صارت الكتابة ”أعظم الأمور الجليلة قدرـاً، وأعلاها خـطـراً“^(٥). وتفوقـت بقيـمتـها ودورـها على كل ألوان الصناعـات حتى صارت ”سيـداً لـكل صـنـاعـة“^(٦). وإنـما كانتـ سـيـلاـتها على كل الصناعـات بالـنظر إـلى وظـيفـتها فـي دارـ الخـلافـة، وتقـرـيرـتها صـاحـبـها إـلى السـلـطـان واطـلاـعـه بـها عـلـى أـسـرـارـ المـمـلـكـة ووجـوهـ تـصـرـيفـ أـمـورـها، هـذـا إـلـى جـانـبـ ما تـعـودـ بهـ عـلـى صـاحـبـها مـن رـفـيعـ المـنـزـلـة وجـلـيلـ المـكـانـة، وـرـفـاهـيـةـ العـيـشـ، وـمـشـارـكـةـ الـمـلـوـكـ فـي اـقـتـلـعـةـ الـمـسـاـكـنـ الـفـسـيـحـةـ، وـالـمـلـابـسـ الرـفـيـعـةـ، وـالـمـرـاكـبـ النـبـيـلـةـ، وـالـدـوـابـ النـفـيـسـةـ، وـالـخـدـمـ

المـسـتـحـسـنـةـ، وـغـيـرـ ذـلـكـ مـن آـلـاتـ الـمـرـوعـةـ وـالـأـدـوـاتـ الـمـلـوـكـيـةـ فـي أـقـرـبـ المـدـدـ وـأـقـلـ

(١) صـبـحـ الأـعـشـيـ، ٤/١.

(٢) النـحلـسـ. صـنـاعـةـ الـكـتـابـ. تـحـقـيقـ: بـدرـ أحـ مدـ ضـيـفـ (بـيـرـوـتـ: دـارـ الـعـوـمـ الـعـرـبـيـةـ، طـ١، ٥١٤١٠ـ/ـ٥٩٩٠ـ).

صـ٢٧٠ـ.

(٣) الـأـلوـسيـ، بـلـوـغـ الـأـرـبـ فـي مـعـرـفـةـ أـحـوالـ الـعـرـبـ، تـحـقـيقـ: مـحـمـدـ بـهـجـةـ الـأـثـرـيـ (بـيـرـوـتـ: دـارـ الـكـتـبـ الـعـلـمـيـةـ، دـطـ.ـدـ.ـتـ).

(٤) النـحلـسـ. صـنـاعـةـ الـكـتـابـ، صـ٢٧ـ.

(٥) الـقـيـروـانـيـ، زـهـرـ الـآـدـابـ وـثـمـرـ الـآـبـابـ، تـحـقـيقـ: عـلـيـ مـحـمـدـ الـبـجاـوـيـ (الـقـلـهـرـةـ: مـطـبـعـةـ عـيـسـيـ الـبـابـيـ الـحـلـبـيـ)، طـ٦١٥ـ/ـ٢ـ.

(٦) النـحلـسـ. صـنـاعـةـ الـكـتـابـ، صـ٢٧ـ.

الأزمنة”^(١) وبهذه الفضائل كلها يصدق على الكتابة قول أبي بكر الصولي فيه: “إنه من أجل ما كُدّ فيه الفكر، وقطع به الأيام”^(٢).

وبهذا البيان يتجلّى فضل هذه الصناعة الشريفة واستحقاقها أن تكون ميدانًا للتنافس الموصل إلى دار السلطان التي لا يصل إليها من الكُتاب كل من عرف مسك القلم وخط الحروف، بل من أتقن فنها، وعرف أصولها، وغاص في بحرها لينثر في كتاباته جواهر الكلم، وجزل الألفاظ، ورصفن القول.

وباستعراض تاريخي سريع لكتاب الديوان في العصور الإسلامية الأولى نقف على مستوى العناية التي أولاها العرب المسلمين لهذه الناحية بدءً من فجر الإسلام في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يذكر التاريخ أنه كان يتحرّى في اختيار كتابه، بل وزاد على ذلك أمراً لافتاً، وهو أنه جعل لكل موضوع كتابي كتاباً خاصاً ليكون تخصصه فيه داعياً إلى تميزه، فكان الزبير بن العوام يكتب أموال الصدقات، وحذيفة بن اليمان يكتب خرص النخل، والمغيرة بن شعبة يكتب المدaiنات والمعاملات^(٣). وقد استقصى القلقشندي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى عدّ منهم نيفاً وثلاثين كتاباً ساق أسماءهم جميعاً^(٤)، وهذا العدد من الكتاب في ذلك الزمن المتقدم، وتخصص أفراد منهم في موضوعات بعينها، يدل على قدم العناية بهذه الصنعة، ومحوريتها في هيكل الدولة منذ بدايات تأسيسها.

وظلت العناية بالكتابة على هذا المستوى في زمن الخلفاء الراشدين، ثم تقدّمت خطوة مهمة في زمن معاوية بن أبي سفيان بتأسيسه ديوان الرسائل والخاتمة مجسداً بذلك تنامي دورها الذي حمل على وضع إدارة خاصة بها في دار الخلافة وبعد ذلك دفعها

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨/١.

(٢) أب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري (دار الباز للطباعة والنشر، د. ط. د. ت.)، ص ٢٦.

(٣) يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩١/١.

(٤) المصدر السابق، ٩٢/١.



عبد الملك بن مروان خطوة ثانية بتعريفيه الدواوين^(١). وكان اتساع الدولة الإسلامية في هذا العصر، واتخاذ الخلافة طابع الملك، واطلاع العرب على أحوال الأماكن المجاورة ونظم إدارتها، سبب تطور الكتابة وشئونها في هذا العصر، حتى إن بعض المطرد تذكر أن الكتاب في العصر الأموي صاروا خمس فئات، كتاب الرسائل، وكتاب الخراج وكتاب الجندي، وكتاب الشرطة، وكتاب القضاء^(٢). وهذا التنوع في اختصاصات الكتاب أمر بدأ ملامحه قبل هذا العصر بتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم كاتباً لكل شأن، كما مرّ علينا، بل إن ديوان الرسائل الذي يذكر التاريخ أن معاوية هو أول من أسسه، كلت بداياته منذ عهد النبوة، إذ يذكر بعض الباحثين أنه نشأ في المدينة زمان النبي صلى الله عليه وسلم، داعماً لهذا القول بعدد الكتب والمواثيق والعهود المنسوبة إليه، البالغة مئتين وستة وأربعين كتاباً^(٣).

وقد كثُر الكتاب في عصر بني أمية، وزاد التنافس على وظيفة الكتابة بينهم لأهميتها، ولما كانت تفتح على أصحابها من أبواب الرزق والجاه، فلما كان عصر بني العباس بلغت صنعة الكتابة المتهي، كما بلغ الكتاب أرفع المنازل، وصار لهم دور في إدارة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. حتى غداً الشعراً يقصدونهم بالصبح طمعاً في عطائهم^(٤). وإنما نالهم هذا الرغد وعلو منزلة من قربهم من السلطان، وجلوسهم إليه، واطلاعهم على شؤون الدولة وأحوالها.

وإذ صارت الكتابة الديوانية تحقق لصاحبيها كل هذه المكاسب فقد صارت مطلباً للكتاب، وصنعةً يتناقض فيها كل من يجد في نفسه مؤهلات تساعدته على التمييز فيها

(١) يُـنـظـر: د. عـبدـالـقـادـرـ شـرـيفـ أـبـوـ شـرـيفـةـ. الكـتاـبـةـ الـوـظـيفـيـةـ (بـ). بـيـرـوـتـ: مـكـتبـةـ الـفـلاحـ، طـ. ١٤١٥ـ / ١٩٩٤ـ مـ). صـ. ١٤١.

(٢) يُـنـظـر: أحـمـدـ مدـدـرـاجـ. صـنـاعـةـ الـكـتاـبـةـ وـتـطـوـرـهـ فـيـ الـعـصـورـ الـإـسـلـامـيـةـ (مـ). الـمـكـرـمـةـ: مـطـبـوـعـاتـ رـابـطـةـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ، السـمـةـ الـأـوـلـىـ، ١٤٠١ـ / ذـ الـقـعـدـةـ، العـدـدـ ٨ـ). صـ. ٢٧ـ - ٢٨ـ.

(٣) يُـنـظـرـ: المرـجـعـ السـابـقـ، صـ. ١٦ـ.

(٤) يُـنـظـرـ: دـ عبدـ الحـمـيدـ جـيـدةـ، إـشـاءـ الـكـتابـةـ عـنـ الـعـربـ (بـيـرـوـتـ: دـارـ الشـمـالـ، طـ. ١٩٨٦ـ مـ). صـ. ٥٧ـ.

بل إن إغراءات مكاسبها كانت حاملة لبعض من ليس لديه أدنى علم بها إلى محاولة تعلمها، والسعي بكل وجه إلى التعرض للسلطان ومحاولة الظفر بالعمل في ديوانه كابياً. فكانت النتيجة أن دخل في هذا الباب من لا يحسن، وتولى عمل الكتبة للسلطان أفراداً ليس لديهم شيء في علم الكتابة ولا بلاغة العربية، وهو الأمر الذي جعل عبد الحميد الكاتب يقول: "إن الكتاب قليل، والمسميين بالكتاب كثير"^(١). ووضع الجاحظ في كتابه البيان والتبيين فصلاً سماه: (باب في العي)^(٢). أورد فيه عدداً وافراً من الشواهد في من لا يحسنون نظم الكلام، وكانت أكثر شواهده في أفراد لم يحسنوا النطق وساق شواهد قليلة لمن لم يحسنوا الكتابة كقول جعفر بن أخت واصل: "كتب رجل إلى صديق له: بلغني أن في بستانك أشياء تهمني، فهب لي منه أمراً من أمر الله عظيماً"^(٣). وفي الموضوع نفسه خصّ الآبي في كتابه الكبير (نشر الدر) بباباً في هذاسمه: (العي ومكابيات الحمقى)^(٤). أورد فيه طائفة من الشواهد على جهل الكتاب مثل: "كتب بعض الرؤساء إلى وكيل له في ضيعة: وقد وصلت النعاج وهي تسع نعاج، وتسع نعاج نصفها أربع ونصف نعاج"^(٥). ولم تكن كل شواهد الآبي منسوبة للعامة أو لمن تعلق بالكتابة بسبب، بل كان بعضها منسوباً لذوي الشأن والأخطار كعبد الله القمي وزير ركن الدولة البوهيمي الذي كتب إلى قوم تظلموا من أخيه: "من دفع في أخي درهماً دفعت فيه ديناراً، فإن ودى ودى، وإن لا ودى خرج من دقّه وجده حتى ودى، واسلام"^(٦). والأعجب من هذا ما رواه الآبي لمعاوية بن مروان حين كتب إلى الوليد بن عبد الملك: "قد

(١) النحل، صناعة الكتاب، ص. ٣.

(٢) جاحظ، الإيمان والبيان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الـ خانجي)، طـ٥، ٢٤٤/٢، ١٤٠٥/٩٨٥ـ١٤٠٥/٩٨٥ـ١٤٠٥.

(٣) ٢٤٤/٢.

(٤) الآبي، نشر الدر، تحقيق: محمد علي قرنة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط. ٢٣٧/٣)، ١٤٨٣ـ١٤٨٥/٣٠٧.

(٥) ٣٠٧/٣.

(٦) ٣٠٨/٢.



بعثتُ إليك بقطيفة حمراء حمراء. فكتب في جوابه: قد وصلت، وأنت أحمق أحمق أحمق^(١). ويبدو أن هذه الشواهد الضعيفة وما اشتملت عليه من فاحش الأخطاء وضعف اللغة وركاكة الأسلوب قد أصابت جامعها الآبي باللصيق من حال الكتاب والتحسر على ما أصاب لغة العرب من تشويه بأيدي هؤلاء فختم هذا الباب بقوله: "وحسينا الله ونعم الوكيل"^(٢).

وإلى جانب الجاحظ والأبي وضع ابن عبد ربه عنواناً في العقد الفريد سماه: (من أدخل نفسه في الكتابة ولم يستحقها)^(٣)، اكتفى فيه بإيراد ستة أسماء من هذه الفئة التي أقحمت نفسها في الكتابة وليس من أهلها دون أن يسوق أي شواهد لهم، ويدل مجموع هذه الوقفات التي أحصاها هؤلاء المصنفون على تردي حال الكتابة، واجتراء البعض على الخط بالقلم دون علم ولا معرفة، والجهل أحياناً بما لا يسع الكاتب الجهل به، وهذا يؤكد أنه قد "اتسع الخرق في ذلك، ودخل في الكتابة من لا يعرفها بتة وزادوا عن الإحصاء، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والظاء، ولعل الكتابة إنما يحصل نسماها بسبب هؤلاء وأمثالهم"^(٤).

وقد اختار بعض المصنفين في موضوع الكتابة تناول موضوع ضعف الكتابة والكتاب من ناحية تحليلية تسعى إلى وضع اليد على سبب الضعف أو أسبابه، فهذا أبو جعفر النحاس يرى أن الجهل بعلم النحو هو أحد أبرزأسباب تردي حال الكتابة وضعف مستوى الكتاب، يقول موازناً بين الكاتب الأصيل والكاتب الدخيل: "وقد كان الكتاب فيما مضى أرغم الناس في علم النحو وأكثرهم تعظيمًا لأهله، حتى دخل فيه من لا

.٣٠٩/٣(١)

.٣٥/٣(٢)

.٣٦/٤(٣)

(٤) القلقشندي، صح الأعشى ٤٨/١، وننظر: ٣٧/١.

يستحقون هذا الاسم”^(١)، ويمضي معدداً الوجوه التي يخطئ فيها بعض الكتاب كباب العدد، والهمزة، وإثبات الألف بعد الواو أو حذفها، وغير ذلك^(٢).

ويبدو أن طبيعة الفن الذي يتحصّص فيه المصنّف هو ما يدفعه إلى الجهة التي يتّابُل منها قضية ضعف الكتابة والكتاب، فحيث تناولها النحاس النحوي من جهة نحوية، هنا ابن الأثير يحلّلها من زاوية بيانية فيرى أن نظم الكلام وشد بعضه إلى بعض هو العقبة الكفؤة التي تفضح الكاتب، والاختبار الذي يسقط عنده، يقول: ”ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقـة أرباب الحرف والصناعـع، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشـريف، ويظـهرـون خاطـرـه المعنى الدقيق، ولكـنه لا يحسنـ أن يزاوجـ بين لفـظـيـن“^(٣)!

ويؤكد ابن الأثير أمراً مهماً وهو أن القدرة على مسك القلم ورسم الحروف ليست كفيلة باتفاقـنـ فـنـ الـكتـابـةـ، بلـ وـيـذهبـ إـلـىـ أـبـعـدـ مـنـ ذـلـكـ بـتـأـكـيدـهـ أنـ الـكتـابـ حتـىـ وإنـ أحـاطـ بـفـنـ الـكتـابـةـ فإنـ ذـلـكـ لـيـسـ ضـمـانـاًـ لـإـجـادـةـ الـكتـابـةـ الـديـوـانـيـةـ، مـسـتـشـهـداًـ عـلـىـ ذـلـكـ بـاـبـنـ الـحـرـيرـيـ صـاحـبـ الـمـقـامـاتـ، الـذـيـ كـانـ وـاحـدـاًـ فـيـ فـنـهـ، فـلـمـ اـسـتـعـينـ بـهـ لـلـكـتابـةـ فـيـ دـيـوـانـ الـخـلـافـةـ ”أـفـحـمـ، وـلـمـ يـجـرـ لـسـانـهـ فـيـ طـوـيـلـةـ وـلـاـ قـصـيرـةـ“^(٤)! ولـذـلـكـ تحـفـظـ ابنـ الأـثيرـ عـلـىـ إـطـلاقـ وـصـفـ (الـكـاتـبـ)ـ عـلـىـ أيـ شـخـصـ إـلـاـ بـعـدـ التـأـكـيدـ مـنـ إـلـمـهـ بـأـطـرافـ الـعـلـومـ كـلـهاـ، وـمـاـ لـمـ يـحـقـ ذـلـكـ فـإـنـهـ لـاـ يـسـتـحـقـ هـذـاـ الـوـصـفـ^(٥).

(١) صناعة الكتاب، ص. ٣٠.

(٢) يُنظر: ص ٣٢٠.

(٣) المثل لـسـائـرـ فـيـ أـدـبـ الـكـاتـبـ وـلـشـاعـرـ، تـحـقـ يـقـ: مـحـ مدـمـ يـدـ (ـلـيـنـ عـبـدـ الـحـمـ يـدـ)ـ بـيرـوتـ: الـمـكـبةـ الـعـصـرـيـةـ، دـ. طـ. ١٤١١ـ/ـ٩٩٩ـ، ٨٩ـ/ـ١ـ.

(٤) المصدر السابق، ٢٧٠ـ/ـ١ـ.

(٥) يُنظر: المصدر السابق، ٢٧١ـ/ـ١ـ.



برغم أنه كما يقول واصفًا ذاته: ”لا يخفى على مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنشور والخطب والرسائل، ولربما احتجت إلى الاعتذار من فلتة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولاسان“!^(١)

منزلة الكتاب

حظي الكتاب في تاريخ العرب زمن الخلافة بأعلى المراتب السلطانية إلى جلب ما أكسبتهم هذه الصنعة من الجاه وسعة المال، وهذا لم يتمتع به سوى الكتاب الأصيلين لا الدخiliين على هذه الصنعة الذين لم يقبلوا عليها بداعٍ ما وجدوا في أنفسهم من الموهبة الكتابية بل لما وجدوا فيها من عظيم الحظوة والرزق. وتؤكدًا لحظوة الكتاب ربما ناسبت الإشارة في هذا السياق إلى أن الهماليج في أيام الفرس لم يكن يركبها إلا الملك والكاتب والقاضي فقط^(٢). ويُجدر التنبيه هنا على أن كل ما سيأتي من الحديث في هذا الموضوع إنما يخص الكتاب المتميزين بفضاحتهم وبلاعثهم وحسن بيانهم.

وحيث تتمتع الكتاب بتحسين أحوالهم المادية نتيجة قربهم من السلطان فقد ارتفعوا منزلة أرفع في عصر بنى العباس بسبب اكتسابهم وصفاً سلطانياً جديداً لم يكونوا يتمتعون به زمن بنى أمية، وذلك أن الكاتب في عصر الدولة الأموية لم يكن له وصف في عمل السلطان سوى فلان (الكاتب)، فلما كان عصر الدولة العلبية تغير هذا الوصف إلى (الوزير). وكان ذلك مع أول خلفائها السفاح، واستقر العمل بهذا الاسم الجديد وغاب معه وصف الكاتب حتى زالت دولتهم^(٣).

(١) العسكري، كتاب لصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبوالفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، د. ط. ٦/٥٤٠، ١٩٨٦ م.). ص ١٥٤.

(٢) الجھشیاری، الوراء والكتاب، تحقيق: مصطفی السقا ورفاقه (القلهرة: مطبعة مصطفی البابی الحلبی، ط ١٠٢، ١٩٨٠ م.). ص ٩.

(٣) يُنظر: صبح الأعشى، ١/١٣٠.

وبالنظر إلى طبيعة عمل الكاتب يتبيّن أن العمل الذي يؤديه لم يكن مجرد ملء رقعة بمراد السلطان، أو تحويل أمره أو نهيّه أو توجيهه من الفكر إلى الورق بأي لفظ بل كان الكاتب يبالغ في العناية بهذا الشأن، ويتجه في اختيار كلماته، ويكرد خاطره في ترتيب ألفاظه، ويعاود النظر مرات في بناء عباراته حتى يجتمع في كتابته شرف اللغة وحسن البيان، ولذلك فإن مستوى الجودة في الرقاع التي يدونها الكاتب يتناسب عندها ثُمَّ موازٍ في مستوى التلقي الذي يكون ممن تُرسل إليه تلك الرقاع، ولذا قيل: "رب كاتب بلغ أصوات الغرض في كتابته فأغنى عن الكاتب، وأعمل القلم فكافاه إعمال البيض القواصب"^(١). وفي هذا السياق ذكر الجهشياري أن ملوك فارس كانوا إذا حركوا جيشاً جعلوا معه كاتباً من وجوه كتابهم ^{كتابهم} "يتغون بذلك فضل رأي الكاتب وحرمه"^(٢).

ومن يتصفح المصنفات المؤلفة في موضوع الكتابة الديوانية تهوله كثرة ما فيها من النصوص والأخبار المؤكدة على شأن الكتاب و اختصاصهم برفع المنزلة والدنون من السلطان، وإنما كان ذلك بسبب محورية العمل الذي يؤدونه له، وهو الذي يستلزم في كثير من الأحيان إفشاء السلطان إليهم بالأسرار وخفايا الأمور التي لا يطلع عليها أحد حتى خاصة السلطان من الوزراء والأهل والولد، ولذا كان صاحب هذه الصنعة "معظماً عند الملوك في كل زمان، مقدماً لديهم على من عداه"^(٣). وإذا كانت العادة قد جرت بذكر الواجب للسلطان على من يعمل له فإن الكاتب قد اختص بما ليس لغيره، لا بالواجبات عليه، بل بالحقوق التي له على السلطان، وهذا ربما لم يكن لأحد يعمل للسلطان غير الكتاب، روى ابن قتيبة أن: "للكاتب على الملك ثلاثة: رفع الحجاب عنه واتهام الوشاة عليه، وإفشاء السر إليه"^(٤)، ولم يكن استحقاق هذه الخصائص راجعاً

(١) صبح الأعشى، ٦٦/١، والمعنى نفسه برواية مختلفة عند التحالبي، أدب الملوك، ص ١٤٢.

(٢) الوزراء والكتاب، ص ٤.

(٣) صبح الأعشى، ١٠١/١.

(٤) عيون الأخبار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢٩٩٦، ١٩٩٦م)، ٤٤١.

إلى شيء غير أهمية عمل الكاتب وحاجة السلطان الدائمة إليه، وهي التي أوجبت خصّه بما ليس لغيره لحمله على الإخلاص له والولاء إليه.

وبتأمل دور الكتابة في شؤون الدولة يتجلّى تعذر انتظام أمورها إلا بها واستحالة ضبط شؤونها وتسيير أحوالها بسواها، وهذا الملحوظ أكده عامة من صنف في الكتابة في سياق الحديث عن وظيفتها في ديوان الخلافة، وبسبب هذه الأهمية طارت هي "قولم الخلافة، وزينة الرئاسة، وعمود المملكة، وأعظم الأمور الجليلة غاية"^(١). كما صار الكتاب هم "مقاول الدولة وألسنة المماليك"^(٢). كما غدوا أيضًا "نظام الأمور، وكمال الملك، وبهاء السلطان، وهم الألسنة الناطقة عن الملوك"^(٣). ولم يكن شأن الكتابة ولا دور الكتاب خافياً على السلاطين، ولذا قال الجهشياري: "وكانت الملوك تقدم الكتاب، وتعرف فضل صناعة الكتابة، وتحظى أهلها لما يجمعونه من فضل الرأي إلى الصناعة"^(٤). وقد تكررت في غالب المصنفات الموضوعة في باب الكتابة الرسالة المطولة التي وجهها عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب ينبههم فيها على شرف صناعتهم، ويحثّهم على أمور عدة تُرسّخ أقدامهم في هذه الصنعة، وفي مطلعها أكد لهم ألا غنى لأي سلطان ولا ولٍ عنهم قائلًا: "لا يستغني عنكم منهم أحد.... فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يصررون، وألسنتهم التي بهاینطبقون وأيديهم التي بها ييطشون"^(٥)، ونبههم فيها أيضًا على شرف صناعتهم وتقدمها على غيرها ليجتهدوا لها، ويعطوها قدرًا من العناية يوازي منزلتها بين سائر الصنائع، يقول: "ليس فوقكم رغبة لذى مطلب.... تشهدون ما غاب الناس عنه.... فليست حال تعذل

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص ٧٦.

(٢) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص ٤٤.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٤.

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٧٤.

مكان الكاتب ما خلا ذرورة الرئاسة^(١)، والجملة الأخيرة يؤكدها ما رواه ابن عبد ربه في قوله: "والكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة"^(٢).

وإنما بلغ الكتاب هذه المرتبة السنية بسبب تمكّنهم من علوم اللغة، وقدرتهم الفائقة على صناعة الكلام، وصياغة مختلف المعانٰي. فليس كل من حمل القلم صار كاتباً. ولا كل كاتب قادر على نقل الفكرة في قالب يجمع الجمال والجلال وحسن البيان. ولذا كان المتميزون في هذه الصناعة قليلين. وكانت رسائلهم التي يدونونها باسم السلطان غاية في الجودة، تبعث في نفس قارئها إحساساً بأنها كتبت بمعونة قوى غير بشرية. وهو الأمر الذي يشير إليه عبد الحميد الكاتب بقوله: "إن كان الولي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب"^(٣). وقيل إن الديوان، وهو لفظ فارسي سمي به الموضع الذي يكتب فيه الكتاب، وهو يعني الشياطين، وإنما سمي بذلك لما اشتهر به الكتاب من "سرعة نفوذهم في فهم الأمور، ووقوفهم على الجلي والخفى منها، وجمعهم لما شدّ وتفرق، ثم نُقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال"^(٤). ولا يُعد من المبالغة في هذا السياق القول بأن بعض رقاع الكتاب كانت تقوم مقام حيـش مسلح بما فيها من جزل اللفظ وفخامة القول الذي يهز القلوب ويروعها، قال ابن الأبار: "رب كتبة فضّها كتاب، وخطب صرّعه خطاب فانجاب"^(٥).

ولم يكن دور الكتاب مخصوصاً على الشؤون السلطانية بين دار الخلافة وعمال السلطان والممالك المجاورة فحسب، بل كانت أهم شؤون العامة مرجعاً لها كاتب

(١) النحلين، صناعة الكتاب، ص. ٣.

(٢) العقد الفريد، ٤ / ١٧٠.

(٣) الزمخشري، ربیع الأول برار ونصوص الأخبار، تحقيق: سليم النعيمي (العراق: وزارة الأُولاد والشؤون الدينية، ضمن سلسلة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب الثالث عشر، د. ط. د. ت.)، ٢٢٨ / ٣.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علی عبد الواحد وا في (الإسكندرية: دار نهضة مصر، ط. ٣، د. ت.)، ٦٧٥ / ٢، ٥٠. وهو برواية أبو جز عند ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١ / ١٦.

(٥) إعتاب الكتاب، ص. ٤. وقد مررت الإشارة سابقاً إلى هذا المعنى في ص. ١٦.



السلطان، والمعنى هنا هو عطاوهم من بيت المال، فلكون الكاتب قريباً من السلطان ومحظاً بأسراره، كان له رأي في قدر العطاء، ولذا قال عبدالحميد الكاتب: "أكرموا الكتاب، فإن الله أجرى أرزاق الخلق على أيديهم".^(١)

ومن مجموع تلك النصوص والأخبار يتجلّى عِظَم شأن الكاتب، ونفوذه في دار الخلافة، واحتياجه بما لا يختص به غيره من عامة المنتسبين إلى عمل السلطان، وحظوظه بالقرب منه، والجلوس إليه، وكثرة الاجتماع به لكتابته عنه، هذا إلى جانب ما يشتمل عليه ذلك من الاطلاع على أسرار الدولة ومعرفة ظواهرها وبواطنها، وهذا كلّه لم يكن لأحد غير الكاتب، الأمر الذي يبيّن أن صنعة الكتابة في ذلك الزمان لم تكن مجرد خط بالقلم على الورق، بل كانت عملاً يجمع صاحبه دور الوزير والمستشار وأمين السر، ولذا لا عجب أن كانت هذه الصناعة "أهم صناعة رائجة ومزدهرة من بين الصناعات الأخرى، ومركز الكاتب أهم المراكز الرئيسة في الدولة الإسلامية".^(٢).

ومما يجدر التنبيه عليه هو أن تلك المنزلة الرفيعة التي يبلغها الكاتب بمحاورته السلطان وإفشاء السلطان إليه لم تكن ترجع إلى ما لديه من تميّز في باب الكتابة فحسب، بل بما يتميّز به أيضًا في شؤون أخرى علمية وشخصية، كالتجھيز في المعرفة وقوّة اللغة، وحسن الخلق، وصفاء العقل، إذ لا يتصوّر أن يقرّب السلطان من كاتبٍ مجرد كاتب فقط، بل لا بد أن يجمع مع الكتابة سماتاً أخرى تتحقّق له الحظوة، وهو الأمر الذي يؤكّده القلقشندي بقوله: "المشهور عند نَفَّاثَة الآثار أن الذين تقدّموا من صدورها ومشياحها كانوا من جلة العلماء، وسادة الفقهاء، وأفاضل أهل الورع، المبرئين من الدنس والطمع، المتميزين بفضل الآداب، والارتياض بآداب الملوك".^(٣) هذا النص يدل

(١) الأشعالي، أدب الملوك، ص٤١، وهذا النص عن د. الج هشياري في لوزراء والكتاب، ص٨٠، والزم خشرى، ربى العبر، ٢٢٨/٣.

(٢) د. عبد الحميد حيدة، إنشاء الكتابة عند العرب، ص٨٩.

(٣) صحيح الأعشى، ٧٠/١.

على تميز طبقة الكتاب في النواحي العلمية والدينية والأخلاقية، ومعرفتهم بالأصول الواجبة عليهم في صحبتهم للملوك، وهذا شأن مهم لا بد للكاتب من الإحاطة به، إذ لصحبة الملوك آداب يجب تعلّمها، وقواعد سلوكية وكلامية تستوجب حذقها قبل الاقتراب من السلطان.

أما تميز الكتاب في الجانب اللغوي فحسبنا فيه قول الجاحظ: "أما أنا فلم أر قطْ أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً^(١). وهذا النص يوحى بأن لكتاب لغة ميّزتهم عن غيرهم، وألفاظاً خاصة بهم تداولوها في كتاباتهم، نتجت لهم من كثرة مداومتهم الكتابة، ولزومهم هذه الصناعة التي تحملهم في كل حين على النظر في اللغة وفحص أساليب الكلام، والموازنة بين النظائر، وانتقاء أكثرها جودة ونقاء، حتى صار لكتاب معجم خاص بهم سماه القلقشندي: (الألفاظ الكتابية)، وعرفه بأنه: "الآفاظ انتخبتها الكتابة وانتقوها من اللغة استحساناً لها وتمييزاً لها في الطلاوة والرشاقة على غيرها"^(٢)! وهو يعتمد في حكمه لكتاب بأن لهم معجماً خاصاً بهم على قول الجاحظ المتقدم، وعلى قول ابن الأثير: "إن الكتاب غربوا اللغة، وانتقوا منها ألفاظاً رائفة استعملوها"^(٣).

ولم يكن التمييز اللغوي لدى الكتاب آتٍ عن معجمهم اللغوي أو سعة اطلاعهم على ألفاظ اللغة، وقدرتهم على تمييز حسنها من رديئها فحسب، بل كان تابعاً عن أمر آخر أيضاً يؤكد تميزهم، ويثبت تمكّنهم اللغوي، ألا وهو تركيب الكلام وضم الألفاظ إلى بعض، وهذا الأمر هو الاختبار الحقيقي للكاتب، والميزان الدقيق الذي يكشف عن قيمة الكتاب. أما مجرد جمع الألفاظ فإنه لا ينفع صاحبه ولا يحقق له سبقاً في مضمار الكتابة إن لم يكن قادراً على نظم الألفاظ نظماً حسناً يحقق لها البهاء والجمال مع قوه التعبير.

(١) البيان والتبيين، ١٣٧/٨.

(٢) صبح الأعشى، ١٦٢/١.

(٣) المصدر السابق، ١٦٢/١.



وهذا الجانب كان متحققاً لدى المَهَرَة من الْكُتُبِ، وهو ما وصفه الشاعري في سياق إطرائه إياهم بقوله: "يحسنون التصرف، ويستوفون العبارة، ويصوّبون شواكل المراد ويطيقون مفاسيل السداد، وربما نابت كتبهم عن الكتاب، وقامت مقام المقامات".^(١) ومن الْكُتُبِ من حاز قصب السبق في الصناعتين: صناعة النثر وصناعة الشعر، وكانت أشعارهم لا تقل جمالاً وتميزاً عن راقعهم المكتوبة. يشهد لهم بذلك ابن رشيق في باب سماه: (باب في أشعار الْكُتُبِ) قال في مطلعه: "والْكُتُبُ أرقُ الناس في الشعر طبعاً، وأملحهم تصنيعاً، وأحل لهم ألفاظاً، وألطفهم معاني، وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف، وقد قيل: الْكُتُبُ دهاقين الكلام".^(٢)

ومن مجموع هذه النصوص يتجلّ أن طبقة الْكُتُبِ كانت جليلة القدر بما اجتمع لها من مناهي التميز العلمية والأخلاقية واللغوية حتى صارت بسماتها هذه فئة يشار إليها بالإعجاب، بل وربما حث الآباء أبناءه على الاقتداء بهم كما قال بعض المهلبة لبيه:

"تزينا بزي الْكُتُبِ فإنهم جمعوا أدب الملوك وتواضع السوقه".^(٣)

وذلك الإجماع على فضل الْكُتُبِ يشدّ عنه الجاحظ لا شذوذأً نسبياً بل شذوذأً كلياً حتى إنه صنف فيهم رسالة كاملة سماها: (ذم أخلاق الْكُتُبِ)، كتبها نقضياً لرسالة كتبت في الثناء عليهم، يقول في مطلع رسالته هذه: "قد قرأتُ كتابك ومدحتك أخلاق الْكُتُبِ وأفعالهم، ووصفك فضائلهم وأيامهم".^(٤) ويحدد الجاحظ هدفه من رسالته هذه بقوله: "وأبین مع ذلك رداءة مذاهب الْكُتُبِ وأفعالهم، ولؤم طبائعهم

(١) آداب الملوك، ص. ١٤٢.

(٢) العدة في صناعة الشعر وزقدمه، تحقّيق: النبوبي عبدالواحد شعلان (الـ قاهرة: مكتبة الـ خانجي، ط١. ٧٥٧/٢، ٢٠٠٠م).^(٥)

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٧٠/٤.

(٤) رسائل الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمدهارون (بيروت: دار الجليل، ط١٩٩١/٥١٤١٦م).^(٦)

(٥) رسائل الجاحظ، ١٨٧/٢.

وأخلاقيهم^(١). ولا بد من وقفة مناقشة لهذه الرسالة التي لا نظير لها في مضمونها في كتب التراث كلها، بل إنها تسير في اتجاه معاكس لما اتفق عليه كل من صنف في موضوع الكتابة والكتاب، وهذا يعطي إشارة إلى أن لهذه الرسالة ظروفاً خاصة حملت على كتابتها، أو موقفاً معيناً تعرّض له مصنفها فجعلته يسلّم قلمه بهذه الحملة النصفية بلاغة الكتاب وعلمهم وأخلاقيهم.

ومما يسترعي النظر أن رسالة الجاحظ هذه سابقة تاريخياً لجل المصنفات التي اعتمد عليها هذا البحث، وسبقه لها يعني أن دائرة الكتابة والكتاب لم تكن قد اتسعت بعد ودخل فيها من لا يستحقها، الأمر الذي يعني أن حال الكتاب في زمن الجاحظ من حالهم بعده، ولذا ربما صح القول بأن هذه الرسالة لا تعكس موقفاً ثابتاً لدى الجاحظ من الكتاب، أو تعبّر عن إيمانه الكامل بكل ما كتب، أو تكشف بموضوعية عن حال الكتاب في زمانه، بل هي لا تدعو - فيما يرجح - أن تكون نفثة مصدر لموقف عارض ولا سيما أن فيها تعميماً لا يصح، وتوسعاً في الأحكام لا يقبله المنطق العلمي، كما أن روح الاندفاع والغضب بادية بجلاء من أول الرسالة إلى آخرها، ومعلوم أن التصنيف تحت ظل هذا الظرف يخرج بالمصنف عن دائرة الحق، ويحيف به عن جادة الصواب، وربما ساقه إلى التحامل والانتصار للذات على حساب الإنصاف والموضوعية.

ومن الأدلة على ذلك أن الجاحظ ذكر الكتاب بعشرة وجوه جعلها مأخذة عليهم، والملحوظ في كل تلك التهم أنها أحكام تعميمية، ومع ذلك فقد جعلها صفة لكل الكتاب دون أن يخص بها فرداً بعينه، وهذا لا يصح في المنطق العلمي كما أن تلك التهم أو المأخذ لا تخص المشتغلين بصنعة الكتابة فحسب، بل هي عامة في أهلسائر الصنائع. وتفصيل ذلك أن الجاحظ يعيّب الكتاب بأنهم عند السلطان تابعين لمتبوعين^(٢)، وهذا الحكم يصدق على كل من عمل للسلطان لا على الكتاب فقط، كما

(١) المصدر السابق، ١٨٨/٢.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ١٩٤-١٩٢/٢.



يتهمهم بالظاهر بالعلم^(١)، وفساد الدين^(٢)، والجهل في معرفة حقائق الرجال^(٣) والخيانة^(٤)، وكل هذه أحكام عامة لا يصح تعميمها، كما أنها واردة على البشر جميعاً لا على الكتاب فقط.

ويظهر من بعض التهم التي ساقها الجاحظ للغرض من مكانة الكتاب أنها هم غير صحيحة، ولا يؤيدتها واقعهم، فقد اتهمهم بالانشغال بعلم لا ينفع^(٥)، وكيف يصح أن يكونوا قد شغلوا بعلم لا ينفع والكتابة صفة الملائكة، وبأداتها أقسام القرآن، وبها تقوم الدول وتستقيم أمور المملكة؟

ومن تهم الجاحظ أيضاً وصفهم بالتحاسد والتعادي على بعضهم، وهذا الحكم وارد على المتنافسين في كل صناعة لا على الكتاب فقط، إذ إن طبيعة النفس البشرية تدفعها إلى حب التفوق على الأقران والسعى إلى التميز عليهم، وقد بدأ تحلل الجاحظ على الكتاب واضحاً في سياق حديثه عن هذه التهمة بتشبيهه الكتاب بالكلاب في قوله بأنهم "كالهرمة من الكلاب في مرابضها، يمر بها أصناف الناس فلا تحرك، وإن مر بها كلب مثلها نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله"^(٦).

وإلى جانب ما سبق يعيّب الجاحظ على الكتاب ضعف همتهم بالانفطاط على صناعتهم وعدم طلبهم غيرها^(٧)، ولا أدرى كيف يكون هذا على الكتاب عيناً وهو عمل في أهل كل صناعة، فالتجار لا يكون صانعاً، والبستانى لا يكون نحاساً، بل إن التخصص هو صفة العلماء إذ يقل أن يكون النحوي محدثاً، أو الفقيه مفسراً، أو الأديب مؤرخاً ولو

(١) يُنظر: المصدر السابق، ١٩١/٢-١٩٢.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ١٩٢/٢-١٩٤.

(٣) يُنظر: المصدر السابق، ١٩٧/٢.

(٤) يُنظر: المصدر السابق، ١٩٩/٢.

(٥) يُنظر: المصدر السابق، ١٩٤/٢-١٩٥.

(٦) يُنظر: المصدر السابق، ٢٠٠/٢.

(٧) يُنظر: المصدر السابق، ٢٠١/٢.

حصل ذلك لكان له أثر سلبي على صاحبه لأن التخصص عامل مساعد على التميز في الصناعة أو العلم الذي يشتغل فيه الإنسان.

ويمضي الجاحظ في رسالته هذه قادحاً الكتاب وصناعتهم ومنزلتهم عند السلطان مورداً عدداً من الأسماء، ذاكراً حزمة من التهم والمعايب لأصحابها إما في دينهم أو رأيهم أو حكمتهم أو سوء تدبيرهم، بل وفي أخلاقهم أيضاً كما قال في زيد بن أبوب الكاتب إنه كان في آخر عمره قواداً ليحيى بن أكثر القاضي^(١)، وهذه الحدة في الاتهام تقوم دليلاً على ما سبق قوله من أن هذه الرسالة ردّ فعل قاسيٍ لموقف عارض وليس رأياً موضوعياً في الكتاب وصناعتهم.

ومما يستلفت النظر حقاً أن الجاحظ ذكر في آخر رسالته هذه أن مستنده في معلوماتها ونصوصها وأخبارها إنما هو المروي أو المأثور، يقول: "وَقَصَدْنَا إِلَى الْمَأْثُورِ فَحَكَيْنَا، وَإِلَى الْمَذْكُورِ فِي الْأَزْمَنَةِ فَأَجْرَيْنَاهُ"^(٢)، أي أنه لم يقف على حقيقتها ولم يثبت من صحتها، ومع ذلك تبقى حجة عنده، وتصلح للاستدلال بها والحكم على فساد الكتاب وانحطاط صناعتهم، ومع وهن هذا المستند الذي يتكى عليه فإنه يراه دليلاً دامغاً لا يقبل الرد أو الإنكار، يقول بعد المقطع السابق بسطر واحد فقط: "عَلِمْنَا أَنَّ مَنْ عَنِدَ مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ دَفَعَ عِيَانًا وَأَنْكَرَ كَائِنًا مَذْكُورًا!!".^(٣)

وгин نوازن هذا الموقف المتحامل من الجاحظ على الكتاب بموضع آخر له في بعض مصنفاته نافي الحال لا مختلفاً فحسب بل يصل إلى حد التناقض، بسبب أنه كتبها في معزل عن الظروف التي كتب تحت ظلها رسالته في ذم أخلاقهم، يقول في كتابه البيان والتبيين مثنياً على بلاغة الكتاب وجودة صناعتهم: "أَمَا أَنَا فِلَمْ أَرَ قَطُّ أَمْثُلَ طَرِيقَةَ فِي الْبَلَاغَةِ مِنَ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ التَّمَسُوا مِنَ الْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مَتَوْعِرًا وَحْشِيًّا، وَلَا

(١) يُنظر: المصدر السابق. ٢٠٨/٢.

(٢) يُنظر: المصدر السابق. ٢٠٩/٢.

(٣) يُنظر: المصدر السابق. ٢٠٩/٢.



ساقطاً سوقياً^(١). ومما يدل على اطمئنانه إليهم وثقته بهم أنه ينقل عنهم في كتابه هذا نقلأً مباشراً أقوالاً مختلفة تشي بصلة أو صحبة^(٢). وتأكد من جهة أخرى أنهم طبقة ذات شأن وعلم يركن إليه. وما يجب التنبية عليه هو أن الموقف من الكتاب لم يكن هو الموقف الوحيد الذي بدا فيه التناقض في رأي الجاحظ، فهو في كتابه البيان والتبين ينفي عن اليونان والفرس والهنود العلم بالبلاغة أو التلبيس بها^(٣). ثم ينفي هذه الفكرة بالاستناد عليهم في موضع آخر من الكتاب لتفسير مصطلح البلاغة^(٤).

وما دام الأمر كذلك فإنه يتراجع أن الجاحظ غير موقن اليقين كله بكل ما ورد في رسالته (ذم أخلاق الكتاب). وأن موقفه فيها إنما هو موقف عارض، ولا بد أن هناك أمراً ما أثار هذا الموقف لديه. وفي سياق رحلة الكشف عن هذا السر في سيرة الجاحظ تجلّى أن الفارق في مستوى المعيشة بين الجاحظ وبين الكتاب كان كبيراً، أو كبيراً جداً. ففي رسالته (ذم أخلاق الكتاب) يروي قول أبي عباد ثابت بن يحيى لجماعة من الكتاب: "معاشر الكتاب، ما أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم"^(٥). أما هو فقد كان -كما يصف نفسه- مُثُقاً بالدين^(٦). وإضافة إلى هذا التفاوت المرير بينه وبين الكتاب فقد كان يراهم يتمتعون بحظوظ السلطان وتقلّبون في ريعمه، وي亨ئون بشرف الجلوس إليه، أما هو فمحروم من هذه الوجاهة، إذ لم تكن شخصيته مقبولة عندهم بسبب دمامته صورته كما يحدث هو نفسه عن ذلك بقوله:

(١) البيان والتبين، ١٣٧/٨.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٨٨/١ و ٩٩.

(٣) البيان والتبين، ٢/٢٨-٢٧.

(٤) المصدر السابق، ٨٨/١، ونـظر: طه حسين، البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، في مقدمة كتاب ذقد الدثر المنسوب لقادة بن جعفر، بتحفـ يـقـ عبدـ الـ حـمـ يـدـ العـ بـاديـ (بـ بـرـوـتـ: دـارـ الـ كـتبـ العـلـمـيـةـ دـ.ـطـ.)، ١٩٨٢/٥١٤٠٢، صـ ٢ـ١ـ.

(٥) رسائل الجاحظ، ٢٠٠/٢.

(٦) يـ ظـرـ إـلاـ مـسـعـودـيـ، مـرـوجـ لـنـهـبـ وـمـ عـادـنـ إـلـاـ جـوـهـرـ، تـحـقـ يـقـ: مـحـ مـدـمـحـ يـبـاـ لـدـينـ عـبـدـ الـ حـمـ يـدـ (بـ بـرـوـتـ: الـمـكـتـبـةـ الـعـصـرـيـةـ دـ.ـطـ.)، ١٩٨٨/٥١٤٠٨، ١٩٦٤.

”ذُكِرتُ للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رأني استبشع منظري فأمر لي بعشيرة آلاف درهم وصرفني“^(١)، ولهذا فإن الجاحظ كان من ”الموالي الأقل حظاً في نيل المناصب العليا، كما أنه لم يستمر طويلاً في وظيفة رسمية، وقد كان له من القدرة والكفاءة ما يجعله من بين مشاهير الكتاب والوزراء دون منازع“^(٢).

وخلاصة هذا التحليل أن الجاحظ كان يرى نفسه خيراً من كل الكتاب في البلاغة والأسلوب وصناعة الكلام والعلم بأسرار اللغة ووجوه الفصاحة فيها، ومع ذلك كان مستبعداً عن عمل السلطان بسبب مامر، ولسبب آخر أهم وأدلى وهو الوشيلة عليه من قبل بعض الكتاب خشية أن يظهر تميزه عليهم فينال الحظوة دونهم، إذ تذكر المصادر أنه ”صدر الجاحظ في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم إنه استُعفي فأُعفي“^(٣). وقبل إيراد النص الدال على وجود شكل من أشكال المصادمة بينه وبين الكتاب وحذرهم منه ورغبتهم في إقصائه عن ديوان الرسائل تجب الإشارة إلى أن طلبه الإعفاء بعد ثلاثة أيام فقط من توليه العمل، وقبول استعفافه مباشرة دون محارنته في قراره لاستيقائه رغبة في الاستفادة من تميزه البياني، يدل على أن الأمرليس على ظاهره وأن هناك ما لم يحكِ النص من ظروف وتجاذبات حملته على طلب الإعفاء الذي قوله بالموافقة المباشرة، يفهم ذلك من القول الصريح المنقول عن سهل بن هارون الذي يؤكد حقيقة الصراع وسعي الكتاب بكل حيلة إلى دفعه خارج الديوان حتى لا يبرز حجم الفارق بينه وبينهم فيُفتح أمرهم، يقول: ”إن ثَبَتَ الجاحظ في هذا الديوان أفلَ نجم الكتاب“^(٤)، ولذلك اجتهد الكتاب في نيل هدفهم حتى تحقق فخرج الجاحظ من

(١) بن خلكان، وفيات الأئمأن وأباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عبليس (بيروت: دار صادر، د.ط.د.ت.) .٤٧٧/٣

(٢) شافية حداد السلامي، نظرية العرب إلى الشعوب المغلوبة من الفتح إلى القرن الثالث الهجري (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط١٠٩، ٢٠٠٩م)، ص ٢٥٥.

(٣) الحموي، معجم الأدباء (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤١١، ١٩٩١م)، ٤/٤٧٦.

(٤) المصدر السابق، ٤/٤٧٦.



الديوان بعد ثلاثة أيام فقط، فخلال هم بلاد السلطان يتمتعون بجاهه وعزه والحظوظة عنده، فكانت رسالة الجاحظ في (نمر أخلاق الكتاب) نتيجة متفقة مع ظروف الصراع وال نهاية التي آتى إليها بعد حرمته من الديوان بسببهم، الأمر الذي يجعل تلقيّ هذه الرسالة بمعزل عن الظروف التي نتجت عنها تلقياً غير صحيح وذا أبعاد سلبية على تاريخ الكتابة والكتاب.

صحبة السلطان:

بالنظر إلى طبيعة عمل الكاتب السلطاني يظهر أن مكانه هو دار الخلافة وأن الأمر والنهاي والوجه للكاتب في كتابته هو السلطان نفسه، فالكاتب إذ ما يكتب عن السلطان، ويأخذ منه الأفكار، ويمثل له في الأمر والنهاي، ومادام الأمر كذلك فلا بد أن يُكتَب الدخول إليه، وربما أطّل مجالسته ليستفههم في كتاب ما، أو يرتب أفكاره وحمله فيه، ومن هنا وجب على الكاتب الإحاطة بأداب مصاحبة الملوك والسلطنين، ومعرفة أصول مجالستهم، وما يجب عند محادثتهم، ليس هذا فحسب، بل معرفة تركيبة نفسية السلطان ونظرته لنفسه وللناس من حوله، فبدون هذه المعرفة قد يغتر الكاتب عثرةً لا يقوم منها أبداً، وهذه الناحية يجب على الكاتب العلم بها وعدم التهاون فيها أبداً لاستمرار صحبته للسلطان وكتابته له. روى القالى في هذا الشأن عن بعض علماء الهند قوله: "صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطأ، وإنما تُشبَّه بالجبل الوعر فيه السباع العادية والثمار الطيبة، فالارتفاع إليه شديد، والمقام فيه أشد، وليس يكafa خير السلطان وشره، لأن خير السلطان لا يعود مزيد الحال، وشر السلطان يزيل الحال ويختلف النفس...".^{١)}

وكان الخلفاء والسلطنين أنفسهم يعلمون أنهم يحملون هذه الطبائع العصيرة التي تشترط على من يصحبهم الصبر والمجالدة وإلا لن يطيقون صحبتهم، ومع علمهم

(١) الأٰ مالي (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط. ٣، ٢٠٠٠م)، ١٢١/٢. ويمكن الا طلاع على إشارات متفرقة في هذا الموضوع عند القلقشندي في صبح الأعشى، ٧٤-٧٣/١، ٧٧ و

بذلك لم يكونوا في الغالب يتعاملون مع من يصيّبهم بطبيعة خارجة عن هذه السجية التي جُلّوا عليها، ومتى كان السلطان يُكره نفسه على أمر يتکلفه لإرضاء جليس أو مصاحب؟ فهذا الخليفة المأمون يصرح بشيء من طبائع الملوك ويجعلها وسماً لهم جميعاً في خبر يرويه الثعالبي عن الفضل بن مروان قال: "أغلظ إلى المأمون في شيء جرى، ثم استبان عذري فاستحيا وقال: يا فضل، إن فينا سـ عشر الملوك - محـاً وحسـاً واستثـارـاً وولـعاً وحـقدـاً وفـزـعاً".^{١)}

وهناك نواحٍ نفسية دقـيقـة أشارـ إليها بعضـ من صنـفـوا في طبـائـعـ السـلاـطـينـ وأصـولـ مـاصـابـتهمـ، وهي نواحـ بالـغـةـ الدـقـقةـ تـؤـكـدـ أنـ صـحبـةـ السـلـطـانـ لـيـسـتـ أـمـرـاًـ هـيـنـاًـ. ولاـ طـرـيـقاًـ يـسـهـلـ عـبـورـهـ، وـأـنـ مـنـ لـاـ يـتـمـكـنـ مـنـ الإـحـاطـةـ بـالـسـجـيـةـ السـلـطـانـيـةـ فـإـنـهـ إـلـىـ الإـخـفـاقـ أـقـرـبـ، بلـ وـرـبـمـاـ الـهـلـكـةـ وـالـتـلـفـ، وـرـبـمـاـ تـكـفـيـ الإـشـارـةـ فـيـ هـذـاـ السـيـاقـ إـلـىـ أـنـ السـلاـطـينـ كـمـاـ يـرـوـيـ الـقـلـقـشـنـدـيـ - يـرـوـنـ كـلـ مـنـ تـحـتـهـمـ خـدـمـاًـ لـهـمـ، وـأـنـ مـاـ هـمـ فـيـهـ مـنـ الـمـالـ وـالـحـظـوةـ إـنـمـاـ كـانـ بـسـبـبـهـمـ، وـكـذـلـكـ فـإـنـ فـيـ طـبـائـعـ السـلاـطـينـ التـرـفـعـ عـنـ إـظـهـارـ قـبـولـ النـصـيـحةـ وـأـخـذـ الـمـشـورـةـ إـلـاـ جـاءـتـ عـنـ طـرـيـقـ الـاحـتـيـالـ وـالـلـوـحـيـ دـوـنـ الـتـصـرـيـحـ وـالـمـبـاـشـرـةـ^{٢)}. وـلـيـسـ هـذـاـ هـوـ كـلـ شـيـءـ، فـهـنـاكـ سـمـاتـ أـخـرـىـ فـيـ غـايـةـ الـدـقـقـةـ وـالـتـعـقـيدـ تـسـتـلـزـمـ مـنـ الـكـاتـبـ وـكـلـ مـنـ صـبـحـ السـلـطـانـ اـسـتـحـظـارـهـ وـالـتـعـامـلـ مـعـ السـلـطـانـ وـفـقـ مقـتضـياتـهـ كـادـابـ الـحـدـيثـ وـالـدـخـولـ إـلـيـهـ وـإـلـقاءـ التـحـيـةـ وـالـخـرـوجـ مـنـهـ وـإـبـادـهـ الرـأـيـ وـلـسـاءـ النـصـ وـغـيرـ ذـلـكـ.

ومع ما في صحبة السلطان من المشقة والتعقيد ومظنة التلف إلا أنها كانت مطلباً للكتاب بتبارون عليها ويتنافسون في إظهار تميزهم الكتابي أملاً في وصول خبرهم إلى السلطان لتقريرهم حتى إذا بلغوا ذلك استمرروا في المحافظة على تميزهم لتعزيز مكانتهم عنده وترسيخ أقدامهم لديه. بل وربما لقطع الطريق على أي منافس جديد

(١) آداب الملوك، ص ٢٢٨.

(٢) يُنظر: صبح الأعشى، ٨٧١.



قال ابن حاجب النعمان فيما يرويه القلقشندى: "كان الكتاب حينئذ يتبارون على اقتتاله الفضيلة، ويترفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة، ويجهدون في معرفة ما يحسن المفاهيم، ويزين مكتباتهم، ليتالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة"!^(١) ولم يكن السلاطين يتسامحون مع الكاتب حين يبدر منه جهل أو خطأ، فجلال منزلة الخلافة مقدم على التسامح معه، ولاسيما أن عشرة قلم الكاتب أو ضحالة علمه وثقافته تمتسُّ في المقام الأول كتب السلطان، وتظهر معاييرها فيما يكتب له ولإدراك السلاطين لذلك حرصوا على تمام آلة الكاتب حتى ربما كان موقف واحد سبباً لإبعاد الكاتب ونفيه عن دار السلطان، كما صنع المعتصم مع كاتبه أحمد بن عمار حين كتب: "مُطْرَنَا مطراً كثُرَّ عَنْهُ الْكَلَّا". فسألَهُ عَنْ مَعْنَى الْكَلَّا فلم يعرِفْهُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! خليفة أمي وكاتب عامي. فالتمسَّ كاتباً آخر فدُلِّ على ابن الزيات فلمتحنه ثم خُصَّ به حتى استوزره^(٢).

آلَّةُ الْكَاتِبُ وَسَمَاتُهُ:

أفاض المصنفوون في باب الكتابة والكتاب في الحديث عن العدة التي لا يستقيم عمل الكاتب إلا بها، وتوسعوا في ذلك توسيعاً بالغاً فلم يدعوا شيئاً إلا وأحاطوا به حتى إن حديثهم في هذا السياق تشعب إلى مسارات عدة تجاوزت أصول فن الكتابة إلى جوانب أخرى خارجة عنه كانوا يرونها لازمة لتمام آلة الكاتب، وضامنة لتميزه وفلاحمه وكان فيما أشاروا إليه حزمة من التوجيهات لإصلاح أخلاق الكاتب والعناية بيديه، بل والاهتمام بمظهره وحسن لباسه، وكان هدفهم من توسيع الدائرة إلى هذا الحد هو تقديم خطة متكاملة لإخراج كاتب ناضج من ناحيتي الشكل والمضمون، صالح لخدمة الخفاء، مقبول الدخول عليهم ومجا لستهم ومحادثتهم، يحرِّك الدين، و تضبطه الأمانة، ويكون خير صلة بين الراعي والرعية.

(١) المصدر السابق، ٥٠/١.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ١٥١/١ - ١٥٢/١.

ومع افتتاح المصنفين على كل ما يمكن أن يساعد في تحقيق الأذموج المثالي للكاتب، فقد ظلت النواحي المتصلة بالكتاب نفسيها هي الغالبة على كل النواحي الأخرى كالدين والخلق والمظاهر، بسبب أن هذه النواحي يمكن الكاتب أن يتظاهر بها شكلاً لا اعتقاداً، أما الشؤون المتصلة بفن الكتابة نفسه فلا يمكن التظاهر بالعلم بها، وما لم يكن الكاتب محظياً بها فلن يفلح، ولن ينفعه صدق دينه ولا حسن خلقه ولا جمال مظهره، ولذا كانت التوجيهات المتصلة بالكتاب هي الغالبة على غيرها عند كل المصنفين في هذا الشأن.

واللافت في رحلة استقصاء ما كتب المصنفوون الأوائل في عدة الكاتب وسماته أنها كانت متفاوتة حيناً ومتفرقة حيناً آخر، فتراهم أحياناً يجتمعون وبالنص نفسه على ما يجب على الكاتب تعلّمه والإحاطة به، وفي أحياناً أخرى تجد عند بعضهم أموراً اختص بها لا ترد عند غيره. وربما كانت خير طريقة لعرض ما خطّته أقلام المصنفين في هذا الباب هي إيراده مرقّماً ليسهل تتبع توجيهاتهم للكتاب ونطائجهم لهم، وفيما يلي بيان ذلك:

١-طبع

وقف بعض المصنفين عند هذا الشرط في عدة الكاتب وعدوه أمراً محورياً في صنعة الكتابة، بل وتقديموا في التشديد على صفة الطبع حتى جعلوه الشرط الأول الذي يجب على الكاتب تفحّسه في نفسه، فإذا ما وجد الكاتب مؤشرات عليه مضى على طريق الكتابة، أما إذا لم يجد في داخله استعداداً فطرياً لهذا الأمر فمن الخير له أن يتوقف ويترك هذا الطريق، ولا يوهمن نفسه بأن جبر هذا النقص يمكن أن يتحقق بجمع علوم البلاغة واللغة، لأن الطبع هو القاعدة التي تُبني عليها مكمّلات العلم بالكتاب فإذا ما فقد الأساس فلن يجد أرضاً صلبة يبني عليها صنعته. قال ابن الأثير في سياق حديثه عن آلات



علم البيان وأدواته واشتراط تعليق الكاتب بكل علم: ”ملوك هذا كله الطبع، فإذا المر
يكون ثم طبع فإنه لا تغنى تلك الآلات شيئاً“^(١).

٢- سعة الثقافة والإحاطة بمختلف العلوم

جعل المصنفون هذا شرطاً في عدة الكاتب، لأنه بمثابة المنهل الذي يستقي منه
لكتابته، والمصدر الذي يمدّه بما يضفي عليها الجمال والجلال، والعون المساعد له على
إبراز ما كتب في صورة مكتملة تحمل على الإعجاب والإقناع بما تحتوي عليه من العمق
والاستشهادات. ولتأكيد هذه الناحية قال القلقشندي مبيناً آثار الإحاطة بالعلوم في
كتابة الكاتب بأنه متى ما ألمّ بها ”أتى في كلامه بالسحر الحال، وصاغ من ألفاظه
ومعانيه ما يقضي له بالفصاحة التامة، والبلاغة الكاملة من وجوه تحقيق الكلام
وتحسينه وتدبيجه وتنميقه، وإذا فاتته هذه العلوم أو كان ناقصاً فيها نقصت صناعته بقدر
ما ينقص من ذلك“^(٢). وبهذا يتأكد أن الكتابة لا تنحصر آلتها في قلم ودواة وصحيفة بل
إن لها مكملات لا تتم إلا بها، وأدوات لا يستقيم شأن الكتابة بغيرها، فليس كل من
حمل القلم صار كاتباً، ولا كل من خط الحرف صار مستحفاً للدخول في طائفة الكتاب
وستوقف المتوجول فيما سطره المصنفون في علم الكتابة غزارة العلوم التي
أوجبوا على الكاتب تعلّمها، وربما تأخذ الدهشة لعدم وجود رابط واضح صريح بين
مشارب تلك العلوم وصنعة الكتابة، فهذا ابن قتيبة يرى أن على الكاتب ”النظر في
الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحاد، والمثلث
المنفرج“^(٣). ويورد في هذا السياق قول بعض العجم: ”من لم يكن عالماً بإجراء المياه
.... ومجاري الأيام في الزيادة والنقص، ودوران الشمس، ومطالع النجوم، وحال القمر في
استهلاله وأفعا له وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب، كان ناقصاً في حال

(١) المثل السادس، ٢٧/١.

(٢) صبح الأعشى، ١٨٥/١.

(٣) أدب الكاتب، ص. ٩.

كتابته^(١). ويسوق أبو هلال العسكري أنواع العلوم التي يجب على الكاتب تعلمها فيذكر منها "معرفة العربية لتصحيف الألفاظ وإصابة المعاني، وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة"^(٢). وينص ابن الأثير على ثمانية أنواع من العلوم يرى تعلّمها واجباً على الكاتب، منها اثنان لم يذكرهما غيره، هما: الاطلاع على ما خلّفه أرباب صنعة الكتابة السابقين وحفظ ما أمكن منه، ومعرفة الأحكام السلطانية كالإمامية والإمارة والقضاء والحساب وغيرها^(٣). وينفرد أبو جعفر النحاس من بين كل من وقف عند هذا الأمر بذكر نواحٍ إدارية تلزم الكاتب الإحاطة بها لتجويد عمله، وهو يعدها ضمن أدوات الكتابة التي لا يستقيم عمل الكاتب بدونها، وهي: "العلم بترتيب أعمال الدواوين، والخبرة بمجاري الأعمال"^(٤).

ومما سبق يتجلّى أن أدوات الكتابة ليست مجرد أدوات حسية تتمثل في قلم ودواة، فهذه أدوات يستطيع تحصيلها الصبيان والجهلة، بل هي أدوات معرفية متعددة تستلزم مجاهدة النفس لتحصيلها، الأمر الذي يجعل صورة الكاتب في ذلك الزمن المتقدم لا تتحصر في مجرد عامل في دار السلطان، بل هي تتجاوز ذلك لتبيّنه في صورة العالم الموسوعي الذي لا يحصر نفسه على علم واحد، بل يأخذ أطراً فأما من علمه عدّة وإنما اشترط المصنفوون على الكتاب الإحاطة بكل تلك العلوم حتى لا يظهروا بغير يدي السلطان في صورة الجاهل أو الفارغ حين تحتاج كتبهم إلى شيء من تلك العلوم. وربما يأخذنا العجب حين نقف على تشديد بعض من صنفوها في هذا الشأن باشتراكهم على الكتاب الإحاطة بأمور عدّة بلغت بهم درجة دعوة الكاتب إلى معرفة أمور اجتماعية بالغة الدقة، يكشفها ابن الأثير في قوله: "وبالجملة فإن صاحب هذه

(١) أدب الكاتب، ص ١٠.

(٢) الصناعتين، ص ١٥٤.

(٣) يُنظر: المثل السائر، ٢٩/١.

(٤) صناعة الكتاب، ص ٢٦.



الصناعة يحتاج إلى التثبت بكل فن من الفنون. حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله اللابة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة”.^(١)

٣ - الممارسة

وهذه إحدى الآلات المهمة في عدة الكاتب، وقد حرص بعض المصنفين على جعلها في مقدمة حديثهم عن سمات الكاتب المتميز وشروطه لتبنيه على أن القضية لا تنتهي عند معرفة السمات والشروط بل تتعدها لتكون عملية الكتابة عملية مستمرة لا تقطع، وبهذا الاستمرار تنمو وتنضج وترتقي يوماً بعد آخر على طريق الكمال، أما حين يتوقف الكاتب عند مرحلة الإمام النظري بعده الكاتب ويهمل التطبيق العملي فإن قلمه سيخذله عند محاولة الكتابة، وسيكون دورانه بها شبيهاً بدوران الرحى عند أول دورة لها. وقد جعل بعض المصنفين مسألة الممارسة لهم وأكثر نفعاً من الإحاطة بالأسس النظرية لفن الكتابة، وهذا ما ينص عليه ابن الأثير قوله: ”فإن الدرة والإدمان أجدى عليك نفعاً، وأهدى بصراً وسمعاً، وهو ما يربانك الخير عياناً، ويجعلك عسرك من القول إمكاناً، وكل جارحة منك قلباً ولساناً“^(٢).

٤ - تكييف الكتابة حسب مقتضي الحال

وهذه الصفة إنما ساقها المصنفون للتبيه على أن إجاده الكاتب للأصول النظرية للكتابية ليست ضامنة للتميز الكامل، لأن على طريق الكتابة أموراً دققة تقتضي حساً لغويًّا وقدرة على صناعة ضرب من الكلام ينسجم مع الموقف الذي يكتب فيه الكاتب وهذا يجيئه القلقنشدي في سياق حديثه عن الصفات الازمة للكاتب مشيراً إلى أن من سماته مخاطبة ”كل أحد عن سلطانه بما يقتضيه الحال التي يكون عليها، فيشتتُ ما كانت الشدة نافعة، ويلين حين يكون للين محتاجاً، ويوجّح من لا يقتضي فعله أكثر من

(١) المثل السادس، ٣٧١.

(٢) المثل السادس، ٢٥١.

التبسيخ، وينذر من تعددى إلى ما يستوجب الذم، ويأتى بالمقالات التي يقتضيها اختلاف الأحوال واقعة مواقعها، صابة مراميها^(١). وأوجز أبو هلال العسكري بيان ذلك بقوله "وأبلغ من هذه المنزلة أن يكون في قوة صانع الكلام أن يأتي مرة بالجزل، وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتد إذا أراد"^(٢).

٥ - ضرورة معرفة نفسية من يكتب له

هناك فرق بين المكتوب له والمكتوب إليه، والمعنى هنا بـ(من يكتب له) هو السلطان الذي يتولى الكاتب صوغ أفكاره ونظمها عنه في كتاب، وما دام لصيقاً به دائم الكتابة عنه، يدمن مجالسته ومحاورته فالواجب عليه معرفة نفسيته، وأسلوب تفكيره وما يهش له وما ينفر عنه، وما يقبل إليه ويرتضيه، أو يدبر عنه ويقصيه. كما يجب على الكاتب أن يصل إلى درجة الاكتفاء من السلطان بالإشارة واللمحة، والاستغناء بالوحى عن طول التفصيل والإفهام. وكذلك فإن على الكاتب أن يبلغ في إحاطته بنفسية من يكتب له أن يكون ما يكتبه مقبولاً عندـه في أول عرض، مستغلياً عن مراجعته فيه وإعادة صوغه وتنظيمه، وهذا ما كان ينقص كتاب المعتصم حين كتب إليه ملك الروم يتوعده ويتهذّبه فأمر الكتاب أن يكتبوا له رداً "فلم يعجبه مما كتبوا شيء، فقال بعضهم اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار)"^(٣) ولو كان أحد كتابـه ماهراً فطناً لالتقط ما في نفس الخليفة وكتب له ما يرضيه بعد قراءة الموقف ومعرفة ما يتطلبه من الحدة في الكتابة وضرورة إلجام المتطاول على الخليفة.

والواقع أن مثل هذه المواقف تعد الاختبار الحقيقي للكاتب، والميزان الدقيق لجودة معدنه، كما أنها تعد من جهة أخرى فرصة له للارتقاء درجات عند السلطان.

(١) صبح الأعشى، ٦٦/١.

(٢) الصناعتين، ص ٢٤.

(٣) صبح الأعشى، ١٩٢/١.



والإعلان عن تميزه وبراعته الكتابية حتى يغدو هو الكاتب الأول، المقدم على غيره فرب موقف كهذا يكون فتحاً للكاتب، وباباً له نحو العز والحظوة متى ما كان مستعداً له، متسمًا بالفطنة وحدة الذهن.

وتتضمن الرسالة الشهيرة التي كتبها عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب حَالْهُم على معرفة الطبيعة البشرية لمن يكتبون له، ومما جاء فيها: "إذا صحب أحدكم الرجل فليستند خلائقه كما يستشف الثوب يشتريه لنفسه"^(١). ثم قال: "فأدِّقُوا يرحمكم الله النظر، وأعملوا فيه الروية والفكر تأميناً من صحبتهموه يا ذن الله النبوة والاستقلال والجفوة، ويصيروا منكم إلى الموافقة، وتصيروا منهم إلى الموساة والشفقة"^(٢). وأكد القلقشندي هذا الجانب داعياً الكاتب إلى النزول عن طبعه وهواد إلى طبع من يكتب له من الملوك والرؤساء ومجاراتهم فيما جُبِلُوا عليه من الطبائع^(٣).

٦ - مراجعة الكتاب وعدم الاستعجال في إرساله

وسبب دعوة المصنفين إلى الروية في هذا الشأن هو أن الكتاب إذاً أرسل فإنه قد خرج من اليد إلى الغير فلا يمكن استدراكه أو استرجاعه إذا كان مشتملاً على خطأ ما، فيبقى عاره على من أرسله ومن أمضاه، وربما صار سبباً عليه وعيهاً ينسب إليه ولذلك أكد المصنفون على وجوب الأنأة والمراجعة وترك الاستعجال، قال أبو بكر الصولي: "ليس أحد أولى بالأنأة والروية وتوقّي الاغترار من كاتب يعرض عقله وينشر بلاغته"^(٤). ويجب على الكاتب إعمال الأنأة والروية في ناحيتين أساسيتين هما: الأفكار، وزلات القلم، وربما كان خير معين له على ضبط كتابه وإقصاء الخطأ عنه استحضار ما قاله

(١) الجھشیاري، الوراء والكتاب، ص ٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٧.

(٣) يُنظر: صبح الأعشى، ٧٤/١.

(٤) أدب الكتاب، ص ١٥٧. وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٣/٦.

الصولي في سياق توجيهه للكتاب: "ويعمل على أن جميع الناس له أعداء، علمهم بكتابه متفرغون له، منتقدون عليه".^(١)

٧ - حفظ القرآن والأحاديث النبوية

نص على هذا ابن الأثير^(٢)، وأفاض القلقشندى في الحديث فيه حتى ملأ أكثر من عشرين صفحة^(٣)، وأشار إليه الحموي نقلًا عن التوحيدى^(٤). ويرجع سبب حثهم على حفظ القرآن الكريم إلى الحاجة إلى استحضاره في صدر الكاتب للاستشهاد بياته في الموضع المناسب في كتابته، وذلك لما يضفيه على الكتابة من: "الفخامة والجزالة والرونق"^(٥)، وكذلك لأن " الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض وتوفيق المقاصد ما لا تقويه الكتب المطولة والأدلة القاطعة"^(٦). ويضيف القلقشندى بأن من فوائد الاستشهاد بالقرآن الكريم "إقامة الحجة، وقطع النزاع، وإذعان الخصم"^(٧). ويصف ابن الأثير القرآن الكريم بأنه: "تجارة لن تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يرجع إليه، وذر يُعول عليه".^(٨) ويتحقق حفظ الأحاديث النبوية والاستشهاد بها غایات مقاربة لتلك التي تكون عند الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، ولذا احت المصنفون الكتاب على حفظها والاستعانة بها.^(٩)

٨ - حفظ أشعار العرب وأمثالها وخطبها وأيامها

وهذه تعد واحدة من الآلات المهمة التي تمدّ الكاتب بالقوة والعمق في كتابته وتضفي عليها لوناً من الرونق وجميل الاستشهاد. قال ابن عبد ربه: "فإن تضمين المثل

(١) أدب الكتاب، ص ١٥٧.

(٢) يُنظر: المثل السائر، ٤٧/١.

(٣) يُنظر: صبح الأعشى، ١٨٩/١.

(٤) ثمرات الأوراق، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ١٩٧١)، ص ٩٥.

(٥) ابن الأثير، المثل السائر، ٤٧/١.

(٦) القلقشندى، صبح الأعشى، ١٩١/١.

(٧) المصدر السابق، ١٩١/١.

(٨) المثل السائر، ٤٧/١.

(٩) يُنظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص ١٠١-١١. وا بن سنان، سر الفصاحة، ص ٢٨٢. وا بن الأثير، المثل السائر، ٤٧/١.

والقلقشندى، صبح الأعشى، ١٢٠/١.



السائل والبيت الغابر البارع مما يزيد كتابك^(١). ورأى بعض المصنفين في حفظ الكاتب للمأثور عن العرب فائدة جليلة تتمثل في احتياجه لمعانيها عند الحاجة، وانسيابها إلى كتابه في المواضع التي تستدعيها إما بلفظها أو معناها، وهي في الحالين زينة للكتاب وحلية له، وكلما كان محفوظ الكاتب منها أغزر كانت الخيارات بين يديه أو فر في اختيار رائق المعاني وحسن الألفاظ، وكان قلمه بالكتابة أسهل دون انغلاق أو حبسة لكونه ينهل من معين غزير قد ملأه بكثرة الحفظ ومتغير المعاني والألفاظ.

أما الأمثل فلها خصوصية بين سائر المنشور المروي عن العرب تتمثل في كونها لا تُروى إلا بنصها لا بمعناها، ولهذا فإن الكاتب -وغيره أيضًا- لا يجوز له الاستشهاد بها إلا كما حفظت عن أصحابها الأوائل بنصها لا بمعناها^(٢).

٩ - التحلي بحسن الأخلاق

ورد التأكيد على الكتاب بحسن الخلق عند عدد من المصنفين، وربما كان مرد ذلك إلى كونهم يمثلون السلطان، ويعذبون واجهة من واجهات دار الخلافة، ولذا وجب عليهم صيانة من يعملون له، وحفظ جلال ديوان الخلافة الذي ينتسبون إليه، وما لم يكونوا أكفاء في أخلاقهم، وحسن سماتهم، وطيب معشرهم، فإنهم يسيئون إلى عمل السلطان بقدر نقصهم عن الكمال، ومعلوم أن السلطان لا يرضي بأن يُنسب إلى عمله من يذكر بسوء السمعة أو تردي الخلق، ولا سيما حين يكون ذلك هو الكاتب عنه ناقل رسائله، وحائطًا أفكاره، ولسانه إلى الأمراء والسلطانين وسائر الرعية، وبسبب هذا تردد عند المصنفين حتى الكتاب على التزيين بحسن الأخلاق، وهذا مانص عليه ابن قتيبة في مقدمة كتابه (أدب الكتاب) الذي صنَّفه لكتاب خاصة بقوله: ”ونحن نستحب لمن قبل عنا وأئتم بكتابنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويذهب أخلاقه قبل أن يهذب

(١) العقد الفريد، ٤/١٦٦.

(٢) يُدَرِّجُ في هذا: ابن سنان، سر الفصاحة، ص ٢٨١، وبن الأثير، المثل لسائل، ١/٤١، و٢٩٩، والقاشقندى، ص ٢٧١ و ٢٩٥ و ٣٩٠، صبح الأربعينى، ١/٢١٠.

اللفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، وبجانب قبل مجانته للحن وخطل القول شنيع الكلام ورفث المزح^(١). ومن هذا النص يتضح كيف يؤكد ابن قتيبة على إصلاح الأخلاق قبل إصلاح أدوات الكتابة، حتى كان باب الكتابة لا ينفتح إلا لمن صلح خلقه وسلمت سريرته وعفَّ لسانه.

وفي الرسالة الشهيرة من عبد الحميد الكاتب إلى معاشر الكتاب تأكيد على الناحية الأخلاقية، فقد حثّهم فيها على التحلي بطاقة من الأخلاق الكريمة كالوفاء والعفة والعدل والإنصاف وكتم السر، وحذرهم من الطمع والسعاد والنمية والكبر والنعمة والجهالة. ولأهمية هذه الناحية فقد شغل بها عبد الحميد شطرًا من رسالته حتى طارت وثيقة أخلاقية يستنير بها الكاتب لإصلاح نيته وخلقها ولسانه^(٢)، ويستعين بها على الارتفاع إلى أرفع درجات الكتابة.

١٠- سلامة الدين

ربما يكون دافع المصنفين إلى إدراج هذه الصفة ضمن السمات الواجبة في الكاتب آتيًا من كونه الواسطة بين الراعي والرعية، والمطلّع على أسرار الخلافة وقلق شؤون السلطان، ولذا وجب فيمن هذا عمله أن يكون حسن الدين، مأمون العاقبة، ناصحاً للراعي، يؤدي أمانة عمله بلا غش ولا إفساد سر ولا خيانة، وهذا لا يكون إلا بسلامة الين حتى إن القلقشندى جعل أولى الصفات العشر الواجبة في الكاتب، التي لا يسعه إهمالها -على حد قوله- هي الإسلام "ليؤمن فيما يكتبه ويمليه، ويوثق فيما يذره ويأتيه"^(٣). وهذه الصفة في الكتاب نص عليها عبد الحميد الكاتب في رسالته الشهيرة إليهم قللاً: "إذا

(١) أدب الكاتب، ص ٦٦.

(٢) يُذْكر: الح هشياري، لوزراء والكتاب، ص ٧٥. وتنظر إلى شارات سيره عند الحموي، ٣ مرات الأوراق، ص ٣٩٥.

(٣) صبح الاعتنى، ٦١/١.

وَلَيْ الرِّجُلُ مِنْكُمْ وَصِيرٌ إِلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِبَادِهِ أَمْرٌ، فَلِيَرَاقِبُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ،
وَلِيُؤْثِرْ طَاعَتَهُ فِيهِ^(١).

ولابد أن تستوقف متصفح مصنفات العلماء في باب الكتابة والكتاب تلك الحزمة من الشروط الدينية التي اشترط القلقشندي وجودها في الكاتب، حتى ربما غلب علينا الظن بأن وظيفة الكتابة هي وظيفة دينية كالفتوى والإمامية وليس وظيفة إدارية في ديوان الخلافة. فالقلقشندي يشترط اتسام الكاتب بتقويم الله في السر والعلن، والمحافظة على شرائع الدين، وصلاح النية، وتحت السلطان على العدل في الرعية، والترفع عن الريب، وترك الطمع، وإمساك اليد عن المكاسب غير المنشورة، والاقتصاد في اللذة حفظاً للمرءودة والشرف^(٢). وربما داخلنا العجب من اشتراط هذه الصفات في الكاتب، أو ثار لدينا تساؤل عن سر علاقتها بصفة الكتابة نفسها؟ والذي يظهر أن الخلفاء والسلطانين إنما كانوا يستحسنونها في كتابهم ولا يستوجبونها، وأقصى ما يذهبون إليه في هذا الشأن أنهم كانوا يرونها من تمام آلة الكاتب، دون أن تكون الأساس الذي يعتمد عليه في قياس تفوقه، بدليل أن الكاتب لو بلغ في الناحية الدينية أرفع الدرجات، وكان في فن الكتابة متأخراً لما صلح للكتابة للسلطان ولما شفع له دينه في التقدم على من هو أجود منه كتابة وأقل ديانة.

١١- جمال الخلق وحسن المظاهر

وهذا الشرط في الكاتب آتٍ من كونه جليساً للسلطان، بل وربما من أصحاب الخلوة به لنظم ما في فكره من شؤون الخلافة على الرقاع، ولذا كان من الاشتراطات على الكاتب أن يكون بهيّ الطلاعة، حسَنَ الملبس، جميل الهيئة، إكراماً لعين السلطان أن تقع على ما لا يحسُن. ومعلوم أن الصفات الخلقية لا يملك الكاتب إصلاحها ولا طلبها، فهي شأن إلهي، أما العناية بالمظاهر فهي في يده، بل ومن الواجبات عليه التي لا

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٧٦.

(٢) يُنظر: صبح الأعشى، ١٩٠-٧٣.

يُتسامح معه فيها لو قصر، وفي هذا نقل ابن عبد ربه عن إبراهيم بن محمد الكاتب قوله "من كمال آلة الكتابة أن يكون الكاتب نقِيًّا الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروعة عَطِير الرائحة ... ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهمة، فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفتنة"^(١)! وتعرض أبو حيان التوحيدي إلى هذا الجانب مشترطاً على الكاتب أن يكون "نظيف الثوب لطيف المركب، ظريف الغلام، رقيق الحواشي، ترف الأطراف..."^(٢). وما لم يكن الكاتب متسماً بهذه الصفات كان في ذلك دلالة على نقص فيه، وبما كان طارداً عن العمل في صنعة الكتابة، فالسلاطين -والخلق جميعاً- يرتابون لصاحب الصورة الحسنة في خلقه وملبسه، وينفرون من خلافها. وإذا ما وصل الكاتب إلى العمل في الكتابة مع قبح في الصورة فإن ذلك يكون موضع تعجبٍ لدخوله فيما لا يحق له الدخول فيه، وهو ما قاله أحمد بن الخصيب -فيما يرويه ابن عبد ربه- لرجل من الكتاب فَدَمَ المنظر، مضطرب الخلق، طويل الععنون: "إإن يكون هذا فنطاس مركب أشبهه من أن يكون كاتباً"^(٣). وحيث كان جمال الخلق -كما تقدم القول- شأنًا خارجًا عن إرادة الكاتب فإن بعض المصنفين لم يشترطه فيه، بل وزاد على ذلك بالتلليل من أهمية الملبس والعهبة بالظهور، كالقلقشندى الذي يقول: "بالجملة ففصحاة اللسان، وقومة البيان والتقدير في صناعة الكتابة هو الذي يرفع الرجل ويُعظِّمه دون أثوابه البهية وهيئته الزاهية"^(٤). ولا يدرى كيف يصح هذا القول في حق كاتب يدخل على السلطان ويجالسه ويحاوره إلا إن كان يُقصد به الكاتب الذي لا يعمل في دار الخلافة، وهذا احتمال غير مرجح لأن

(١) العقد الفريد، ١٦٢/٤.

(٢) الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٣٩٥.

(٣) العقد الفريد، ١٦٣/٤.

(٤) صحيح الأعشى، ٦٨٧/١.

المصنفين فيما يظهر كانوا يتجهون بحديثهم في هذا الشأن إلى كتاب السلاطين تحديداً.

١٢ - الذكاء وحدة الذهن

وهذه الصفة في الكاتب لم يختلف فيها المصنفون، لكون السلطان لا يريد في عمله كتاباً قاصر النهاية والفهم يُكثر مراجعته واستفهماته، وهذا طبع في الملوك أشار إليه الثعالبي في خبر يرويه عن عبد الملك بن مروان حين دخل عليه الشعبي، وفيه أن الخليفة غضب على الشعبي لأنه استفهمه مرة، وطلب منه الإعادة مرة أخرى، فقال له إن الملوك لا يستفهمون ولا يستعادون^(١). ومن هنا وجب أن يكون الكاتب حلاً للذهن حي العقل، يفهم بالوحي والإشارة، وتغنيه اللمحات عن التصريح، ويستجيب لما يتطلبه الموقف قبل أن يطلب منه، ويكتفي بنظرات السلطان وإشاراته لمعرفة أمره ونفيه وهذه صفة عسيرة تعز في الكتاب، فمقادير العقول مقسمة بين الخلق وليس لأحد إلا ما وُهب. قال أحد الشعراء معبراً عن هذه الصفة في الكاتب:

عليكَ بكتابِ لبِّي رشيقٍ زكيٌّ في شمائله حراره
تاجيه بطركَ من بعيدٍ فيفهم رجُعَ لحظِكَ بالإشارة^(٢)

وللقلقشندى نص في اشتراط هذه الصفة في الكاتب يقول فيه: "ينبغي أن يكون الكاتب أديباً، حاداً الذهن، قوي النفس، حاضر الحسن، جيد الحدس"^(٣). وبهذا يتجلى أن الكمال في شخصية الكاتب عزيز، وأن التفاوت بينهم ظاهر في صنعة الكتابة، وأن مقدار ما يتحلون به من الصفات مختلف بحسب الاستعداد الذهني والعقلي، أو بحسب التقدير الإلهي، ولعل هذه الصفة توضح قدر صعوبة صنعة الكتابة، وقدر المشقة التي تجدها دار الخلافة في الحصول على كاتب يليق بها في عقله وعلمه وحَلْقه وحَلْقه كما

(١) ينظر: أداب الملوك، ص ٢٣٠.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤/١٦٣.

(٣) صبح الأعشى، ٦٧/١. وينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤/١٦٢.

أنها من جهة أخرى تجلي أن التميز في الكتابة لا يكون بالخط والقلم، بل بالشيء أخرى تمدها بالقوة والكمال، منها ما يكون فطرة، ومنها ما يكون اكتساباً.

١٣ - العلم بالعربية

لا ينفتح باب الكتابة للكاتب إلا بعد إحاطته بفروع علم العربية وفنونها من النحو والبلاغة والصرف ومعرفة الألفاظ وجيد المعاني وأسرار التركيب وتميز الحسن من الرديء، وإجاده هذا الأمر تستلزم من الكاتب استعداداً للتعلم وإقبالاً عليه، كما تطلب منه أيضاً حسناً لغوياً مهياً للنمو بترانيم الخبرة، ومداومة الكتابة، وإجاهد العقل في الموازنة بين النظائر، وتقليل الفكر لتمييز الألفاظ، وفك أسرار التركيب لاكتساب القدرة على نظم المعاني، وهذا الأمر لا يتحصل عليه دفعه واحدة بل شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام وتنامي الحس الذي يحتاج إلى صبر ومجاهدة لامتلاكه.

وتبدو لغة اشتراط هذه السمة في الكاتب قوية عند بعض المصنفين^٤ الذين قتبية الذي صرَّح في مقدمة مصنفه (أدب الكاتب) أن اشتراط إحاطة الكاتب بعلم العربية أصل لا يحتاج إلى تأكيده، وأن الكاتب -في رأيه- لا يجوز له مسك القلم قبل التمكُّن من العربية، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك بالتبنيه الصريح على أن مصنفه هذا ليس لمن امتلك أدوات الكتابة الحسية فقط كالقلم والدواة، بل لمن امتلك أطرافاً من علوم العربية، فهو لاء في رأيه هم المؤهلون للنظر في مصنفه والاستفادة مما فيه، أمامن لم يُحط بأصول العربية وعلومها فهم خارج دائرة اهتمامه لافتقارهم لقاعدة التي تأسس عليها صنعة الكتابة، يقول: "وليس كتاباً هذه لمن لم يتعذر من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالاسم، ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة، ولكنها من شدائياً من الإعراب فعرف الصدر والمصدر، والحال والظرف، وشيئاً من التصارييف والأبنية...". وإذا كان بقية المصنفين لم يتشددوا في هذا الشرط تشدد ابن قتبية فإنه لم يبعدوا عنه، لكنهم جعلوا شرط العلم بالعربية على رأس ما يجب على الكاتب تعلمه

(٤) أدب الكاتب، ص.^٩



فأبو جعفر النحاس جعله أول أدوات الكتابة^(١). ووضعه أبو هلال العسكري في بداية آلات الكتابة قائلاً: “ينبغي أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة وآلات كثيرة من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني”^(٢). وجعل ابن الأثير علم العربية من النحو والتصريف واللغة على رأس قائمة الآلات الثمان التي لا غنى للكاتب عنها^(٣). وبهذا القدر من عناية المصنفين بعلم العربية تتضح محوريته في عدة الكاتب، ويتأكد أن الاتجاه إلى الكتابة بدونه لا يستقيم إطلاقاً. ولاسيما مع ما عُرف عنهم في تلك العصور الظاهرة من العناية بسلامة النحو وشدة كراحتهم للحن، وجعلهم العثرات في هذا الجانب سبة على الكاتب وعاراً على المكتوب منه.

١٤ - الإخلاص للسلطان وصدق الولاء له

واضح أن هذه الصفة لا علاقة لها مباشرة بصنعة الكاتب ذاتها، لكنها مشروطة على الكاتب الذي يعمل للسلطان في ديوان الخلافة، وهي من السمات الشخصية غير الوظيفية التي تُطلب في الكاتب حتى يُستأمن في دار السلطان، ويُستوثق منه عند الإفشاء إليه، أو السماع عنه، أو قبول خبره أو رأيه أو نصيحة. ومتن بدا من الكاتب ضعف في الولاء، أو تخون للعمل، أو غش للسلطان كان إلى الهلكة أقرب ولن ينفعه ما لديه من علم كتابي حتى ولو كان فيه علماً. روى ابن قتيبة أن أبوروイ قال لكاتبه: ”اكتم السر، واصدق الحديث، واجتهد في النصيحة، واحترس بالحذر، فإن لك علىَّ ألا أجعل بك حتى أستأنِي لك، ولا تدعْنَّ أن ترفع إلي الصغير فإنه يدل على الكبير ولا تكتمن الكبير فإنه ليس شاغلي عن الصغير“^(٤).

(١) يُنظر: صناعة الكتاب، ص ٢٦.

(٢) يُنظر: الصناعتين، ص ١٥٤، و: ص ٢١.

(٣) يُنظر: المثل السائر، ٢١/١.

(٤) عيون الأخبار، ٤٥/١.

ونَبِّه عبد الحميد الكاتب الكتاب في رسالته إليهم على هذه الصفة المهمة بقوله ”ول يكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر لیوم حاجته إلیه أحذب وأح�ط منه على أخيه وولده، فإن عرضت في العمل محمدہ فلیُضفِّها إلى صاحبه، وإن عرضت منمة فليحملها من دونه“^(١). فعبد الحميد يطلب من الكتاب مستوى رفيعاً من صدق الولاء يطل بهم إلى حد تهميش الذات لأجل من يعملون له بحمل الزلات دونه، وإسناد المحمد إليه فوق ذلك كله تقديمها على الأخ والولد. ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذا القول من عبد الحميد صادر عن تجربة وممارسة، ووقف على تأثير صدق الولاء في النومن السلطان ونيل الرفعة عنده، والحظوظة لديه.

١٥- الانتماء إلى أرفع طبقات الناس

انفرد ابن خلدون من بين كل من صنف في موضوع الكتابة والكتاب باشتراط هذه الصفة في الكاتب، إذ اشترط أن يكون الكاتب ”من أرفع طبقات الناس، وأهل المرودة والخشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة“. ثم فسر علة هذا الاشتراط بقوله: ”فإنه مُعرَّض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد حكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعوه إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل“^(٢). وبهذا تجلت علة هذا الاشتراط ويتبين معناه، فالطبقة التي يشترط ابن خلدون انتماء الكاتب إليها ليست طبقة بالمفهوم الاجتماعي أو القبلي، بل هي بالمفهوم العلمي والأخلاقي، أي أن بإمكان كل كاتب الانتساب إليها متى ما لستوفى ضرورياتها.

إن مجموع تلك الشروط والصفات الواجبة في الكاتب هو بمنزلة خطة إرشادية تسوقه إلى اعتلاء درجة رفيعة على سلم الكتابة، وتهيئة إلى أن يكون جلساً للسلطان، مختصاً به مطلقاً على أسرار مملكته، متمتعاً بالرفعة والحظوظة. وكان

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ص ٧٥-٧٦.

(٢) المقدمة، ٦٨١/٢.



المصنفون في هذا الباب على ثقة من نجاح الكاتب متى ما جمع تلك الشروط والسمات وعلى إجماع أيضاً من أن التهاون في تحصيلها غير مقبول، وأن التركيز على بعضها دون بعض مضر بتمام آلية الكتابة، وهذا ما نص عليه ابن عبد ربه بعد أن ساق جملة من آلات الكاتب أعقبها بقوله: "إذا اجتمعت للكاتب هذه الحال، وانتظمت فيه هذه الخطأ فهو الكاتب البليغ، والأديب النحير، وإن قصرت به آلية من هذه الآلات، وقعدت به آلة من هذه الأدوات، فهو منقوص الجمال، منكسف الحس، مبخوس النصيب".^(١)

- توجيهات للكتاب:

ضمت مصنفات المقدمين في باب الكتابة أولواناً من الإرشادات للكتاب تساعدهم على تجويد صنعتهم وإتقانها، وربما يفهم من تعرّضهم لهذا الشأن أن وظيفة الكتابة صارت جاذبة لأصنافٍ من البشر بما تنطوي عليه من مزايا سلطانية أغرت بالتسابق إليها، وربما إقحام النفس فيها دون إلمام بأصولها، ولا إدراك لفنونها، الأمر الذي نتج عنه ضعف في مستوى المنتسبين إلى الكتابة ممن دخلوها طمعاً في غلائمها وهو ما ساق عدداً من العلماء المصنفين المهتمين بالعربية وبلامتها إلى وضع ضوابط للكتابة، وإرشادات تعين المتعلّقين بها على أن يقفوا على أرض صلبة، ويتعلّمون على الطرق التي يجب عليهم التزامها لتجويد كتابتهم، وفيما يلي مستخلص ما أودّ عه المصنفون في مؤلفاتهم مما يدخل في باب التوجيهات.

١- استحضار المعنى واختيار اللفظ

ينبغي للكاتب تصيّد المعنى في ذهنه، وانتقاء ما يناسبه من اللفظ قبل الإقدام على صياغته، إذ إن بعض الكتاب يهجم على الورق هجوماً فيدون ما يريد دون تأمل ولا جهد في الموازنة والاختيار، قال أبو هلال العسكري: "إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق لها كرائم اللفظ".^(٢)

(١) العقد الفريد، ٤/٦٢.

(٢) الصناعتين، ص ١٣٣.

٢ - الإقبال ساعة النشاط والإمساك ساعة الفتور

وذلك لأن النفس ساعة نشاطها تنفتح لها مغاليق الكلام، وتتقاد إليها أعنَّةُ
القول، وتجد من الفكر عطاءً، ومن القلم سلاسةً، وبِذَلِك تكون في ساعات الضيق
والضجر، ولو ذهب الكاتب إلى إكراه نفسه على الكتابة في هذا الظرف لوجده منها نفوراً
وتُفْلِئُّ، وإن استجابت لإكراهه لم تعطه إلا ضعيف القول وبارد اللفظ والمعنى، قال أبو
هلال العسكري موجِّهاً إلى الكاتب: "واعمله ما دمتَ في شباب نشاطك، فإذا غشيك
الفتور، وتخونك الملل فامسك".^(١)

٣ - تحرّي الأجواد وعدم اعتماد أول صيد الذهن

يتفاوت الكتاب في التعبير عن المعنى الواحد بحسب ما لديهم من غزارة الفكر
ووفرة المعاني وسعة المعجم، ومدى جَلَدِهِم على محاورة النفس والإلحاح على الذهن
لاستقاء الأجواد، هذان المعياران هما أبرز أسباب التفاوت في جودة المنتج الكَتابِيَّين
الكتاب، وقد وردت إشارات المصنفين إلى هذا الأمر منسوبة إلى بعض الكتاب الذين
عرفوا معاناة الكتابة، وما يمر به الداخل في أوديتها من حقول المعاني والألفاظ التي
تتطلب ترويًّا في الاختيار، وتمهلاً في انتقاء الأفضل، وعدم التسرّع بأخذ ما على سطح
الذهن. وفي بعض الأحيان تزدحم المعاني وتتكاثر الألفاظ على الكاتب فيختلط عليه
الأمر حتى ربما حار فيما يصنع، وفي هذه الحال يتحدث العتaby عن تجربة له تبين ما يجب
على الكاتب فعله في هذا الظرف، يقول: "إني لما تناولتُ القلم تداعت علي المعلوي من
كل جهة، فأحبيت أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه، ثم أجيتي لك أحسنها"^(٢). وروى أبو بكر الصولي أن قلم ابن المقفع كان يقف كثيراً فقيل له في ذلك فقال: "إن
الكلام يزدحم في صدرِي فيقف قلمي لتحيره".^(٣)

(١) المصدر السابق، ص. ١٢٣.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤/١٦٥.

(٣) الصولي، أدب الكتاب، ص. ١٥٨.

٤ - وضع كل لفظة في موضعها

وهذا يُعد مؤشراً على بлагة الكاتب وتمكنه، لأن لكل كلمة موضعًا في السياق لا يصح غيرها فيها، وربما تأدي المعنى بغيرها ولكن بلا رونق ولا بهاء. ولا يصل الكاتب إلى منزلة التمييز بين الألفاظ، والقدرة على اكتشاف الفروق بينها، وتقديم أحدها على مرادفاته إلا مع كثرة الممارسة ومداومة معاناة الكتابة. وحسبنا دالة على أهمية هذه المسألة أن ابن عبد ربه جعل التمكّن منها شرطاً لاستحقاق وصف الكاتب يقول: "فإن الكاتب إنما يصير كاتباً لأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلق كل لفظة على طبقتها من المعنى" (١).

٥ - اقتناص المعاني من أقوال الناس ومحاوراتهم

هذا التوجيه للكاتب يعني أن عملية الكتابة يجب أن تكون شغلاً مستمراً له حتى وإن لم يكن يمارسها في كل لحظة، وذلك بأن يكون متاهباً لاصطياد ما يعرض له في أحاديث الناس، فاتحاً قلبه وأذنيه لجمع ما يمكن أن يستفيد منه في كتابته، وسبب ذلك يوضحه ابن الأثير في قوله: "فإنه لا يعدم مما يسمعه منهم حكماً كثيرة، ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه" (٢).

٦ - المبادرة إلى تقييد حَسَنَ الألفاظ

تقدّم القول بأن على الكاتب أن يكون دائم اليقظة لما يعرض له مما يستحق توظيفه في كتابته، وهذا يتطلب منه المسارعة إلى تقييد النفايات التي تمرّ به وعدم الاغترار بجدوى إداعها في الذاكرة، لأنها ستكون معرضة للانفلات، ومعلّمه أن شوراد الذهن عصية على القبض. قال أبو هلال العسكري مؤكداً هذا: "فإذا مررتَ بلفظ حسن

(١) العقد الفريد، ٤/٧٤.

(٢) المثل السائر، ١/٧٢.

أخذت برقبته.... وتحذر أن يسبقك، فإنه إن سبقك تعبت في تتبعه، ونصبت في تطليه ولعلك لا تلحقه على طول الطلب، ومواصلة الدأب".^(١)

٧ - ترك التوур والتعقيد

وذلک لأن الغاية من الكتابة هي الإفهام، ولذا وجوب أن يسلک الكاتب أيسر طريق يوصله إلى غرضه، ويجافي كل مسلک يحول دون هذا الهدف، أو يجعل المعنى غامضاً والغرض ملتبساً. وقد كره جماعة المصنفين أن يميل الكاتب إلى وعر اللفظ ومستغلق المعنى، وعدوا ذلك عيّاً. قال أبو هلال العسكري: "إياك والتوعر، فإن التوعر يُسلِّمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويُشين ألفاظك".^(٢)

٨ - تحاشي اللحن

وهذا لا يكون إلا بإحكام علم النحو وضبط مسائله وأبوابه، وليس توجيه الكتب إلى تحاشي اللحن لمجرد تحقيق سلامية الكتاب، بل لما في اللحن من العيب والمذمة على صاحبه، وتسببه عليه بالإقصاء عن وظيفة الكتابة وإخراجه من زمرة الكتاب، ولاسيما أن الخفاء والسلاطين كانوا يأنفون من اللحن جداً ويحاسبون عليه، ولا يتسعون في المسامحة فيه، يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ الحنا في كتاب ورَدَه من أبي موسى الأشعري، فكتب له: "قنزع كاتبك سوطاً".^(٣) ومثله ما رُوي عن المأمون حين وَرَدَه كتاب من إسحاق بن إبراهيم جاء فيه: "ـ (وهذا المال مالاً يجب على فلان)، فخطَّ المأمون على (مالاً) ووقع بخطه في حاشية الكتاب: أتكاتبني بلحن يا إسحاق؟ فاشتدَّ ذلك عليه...".^(٤)

(١) الصناعتين، ص ١٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٣) الصولي، أدب الكتاب، ص ١٢٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٩.



وكان علم النحو من العلوم الأصيلة في عصور الخلافة، يُقبل على تعلمه الناس على اختلاف طبقاتهم، حرطاً على سلامة اللسان، واستثناعاً للحن، ويتضاعف هذا الحرص في الكتب الصادرة عن دار الخلافة، ولذا تكرر حتى المصنفين وعلم اللغة على تعلم النحو، والتأكيد على الكتاب خاصة فيه، مع بيان فضائله تحفيزاً لهم على الإقبال عليه، وقد قيل إن من فضائله أنه يزيد في شرف الشريف، ويرفع من قدر الخسيس، ويجرّى على المنطق، ويدني من السلطان^(١).

وجاء عند القلقشندى أن "الحن قبيح في كبراء الناس وسراتهم، كما أن الإعراب جمال لهم، وهو يرفع الساقط من السفلة، ويرتقي به إلى مرتبة تلقيه بمن كان فوق نمطه وصفته"^(٢). وبذا يتضح أن أهمية النحو للكاتب لا تنحصر على كونه متطلباً لجودة الكتابة فحسب، بل إن له نفعاً متعدياً يطال الكاتب نفسه بتقريبه إلى المسلمين ونيله الحظوة عندهم، والرفة على أقرانه ومنافسيه.

وتشهد مؤلفات المصنفين في باب الكتابة أن الكتاب كانوا يتنافسون على تعلم النحو إيماناً منهم بأنه أحد المفاتيح التي لا يدخل الكاتب إلى زمرة الكتاب إلا بها قال أبو جعفر النحاس: "وقد كان الكتاب فيما مضى أرغم الناس في علم النحو وأكثراهم تعظيمًا لأهله"^(٣)، وربما كان أشد باعث لهم على ذلك ما علموه من عظيم عنية الخلفاء والسلطانين بسلامة النحو وأنفتهم من اللحن، حتى روي أن المأمون كان "يتقدّم ما تكتبه الكتاب، فيُسقط من لحنَ في كتابته، ويحط مقداره، ويرفع من كان معرباً"^(٤). إذن فالقضية لا تقتصر على حرص المسلمين على صحة الإعراب فحسب بل تتجاوز ذلك إلى كون ضعف نحو الكاتب مهدداً لاستمراره في عمله في دار السلطان

(١) يُنظر: الشتريني، تتبّيه الأدّياب على فضائل الإعراب، تحقّق يق: معيض بن مساعد الّعوفي (جدة: دار المدني، ط. ١، ٥١٤١٠ / ٩٨٩ هـ)، ص. ٩٦.

(٢) صبح الأعشى، ١٧٩/١.

(٣) صناعة الكتاب، ص. ٣٠.

(٤) الشتريني، تتبّيه الأدّياب على فضائل الإعراب، ص. ١٣٠.

فربما تسبب في طرده من العمل في الديوان لكون السلاطين يتزلفون عن إرسال كتب بإمضاءهم تتضمن لحناً استعاباً لذلك، بل ويررون كاتب اللحن منقصة على دار الخلافة تستلزم سرعة التخلص منه. كما جاء في خبر عن زياد بن أبيه أنه "دخل يوماً ديوانه فوجد فيه كتاباً وفيه: (ثلاثة دنان)، فقال: من كتب هذا؟ فقيل: هذا الفتى فقال: أخرجوه من ديواننا لثلا يفسده، وامح هذا واكتبه: (أدن)"^(١). ومادام الأمر كذلك فلم يكن مستغرباً ما قاله أبو جعفر النحاس: "فكان الكتاب يتذابرون على ما يأخذون من النحولما كان الرؤساء يتضدون هذا منهم"^(٢).

٩ - الحرص على التجويد حتى في غير المهم من الكتب

والهدف من هذا التوجيه أن تكون الجودة مبدأ لا يتسامح الكاتب مع نفسه فيه وأن تكون هي غايته ومتباها في كل ما يكتب مهما كانت درجة أهميته، لأن الكاتب متى ما تهاون في محور الجودة، أو تساهل فيها في كتب لا يراها ذات بال، فإن هذا الداء ربما امتدَّ حتى غلب عليه فصار يميل إلى التهاون حتى مع ما يستلزم درجة رفيعة من الإجاده، ولذا وجب على الكاتب أن يجعل الحرص على التجويد مبدأ لا يحيط عنه مهما كان نوع ما يكتب، ومهما كانت أهميته. يروي أبو هلال العسكري في هذا الإطار موقفاً لأحمد بن يوسف حين أمره المأمون بالكتابة إلى النواحي في الاستثناء من القتليل في المساجد في شهر رمضان، وبرغم أن هذا الموضوع لا يُعد من شؤون الخلافة المهمة المتصلة بالجند أو الخراج أو أرزاق الناس أو غيرها من شؤون الدولة، فإنه -فيما يرويه عن نفسه- ظل يقلب فكره ويستhort ذهنه لكتابة شيء يليق أن يصدر باسم الخليفة حتى فُتح عليه فيه بعد جهد^(٣).

(١) الج هشياري، لوزراء والكتاب، ص. ٢٥. والخ ببرروا ية م خليرة عند الشتريني، تبيه الألباب على فضائل الإعراب، ص ص ١٣١-١٣٠.

(٢) صناعة الكتاب، ص. ٣٦.

(٣) يُنظر: الصناعتين، ص. ٢٢.

١٠- المجانسة بين لغة الكتاب وفَهْمُ المعنيين به

وهذه الوظيفة في الكتابة يجب أن تكون حاضرة في ذهن الكاتب في أسلوب ترتيب قوله، بادية فيما يصدر عنه، لأن مراعاة مقتضى الحال أصل من أصول البلاغة والمعنى بهذا أن يستحضر الكاتب في ذهنه لحظة الكتابة حال من يكتب إليهم فيحدد ما يناسبهم من الألفاظ والمعاني وتركيب الكلام بحسب قدرتهم على الفهم، وتمكّنهم من بلاغة القول. فليس كل المكتوب إليهم على طبقة واحدة من الإدراك، فللافصيح ضرب من الكلام عند الكتابة إليه تبادر ذلك الذي للعامي. قال قدامة بن جعفر في حديث توجيهي للكتاب: "لا يستعمل -[أي الكتاب]- ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع السوقـة، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم، ويـزـنـهـمـ بـوزـنـهـمـ، فقد قيل: لكل مقام مقال"^(١). وقد أكثر العسكري من تأكيد هذه المسألة في مواضع عدّة من كتابة الصناعتين، فقال في أوله: "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم"^(٢)، ثم كرر الإشارة إليها في موضع ثانٍ فقال: "فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقـيـ بكلام السوقـةـ، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام"^(٣) ثم عدّمرة ثلاثة إلى هذه المسألة نفسها مستشهدًا بعمل النبي صلى الله عليه وسلم بها في كتابة فحين كتب إلى أهل فارس جعل الألفاظ في غاية التسهيل ليفهمها من له أدنى علم بالعربية، وحين كتب إلى قوم من العرب فخـمـ الـلـفـظـ^(٤). وانتقل العسكري بعد ذلك إلى مواضع من القرآن الكريم لإبراز تفاوت الآيات بحسب تفاوت المخاطبين، فما يكون خطاباً للعرب والأعراب يـنـيـ علىـ الإـشـارـةـ والـوـحـيـ، وما يكون لبني إسرائيل يأتي ميسوـطاـ

(١) نقد الشر، ص ٩٦.

(٢) الصناعتين، ص ٢٠. وهو بنصه عند الجاحظ، في البيان والتبيّن، ٩٣/١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٤) يـنـظرـ: المصدر السابق، ص ١٥٤-١٥٥.

مكرراً بعد فهمهم وتأخر معرفتهم^{١)}. ولا شك أن تكرار العسكري التأكيد على هذا التوجيه للكاتب دليل على أهميته في صنعة الكتابة، وكونه أحد الأسباب الرئيسية لفهم مضمون الكتاب، ومعلوم^{٢)} أن الكتب لم تدون إلا بقصد الإفهام، ومتى مافات هذا المقصود فقد الكتاب أهميته.

١١- تعلم ما يحتاج إليه من اللغات الأخرى

وهذا التوجيه للكتاب لم يرد -حسب ما وقفت عليه- إلا عند القلقشندي، ربما بسبب تأخر زمانه وانحسار دائرة العربية وتراجعها عن مرتبة الصدارة، واللافت أن القلقشندي يجعل باعثه على هذا القول حواراً قصيراً وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت، ويرغم أن هذا الحوار الذي يستند عليه كان متاحاً لكل من صنف قبله في باب الكتابة إلا أنهم لم يقفوا عنده، ولم يكن باعثاً لأيٌ منهم على حد الكتاب في أزمنتهم على تعلم لغات أخرى، ربما بسبب استغناء الكتاب عن ذلك بفسو^{٣)} العربية وطغيانها على اللغات الأخرى، والحوار المعنى هنا هو سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت: أتحسن السريانية؟ فإنه يأتيني كتب بها، قال: لا، قال: فتعلّمها قال زيد: فتعلّمته في سبعة عشر يوماً، فكنتُ أجيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرأ كتب يهود إذا وردتْ عليه^{٤)}.

ويسوق القلقشندي الدافع الذي يحمل الكتاب على تعلم لغة أخرى بقوله "لایخضي أن الكاتب يحتاج في كماله إلى معرفة لغة الكتب التي ترد عليه لملکه أو أمیره ليفهمها ويجيب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها، فإنه أصون لسر ملکه وأبلغ في بلوغ مقاصده"^{٥)}. إذن فالداعي إلى تعلم لغة أخرى هو حفظ أسرار الدولة، وعدم إشراك طرف ثالث بين الكاتب وال الخليفة في قراءة الكتب الواردة إليه والرد عليها. ومع أن هذا

(١) يُنظر: المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١/١٦٥.

(٣) المصدر السابق، ١/١٦٥.



الهدف هو أصل من أصول أي مملكة، تشتهر في الممالك في زمن القلقشندى وممالك الأزمنة قبله، فإن اذ فراده بحث الكتاب عليها آتٍ -في ما يُرجح- من كثرة الكتب الأغjemية التي كانت تَرُدُّ الدولة العربية في زمانه، وتراجع نفوذ لغة العرب.

١٢- التهيؤ لصعوبة صنعة الكلام

أشار بعض المصنفين إلى هذا الأمر إشارة ضمنية، وساقوا بعض الأخبار عن كتاب مشاهير كانوا يجدون مشقة باللغة عند مباشرتهم الكتابة، حتى ربما لم يفتح لهم باب القول، مع ما هم عليه من التمكّن من العربية والتبحر في علومها، والغاية من إيرادهم هذه الأخبار أن يعلم القاصد إلى الكتابة أنها عمل عسير ربما عجز عنه أهل المختصون به في حالات تعرُّض لهم، وذلك ليتهيأ الكاتب لهذه الصعوبة بما تستلزمها من العدة ويجمع لها ما تتطلبه من الأدوات، ويعلم أن القلم والدواة يطيق حملها الصبي والجليل والمعتوه، أما تخيير اللفظ وانتقاء المعنى ونظم الكلام فلا يقدر عليه إلا فإذا ^{كتب} _{ذلك} بل يتوهّم الكاتب أن كل ما سطرته يده سيكون مقبولاً حتى ولو كان في نظره كذلك بل وحتى لو ^{كَدَّ} خاطره فيه وأتعب فكره لأجله، فللكتابة الأصيلة سمات لا تتحقق إلا بعد المجاهدة والمصايرة وكثرة المران والممارسة، وقد يسعفه ذهنه حيناً، ويضُنْ عليه حيناً آخر، فهذا أبو العباس المبرد العالم الشهير يتحدث عن نفسه قائلاً: "لا يخفى على مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنتور والخطب والرسائل، ولربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان".^(١)

١٣- العناية بصحة الإملاء وسلامة رسم الكلمات والحراف

يبدو أن هذا التوجيه للكتاب نابع مما لمسه المصنفون والغيورون على العربية من ضعف وتردد في لغة الكتاب، ولاسيما بعد أن صارت طريقاً إلى الثراء والحظوة السلطانية فتنافس عليها المتنافسون، وادعى الانتساب إليها أدعية عليها فظهرت آثار الضھف

(١) العسكري، الصناعتين، ص٤١، وبنظر ابن الأثير، المثل السائر، ٨٨٧-٨٩٠.

الإملائي والأخطاء الكتابية، فهذا أبو جعفر النحاس يشتكي من حال بعض كتاب زمله الذين يقعون في أخطاء فاحشة حتى كثُرت لديهم فصارات مألفة بينهم لا يستنكرونها، يقول: ”واصطلحوا على ما لا يجوز، وعلى الخطأ الفاحش“^(١). ويجد عل السبب الرئيس لفساد الأخطاء الإملائية بين الكتاب هو دخول من ليس من أهلها فيها يقول: ”حتى دخل فيهِم من لا يستحقون هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابو من الإعراب الحساب، وبَعْدَ عَلَيْهِم معرفة الهمزة التي ينضمُّ أو ينفتح ما قبلها، أو حرکتها وحرکة ما قبلها.... ولم يفِرِّقوا بين ذوات الياء وذوات الواو ولا بين الواو التي يثبت بعدها ألف وبين الواو التي لا يثبت بعدها ألف...“^(٢).

ولم تكن هذه الملاحظات الإملائية تفوت على بعض الخلفاء، حتى إن بعضهم لم يكن يتسامح فيما يمكن التسامح فيه مما لا يُعد خطأ إملائياً متفقاً عليه، كال الخليفة عمر بن عبد العزيز حين كتب إليه عامله من مصر كتاباً فيه: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بغير سين (بسم)، فأمره بالقدوم عليه، ودفع إليه كتابه وقال: اجعل (بسم) سيناً وارجع إلى مصر^(٣). ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب كاتباً لهذا السبب^(٤).

١٤ - البعد عن السجع

تفاوتت في هذه المسألة آراء المصنفين تفاوتاً بيناً، حتى إنهم لم يختلفوا في شيء اختلافهم فيها، وقد جاء اختلافهم فيها على أربعة آراء: فمنهم من يرفض السجع بالجملة، ومنهم من يقبله بشرط الاقتصاد فيه، ومنهم من يتغصب له ويدعوه إليه ومنهم من يميل إلى تخصيصه في موضوعات وأحوال محددة لا يحسن في سواها.

(١) صناعة الكتاب، ص ٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠-٣١.

(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٢٧٩/٣.

(٤) المصدر السابق، ٢٧٩/٣.



أما القائلون بكراهية السجع كله، فقد علّلوا رأيهم هذا بارتباط السجع بالكهان وأنه أداة من أدواتهم الكتائية، وأن العرب لم تكن تسجع كتبها، وترى ذلك لوناً من التكاليف المذموم، يقول الألوسي: ”وكان من عوائد العرب في كتبهم أيام جاهليتهم إذا كتبوها نثراً لم يتزموا فيها بالسجع بل أرسلوها إرسالاً، والسجع لم يتزمه منهم إلا الكهان.... وذلك لأنهم جبّلوا على الميل إلى السهل من كل شيء، والذفرة من كل متتكلف...“^(١). وهذا القول من الألوسي حتى وإن كان يتعلّق بمرحلة تاريخية متقدمة سابقة لقيام الدول وتأسيس الدواوين في عصور الخلافة الإسلامية إلا أنه يعطي مؤشراً عاماً على نفور العرب عن تضمين هذه الحليمة الكلامية في كتبهم، ربما لأنها تتنافى مع ما يتطلبه الكتاب السلطاني عادة من الحزم والجلال، كما أن ارتباطها بالكهان يعد صارفاً آخر عنها.

ودعا فريق ثانٍ من المصنفين إلى التجوز في السجع، بشرط عدم الإكثار منه وهوؤلاء لم يرفضوه بالجملة، لأنهم رأوا فيه لوناً من التفنن الذي يضفي شيئاً من الحسن على الكتابة، وفي هذا السياق يقول أبو هلال العسكري متحدّثاً عن الرسائل والخطب: ”ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراب وتنافر وتعقيد، وكثير ما يقع ذلك في السجع، وقل ما يسلم إذا طال من استكراب وتنافر“^(٢). إذن فباعت العسكري إلى وضع قيد للسجع هو خشية ما يسوق إليه من التكاليف، وأن تحول المعاني إلى خادمة للألفاظ لا أن تكون الألفاظ هي الخادمة للمعنى، وهذا هو الأصل المتبعة، وممّا انقلب هذا الأصل بان في الكتابة الضعف والاختلال.

ويأتي ابن الأثير بعد قربين من الزمان فيكسر هذا القيد الذي وضعه العسكري داعياً إلى السجع، وحاثاً عليه، ومزرياً على من عابوه أو تحفظوا فيه بأنهم لم يتأملوا المسألة

(١) بلوغ الأربع في معرفة أحوال العرب. ٣٧٦/٢.

(٢) الصناعتين. ص ١٥٩.

جيداً، بل ويصرح بأن موقفهم الرافض له إنما يعود إلى عجزهم عن تركيب جمل مسجوعة، يقول: ”وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى ذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإنما كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى فيه الكثير، حتى إنه ليؤتي بالسورة جميعها مسجوعة، كsurah الرحمن، وsurah القمر، وغيرها.... وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي صلى الله عليه وسلم شيء كثير أيضاً“^(١).

ويجيء القلقشندي بعد هؤلاء جميعاً فينظر إلى قضية السجع من زاوية مختلفة تتعلق بـهوية باعث الكتاب المسجوع، مجيزاً -بأسلوب يوحى بعدم الرضى التام- أن يردد في كتاب الأعلى منزلة إلى الأدنى منه منزلة، ولا يُقبل العكس، ثم يتهم إلى أن الأوفق تخصيصه بموضوعات محددة يُستكره في غيرها، يقول: ”ذكر بعض المتأخرین أن الكتابة بالسجع نقص في حق المكتوب إليه، وقضيته أنه لا يكتب به إلا من الأعلى للأدنى إلا أن الذي جرى عليه مصطلح كتاب الزمان تخصيصه ببعض الكتب دون بعض“^(٢).
والراجح في هذه المسألة، أن كتب السلاطين الصادرة عن ديوان الخليفة لا يليق بها أن تكون مسجوعة، لما يجب فيها من البناء على الجد والحزم، والمحافظة على جلال الملك، والنأي عن الحلي اللفظية والزخارف الكلامية المتكلفة، لتكون في الصدور أهيء وفي الأفتئه أوقع، وللامتنال أقرب، وهذا ما كان يختاره بعض الخلفاء البارزين ويفيدهم عليه العلماء المشهورون، كالجاحظ الذي قال في سياق حديثه في هذه المسألة: ”وقد يكره ذلك أهل المروعة والأنفة، وأهل الاختيار للصواب والصدعن الخطأ حتى إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملأ كتاباً إلى رجل فقال فيه له أهؤن على

(١) المثل السادس، ١٩٥.

(٢) صبح الجمعة، ٦/٧/٣٠.



من ذرَّةٍ، أو كلب من كلاب الحرَّةِ. ثم قال: امْحُ من كلاب الحرَّةِ، واكتُبْ من الكلاب كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع، وأرى أنه ليس في موضعه^(١).

١٥- الحرص على الإيجاز

يتتشر موضع الإيجاز على مساحة واسعة جداً في مصنفات المؤلفين القدماء الموضوقة في باب الكتابة، حتى إنه لم يكدر يهمل الحديث فيه أحدٌ من صنف فيها، وذلك لما أدركوه من كونه أساً في الكتابة الجيدة، وركيزة لا يتم حسن الكلام إلا به وكانت عنايتها اللافتة بهذا الشأن آتية من استقرائهما للمراد عن العرب الأول في كتاباتهم ورسائلهم وخطبهم، وما لمسوه فيها من البناء على الإيجاز، والاستغناء بالإشارة عن التفصيل، والوحي عن البيان، ولذا قال الشرييف المرتضى في صدر حبيه عن هذا الموضوع: "اعلم أن عادة العرب الإيجاز والاختصار والحدف طلباً لتقصير الكلام وأطراخ فضوله والاستغناء بقليله عن كثierre، ويعدون ذلك فصاحة وبلافة"^(٢). ويجعل ابن سنان الخفاجي الإيجاز شرطاً من شروط الفصاحة، ودليلًا على بلاغة المتشنى يقول: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام، حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس"^(٣). ويؤكد الألوسي هذا الأمر مثيراً إلى أن خير كلام العرب ما كان مبنياً على الإيجاز، يقول: "خير الكلام لدى العرب ما أدى المقصود بكماله بلفظ وجيز وعبارة مختصرة، ومدار البلاغة عندهم على ذلك"^(٤). ويقدم أبو جعفر النحاس معياراً يعين الكاتب على قياس مدى حضور الإيجاز في كتابته أو غيابه عنها، يرويه عن ابن المقفع

(١) رسائل الجاحظ. من رسالة: (مدح التجارة ونفع عمل السلطان). ٢٥٣/٤-٢٥٤.

(٢) مالي المرتضى، تحقيق: مح مدأبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت. ١٩٩٨)، نسخة مصورة عن طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٤م. ٢/٢٠٩.

(٣) سر الفصاحة. ص ١٩٧.

(٤) بلوغ الأربع في معرفة أحوال العرب. ٣/٣٧٢.

بقوله في الإيجاز: "وهكذا مذاهب العرب وعاداتهم في العبارة، يميلون إلى أن تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة".^(١)

وتفق التعريفات المختلفة للبلاغة في عدد منها على أن الإيجاز هو أصل البلاغة وعلامتها، فهذا معاوية بن أبي سفيان يسأل صاحر العبد: "ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز".^(٢) ويوضح المفضل الضبي حقيقة الإيجاز - فيما يرويه الجاحظ - بأنه "حذف الفضول وتقريب البعيد".^(٣) ويعرف ابن المقفع البلاغة بأنها الإيجاز.^(٤) وجاء في تعريف البلاغة عن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أنها: "الدلالة بالقليل على الكثير".^(٥) وروى أبو جعفر النحاس أنه قيل لبعضهم: "ما البلاغة؟ قال: لمحنة دالة".^(٦) وفي خبر مروي عن هارون الرشيد تعريف البلاغة بأنها: "الدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى".^(٧)

ولأهمية هذا الأصل في الكتابة فقد أفاد المصنفوون في الحديث فيه، وأكثروا من تأكيده لدرجة قد يفهم منها بأن (الكتاب هي الإيجاز). وإنما كان هذا الاستبطاط بالنظر إلى إلحادهم عليه، وإدراكيهم تأثيره في الكتابة، وهو تأثير لا يصنعه إلا كاتب يمتلك قدرة عالية على إدارة الكلام، ومهارة في تركيبه، وحساً رفيعاً فيربط بعضه ببعض مع الاحتفاظ بوضوح المعنى مع قلة اللفظ، وهذا لا يتأتى إلا للصوفة من الكتاب. ولكون الإيجاز أمراً محموداً فقد حث جعفر بن يحيى كتابه عليه قائلاً لهم: "إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا".^(٨) وروي عن بعض من لهم باع بصنعة الكلام حث

(١) صناعة الكتاب، ص ٢٠٢.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ٩٦/١.

(٣) الجاحظ، المصدر السابق، ٩٧/١. والخبر عند ابن عبد ربه في العقد الفريد، ١٧٩/٤، منسوب إلى أعرابي.

(٤) يُنظر: النحل، صناعة الكتاب، ص ٢٠٢.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٧٩/٤.

(٦) صناعة الكتاب، ص ٢٠٢.

(٧) النحل، صناعة الكتاب، ص ٢٠٣.

(٨) الصولي، أدب الكتاب، ص ١٣٤، والنص عند العسكري في الصناعتين، ص ١٧٣.



على الإيجاز بقولهم في سياق التوجيه: ”لا تنفق كلمتين إذا كفتك كلمة“!^(١) ورأى بعض المصنفين في باب الكتابة أن الإيجاز أكثر عوناً على الفهم من الإسهاب، وذلـك لأنـه يعطيـك قولـاً موجـزاً في لفـظ قـليل فيعـينك على استـجـمـاع الـذـهـن وـتـرـكـيـزـه لاـتـشـتـتـيـته في هـذـرـمـنـ القـوـلـ رـبـماـ استـغـلـقـ معـهـ المعـنـيـ، روـيـ أـبـوـهـلـالـ العـسـكـرـيـ عنـ مـحـمـدـ الـأـمـيـنـ قـوـلـهـ لـلـكـتـابـ: ”عـلـيـكـمـ بـالـإـيجـازـ إـنـ لـهـ إـفـهـاماًـ، ولـلـاحـاطـةـ اـسـتـبـهـاماًـ“.^(٢)

وبسببـ كلـ هـذـهـ المـزـايـاـ فـيـ خـاصـيـةـ الإـيجـازـ فـقـدـ صـارـ أـصـلـاًـ فـيـ الكـتـابـ، وـعـلـمـةـ عـلـىـ بـلـاغـةـ الـكـاتـبـ وـقـدـرـتـهـ الـفـائـقـةـ عـلـىـ إـلـمـسـاكـ بـزـمـامـ الـلـغـةـ وـالـتـحـكـمـ فـيـ صـنـعـةـ الـكـلـامـ، وـكـذـلـكـ إـنـ غـيـابـ الإـيجـازـ عـنـ نـصـوصـ الـكـاتـبـ يـعـدـ مـنـ أـعـظـمـ الـأـدـوـاءـ، وـمـؤـشـرـاًـ عـلـىـ بـلـادـةـ الـكـاتـبـ بـدـلـيلـ قـوـلـ أـبـيـ هـلـالـ العـسـكـرـيـ: ”وـمـاـ تـجـاـوزـ مـقـدـارـ الـحـاجـةـ فـهـوـ فـضـلـ دـاخـلـ فـيـ بـابـ الـهـذـرـ وـالـخـطـلـ، وـهـمـاـ مـنـ أـعـظـمـ أـدـوـاءـ الـكـلـامـ، وـفـيـهـ مـاـ دـالـلـةـ عـلـىـ بـلـادـةـ صـاحـبـ الـصـنـاعـةـ“.^(٣)

١٦ - إيضاح المعنى

وهـذاـ مـنـ أـوـجـبـ مـاـ عـلـىـ الـكـاتـبـ التـزـامـهـ، لـأـنـ الغـاـيـةـ مـنـ كـتـابـتـهـ هـيـ إـلـفـهـلـ وـقـلـ المـعـانـيـ وـبـيـانـ الـأـفـكـارـ، وـمـاـ لـمـ تـتـحـقـقـ هـذـهـ الغـاـيـةـ إـنـ الـكـتـابـ يـفـقـدـ قـيـمـتـهـ، وـيـصـيرـ جـهـداًـ ضـائـعـاًـ، وـعـمـلـاًـ لـاـ نـفـعـ يـرـجـىـ مـنـ وـرـائـهـ، بلـ رـبـماـ كـانـ عـدـمـ إـرـسـالـهـ بـهـذـهـ الصـورـةـ أـولـىـ، لـمـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـنـتـجـ عـنـهـ مـنـ إـجـهـادـ الـقـارـئـ، وـاـزـدـرـاءـ الـمـرـسـلـ، وـلـهـذـاـ شـدـدـ الـمـصـنـفـوـنـ فـيـ بـلـاغـةـ الـكـتـابـ عـلـىـ وـجـوبـ تـحـريـ وـضـوحـ الـمـعـنـىـ وـعـدـواـ ذـلـكـ شـرـطاًـ لـفـصـاحـةـ الـكـاتـبـ وـبـلـاغـةـ كـتـابـتـهـ، قـالـ أـبـنـ سـنـانـ الـخـفـاجـيـ: ”وـمـنـ شـرـوـطـ الـفـصـاحـةـ وـبـلـاغـةـ أـنـ يـكـونـ الـكـلـامـ وـاضـحاًـ ظـاهـراًـ جـلـيـاًـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ فـكـرـ فـيـ اـسـتـخـراـجـهـ، وـتـأـمـلـ لـفـهـمـهـ“^(٤)، وـيـتـضـحـ تـأـكـيدـ أـبـنـ سـنـانـ

(١) الصولي، المصدر السابق، ص. ٢٣٠.

(٢) الصناعتين، ص. ١٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص. ١٧٣.

(٤) سر الفصاحة، ص. ٢٢.

على هذه السمة في الكلام بإيراده ثلاثة ألفاظ متالية في معنى واحد: (واضحًا ظاهراً جلياً) يُعلم قدر أهمية الوضوح في الكلام في نظره، وهو العالم العارف بأصول صنعة الكلام وما يجب تحريه فيه.

وإذا كان ابن سنان قد جعل الوضوح شرطًا للفطاحة فإن قدامة بن جعفر قد جعل الكلام الواضح هو أوضح الكلام، يقول: "أفح الشكل ما أفح عن معانيه، ولم يحوج السامع إلى تفسير له"^(١)!. ويؤكد أبو هلال العسكري على صفة الوضوح في الكلام فينعت ما عري من هذه السمة بأنه كلام مقصري، يقول: "والمقصر من الكلام ما ليس به معناه عند سماعك إياه، ويحوجه إلى شرح"^(٢)، ومن هذين النصين يتجلّى أن معيار الوضوح في الكلام هو استغناء قارئه عن السؤال عن معناه، وعدم حاجته إلى إجهاض ذهنه لفهمه أو تكرار النظر فيه لاستجلاء المراد منه، ومتى ما كان إلى الفهم أسرع كان إلى الفطاحة أقرب.

وحتى لا يُفهم من كلام المصيّفين في الدعوة إلى الوضوح بلْه حثّ للكاتب على المبالغة في التبسيط في القول والانحدار بطبقية الكلام إلى حد ما يتشارفه به الناس في مجالسهم وأوساقهم فقد نبهوا على أمر مهم في هذا السياق وهو أن دعوتهم إلى إيضاح المعنى لا تتضمن دعوة إلى التسامح في مستوى الكلام، بل يجب أن يكون مع وضوحيه وقرب معناه محافظًا على جلال الكتاب، عاكساً صورة جيدة عن لغة الكاتب وبلامته، ولذا نص قدامة بن جعفر في سياق حديثه في هذا الباب على ألا يكون الكلام "ساقطًا" ولا لألفاظ العامة مشابهًا^(٣)!. ويعبر أبو هلال العسكري عن هذا القيد في اشتراط وضوح الكلام بما نصه: "وأما الجزل والمختار من الكلام فهو الذي تعرفه العلامة

(١) نقد الترش، ص ٥٠١.

(٢) الصناعتين، ص ٣٦.

(٣) نقد الترش، ص ٥١٠.



إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها”^(١)، أي أن يكون الكلام مفهوماً، ومعناه واضحًا ولغته غير مستخدمة، وتركيبه غير مبتذل، والجمع بين هذين الطرفين لا يتأتى إلا للمهرة من الكتاب كعمرو بن مساعدة الذي يقول فيه الفضل بن سهل فيما يروى أبو هلال العسكري: ”هو أبلغ الناس، ومن بлагته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتابه، فإذا رأمه تعذر عليه“^(٢)، وإنما يتوهם الناس سهولتها بسبب وضوح معناها وسهولة تركيبها، هذا ما يظهر على سطحها، إلا أنها في العمق مربوطة ربطة مخصوصاً لا يطيق فك أسرارها والإتيان بمثلها إلا من هو على شاكلة كاتبها في مستوى القدرة على التحكم في صنعة الكلام ومهارة تركيبه.

والذي يبدو من مؤلفات المصنفين أن طائفة من الكتاب استحسنوا استغلاق المعنى، ورأوا أن في التعمية شكلاً من أشكال التعامل، وأن الكلام إذا كان واضحاً جلياً دلّ على ضعف آلة الكاتب وقصور أدواته، وأمام هذه الفتنة من الكتاب وقف بعض العلماء للتنبيه على خطأ مسلكهم انطلاقاً من فكرة محورية هي أن الغاية من الكلام الإفهام، ومتى ما تعسر الطريق إلى هذه الغاية فقدَ الكتاب قيمته، ولذا كانت تعليقات المصنفين على أصحاب هذه الطائفة وشيعتها لا تخلو من حدة وازدراء، يقول أبو هلال العسكري: ”وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكراً.... ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبًا، وأعز مطلبًا، وهو أحسن موقعًا، وأعذب مستمِعاً“^(٣).

ويقف ابن الأثير عند أصحاب هذه الطائفة فينعتهم بأنهم من (مدّعي صنعة الكتابة) أي أنهم دخلاء عليها لا من أهلها الأصليين، وما داموا كذلك فإن اتجاههم نحو الاستغلاق والتعمية اتجاه شاذ لا يُلتفت إليه، يقول: ”وقد رأيت جماعة من مدّعي هذه

(١) الصناعتين، ص ٦٤-٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٠.

الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه، ويعد متناوله.... وهو بالضد من ذلك لأن الفصاحة هي الظهور والبيان، لا الغموض والخفاء^(١). وبهذا يتأكد أن الكتابة كلما كانت واضحة المعنى، بقى المراد، ذات الفاظ سهلة مألوفة غير مستخدمة محققة لمفهوم السهل الممتنع، كانت موصوفة بالفصاحة، شاهدة لكتابها بالبلاغة.

١٧ - التحرز من الحشو

الخشو في الكلام واحد من العيوب التي نبه إليها علماء البلاغة وصنعة الكلام، ودعوا الكاتب إلى إطالة التأمل في كتابته بحثاً عن مواضع الحشو فيها وإقصاؤها وتعريف ابن سنان الخفاجي الحشو بأنه: "لفظ يتميز عن الكلام بأنه إذا حُذف منه بقى المعنى على حاله"^(٢). وكان تركيز بعض المصنفين على هذا الأمر آثراً من حرصهم على تحقيق فضيلة إيجاز الكلام والاستغناء بما يمكن الاستغناء عنه، ولكون الحشويورث ثقلاً في الكلام، وإرهاقاً للقارئ، وإشغالاً للكتابة بما هي مستغنية عنه، فقد حذر المصنفون من الحشو، وهو الذي يسميه أبو هلال العسكري: فضول الكلام، يقول: "حذف فضول الكلام هو أن يُسقط من الكلام ما يكون الكلام مع إسقاطه تماماً غير منقوص، ولا يكون في زيادته فائدة"^(٣). ويتميز أبو هلال العسكري عن كل من تطرق لهذا الموضوع وغيره من موضوعات الكتابة بإيراده الأمثلة على القواعد التي يسوقها، وهي امرتَد عند أحد غيره بمستوى ما وردت عنده من حيث الكثرة والتنوع، وتحت هذه القاعدة الكلية أورد المثال التالي: "روي عن معاوية أنه قال لصحابي العبد: ما البلاغة؟ فقال: أن تقول فلا تخطر، وتسرع فلا تبطئ، ثم قال: أقلني، هو ألا تخطئ ولا تبطئ، فألقى اللفظتين لأن في الذي أبقى غنى عنهما، وعوضاً منهما"^(٤).

(١) المثل السادس، ١٧٢/١.

(٢) سر الفصاحة، ص ٢١.

(٣) الصناعتين، ص ٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٢.

١٨- درك التفاصح وغريب الألفاظ

كره المصنفوون لكتاب الميل إلى هذا المنحى، وعدوه مخالفًا للغاية التي تُشنّأ الكتب لأجلها وهي الإفهام، لأن التظاهر بامتلاك مجموعة من الألفاظ العربية المهجورة واستخدامها في الكتابة دليل على جهل الكاتب بأصول الصناعة وقصور علمه عن سمات الكلام الفصيح ودرجة الكاتب البليغ. قال ابن قتيبة في سياق حديثه عما يجب على الكاتب امتثال له ليرتقي ب شأن كتابته: ”ونستحب له أن يدع في كلامه التفعير والتفعيب، كقول يحيى بن يعمر لرجل خاصمته امرأً له: (إِنْ سَأَلْتُكَ ثُمَنْ شَكْرُهَا وشَبَرُكَ أَنْشَأْتَ تَطْلُّهَا وَتَضْهَلُهَا)، وكقول عيسى بن عمر ويوسف بن عمر بن هيرة يضربه بالسياط: (وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ إِلَّا أُثِيَّبَاً فِي أُسِيفَاطِ قَبْضَهَا عَشَّارُوكَ)“^(١). ثم يعلق ابن قتيبة على مثل هذا التفاصح واستخدام وحشني الألفاظ تعليقاً دالاً بقوله: ”فَهَذَا وَأَشْبَاهُهُ كَانَ يُسْتَقْلُلُ وَالْأَدْبُ غَضْ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ، وَأَهْلُهُ يَتَحَلَّوْنَ فِيهِ بِالْفَصَاحَةِ، وَيَتَنَافَسُونَ فِي الْعِلْمِ ... فَكَيْفَ بِهِ الْيَوْمُ مَعَ انْقْلَابِ الْحَالِ؟“^(٢).

وقد يكون استغلاق الألفاظ غير آتٍ من غرابةها وقلة استخدامها. بل من الكتابة بها إلى قوم لم يألفوها إما بسبب عامل المكان أو عامل الثقافة بمعنى أن تكون الألفاظ التي يستخدمها الكاتب مألوفة عنده وعند قومه، إلا أنها غريبة غير مفهومة عند أهل النواحي الأخرى. وكذلك فقد يكون إغفال الكاتب مراعاة قدرة المكتوب عليهم على إدراك معاني الألفاظ سبيلاً في عدم اختياره الألفاظ المناسبة. وقد عد أبو هلال العسكري الوقوع في هذا الأمر دليلاً على سوء الرأي وقلة العقل يقول: ”وَرِبَّمَا لَغَبَ سُوءُ الرأي وَقَلَةُ العَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فِي خَاطِبِيُّونَ السُّوقِيِّ وَالْمَمْلُوكِ وَالْأَعْجَمِيِّ بِالْأَفْلَاظِ أَهْلِ نَجْدٍ وَمَعْانِي أَهْلِ السَّرَّةِ“^(٣). ثم ساق أمثلة على ذلك.

(١) أدب الكاتب، ص ص ١٢-١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

(٣) الصناعتين، ص ٢٧.

وكانت حدة بعض المصنفين التي تصل بهم أحياناً إلى رمي الكاتب بـ(سوء الرأي وقلة العقل) عند حديثهم عن هذا الأمر آتية من تمسّكهم بمبدأ أن الكتاب وعلم ناقل للأفكار التي يجب أن تُقدَّم بصورة واضحة لا تجهد القارئ، أما حين تحرّف بالكاتب هذه الغاية إلى غايات أخرى ربما تكون ذاتية كالظهور بالعلم ولفت الانتباه إلى وفرة المعجم اللفظي لديه فإنه لا يجد من أهل زمانه وعلماء عصره إلا الاستهجان واتهام الرأي، حتى ولو كان معروفاً بالمهارة في الكتابة وسعة العلم باللغة، ويقى هذاعيًّا فيه لا يكمل حسنه إلا بالبراءة منه، كرجل لم يسمّه ابن قتيبة - كان يميل إلى غريب الألفاظ مع براعة لديه في اللغة، يقول فيه: "كان هذا الرجل قد أدرك صدرًا من الزمان وأعطي بسطة في العلم واللسان، وكان لا يُشان في كتابته إلا بتركه سهل الألفاظ ومستعمل المعاني"^(١). وروى النحاس أن إبراهيم بن المهدى كتب إلى بعض كتابه بعد أن رأه يتبع حوشى الكلام وغريبه: "إياك والتتبع لحوشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك العِيِّ الأكبر"^(٢).

١٩ - التأكيد من تمسك مقاطع الكتاب وجمله

والتمسك المعنى هنا يتناول ناحيتين: الأولى تمسك المقاطع أي أن يكون كل مقطع من الكتاب في موضعه الصحيح بأن يكون ما بعده مبنياً عليه، مؤدياً إليه، ليكون الكتاب كالجسد ومقاطعه كالأطراف في ترتيبها واستواء تناسقها وعدم القدرة على تحويل موضع بعضها إلى موضع بعض، وهذه الصفة في الكتابة تتطلب خروج الكاتب من أسر الجمل والمقاطع إلى استشراف الكتاب قطعة واحدة ليختبر مدى توفر هذه الناحية فيه. ولإدراك بعض العلماء بصنعة الكتابة عسر هذه الصفة فقد جعلوها شرطاً لإطلاق

(١) أدب الكاتب، ص ١٤.

(٢) صناعة الكتاب، ص ٢١٣.

وصف الكاتب على المشتغل في الكتابة، يقول ابن عبد ربّه: ”ولَا يَكُونُ الْكَاتِبُ كَاتِبًا حَتَّى لا يُسْتَطِعَ أَحَدٌ تَأْخِيرَ أَوْلَ كَتَابَهُ وَتَقْدِيمَ آخِرَه“^(١).

أما الناحية الأخرى لتماسك الكتاب فهي تلك التي تكون في الجمل بتفقد الكاتب حسن ترتيب مكوناتها الصغرى وهي الألفاظ. ليكون كل لفظ في موضعه الصحيح، لا يزاحم ما قبله، ولا يعتدي على ما بعده، وإذا لم يتفقد الكاتب ذلك في كتابه فإن ذلك سيؤدي لامحالة إلى استغلاق معنى الجملة بسبب اضطراب مواضع ألفاظها يقول أبو هلال العسكري: ”يُنْبَغِي أَنْ يَجْنُبَ الْكَاتِبُ جَمِيعَ مَا يُكَسِّبُ الْكَلامَ تَعْمِيَةً فَيَرْتَبُ أَلْفَاظَهُ تَرْتِيَّا صَحِيحًا، وَيَجْنُبُ السَّقِيمَ مِنْهُ، وَهُوَ مِثْلُ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: (الفلان - ولِي بِهِ حُرْمَةٌ - مُظْلَمَةٌ) وَكَانَ يُنْبَغِي أَنْ يَقُولَ: (الفلان - وَأَنَا أَرْعَى حَرْمَتِهِ - مُظْلَمَةٌ) وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرِي مِنْ التَّرْتِيبِ الْمُخْتَارِ الْبَعِيدِ مِنِ الإِشْكَالِ“^(٢).

١٩- جَعْلُ الْكَلامِ مِنْصَبًا سَلْسَلًا دُونَ اسْتِكْرَاهٍ

دعا علماء صنعة الكلام جماعة الكُتَّاب إلى الحذر من اعتساف الكلام، واغتصاب الجمل والألفاظ اغتصاباً، وحثّوهم على جعل الكلام يتدفق تدفقاً سهلاً حتى لا يكون كَزْأاً غليظاً، ولا ثقيلاً مستكرهاً، وقربوا مفهوم السهولة التي يعنونها بصورة السبيل في جريانه، والمطر في انصبابه، قال أبو هلال العسكري: ”إِنَّمَا يَرُوقُ الْكَلامَ إِذَا جَرَى جَرِيَانُ السُّبْلِ، وَانْصَبَّ انْصَبَّ الْقَطْرِ“^(٣). وإنما كان باعث المصنفين إلى حيث الكُتَّاب على تسهيل تدفق الكلام لما علموه من أن التعمق في تطلّبه وإجحela الفكـرـ في استخراجـهـ يؤدي إلى عسر فهمـهـ وثقل تركـيبـهـ، وربـماـ تـداخـلـ بعضـهـ في بعضـ، فـغـابتـ الحـلاـوةـ والـرـونـقـ عـنـهـ، وهذا ما أكدـهـ أبو هـلالـ العـسـكريـ أيـضاـ في مـوـضـعـ آخرـ بـقولـهـ: ”وَالْكَلامُ إِذَا خَرَجَ فِي غَيْرِ تَكْلُفٍ وَكَدْ وَشَدَّةِ تَفْكُرٍ وَتَعْمَلٍ كَانَ سَلْسَلًا سَهْلًا وَكَانَ لَهُ“

(١) العقد الفريد، ٤/٦٤.

(٢) الصناعتين، ص. ٣٥.

(٣) الصناعتين، ص. ٤٣.

ماء ورواق ورقراق، وعليه فرنز لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه^(١)!
وبلغ من حماسة ابن عبد ربه لهذه السمة في الكلام أن جعل المقتدر عليها
مستحفاً لاسم الكتابة، وأهلاً لوصف البلاغة. يقول: ”فأما الكاتب المستحق اسم
الكتابة، والبلigh المحکوم له بالبلاغة من إذا حاول صيغة كتاب سالت عن قلمه عيون
الكلام من ينابيعها، وظهرت من معادنها، وبدرت من مواطنها، من غير استكراه ولا
اغتصاب“^(٢).

٢٠ - الاستغناء عما يُعرف بالضرورات الشعرية

كان من عظيم عناية المصنفين في باب الكتابة بكمال النصوص المكتوبة أنهم
نبهوا الكتّاب على أن حال الكتابة مباین لحال النظم، فما يَجْوَزُ به الشعراً من
الضرورات كالحذف، وصرف ما لا ينصرف، والتقدیم والتأخير، وغيرها، لا يجوز أن يتذرع به
الكتّاب لاختلاف الطبيعة البنائية بين هذين الضربين من الكلام، ولذا قال ابن عبد ربه: ”لا
يجوز أيضًا في الرسائل والبلاغات المشهورة ما يجوز في الأشعار الموزونة لأن الشاعر
مضطر، والشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي“^(١). وبسبب هذه القيود الشعرية جاز
للشاعر ما لا يجوز للكاتب، لأن الكاتب لا يصارع وزناً ولا قافية في قوله الكلامية ومادم
الأمر كذلك فيجب عليه الالتزام بالأصل النحووي والأسلوبوي في الكتابة، وعدم الأخذ
بالرخص، ولا سيما أنها تعد كسرًا للقواعد، وعيّاً في الكلام لا يحسن من الكاتب.

٢١ - المجانسة بين الجملة وسياقها

يُعدُّ الكاتب في صنعته الكلامية كاظم الجوهر الذي يتحرّى وضع كل جوهرة بجوار
ما يناسبها في اللون والصورة، ومتى ما تناقض عِقد الكلام كان الكاتب محسنًا، وبقدر
تنافره يكون مقصراً، على أن تنافر الكلام في لفظه ومعناه قد يبلغ ما يلجه عِقد الجوهر

(١) المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٢) العقد الفريد، ٤/٦٥.

(٣) المصدر السابق، ٤/١٧٤.



أحياناً من القبح فيبشع العين وتشمئز منه النفس. هذه الناحية المهمة في بناء الكتابة نبه إليها علماء صنعة الكلام فدعوا إلى المجانسة بين المعاني والتأكد من اجتماعها في نسق واحد بلا شذوذ ولا تضاد. وفي هذا السياق قال ابن عبد ربهم وجهاً من يعمل في صنعة الكتابة: ”ضع كل معنى في موضع يليق به، وتحير لكل لفظة معنى يشاكلاها، ول يكن ما تختتم به فصولك في موضع ذكر البلوى بمثل: (نسأل الله دفع المحذور، وصرف المكروره)، وأشباه هذا، وفي موضع ذكر المصيبة: (إنا لله وإنا إليه راجعون). وفي موضع ذكر النعمة: (الحمد لله خالصاً والشكر لله واجباً)، فإن هذه المواقع يجب على الكاتب أن يتقدّم بها ويتحفظ فيها“^(١). وتعرض ابن قتيبة إلى هذه السمة الدقيقة في الكتابة مورداً فيها مثلاً طريفاً يقول فيه: ”وربما صدر الكاتب كتابه بـ(أكرمك الله) وـ(أبقاك) فإذا توسيط كتابه، وعد على المكتوب إليه ذنوباً له، قال: (فلعنك الله وأخزاك) فكيف يكرمه الله ويلعنه ويحرزه في حال؟ وكيف يجمع بين هذين في كتاب؟“^(٢).

ومما يجب على الكاتب الملزّم بهذا المبدأ أن يفحص كتابه من جهتين: الأولى هي الجهة الداخلية المتصلة ببناء الجمل وانتقاء الألفاظ. والجهة الأخرى هي الجهة الخارجية التي يقيس فيها مدى اتزان كتابه وتجانسه، وتلاؤم مكوناته، وانصبابها في بحر واحد، وهذه النظرة الفاحصة يجعلها ابن عبد ربّه إحدى الشروط التي تمنع المشتغل في الكتابة وصف الكتاب، يقول: ”فإن الكاتب إنما يصير كتاباً لأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلق كل لفظة على طبقتها من المعنى“^(٣).

(١) المصدر السابق، ١٧٤/٤.

(٢) أدب الكاتب، ص ١٥.

(٣) العقد الفريد، ٤، ١٧٤/٤.

٢٢ - تَرْكُ النَّقْدِ وَالْعَتَابِ

هذه ناحية بالغة الدقة في الكتابة، شديدة الأهمية والحساسية أيضًا، ولم أجده من أشار إليها سوى أبي هلال العسكري في سياق تفسيره تعريفاً للبلاغة في قول يرويه عن محمد بن علي رضي الله عنهما، يقول: "البلاغة قول مُفْقَهٍ في لطف"، ثم يفسر اللطيف من الكلام بأنه: "ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجة، فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب، من غير أن تهيجه وتقلقه، وتستدعي غضبه، وتستثير حفيظته"^(١). وهذا القول من العسكري ربما يكون متوجهاً إلى الرسائل الإخوانية أكثر من اتصاله بالرسائل السلطانية، إلا أن كاتب السلطان يجب أن يكون ملماً بهذه السمة في الكتابة لاحتمال حاجة السلطان إلى عتاب عامل له، أو قائد جند، أو من له علم أو قدراً أو وجاهة تجعل مؤاخذة السلطان إياه تأخذ طريقاً مغايراً لا يسلكه عادة في عتاب من سواهم، هذا مع التنبيه على أن أمور المملكة قد تستدعي أحياناً حزماً وشدداً في مواقف معينة لا تراعي منزلة الطرف الآخر، وعلى أي حال فإن على الكاتب أن يكون مستعداً للكتابة في كل مشارب القول وطبقات الكلام، ومنها العتاب الذي كلما بَعَدَ به عن الانفعال وتجرح المكتوب إليه كان أدعى للاستجابة لما فيه والامتثال لرغبة المرسل

٢٣ - ربط المعاني بعضها ببعض

وهذه السمة في الكتابة مختلفة عن السمة السابقة التي تتحدث عن التماسك فهناك كان الحديث عن ضرورة أن يكون كل معنى في موضعه، لا يمكن تقديمها ولا تأخيره، أما هنا فإن المراد هو أن يحرص الكاتب على أن يجعل معانيه متراابطة، ينشد بعضها إلى بعض، وذلك بأن يجعل خروجه من معنى إلى معنى أو من مقطع إلى آخر برابطة تصل الكلامين ببعضهما، وقد جعل ابن الأثير هذه السمة في الكتابة ركاماً من أركان خمسة لا بد من وجودها في كل كتاب، وعبر عنها بقوله: "أن يكون خروج

(١) الصناعتين، ص ٥٤.



الكاتب من معنى إلى معنى برابطة، لتكون رقاب المعاني آخذة ببعضها بعض^(١) والغلية من هذه السمة في الكتاب هي إبعاد الفراغات عن مقاطع الكتاب ومعانيه وعدم إشعار القارئ مع كل مقطع جديد أو معنى مستحدث بألا صلة له بما قبله، فهذا عيب في الكتابة وأخذ على الكاتب يجب أن يتقدّم فيما يكتب.

٤٤ - إجلال المكتوب إليه بحسب منزلته

ينبغي على الكاتب ألا يجعل لغة كتابته إلى الناس جميعاً واحدة في أسلوبها وألفاظها، بل يجب عليه استحضار صفة من يكتب إليه، والنظر في مقدار منزلته ليمنحه ما يستحق من التوقير والاحترام والتلطف، وهذه الناحية حساسة جداً، وربما غابت عن ذهن الكاتب، إلا أنها لا تغيب إطلاقاً عن ذهن المكتوب إليه إذا كان من ذوي الرياسة والشرف، فهو لاء يحبون دائمًا اعتبار منزالتهم عند الكتابة إليهم، ولا يرضون عنمن لا يمنحهم ما يستحقون من المهابة والإجلال. روى الثعالبي في هذا السياق خبراً يوضح شيئاً من شدة اعتبار السلاطين لأنفسهم، وهو وإن كان غير متصل بشأن الكاتبة إلا أنه مناسب في هذا السياق، يقول فيه إن "الفيلض بن صالح دخل على الرشيد فمدّ يده إليه ليقبلها فلم ينكب عليها ورفعها إلى فيه فقبلها، فقال الرشيد: لولا حُمْقَه لقلتَه"^(٢) ففي هذا الخبر تأكيد على أن السلاطين والوجهاء لا يتسامحون مع من يعاملهم بأقل مما تفرضه منازلهم، فإذا عرف الكاتب ذلك وجب عليه اعتباره فيما يكتب فجعل ألفاظه ومعانيه وتراثيه ناطقة بمنزلة المكتوب إليه إجلالاً وتوقيراً له. جاء عند ابن ربه "خاطب كلّاً على قدر أبهته وجلاله، وعلو ارتفاعه"^(٣).

(١) المثل السادس، ٨٧/١.

(٢) أدب الملوك، ص ٢٣.

(٣) العقد الفريد، ٤، ١٧٠/٤.

٢٥ - تضمين الكتاب شيئاً من القرآن أو السنة

انفرد ابن الأثير بين كل من صنفوا في الكتابة بإيراد هذا الأمر، وجعله صفة للكتابة الجيدة، بل إنه عده ركناً من أركان الكتابة^(١). ولم يشترط أن يكون المقتبس من القرآن أو السنة مأخوذاً بنصه، بل يكفي إيراده بمعناه. وتأتي دعوة ابن الأثير إلى هذا الاقتباس لكون القرآن والسنة هما معدن الفطاحة وعنوان البلاغة، إذ يشتملان على أفتح الألفاظ، وأقوى المعاني، وأجلز التراكيب، الأمر الذي يجعل ورود شيء منهما بنصه أو معناه في كتابة المنشئ قوة لكتابه، وجمالاً له، وتفخيمًا ل شأنه، ولا سيما أن هذين المصدرين قد اتفق الناس على قبولهما، والتسليم بما فيهما. كما أن لهم عملاً كعمل السحر في نفس القارئ إذا ما أريد حمله على فعل أمر ما، أو ثنيه عنه، ولذا كانا خيراً يمكن أن يُضمِّنه الكاتب في كتابته، مع مراعاة أن يكون ذلك التضمين مستدعاً استدعاءً مقبولاً بانسجامه مع موضوع الكتاب، لا مفهوماً عليه، أو مكرهاً فيه.

٢٦ - إحسان سبك الكلام وإجاده تركيبه

إن امتلاك رصيد لغوي والقدرة على الموازنة بين الألفاظ ليست إلا مرحلة من مراحل إنتاج النص المكتوب، تتلوها مرحلة أشق هي وضع الألفاظ بجوار ما يشكله، ونظم الألفاظ في عقد واحد بلا تناقض بينها. ولا شك أن للنظم صعوبة لا يدركها إلا من على هم الكتابة كابن الأثير الذي يعد أحد أعلام صنعة الكلام، يقول: "واعلم أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفراداتها، لأن التركيب أصعب وأشق الآتى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضلية التركيب"^(٢). وبرغم وضوح هذا الأمر لكل من اشتغل في الكتابة، ومعاناة عسره ومشقته، يفاجئنا أبو هلال العسكري وهو من هو في شأن الكتابة وفنونها، بقوله: "فمدار البلاغة على تميز اللفظ وتحييره

(١) يُنظر: المثل السائر، ٨٩/١.

(٢) المصدر السابق، ١٥١/١.

أصعب من جمده وتأليفه^(١) ولا شك أن الأمر على خلاف ذلك، وما اختاره ابن الأثير أصوب.

٢٧ - التدقيق في اختيار الألفاظ

الألفاظ هي مفاتيح الكلام، وبقدر ما يمتلك الكاتب منها يكون تحليله في فضاء الكتابة، وتشتد قوته في الإمساك بزمامها، وتتفتح أمامه مشارب متعددة للاقوف، وتطاوله نفسه عند العزم على الكتابة في أي موضوع يختاره، وبمقدار ثرائه اللغوي تكون قدرته على التعبير، ولذا قال القلقشندي: "لامرية في أن اللغة هي رأس مال الكاتب، وأس كلامه، وكنز إنفاقه، من حيث إن الألفاظ قوالب للمعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة إذ المعاني وإن كانت كامنة في نفس المعبر عنها فإنما يقوى على إبرازها وإبانتها من توفر حظه من الألفاظ"^(٢). ومن هذا القول يُفهم أن الوفرة اللفظية هي أحد أهم شروط الكاتب، وهي المداد التي لا غنى لقلمه عنها.

ومما يُلحظ في كتب المصنفين في باب الكتابة أنهم لم يتوقفوا طويلاً عند أهمية الألفاظ للكاتب، وضرورة احتواء ذهنه على رصيد جيد منها، بسبب كون هذا الأمر معلوماً بالضرورة، ولا يحتاج إلى التوقف عنده، ولذا تجاوزوا هذه المسألة إلى مسألة أهم وهي الشروط الواجبة في الألفاظ ليتحقق فيها مفهوم الفحاحة، وقد تقدم القول في شيء من هذا الأمر أبرزه ألا يكون اللفظ وحشياً، ولا عامياً مبتذلاً، بل بين المنزليتين، يفهمه العامي، ولا يسترذله المتعلم.

ومن أول ما يجب على الكاتب في هذا الشأن التحري في اختيار لفظه، والبالغة في تقليل النظر فيه، وعدم التسامح في ذلك أو توهم أن قصور الألفاظ سيجبره كمال المعنى، لأن اللفظ هو لباس المعنى، وإنما تتجلى البراعة في حسن اختياره قال أبوهلال العسكري: "وليس الشأن في إيراد المعنى، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي

(١) الصناعتين، ص ٢٣.

(٢) صح الأعشى، ١٥٠/١.

والبدوي. وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنـه وبهـائه ونـاهـته ونـقـائـه وكـثـرة طـلاـوـته ومـائـه، مع صـحة السـبـك والـتـرـكـيـب...^(١). ويـعـد خـلـقـ التـجـانـس بـيـن الـلـفـظـ والمـعـنـى من نـاحـيـة الـجـوـدةـ والـجـمـالـ شـرـطـ لـفـصـاحـةـ الـكـاتـبـ وـبـلـاغـةـ الـكـاتـبـ، وـهـذـا يـتـطـلـبـ مـنـ صـانـعـ الـكـاتـبـ أـنـ يـبـذـلـ جـهـداًـ مـتـسـاوـياًـ فـيـ اـخـتـيـارـ الـلـفـظـ وـالـمـعـنـىـ، وـأـنـ يـعـلـمـ أـنـ تـقـصـيرـهـ فـيـ أـحـدـ هـذـيـنـ الـطـرـفـيـنـ إـخـلـالـ بـالـكـاتـبـ وـإـطـفـاءـ لـبـرـيقـهـ، وـفـيـ هـذـاـ السـيـاقـ يـقـولـ اـبـنـ عـبـرـيـهـ "وـإـذـاـ لمـ يـنـهـضـ بـالـمـعـنـىـ الشـرـيفـ الـجـزـلـ لـفـظـ شـرـيفـ جـزـلـ لـمـ تـكـنـ الـعـبـارـةـ وـاضـحةـ وـلـاـنـظـلـمـ مـتـسـدـقاًـ وـتـضـاؤـلـ الـمـعـنـىـ الـحـسـنـ تـحـتـ الـلـفـظـ الـقـبـيـحـ كـتـضـاؤـلـ الـحـسـنـاءـ فـيـ الـأـطـمـارـ الرـثـةـ"^(٢). ويـؤـكـدـ أـبـوـهـلـالـ الـعـسـكـريـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ مـشـيرـاًـ إـلـىـ أـنـ الـلـفـظـ الرـدـيـ عـيـسـيـ بـنـ فـورـ القـارـئـ مـنـ الـكـلامـ حـتـىـ وـلـوـ حـمـلـ ذـلـكـ الـلـفـظـ أـجـمـلـ الـمـعـانـيـ وـأـرـفـعـهـاـ^(٣).

وـقـدـ نـظـرـ الـعـلـمـاءـ بـصـنـعـةـ الـكـلامـ إـلـىـ مـسـأـلـةـ التـجـانـسـ بـيـنـ الـلـفـظـ وـالـمـعـنـىـ مـنـ زـاوـيـةـ مـهـمـةـ هـيـ إـحـدـاـثـ التـأـثـيرـ المـرـجـوـ منـ الـكـاتـبـ فـيـ نـفـسـ الـمـكـتـوبـ إـلـيـهـ، وـحـيـثـ كـانـ التـجـانـسـ ذـاـ وـقـعـ حـسـنـ فـيـ نـفـسـ وـتـأـثـيرـ فـيـ الـفـؤـادـ فـقـدـ أـكـدـوـهـ وـدـعـواـ الـكـتابـ إـلـىـ ضـرـورةـ تـفـقـدـهـ فـيـ كـتـبـهـمـ، فـهـذـاـ الـجـاحـظـ يـشـيـبـ تـأـثـيرـ الـكـاتـبـ الـمـتـجـانـسـ لـفـظـاًـ وـمـعـنـىـ، الـمـتـسـمـ بـالـسـهـوـلـةـ وـالـحـلـوـةـ، بـتـأـثـيرـ الـمـاءـ فـيـ التـرـبـةـ الـخـصـبـةـ، يـقـولـ: "إـذـاـ كـانـ الـمـعـنـىـ شـرـيفـاًـ، وـالـلـفـظـ بـلـيـغاًـ، وـكـانـ صـحـيـحـ الـطـبـعـ بـعـيـداًـ عـنـ الـاسـتـكـراـهـ، وـمـنـزـهاًـ عـنـ الـاـخـتـالـلـ، مـصـوـنـاًـ عـنـ التـكـافـلـ، صـنـعـ فـيـ الـقـلـوبـ صـنـعـ الغـيـثـ فـيـ التـرـبـةـ الـكـرـيمـةـ"^(٤).

وـمـاـ اـشـتـرـطـ الـعـلـمـاءـ فـيـ الـلـفـظـ أـلـاـ يـكـونـ مـشـترـكـاًـ بـيـنـ مـعـنـيـيـنـ فـيـسـبـ حـيـرـةـ الـقـارـئـ وـاـضـطـرـابـاًـ فـيـ فـهـمـ مـرـادـ الـكـاتـبـ^(٥)، مـثـلـ كـلـمـةـ (ـالـتـعـزـيرـ)ـ الدـالـلـةـ عـلـىـ الـتـعـظـيمـ وـالـإـكـرـامـ، وـعـلـىـ الـضـرـبـ دـوـنـ الـحـدـ.

(١) الصناعتين، ص ص ٥٧-٥٨.

(٢) العقد الفريد، ٤/١٧٨.

(٣) يـنـظـرـ: الصناعتين، ص ٦٧.

(٤) البيان والتبيين، ١/٨٢.

(٥) يـدـ ظـرـ: الـعـسـكـريـ، الـصـنـاعـتـيـنـ، صـ ٣٣ـ.ـ وـاـبـنـ عـبـرـيـ،ـ الـعـقـدـ الـفـرـيدـ،ـ ٤/١٧٤ـ.ـ وـاـبـنـ الأـثـيـرـ،ـ الـمـثـلـ الـسـائـرـ.

.١٨٨/



وجعل المصنفون ضمن شروط اللفظ أيضاً لا يكون مبتدلاً بكثرة الاستعمال^(١). وذلك حرضاً على جمال الكتاب وجلاله، ولن يكون من ضرب مختلف عما في أيدي الناس وما يتداولونه بينهم، بشرط ألا يكون غريباً غرابة توقع في استغلاق الفهم، وإنما وجوب على الكاتب تحري ذلك في كتابته ليقدم نفسه بصورة جيدة، ويجعل لما يكتبه طابعاً مبياناً بحسن اختيار الألفاظ وانتقاء جواهرها، وإذا لم يميز الكاتب ألفاظه، ولم يتجاوز ما يستخدمه الناس في محاوراتهم وكتاباتهم كان نسخة مكررة عن غيره، وكانت كتابته فاقدة القيمة، بل وقد مر نفسه في صورة مهتزة قلقة لا تتحقق له ذكرأ ولا تصنع له قدراً.

ويجدر بالكاتب أن يتتبّع إلى أن الألفاظ تختلف باختلاف موضوعاتها، فلكل شأن معجم خاص به، ففي مواقف الحرّوب والتهديد والتخييف مثلاً يجب استخدام ما يشاكّلها من الألفاظ القوية الجزلة، أما مواقف الاستعطاف واستجلاب المودة فإن قاليها اللفظي يجب أن يكون سهلاً رقيقاً^(٢)، وهذه ناحية يجدر بالكاتب استحضارها فيما يكتب حتى لا يتسبّب في إضعاف قوة الموضوعات وشدتها بالرّقيق من الألفاظ، ولا يخشى لين بعض موضوعاته بالغليظ الكز منها.

ويُكره للّكاتب تكرار استعمال لفظ في مواضع متقاربة في كتابته، والمخرج من التكرار لا يكون إلا بامتلاك الكاتب مخزوناً لغوياً واسعاً يساعدّه على الاختيار وتجاوز اللغة المستعمل إلى مراد فاته، لأن في التكرار عيباً في الكتابة، ودليلًا على ضحالة لغة الكاتب وضيق معرفته، قال أبو هلال العسكري: "وبنغي أن يكثر الألفاظ عنده، فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعاد ما يعيده منها بغير اللفظ الذي ابتدأ به، مثل ما قال معاوية رضي الله عنه: (من لم يكن منبني عبد المطلب جواداً فهو دخيل، ومن لم يكن منبني الزبير شجاعاً فهو لزيق، ومن لم يكن من ولد المغيرة تياماً فهو سنيد)" فقال: دخيل ثم

(١) يُنظر: ابن الأثير، المثل السائر، ٨٧٧/١.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ١٧٢/١.

قال: لزيق، ثم قال: سينيد، والمعنى واحد، والكلام على ما تراه أحسن، ولو قال لزيق، ثم أعاده لسمج^(١). ويكرر العسكري تنبية الكتاب على هذا الأمر في موضع آخر، ويعد الوقوع فيه عيباً من عيوب الكلام^(٢).

وينفرد ابن سنان الخفاجي بين كل من تكلموا عن شروط اللفظ بأن جعل حبيه فيه غير مرسل بل مرتبأ في صورة شروط جعلها واجبة في اللفظ ليكون فصيحاً، واللافت في بعض شروطه عنایته بالجانب البنائي والجمالي في اللفظ، والنظر في الناحية الموسيقية لجرس حروفه، وتتلخص هذه الشروط في أن تكون الألفاظ من حروف متباude المخارج، وأن يكون لها في السمع حسن، وألا تكون متوعرة وحشية، ولا ساقطة عامية، ولا شاذة البناء أو التصريف، ولا مشتركة في معنيين أحدهما قبيح، ولا كثيرة الحروف، وأن تكون مصغرة إذا حسن التصغير في موضعها^(٣).

ويتجلى من مجموع ما أورده ابن سنان وغيره من علماء صنعة الكلام أن عملية الاختيار بين الألفاظ عملية معقدة تستلزم من الكاتب ثراء لغوياً، ودقة في الانتقاء، وقدرة على الموازنة، ومهارة في النظم، وتأملاً في السياق لمعرفة ما يحسن فيه وما لا يحسن، وأن أي تقصير أو تهاون من الكاتب في فحص الألفاظ يورث عيباً أو عيوباً في الكتابة، وربما يجعلها مستنقولة ممجوجة، مهتزة البناء، فاسدة المعنى.

وهنا يكون هذا البحث قد بلغ غايته ببساطه ما خلّفه المصنفون الأوائل في باب الكتابة والكتاب، وهو ميراث ضخم بحق، بالغ الدقة والشمول، لم يدع شأنًا يحتاجه الكاتب إلا وتعرّض له، فاقتصر في القول حيناً وبساطه أحياناً، فكان هذا البحث الوعاء الذي جمع كل ذلك بعد أن تناوله بالعرض والتحليل، وضم المؤتلف إلى بعضه، وأورد المختلف مع تعين صاحبه، ليكون هذا البحث بالصورة التي انتهى إليها وثيقة مرجعية

(١) الصناعتين، ص ١٥٨.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٣) يُنظر: سر الفصاحة، ص ص ٥٤ - ٨٢.



للكتاب، تبين السمات الواجبة فيهم، والتوجيهات التي يحسن بهم اتباعها حتى لا يقعوا في الزلل الذي ربما عذر فيه المتكلم الذي يرتجل القول ارجالاً ولم يعذر فيه الكاتب، لأن الكاتب كما يقول أبو علي مسكوني - يكتب: "مع رؤية وفکر، وزمان متسع للانتقاد والتحيز والضرب والإلحاق وإجالة الروية لإبدال الكلمة بالكلمة".^(١) وليس كذلك المتكلم.

وربما حسن أن يختتم القول هنا بقول ابن عبد ربه الذي مرّ بنا سابقاً لتأكيد أن إجلدة الكاتب إنما تكون بقدر ما لديه من السمات وما يجتمع في يده من عدة الكتابة، يقول: "إذا اجتمعت للكاتب هذه الخلال، وانتظمت فيه هذه الخصال، فهو الكاتب البليغ، والأديب النحير، وإن قصرت به آلة من هذه الآلات، وقعدت به أدلة من هذه الأدوات فهو منقوص الجمال، منكصف الحسن، مبخوس النصيب".^(٢) وفيما مر بنا سابقاً عرض وافٍ لهذه الآلات والأدوات.

* * *

(١) التوحيدى، الهوا مل وا لشواطل، تحقيق: أحمداً مين وا لسيدأحمد صقر(الـ قاهرة:لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٣٧٥هـ/١٩٥١م). ص٢٨٥. وينظر في هذا المعنى: نقد الدثار المنسوب لقديمة بن جعفر، ص٩٤.

(٢) العقد الفريد، ٤/١٦٣.

المصادر والمراجع

- الآبي، أبو سعد منصور بن الأحسين (ت ٤٢١ هـ). نشرًا لدر، تحقيق: محمد مدع لي قرنة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط. ١٩٨٣ هـ).
- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاي (ت ٦٥٨ هـ). إعتاب الكتبة، تحقيق: صالح الأشتر (دمشق: مجمع اللغة العربية، ط. ١، ١٤٣٠ هـ / ١٩٦١ هـ).
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (ت ٦٣٧ هـ) المثل لسائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت: المكتبة العصرية، د.ط. ١٤٤١ هـ / ١٩٩٠ هـ).
- الألوسي، السيد محمود شكري البغدادي، بلوغ الأربع في معرفة أحوال العرب، تحقيق: محمد بهجة الأثري (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط. د.ت.).
- التوحيدى، أبو حسان بن عيسى بن محمد بن العباس (ت ٤١٤ هـ)، ومسكويه أحـ مدـ بنـ محـ مدـ (ت ٤٢١ هـ) الهوا هل وا لشوامـلـ، تحقيق: أحـ مدـ أـ مـينـ وـ لـسـيـدـ أحـ مدـ صـفـرـ (القاهرة: لجـنةـ الـتأـلـيفـ وـالـتـرـجـمـةـ وـالـشـنـرـ، طـ ١، ١٤٣٧ هـ / ١٩٥١ هـ).
- الشعابى، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ). خاص الاخـاصـ، تحقيق: صادق النـقـوىـ (حـيـرـاـ بـادـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، طـ ١، ١٤١٥ هـ / ١٩٨٤ هـ).
- آدـابـ الملـوـكـ، تحقيق: جـلـيلـ العـطـيـةـ (بيـرـوتـ: دـارـ الغـربـ الإـسـلامـيـ، طـ ١، ١٤٩٠ هـ / ١٩٩٠ هـ).
- الجـاحـظـ، أبو عـثـمـانـ عـمـرـ وـ بـنـ بـحـرـاتـ (٥٥٥ هـ):
 - إلى يـانـ وـالـلـهـ بـيـنـ، تحقيق: عبدـالـسلامـ مـحـمدـ هـارـونـ (الـقـاهـرـةـ: مـكـتـبةـ الـخـانـجيـ، طـ ٥، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ هـ).
 - رسـائـلـ الجـاحـظـ، تحقيق: عبدـالـسلامـ مـحـمدـ هـارـونـ (بيـرـوتـ: دـارـ الجـيلـ، طـ ١، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ هـ).
- ابن جـعـفرـ، أبوـالـفـرجـ قـدـامـةـ (ت ٣٣٧ هـ). نـقـدـ النـثـرـ - (المـشـبـوبـ إـلـيـهـ) - بـتـحـيقـ عـبدـالـحـمـيدـ بـادـيـ (بيـرـوتـ: دـارـ الكـتبـ الـعـلـمـيـةـ، دـطـ. ٢، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ هـ).
- الجـهـشـيـارـيـ، أبوـالـلهـ مـحـمدـ بـنـ عـبدـالـوـسـ (ت ٣٣١ هـ) اـلـوزـراءـ وـالـكـتـابـ، تـحـيقـ مـصـطـفـىـ اـلسـقاـ (الـقـاهـرـةـ: مـطـبـعـةـ مـصـطـفـىـ الـبـابـيـ الـحـلـبـيـ، طـ ١٠٢، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٠ هـ).

- جيدة، عبد الحميد، إنشاء الكتابة عند العرب (بيروت: دار الشمال، ط.١٩٩٦م).
- حسين، طه، البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، في مقدمة كتابه قد النثر لقذامة بن جعفر، تحقيق عبد الحميد العبادي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط.٤٠٢ هـ/١٩٨٢م).
- الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علی (ت ٨٣٧ هـ) ثمرات الأوراق، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط.١٩٧١م).
- الحموي، ياقوت بن عدالله (ت ٦٢٦ هـ)، معجم الأباء (بيروت: دار الكتب العلمية، ط.١٤١١ هـ/١٩٩١م).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) المقدمة، تحقيق: علي عبد الوهاد في (القاهرة: دار نهضة مصر، ط.٣، د.ت.).
- ابن خلكان، أبوالعلاء بلين شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) وفيات الأعيان وأباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عبليس (بيروت: دار صادر، د.ط. د.ت.).
- دراج، أحمد، صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية (مكة المكرمة: مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، السنة الأولى، ١٤٤٠هـ / ذوالقعدة، العدد ٨).
- ابن رشيق، أبو علي الأحسين بن رشيق القيراني (ت ٤٥٦ هـ) العمد في صناعة الشعر وزنه، تحقيق: النبي عبد الواحد شعلان (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط.١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م).
- الزم خشري، محمد مود بن عدالله مرات ٥٣٨ هـ، ربى عيادة برار ونصوص الأخبار، تحقيق: سليم النعيم في (العراق: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ضمن سلسلة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب الثالث عشر، د.ط. د.ت.).
- الإسلامي، شافية حداد، ظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة "من لا فتح إلا في القرن الثالث الهجري" (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط.١٤٠٩م).
- ابن سنان، أبو محمد مدع بدالله بن محمد الدخاني (ت ٤٦٦ هـ)، سر الوضاح، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي (القاهرة: مطبعة ومكتبة محمد علي صبيح، د.ط. ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩م).
- الشريف المرتضى، علی بن الأحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ)، أمال المرتضى (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت. ١٩٩٨)، نسخة مصورة عن طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، هـ١٣٧٢/١٩٥٤م).

- أبوشريف، عبد القادر شريف الكتابة الوظيفية (بيروت: مكتبة الفلاح، ط. ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م).
- الشترني، أبو بكر محمد بن عبد الملك (ت ٥٤٩هـ) تبّع فيه الألّا باب ع لم فضائل الإعراب، تحقيق يق: معيض بن مساعد العوفي (جدة: دار المدى، ط. ١، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م).
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) أدب الكُتاب، تحقيق يق: محمد مدحت جة الأثرى (دار ال باز للطباعة والنشر، د. ط. د. ت.).
- ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسى (ت ٣٢٨هـ) العقد الفريد، تحقيق يق: أحمد أمين ورفا قه (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ط. د. ت.).
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت بعد ٤٠٠هـ) كتاب لصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق يق: علي محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، د. ط. ٦، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).
- القالى، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ) الأمالى (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط. ٣، ٢٠٠٠م).
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ):
- ١- أدب الكاتب، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد (بيروت: دار المعرفة، د. ط. د. ت.).
 - ٢- عيون الأخبار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط. ٢، ١٩٩٦م).
- القلا مشندي، أبوالعلاء محسن أحمـد بن عـلي (ت ٨٢١هـ) صـبح الأـعشـى (الـقـلـهـرـة: وزـارـةـ الثـقـافـةـ والإـرـشـادـ القـومـيـ، سـخـةـ مـصـوـرـةـ عـنـ الطـبـعـةـ الـأـمـيرـيـةـ، د. ط. د. ت.).
- القيروانى، أبو سحاق إبراهيم بن عـلي (ت ٤٥٢هـ) زـهـرـ الـآـدـابـ وـثـرـ الأـلـاـبـ، تـحـقـيقـ عـليـ مـدـ مـدـ الـبـجاـوىـ (الـقـلـهـرـةـ: مـطـبـعـةـ عـسـىـ الـبـابـ الـحـلـبـيـ، طـ ٢ـ، دـ. تـ).
- الـمسـعـودـيـ، أبو الـحـسـنـ عـلـيـ بنـ الـحـسـينـ (ت ٣٤٦هـ) مـرـوجـ الـلـهـبـ وـمـدـ عـدـنـ الـجـوـهـرـ، تـحـقـيقـ مـحـ مدـ مـحـىـ الدـيـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ (بيـرـوـتـ: الـمـكـتـبـةـ الـعـصـرـيـةـ، دـ. طـ. ٨ـ، ١٤٠٨ـهـ / ١٩٨٨ـمـ).
- النـجـلـىـ، أبو جـعـفرـ أـحـمـدـ بنـ مـحـمـدـ (ت ٣٣٨هـ) صـنـاعـةـ الـكـتـابـ، تـحـقـيقـ بـدرـ أـحـمـدـ ضـيـفـ (بيـرـوـتـ: دـارـ الـعـلـمـ الـعـرـبـيـةـ، طـ ١ـ، ١٤١٠ـهـ / ١٩٩٠ـمـ).

* * *